الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie



جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط موسومة بـ:

البربر في الأندلس في عهد الطوائف خلال القرن (5هـ/11م)

إعداد الطالب الباحث: عمر بوخاري

بإشراف الدكتور نصر الدين بن داود

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د عبدلي لخضر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
د بن داود نصر الدين	أستاذ محاضر أ	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
أ.د مبخوت بودواية	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
د. بوركبة محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة وهران 1	عضوا مناقشا
د. بحري أحمد	أستاذ محاضر أ	جامعة وهران 1	عضوا مناقشا
د. بلبشير عمر	أستاذ محاضر أ	جامعة معسكر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1435/1436هـ-2014/2015م



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أرواح شهداء الثورة التحريرية وفي زمرتهم والدي

وجدّتي، وأعمامي الأربع.

إلى روح والدتي التي لم تجف لفراقها المقائي دمعا

فلا زال على الخدّ يهمي.

إلى روح المؤرخ أبو القاسم سعد الله قدوة

الباحثين الجادين.

شكر وامتنان

سيعدني أن تكون كلمات الشكر والامتنان هي فاتحة هذا العمل المتواضع

أزفها

إلى الأستاذ الدكتور محمد بن معمر الذي أشرف عليه في بداية الطريق

وإلى الدكتور نصر الدين بن داود الذي تعهد هذا البحث

بالإشراف عليه وتتبعه في مراحل الإعداد والإخراج

مقدرا جهوده الشخصية ودعمه المتواصل.

ولا يفوتني أن أقدم شكري إلى الدكتور قدور وهراني

الذي كان له أكبر الأثر في شحذ همتي لإتمام هذا العمل

ولكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل إلى هؤلاء جميعا

الإشادة والتنويه ومن الله خير الجزاء.

مقدمة

شهد القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي من تاريخ الأندلس أحداثا متميزة احتلت بأبعادها وانعكاساتها مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي الوسيط، فقد انفتحت أبواب هذه المرحلة على نشوب فتنة كاسحة، أدت إلى خلخلة أوضاع المجتمع الأندلسي، وتصدع عراه. فانبعثت بذلك من رحم التقلبات أحداث سياسية مندفعة تحت وطأة الانتماءات العصبية، لتزيد الوضع سوءا فأفرزت جموع وتكتلات من مختلف العناصر المشكلة للمجتمع الأندلسي، تقودها شخصيات وأعلام انزوت بها في مناطق جغرافية ،كان قد لجأ إليها أسلافهم في مراحل مختلفة من تاريخ الأندلس فأسفرت هذه الإنزواءات على بروز خارطة سياسية، نال فيها البربر الحظ الأوفر من هذه الرقع الجغرافية. وحرصا على سلامة كياناتها فقد تشنجت منذ انزوائها في هذه المناطق يدفعها إلى ذلك ما لقيه البربر على يد الأندلسيين في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس.

ولم ينحصر وجود البربر في الناحية الجنوبية فحسب، كما تظهر العديد من الدراسات الحديثة حين تستثني بني الأفطس في بطليوس، وبني ذي النون في طليطلة من الانتماء إلى المجموعة البربرية.

وقد حاولت جاهدا أن أثبت بالوقائع التاريخية أن هاذين العنصرين كانا ضمن المجموعة البربرية، سلوكا وانتماءا، بالرغم مما أبداه حكام هذه المناطق من الاعتزاز بالنسب العربي، وما كان هذا السلوك إلاّ لالتماس هذا الشرف .

وعلى أيّة حال فقد انزوت الطائفة البربرية في ثغور الأندلس المختلفة، ضمن كيانات سياسية متباينة من حيث القوة العسكرية، والامتداد الجغرافي، كبني زيزي في غرناطة وبني الأفطس في بطليوس وبني ذي النون في طليطلة، وأخرى صغيرة ليس لها من خصائص الدولة أو الإمارة، إلا لكون من وجدوا في هذه المناطق هم من البربر، فهي بذلك أقرب إلى العشيرة منها إلى الإمارة. لذلك سهل على بني عباد من التهام هذه الإمارات في إطار مشروعهم التوسعي نحو الجنوب.

وظلت الإمارات البربرية الأخرى بين تهديدات الطائفة الأندلسية التي كان يقودها في الأغلب بنو عباد، وتهديدات النصارى في الشمال تحت قيادة ألفونسو السادس التي انتهت بالسيطرة عليها وسقوط مدينة طليطلة عام 478هـ- 1085م.

وبالرغم مما لقيه تاريخ الأندلس من اهتمام الباحثين إلا أنهم أحجموا فيما أعلم – عن تناول هذا العصر الغريب، والحافل بالمتناقضات، فهو من أصعب حقب التاريخ الأندلسي وأكثرها تعقيدا وأشدها إثارة فيما أحدثته هذه المرحلة من خوارق عادات السيرورة التاريخية.

فلذلك لم ينل البربر في هذه الدراسات وإلى اليوم – في حدود علمنا – دراسة وافية عن البربر في عهد الطوائف، اللهم إلا بعض الدراسات المنفردة عن الإمارات البربرية ،كالتي قام بها بعض الأساتذة – إحداها حول "تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي"، وهي رسالة دكتوراه تقدمت بها الأستاذة سحر عبد العزيز سالم – و"مملكة غرناطة في عهد بني زيري – مريم قاسم الطويل" والدراسة التي قام بها إسماعيل العربي حول "مملكة غرناطة" والدراسة التي قام بها محمد فراد أرزقي "القوى المغربية في الأندلس"، أو الدراسة التي قمت بها حول "الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس" وهي موضوع رسالة ماجستير. أو الدراسات التي قام بها بعض الأساتذة في الفترة التي سبقت عهد الطوائف كالدراسة التي قام بها الأستاذ محمد حقي "البربر في الأندلس"، عبد القادر بوباية "البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن 5هـ (422/92هـ)".

أما أهداف هذه الدراسة فتتمحور حول ابراز دور البربر السياسي في عهد الطوائف وأثره في أحداث القرن الخامس الهجري.

إشكالية الموضوع ودواعي الاختيار:

لا شك أنه من المحتمل بأن تكون كل إشكالية في البحث ذات صلة وثيقة بالتاريخ الشخصي للباحث وبمحيط أفكاره القوية. ففيما يتعلق بالدوافع الشخصية فقد تولدت لدي فكرة معانقة الموضوع مع نهاية مرحلة الماجستر، حيث تبين لي أنه من عدم الوفاء أن أقطع صلتي بعهد الطوائف الذي كنت قد أمضيت في مجاهله زمنا طويلا دارسا ومستكشفا وناقدا، فتكونت لدي ألفة لم أستطع التخلص منها.

أما بالنسبة للدوافع الموضوعية فتتجلى في كون موضوع البربر في عصر الطوائف لا يزال في حاجة إلى تجلية الكثير من حلقاته وجيوبه. فمن هنا كانت الحاجة ومن هنا كان الانطلاق. كما أنني لا أخفي شيئا أنني عانيت من أتعاب كثيرة خلال رحلتي في ميدان هذا البحث الذي تطلب جمع

مادته عملا مضنيا ،حيث أن أحداثه هي في الواقع عبارة عن ومضات وشذرات منبثة هنا وهناك في ثنايا المصادر والدراسات العربية والأجنبية. كما لا أخفي أيضاً أنه ما قيل لي أن مادة علمية لها صلة بالموضوع في بلد ،إلا كانت لي إليه عزمة وركاب. ومن أجل التوصل إلى هذه الأهداف انطلقت من إشكالية محورية وهي:

ما هو الدور السياسي للبربر في عهد الطوائف؟

ثم قادني البحث إلى العديد من الإشكاليات الفرعية تطلب الوقوف عندها والإجابة عليها منها:

ما هو دور العصبية في تشكيل الكيانات البربرية وتحريكها؟

وهل كان لهذه الكيانات البربرية أهدافا توسعية؟ ما هي الأسباب التي أدت إلى غياب التعايش السلمي بين البربر والمجموعة الأندلسية؟ وما طبيعة العلاقات التي تربط بينها كانتماء إثني مماثل؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى سقوط المجموعة البربرية الصغرى في ظل قيام التحالفات. وفي حقيقة الأمر فقد عدلت عن الإشكاليات المتعلقة بالجانب الحضاري بعد أن قطعت شوطا مضنيا في الإجابة عنه أثناء إقامتي بالمملكة المغربية، إلا أنني لم أهتد إلى المساهمات الاقتصادية وحتى الاجتماعية الخاصة بالبربر، والتي تميزهم عن باقي العناصر الأخرى، حيث لم تعد هناك مساهمة إثنية تمكن الباحث من أن يميز بين ما هو إسهام بربري وما هو غير بربري.

وحتى أقطع الشك باليقين، بدا لي أنه من الأهمية بمكان أن أطرق باب من اشتغلوا بهذا الموضوع، ومنهم الأستاذ محمد حقي من جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال الذي أجريت معه حوارا مطولا حول إمكانية تصنيف الجانب الحضاري الخاص بالطائفة البربرية، فخلصنا إلى أن المساهمة الحضارية في الأندلس في عهد ملوك الطوائف تحولت إلى مساهمة أندلسية يصعب تصنيفها ضمن خانات إثنية، اللهم إلا ما صدر من مساهمة علمية لبعض الشخصيات من أصول بربرية.

ومن أجل الإجابة على هذه الإشكالية وما تفرع عنها تبنيت المنهج العلمي المتبع في مثل هذه الدراسات، وهو المنهج العلمي التاريخي الذي يقوم على جمع المادة الخبرية ثم الاستعانة بالمنهج المقارن.

وكانت الطريقة المستساغة لمعالجة هذا العصر هو أن يجزأ تاريخيا بحسب الدويلات والممالك التي توزعت عليها الرقعة من مجموعات مختلفة، وفضلت أن لا أبدأ بتاريخ تأسيس هذه الكيانات ككيانات مستقلة أي منذ أيام الفتنة وإنما قبل هذا التاريخ، ذلك أن الانقسام الذي لحق بالأندلس لم يبدأ في الحقيقة بهذا التاريخ، وإنما كانت له جذوره الممتدة قبل عصر الطوائف.

وتماشيا مع هذه الطريقة في معالجة الموضوع اعتمدت خطة تتشكل من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وملاحق.

أما المقدمة: فقد عالجت فيها العناصر المطلوبة أبرزت فيها توطئة لموضوع البحث، وما كان للطائفة البربرية من دور بارز في العلاقات مع بقية دول الطوائف الأخرى، ثم عرضت أسباب اختياري للموضوع، والإشكاليات التي انطلقت منها في معالجة الموضوع، ثم عرضت فيها المنهج المتبع، كما تعرضت إلى نقد المصادر المعتمدة في موضوع الرسالة.

أما الفصل الأول: فقد تعرضت فيه إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية في الأندلس، وقد بينت فيه أصول هذه العناصر، وأماكن تواجدها وعلاقتها بالسلطة الحاكمة ثم بينت أوضاع هذه المجموعات الاجتماعية والسياسية، وظروف جواز الفئات المتأخرة منها وخاصة العناصر البربرية كما تعرضت بالتفصيل إلى المساهمات العلمية وخاصة فئة اليهود ومكانتهم لدى الخلفاء، في أواخر القرن الرابع.

كما تعرضت في هذا الفصل إلى البربر في جيش الخلافة، وخاصة الحكم المستنصر الذي عمد إلى تقريب هذه الفئة، بعد أن ظهرت علامات العجز في الجيش الأندلسي، وبيّنت أوضاع البربر في جيش المنصور بن أبي عامر الذي فتح الباب على مصراعيه لهذه العناصر، وكيف أوصلهم إلى أعلى مناصب الدولة، وقضى بذلك على الأرستقراطية العربية، كما خصصت مبحثا بينت فيه أحداث الفتنة القرطبية ،وحاولت أن أستعرض باختصار إلى ظروف قيامها وما هي الأطراف المسببة في ذلك، وأوضحت نتائج وانعكاسات الفتنة على المجتمع الأندلسي.

أما الفصل الثاني: فقد تعرضت فيه إلى قيام دويلات البربر في جنوب الأندلس وفي مقدمتها دولة بني حمود الأدارسة، فقد تعرضت إلى أصول هذه الأسرة التي نزحت إلى المغرب بعد موقعةٍ فخ

– وكيف استطاع إدريس الأول أن يؤسس دولته بمدينة فاس، كما تتبعت مآثر هذه الأسرة في الأندلس حين استطاع هؤلاء الوصول إلى سدة الحكم في قرطبة بقيادة علي بن حمود، ثم تعرضت إلى تحول هؤلاء الأدارسة إلى مالقة ،أين أحيوا خلافتهم في تكوين إمارتهم، ودورهم في قيادة الحلف البربري في مواجهته للأندلسيين.

كما تعرضت في نفس هذا الفصل إلى الإمارات البربرية الصغرى من بني برزال في قرمونة وبني يفرن في رندة، وبني دمر في مورور، وبني خزرون في أركش، وقد فصلت في هذه الإمارات فتعرضت إلى أصولهم ودورهم السياسي في بلاد المغرب، ودورهم في الفتنة القرطبية، وما أبلوه من بلاء حسن في ترجيح كفة النصر لصالح سليمان المستعين، ثم تعرضت إلى ظروف تكوين إمارتهم في منطقة الجنوب، ثم استعرضت علاقتهم مع بني عباد الذين دخلوا معهم في مواجهات عنيفة انتهت بزوالهم.

أما الفصل الثالث: فقد خصصته لدور بني زيري في غرناطة وما كان لهم من دور سياسي وعسكري في علاقتهم مع باقي ملوك الطوائف وخاصة بني عباد، الذين تبنوا مشروعا توسعيا على حساب الدويلات البربرية ،وقد تعرضت في هذا الفصل إلى بني زيري في بلاد المغرب ودورهم في الصراع الفاطمي الأموي، وظروف جوازهم نحو الأندلس، ودورهم في الفتنة بقيادة زاوي بن زيري الذي قام بدور هام في تأسيس إمارة بني زيري ،ثم الأدوار التي مرت بها هذه الإمارة في مختلف المراحل من عهد الطوائف وقد توقفت ماليا عند عهد حبوس بن ماكسن، وما كان لهذا الأمير من دور أساسي في تجميع البربر والوقوف ضد المجموعة الأندلسية التي كانت تهدد الإمارات الضعيفة ثم عهد باديس ودور اليهود في إدارة شؤون القصر، وكيف أدارت هذه الأسرة اليهودية شؤون الإمارة في غير صالح الرعية التي انقلبت على هذه الأسرة.

الفصل الرابع: فقد تعرضت في هذا الفصل إلى مملكة بني الأفطس في بطليوس – وأبرزت فيه ظهور هذه الأسرة البربرية على مسرح الأحداث مع بداية عصر الطوائف – ثم تعرضت بشيئ من التفصيل إلى مختلف المراحل التي مرت بها هذه الإمارة – من أول المصادمات مع بني عباد.

ثم وقفت مليا عند مرحلة المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة على اعتبار أن إمارة بطليوس عرفت أعلى مراحلها السياسية، والحضارية في عهد هذه الشخصية ،كما تعرضت إلى مناقبه

العسكرية والسياسية، والثقافية، كما عالجت إنجازه العلمي الكبير وهو كتابه "المظفري"، الذي نال به شهرة واسعة، إلى جانب حروبه مع القشتاليين ونزولهم بمدينة قلمارية، كما عالجت الإمارة في عهد عمر المتوكل، الذي سار على نهج أبيه في إدارة شؤون الإمارة، وبيّنت تهديدات ألفونسو السادس للإمارة، ومحاولة عمر المتوكل إنقاذ بلاده حين انضم إلى نداء الاستغاثة بالمرابطين ثم خلصت إلى النهاية المحزنة لمملكة بطليوس على يد اللّمتونيين.

وفي الفصل نفسه أدرجت إمارة طليطلة، حيث تعرضت إلى أصول الأسرة البربرية الحاكمة، وظروف تكوين إمارتهم وانزوائهم في هذه الجهات، وما كان لهم من دور سياسي وعسكري في ترسيخ حكمهم، كما أنني وقفت عند الكثير من المحطات التاريخية لهذه الإمارة خاصة في عهدي إسماعيل والمأمون – ثم انتهيت إلى العهد الأخير من هذه الإمارة وهو عهد القادر الذي عرفت فيه إمارة بطليوس أسوء أيامها، حين ارتمى في أحضان ألفونسو السادس، وتنازل له عن الإمارة.

دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث.

تطلب موضوع الدراسة الموسوم بـ "البربر في الأندلس في عهد الطوائف خلال القرنين الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي" الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع التي ضمت في ثناياها، أحداثا متنوعة حول هذه الفترة الحرجة من عهد الطوائف، فمن الأهمية بمكان أن أستعرض محللا وناقدا للبعض من هذه المصادر التي أفادتني في بحثي، وحتى أقف على مسافة واحدة من هذه المصادر، أجدني مجبرا على ذكر المصادر التي لازمتني طوال المسيرة، وتكشفت بواسطتها معالم هذا البحث من حيث الوقائع، والزمان، والمكان. لذلك فقد اشتملت هذه المصادر على كتب التاريخ وكتب التراجم، والطبقات والجغرافية واللغة، والأدب، وفي مقدمتها.

أ- كتب التاريخ:

ابن حيان القرطبي وهو أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان بن محمد بن حيّان ابن وهب بن حيّان شيخ مؤرخي الإسلام في الأندلس بلا نزاع[1]. ولد بقرطبة سنة 377هـ 988م وتوفي بها يوم الأحد 28 ربيع الأول سنة 469 هـ / 30 أكتوبر سنة 1076.

[1]- أنخيل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية 1428هـ/2006م، ص: 245.

فهو بذلك يعد في طليعة كوكبة المؤرخين الذين اضطلعوا بهذه المهمة، من حيث البيان وبراعة الأسلوب، والمجاهرة في الرأي والتحليل للأحداث وصدق الإيراد.[1]

لقد انبرى ابن حيّان بما أوتي من أدوات الرصد ومتابعة الأحداث، بطريقة عجيبة مكنته من التأريخ لبلده وحضارتها وسير ملوكها، ورجالاتها ،بحيث غطى هذا التاريخ من الفتح الإسلامي وحتى قبيل وفاته سنة 469 هـ 1076م وذلك بما صنفه من تآليف دلت على عبقريته ونبوغه، وتضلعه في هذا الميدان، وقد أكد هذا العلامة ابن خلدون في مستهل حديثه عن فنون التاريخ، وحديثة عن المؤرخين الأوائل، كابن إسحاق والطبري والواقدي، والمسعودي ومما جاء في كلامه: "وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد، فقيد شوار عصره، واستوعب أخبار أفقه وقطره واقتصر على أحاديث دولته ومصره، كما فعل ابن حيّان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها".[2].

ولعل ابن حيّان قد ورث هذه الصفات عن والده، فقد كان دقيقا في رواياته أمينا في كتاباته ونظرا للمكانة التي كانت لوالده فقد تهيأت له الظروف ليتعرف على رجال الدولة ويلاحظ أدق التفاصيل التي تمر بها البلاد.[3]

أما منهج ابن حيان في الكتابة التاريخية، فيمكن القول أنه انفرد بمنهج تاريخي ميزته عن غيره من المؤرخين فقد تميزت كتاباته التاريخية بالدقة البالغة والضبط المتناهي في تحديد التواريخ بالأيام وبالتقويمين الهجري والميلادي أحيانا ،والمفاضلة بينها على أساس منطقي مع تخليصها من الأساطير

[1]- الضبي بن عميرة، بغية الملتمس، في تاريخ رجال الأندلس تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية: 1426هـ/2005م ص: 253

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاذة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000 م، ج1، ص: 1.

[3]- سحر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، ج1 ص: 29.

والخرفات ومع التفصيل الواسع الذي لا يترك شيئا ذا قيمة، كل ذلك مع الصدق والحياد والنزاهة والتمرد للبحث عن الحقيقة وإظهارها ناصعة غير باهتة[1].

وعلى الرغم من هذا الالتزام إلا أنه لم يستطع أن يخفي نزعته الأموية وكراهيته الكبيرة للعناصر المغربية التي كان يرى فيها أنها كانت وراء النكبات التي شهدتها الأندلس في أواخر عهد الخلافة الأموية.[2]

لقد كتب ابن حيان مؤلفات كثيرة زادت عن الخمسين، ضاع معظمها ولم يبق منها إلا أجزاء يسيرة نذكر منها:

أ- المقتبس في أخبار بلد الأندلس:

يتناول فيه تاريخ الأندلس من الفتح العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري حتى قبيل عصر ابن حيان، لذلك اضطر إلى الاقتباس من كتب المؤرخين الذين سبقوه وخصوصا عيسى الرازي ولهذا سماه ابن حيان المقتبس[3]، ويعد هذا الكتاب من أشمل المصادر لدراسة أعلام الكتابة التاريخية في الأندلس إبان عصري الإمارة والخلافة الأموية، وذلك بما يوفره من مادة علمية عن هؤلاء المؤرخين من خلال النصوص التي اقتبسها ابن حيان وضمنها كتابه المقتبس، ومما زاد في قيمة كتاب المقتبس أن معظم من نقل عنهم ابن حيان ضاعت كتابتهم، ومن هنا فقد أصبحت كتابات ابن حيان تكتسي أهمية بالغة لكونه حفظ لنا بعض المضامين الهامة في تاريخ الإمارة والخلافة وهي الأحداث التي لا يمكن لدارس عهد الطوائف إلا بالعودة إليها ليجلي، بعض تفاصيل عصر الطوائف التي يتميز بكثير من التعقيد.

---

[1]- عبد الله محمد جمال الدين، من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي الكبير أبي مروان ابن حيان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1997 ص: 13.

[2]- بوبابة عبد القادر ، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري 92-422 هـ /711-1031 م دار الكتب العلمية 2011 ص: 16.

[3]- احمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس دار النهضة العربية، بيروت ص: 320.

ب- المتين:

يبدأ ابن حيان في كتابه المتين بأحداث الفتنة البربرية التي بدأت بالأندلس سنة 399 هـ 1008. وتنتهي سنة 463 لأن هذا التاريخ هو الذي تتوقف عنده الأحداث، يقول ابن بسام عن المتين "فقد كانت أخبار بني جهور وخروج ابن ذي النون ملك طليطلة من قرطبة هي آخر ما نقل صاحب الذخيرة عن هذا الكتاب".[1]

وكتاب المتين كما أشرنا لم يبق منه إلا نتف مبثوثة في ثنايا الكتب، ومن المصادر التي حفظت لنا نصوص من هذا الكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام" — وابن بشكوال في الصلة وابن الآبار في التكملة، والحلة السيراء، وإعتاب الكتاب، والقاضي عياض في (ترتيب المدارك) وابن سعيد في (المغرب) وابن عذاري في (البيان المغرب) وابن الخطيب في (أعمال الأعلام) (والإحاطة) والمقري في (نفح الطيب)...

وإلى جانب هذين الكتابين هناك كتب كثيرة زادت عن الخمسين كما أسلفنا الذكر، منها كتاب أخبار الدولة العامرية، لم يرد اسم هذا الكتاب كاملا إلا في كتاب (أعمال الإعلام، لابن الخطيب وهو (أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة[2]. ويتناول ابن حيان تاريخ الدولة العامرية منذ تولي هشام المؤيد الخلافة حتى ثورة المهدي ومصرع عبد الرحمان شنجول بن المنصور أي ما بين سنة 366 هـ أ إلى 399 هـ (976 – 1008. ويضاف إلى مجموع كتب ابن حيان المذكورة منها والضائعة. كتاب (البطشة الكبرى) ظهر اسم هذا الكتاب عند كل من ابن بسام وابن الخطيب، وموضوعه كما يدل عليه عنوانه غدر المعتمد بن عباد واستلاؤه على قرطبة وبطشه ببني جهور حكامها.

وعليه فإن ما أورد ابن حيان من كلام عن البربر ومواقفهم، ودورهم في الفتنة وما كان لهم من حضور في عهد الطوائف، كعصبيات وإثنيات، فقد أفادنا في جميع مراحل البحث إلى معالجة المدة التي سبقت الفتنة القرطبية إلى آخر عهد الطوائف. يقول محقق كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس

[1]- عبد الله محمد جمال الدين، المرجع السابق، ص: 9

[2]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفسال، ص: 47.

في آخر كلامه عن ترجمة المؤلف: "ونرى لو قدر لكتابيه: المقتبس والمتين اللذين صنفهما في تاريخ الأندلس أن يبقيا إلى الآن لاتضح لدارسي التاريخ المعاصرين الكثير من غوامض الأمور، التي قصر غير ابن حيان عن أبرزها والكشف عن خباياها.[1]

كتاب: التبيان عن الحادثة الكائنة لدولة بني زيري في غرناطة:

لمؤلفه الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكس بن زيري بن مناد، آخر ملوك دولة بني زيري بغرناطة، المخلوع من قبل المرابطين عام 483 هـ - 1092م.[2]

تعد هذه المذكرات من أهم ما كتب في أواخر عهد الطوائف، ليس لكونها تعالج فترة من عهد الطوائف فحسب، بل لكون صاحبها قد عايش فترة زمنية مهمة، هذا فضلا عن كونه أمير شارك إلى جانب مهم في صناعة هذه الأحداث، وقد كتبت هذه المذكرات في الفترة التي يعيش فيها الأمير الزيري في منفاه بمدينة أغمات جنوب مدينة مراكش بعد أن خلعه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين عن ملكه.

وعن منهج الكتابة الذي اعتمده صاحبه، فهو انطلق في كتابة مذكراته بغرض تبيين الحقائق عن هذه الدولة وهو القائل: "إنما وضعنا الكتاب لمن أشكل عليه الأمر من أهل الفضل والحق والمحبين لله فينا، الوادين الخير لنا ولا يزيد البغاة إلا طغيانا وتعنيتا".[3]

لقد عمد إلى ضبط وتقييد ما يقبله العقل، لا بتخليط الناس، ولعل ذلك كان سببا في الإقبال الشديد للمؤرخين، وقاده تحكيم العقل إلى الالتزام بالموضوعية في كل ما يرد إليه من أخبار وعدم قبوله تخليط الناس، وقبول العقل للحادثة المروية قد عصمه من المبالغة أو الشطط سواء فيما عاينه أو فيما وصل إليه من أخبار.

ثم أن الموقع الطيب الذي تحظى به مذكرات الأمير في نفوس الباحثين هو الالتزام بالموضوع الرئيسي وتحاشى الجنوح إلى دروب أخرى.

[1]- ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية، بيروت، 1426-2006 ص: 11.

[2]- عبد الله بن بلقين، كتاب التبيان، تحقيق أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ الرباط 1995 ص: 38.

[3]- عبد الله بن بلقين، نفسه، ص: 38.

وعليه فإنني لا أكون مبالغا إذا قلت أنني لازمت الكتاب في الإحراز على التفاصيل ودقائق الأحداث، فيما يتعلق بدولة بني زيري في الأندلس، باعتبار أن الأمير عبد الله الزيري واحد من أفراد الأسرة الزيرية الحاكمة في هذا الخط الجنوبي من الأندلس، ولقد أفاد البحث في الأحداث التي كانت تجري داخل قصور بني زيري، وكان لها انعكاسات خطيرة على إدارة شؤون الدولة، وخاصة تلك الأحداث التي كان لها علاقة بيوسف بن النغريلة، ودور اليهود بصفة عامة في دولة بني زيري.

كما كان لمذكرات الأمير فضل على هذا البحث في معرفة علاقة بني زيري مع غيرها من ملوك الطوائف وخاصة علاقتها السياسية مع بني عباد، ومع الإمارات البربرية الأخرى كبني حمود في مالقة وبني برزال في قرمونة وبني يقرن في رندة.

بالإضافة إلى تزويدنا بمعلومات هامة عن تدخل الفونسو السادس في الممالك الإسلامية المجاورة وقد أورد عبد الله بن بلقين جانبا منها، ومما يجلي هذه الأحداث عنده هو ذكر الأهداف البعيدة والمرامي التي كان يطمح إليها ألفونسو. ولقد استفدت كذلك من الفترة الأخيرة لعهد ملوك الطوائف عندما أدرك هؤلاء أنهم مهددون وأن شوكتهم قد انكسرت، حيث يوضح عبد الله الزيري اجتماع كلمة الأمراء، والاستعانة بالمرابطين.

وعلى أية حال فإن كتابات الأمير عبد الله الزيري قد تميزت بالصدق والصراحة، فهو لم يتحرج في ذكر بعض الأحداث السياسية التي ظهرت فيها، متخاذلا وخصوصا أمام ألفونسو السادس.

– **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** لمؤلفه أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني نسبة إلى شنترين[1] Santaren.

كتاب الذخيرة هو عبارة عن موسوعة أدبية تاريخية تضمنت تراث القرن الخامس الهجري وهي مرحلة تميزت بنبوغ علمي واسع يجمع بين عصري الخلافة والطوائف، ولكون ابن بسام أديبا

[1]– شنترين: مركبة من كلمتين شنت وتعني البلدة، أو الجهة ورين مدينة متصلة الأعمال منها باجة في غرب الأندلس وعلى نهر تاجة قريب من مصبه في البحر المحيط وهي حصينة. ياقوت الحموي، معجم الأندلس والمغرب، تحقيق محمد حقي، مطبعة عين أسردون بني ملال، 2011، ص: 91.

وليس مؤرخا بالمفهوم العلمي للكلمة، فقد اعتمد في الرواية التاريخية على كتابات المؤرخ الكبير ابن حيان وخاصة كتابه المتين، وحفظ لنا بذلك مرحلة هامة من تاريخ القرن الخامس الهجري الذي عظمته كتب ابن حيان المعاصر لهذه الأحداث.

-وكتاب الذخيرة ينقسم إلى أربعة أقسام حسب الأقاليم الجغرافية للأندلس في كل قسم يتحدث فيه عن تاريخ هذا الإقليم وعن ملوكه وأمرائه وشعرائه.

-فالقسم الأول: خصصه لحاضرة قرطبة باعتبارها عاصمة الخلافة الأموية ومأوا لعديد من العلماء والأدباء في مختلف العهود.

-القسم الثاني: تناول فيه إشبيلية، ومنطقة غرب الأندلس، نظرا لزخم الأحداث التي كانت تدور رحاها في المنطقة.

-القسم الثالث: وفيه تعرض إلى بلنسية وشرق الأندلس.

-القسم الرابع: وقد خصصه للغرباء الذين وفدوا على الأندلس من المشرق أو من المغرب.

وبهذا يكتسي كتاب الذخيرة أهمية بالغة، لفترة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي مما جعلني اعتمد عليه اعتمادا خاصا، وذلك في مختلف فصول رسالتي بدءا من الأوضاع التي سبقت فترة عهد الطوائف أي من المرحلة العامرية، والفتنة القرطبية إلى آخر إلى ما يقرب من منتصف القرن الخامس، ومما جعلني ملازما لمضامينه، هي تلك النقول التي يوردها عن الشخصيات الفاعلة بطريقة عجيبة، فهو لا ينظر من الزاوية القاتمة إلى الأعلام، فهو يتناولهم بسيئاتهم وحسناتهم، ولا يفتأ يسهب في ذكر أشعارهم وأقوالهم، فيذكر إسهاماتهم الأدبية والشعرية، فهو يحاول بذلك أن يجلي للقارئ جميع الخصائص التي تتحلى بها هذه الشخصية أو تلك.

ومن هذا المنطلق فقد أفادني المصدر في معرفتة سياسة المنصور في اصطناع البربر، وما تعلق بالفتنة القرطبية من خلال ما ساقه من نصوص عن كتاب المتين لابن حيان القرطبي.

ففيما يتعلق بدويلات الطوائف البربرية، فقد أورد ابن بسام فصولا هامة في جميع مراحلها وخاصة في مرحلة العلاقات مع نصارى الشمال، وقد ارتكزت في هذه المرحلة بالذات على كتاب

الذخيرة، خاصة موضوع رسالتي ، فقد حاولت أن أقف مليا على هذه العلاقة حتى أفند تلك الأخطاء والانزلاقات التي وقع فيها أمراء الطوائف.

ومن الأهمية بمكان أن أذكر ما توصلت إلى معرفته من خلال الاعتماد على كتاب الذخيرة – فيما يتعلق بالأصول العرقية لأمراء البربر والعلاقات السياسية القائمة بين الإمارات البربرية، والطائفة الأندلسية وما حدث بينهم من نزاعات وحروب.

ولا أخفي أنني ما اقتنعت بدور العصبية في تحريك العلاقات بين دول الطوائف إلا بعد أن جبت دروب ومسالك هذا الكتاب، عندها أيقنت بما لا يترك في نفسي أدنى ريب في أن عامل العصب كان وراء المصادمات التي كانت تجمع بين جنسين مختلفين كتحالف المعتضد بن عباد مع محمد بن عبد الله البرزالي.

وخلاصة القول أن كتاب الذخيرة يعد معلمة تاريخية نادرة، استطاع صاحبها أن ينسج نسجا منفردا، حين جمع بين الأدب، والتاريخ، وأحرز بذلك قصب السبق في هذا المضمار، ليس هذا فحسب، بل بما أضافه من اقتباسات من كتاب المتين، وكأنه كان على علم بأن صروف الدهر ستأتي على المؤلف السامي.

–**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لمؤلفه ابن عذاري المراكشي، وهو أبو العباس أحمد بن محمد (كان بقيد الحياة 712 هـ 1312م) وهو مؤرخ مغربي كان بقيد الحياة على عهد الدولة الموحدية، يعد كتابه من أهم مصادر تاريخ الغرب الإسلامي على الإطلاق لما يتضمنه من معلومات ذات قيمة تاريخية معاصرة لأحداث لم يبق لها أثر إلا متونا إستقاها المؤلف من بطونها مثل كتاب الرقيق القيرواني والوراق، وابن حيان، وكتاب العبر لابن أبي الفياض، يقول الأستاذ عبد الواحد دنون طه: "على الرغم من تأخر زمن تأليف هذا الكتاب لكنه يحتوي أخبارا كثيرة، وروايات نادرة تجعله يرقى إلى مستوى الأصول الأولية التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة تاريخ شمال إفريقيا والأندلس (الغرب الإسلامي) نظرا لاعتماده على الموارد القديمة المعاصرة أو القريبة للأحداث التاريخية

التي يتناولها، ومما يزيد في قيمة هذه النصوص أن أصولها فقدت ولم يعد بإمكان الباحثين مراجعتها إلا من خلال هذا الكتاب"[1].

وكتاب البيان المغرب يتناول تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح حتى بداية عصر بني مرين فهو أقرب ما يكون إلى التكامل على الرغم من تأخره النسبي ويعتبر من المصادر المهمة في دراسة هذه الفترة، ومن أكثرها جدارة بالثقة[2]

ويحتوي الكتاب على خمسة أجزاء:

-الجزء الأول: يتناول فيه تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع الهجري.

-الجزء الثاني: ويتناول فيه المرحلة من تاريخ الأندلس من الفتح إلى القرن الرابع الهجري.

– الجزء الثالث:، ويطرق فيه جانبا من تاريخ الأندلس من نهاية القرن الرابع الهجري حجابة المظفر عبد الملك بن أبي عامر إلى آخر ملوك الطوائف)

– الجزء الرابع: اقتصر فيه المؤلف على ذكر أيام المرابطين.

– الجزء الخامس: ويتناول فيه عصر الموحدين ويتوقف عند بداية عهد دولة بني مرين.

ونظرا للأهمية التي يكتسيها هذا المؤلف، للفترة موضوع الرسالة فإني اعتمدت عليه اعتمادا كبيرا وخاصة في الفتنة القرطبية، التي تحدث فيها بقصد وافر، بالإضافة إلى ما تعرض إليه من دويلات البربر الصغرى، التي قل ذكرها في العديد من المصادر، ولا أكون مبالغا إذا قلت أن ابن عذاري هو المؤرخ الوحيد الذي عالج موضوع هذه الإمارات بشكل شبه مفصل، وما وجد عن هذه الإمارات في المصادر الأخرى فهي عبارة عن نتف قليلة لا تكفي لبناء موضوع متكامل حول هذه الدويلات.

وللإشارة فإن لابن عذاري كتابا آخر أسماه (البيان المشرق في أخبار المشرق إلا أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، ولم يظهر هذا الكتاب إلا من خلال الإحالات التي أشار فيها إلى كتابه عندما

---

[1]– عبد الله ذنون طه، مصادر في تاريخ المغرب والأندلس، دار المدار الإسلامي الجماهرية الليبية، 2011، ص: 145

[2]– رضا هادي عباس، الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983 ص: 62.

يتحدث عن الدولة الأموية، والعباسية، والفاطميين في مصر، وقد أكد هذا البلد ضمن المشرق فذكر أخبار أمرائها هناك فعلى سبيل المثال لم يفصل في الحديث عن العزيز بالله الفاطمي نزاز بن المعز (365-386 هـ (975-996م) في أخبار سنة 365 هـ /975م بل أحال القارئ إلى كتابه عن المشرق بالقول :"وقد ذكر بعض أخباره في أمراء مصر في أخبار المشرق"[1]

– **مفاخر البربر لمؤلفه أبو علي صالح الإيلاني** – ظل هذا الكتاب مجهول المؤلف إلى أن اهتدى الأستاذ عبد القادر بوباية إلى صاحبه .كان هذا المؤلف بقيد الحياة 712 هـ - 1312 م يعد هذا الكتاب وثيقة تاريخية هامة، للمجموعة البربرية التي ظلت مزدراة من كثير الشعوب التي جاورتها أو احتكت بها. فأراد أبو علي صالح الإيلاني أن يبرز فيه أنساب البربر ومآثرهم ومفاخرهم وقد أعطى المؤلف مبرر الكتابة في هذا الموضوع من خلال ما أورده في مقدمة كتابه حيث قال: "إنه لما كانت البربر عند كثير من جملة الناس أخس الأمم وأجهلها وأعراها من الفضائل، وأبعدها عن المكارم، رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام ورؤساءهم وثوارهم وأنسابهم وبعض أعلامهم وتواريخ أزمانهم". [2]

لقد اتبع الكاتب منهجا خاصا في الكتابة التاريخية فهو قد جمع بين – الترجمة لأعلام البربر والتاريخ لأيامهم بالمغرب والأندلس، وترجمة لاثنين وسبعين علما من أصول بربرية.

كما تحدث عن الثوار من البربر في بلاد العدوة ثم انتقالهم إلى الأندلس وعن دورهم في الفتنة القرطبية، وانزوائهم في المنطقة الجنوبية بالأندلس، وعن الصراع الفاطمي الأموي في بلاد المغرب، وما كان للبربر من أدوار هامة في هذا الصراع ،تحدث فيه بإسهاب عن دور صنهاجة البربر ومعاضدتهم للفاطميين، وما كان لهم من حروب ضد زناتة الموالين للأمويين.

---

[1]– عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص: 147

[2]– قام الأستاذ عبد القادر بتحقيق كتاب "مفاخر البربر" لمؤلف مجهول في إطار تحضير رسالة ماجستر نوقشت بجامعة وهران. وطبع الكتاب في نسخته الأولى تحت اسم مجهول عن دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، ط 2005، فلما اهتدى الأستاذ إلى اسم مؤلفه أعيد نشر الكتاب بنسبته إلى مؤلفه، أبو علي صالح الإيلاني عن نفس دار الطبع بالإضافة إلى طبعة أخرى عن مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث 2013، طبعة وزارة الثقافة.

لقد مكنني هذا المصدر من فك العديد من الإشكاليات التي واجهتني خصوصا فيما يتعلق بنسب البربر، والحروب التي دارت رحاها في بلاد المغرب بين البربر أنفسهم، إذ أن الصراع الحقيقي كان بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في بلاد المغرب.

-كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام لمؤلفه محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب المتوفي بمدينة فاس سنة 776 هـ - 1374م.

تكمن أهمية مؤلفات ابن خطيب في كونه رجل دولة مكنته وظيفته من الاطلاع على الوثائق التاريخية والرسائل الديوانية التي كانت لا تزال في أدراج قصور بني الأحمر، امتلك ابن الخطيب موهبة عالية في اللغة والأدب، فقد كان يستخدم أرفع الأساليب الشعرية والنثرية في عرضه للنص التاريخي فهو يعد موسوعة علمية نادرة ويكاد يكون مؤرخا فريدا في وقت عزّ فيه التاريخ[1] إن لسان الدين يعتبر فلتة من العبقرية، وشعاعا من الفكر، وشهابا مضيئا في سماء الأندلس في وقت عم فيه الظلام[2].

ألف ابن الخطيب كتابه هذا بمناسبة بيعة سلطان مريني لم يبلغ الحلم إلا أنه لم يقتصر على هذه الفئة وتعداها إلى ذكر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب ورتبه على ثلاثة أجزاء.[3]

-القسم الأول: ويتناول فيه تاريخ المشرق الإسلامي من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عصر دولة المماليك بمصر.

-القسم الثاني: ويتعرض فيه إلى تاريخ الأندلس من الفتح إلى عصر المؤلف.

-القسم الثالث: ويعرض فيه تاريخ بلاد المغرب إلى بداية عصر الموحدين.

اعتمدت عليه في جميع مراحل البحث باعتبار أن المادة التاريخية التي أوردها ابن الخطيب قد ساعدتني في الحكم على طبيعة العلاقات السياسية بين الأندلسيين والبربر في عصر الطوائف، كما

---

[1]- محمد المنوني، المرجع السابق، ج1، ص: 99.

[2]- عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص: 14.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، دار الغرب الإسلامي، 1424، ص: 246.

ساعدني على استنباط ما كان للعصبية من دور فعال في تقرير العلاقات السياسية بين البربر وغيرهم من عناصر المجتمع الأندلسي.

– الإحاطة في أخبار غرناطة لمؤلفه لسان الدين بن الخطيب:

يعد كتاب الإحاطة أشهر وأضخم مؤلفات ابن الخطيب، إستهل المؤلف بعد التقديم سبب تأليف الكتاب أسوة ببعض من صنفوا لأوطانهم ،مثل ما فعل محمد بن أحمد الفخار صاحب تاريخ البخاري، والخطيب البغدادي مؤلف كتاب "تاريخ بغداد" وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق. لذلك أقدم ابن الخطيب على تأليف هذا المصنف لتخليد تاريخ بلده الذي طالما تغنى به في أشعاره وخواطره.

وعنوان الكتاب يدل على ما كان يرويه ابن الخطيب من تقديم صورة مكتملة عن مدينة غرناطة، فأعطى وصفا لوهادها وتلالها ومروجها، وترجم ثلاث وتسعين وأربعمائة شخصية أندلسية ممن حكموا غرناطة، أو ممن وفد عليها من المغرب أو المشرق من الملوك وأمراء وأعيان وولاة ووزراء وقضاة وعلماء وزهاد.

وذيّل الكتاب بترجمة ذاتية أورد فيها نسبه ومولده ونشأته، وتقلده الوزارة لأبي الحجاج يوسف النصري، ثم لوالده الغني بالله ونكبته مع هذا الأخير، وهجرته إلى المغرب ثم عودته إلى غرناطة سنة 763 هـ – 1361م وشيوخه ومؤلفاته وبعضا من أشعاره.[1]

وكتاب الإحاطة ينقسم إلى قسمين:

–القسم الأول: يتناول فيه حضارة غرناطة، فقدم لنا وصفا جغرافيا دقيقا لهذه المدينة.

وذكر قراها التي تربوا عن ثلاثمائة قرية وأورد سير أهل غرناطة وأخلاقهم وأحوالهم وأنسابهم.

–القسم الثاني: فقد خصصه لترجمة مجموعة ضخمة من الناهبين من غرناطة ومن الوافدين عليها.

---

[1]– ابن الخطيب لابن الدين الإحالة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف الطويل دار الكتب العلمية بيروت، ط 1 1424/ 2003، ص: 3– 4.

وهذا وقد أفاد البحث في جميع فصوله باعتبار بني زيري أحد الأطراف الأساسية في معادلة الصراع بين البربر في الإمارات الصغيرة وسائر الإمارات في جنوب الأندلس وعلى رأسها إمارة بني عباد في إشبيلية.

- **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**: لمؤلفه العلامة ابن خلدون، وهو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي المتوفي عام 808 هـ / 1406م.

يعد ابن خلدون عبد الرحمان نسابة البربر الذي لا يشق له غبار في هذا الميدان وإن كان قد اعتمد على من سبقه في هذا الميدان كابن حزم الأندلسي والبكري، والرقيق، وابن رشيق، والمسعودي وغيرهم. عندما يتعلق الأمر بالقبائل البربرية التي نزحت نحو الأندلس في القرن الرابع الهجري، كبني برزال، وبني يفرن، وبني دمر، وبني خزرون، وغيرهم وما كان لهم من دور سياسي وعسكري إبان الفتنة وبعدها.

اشتهر ابن خلدون بمصنفه الموسوم بـ "ديوان العبر" وهو ينقسم حسب المواضيع التي تناولها إلى أربعة أقسام:

-القسم الأول: وهو المقدمة التي كتبها بقلعة بني سلامة وعالج فيها الظاهرة الاجتماعية بجميع جوانبها وأبعادها.

-القسم الثاني: تناول فيه أخبار العرب وأصولهم وأجيالهم ومن عاصرهم من الأمم والشعوب.

-القسم الثالث: وخصصه لتاريخ البربر وأجيالهم، وما كان لهم ببلاد المغرب.

-القسم الرابع: وعنوانه التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا.

ومن خلال هذا المصدر تعرفت على المجموعات الوافدة من البربر على الأندلس والظروف التي أحاطت بذلك الجواز، كما أفادني في التعرف على الأصول العرقية لبعض القبائل البربرية، كما أنني اعتمدت عليه في الصراع القائم بين بني عباد وبني برزال وسائر الدويلات البربرية بجنوب الأندلس.

-كتب التراجم والأنساب:

إلى جانب المصادر التاريخية اعتمدت على كتب التراجم والطبقات التي استطعت بفضلها أن أصل إلى بعض الخصوصيات التي تتغاضى عنها كتب التاريخ العام في حياة الأمراء والملوك والحجاب وما إلى ذلك ممن كان لهم قصب السبق في إدارة شؤون البلاد.

- **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي المتوفى ببغداد عام 488 هـ/1095م، وهو من تلاميذ ابن حزم، حيث يورد في كتابه جملة من تراجم أعلام الأندلس والطارئين عليها، وبخاصة منهم المغاربة[1].

وبالرغم من بعده عن مكان المطلوب، وقلة ما صحبه من الغرض المرغوب؛ فإنه تمكن من تأليف واحد من أهم كتب التراجم وأكثرها فائدة، وقد بلغ عدد المترجم لهم في كتاب جذوة المقتبس 988 علما من علماء وفقهاء العدوة الأندلسية أو الغرباء الذين دخلوا الأندلس واستقروا بها.[2]

وقد استفدت من المقدمة التي خصصها لانهيار الخلافة الأموية بالأندلس وكذا بعض تراجم أعلام البربر.

-الحلة السيراء لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الآبار المتوفي عام 658 هـ/1260م.

يعد ابن الأبار أشهر مصنف لمعاجم الرجال الذين أنجبتهم الأندلس. وأبرز المؤرخين والمحدثين والأدباء، والشاعر، لقد أبدع ابن الآبار في هذه العلوم وساهم فيها بقسط وافر، إلا أن نبوغه الحقيقي يتجلى بشكل واضح في ميدان التاريخ والتراجم لاسيما في "الحلة السيراء" غرة كتبه دون جدال، فهو قد ترجم فيه للعديد من الشخصيات التاريخية المشرقية منها والمغربية الذين عرفوا بقرض الشعر الجيد من القرن الأول الهجري إلى السابع منه. وما يميز ابن الآبار في هذا المصنف هو أسلوبه السامي البلاغة. تميز المؤلف عن غيره ممن كتبوا في تراجم الرجال في طريقة معالجة موضوعه حيث رتب معلوماته على أساس الترتيب الزمني، بينما رتب الآخرون ذلك على أساس الحروف الأبجدية، وهو ما

[1]- رضا هادي عباس، المرجع السابق، ص 72- 73.

[2]- بوباية عبد القادر، المرجع السابق، ص 39.

يسهل مهمة الباحث. ومما زاد في أهمية كتابه هو نقله عن المؤرخ الكبير ابن حيان، فهو بهذا الجنوح نحو نقل الرواية عن ابن حيان يكون قد حفظ لنا تراثا هاما عن هذه المرحلة.

لقد تميز ابن الآبار بغزارة التأليف، فقد ألف نحو خمسة وأربعين كتابا فقد معظمها باستثناء ثمانية، وهي تندرج ضمن موضوعات مختلفة كالحديث والأدب والشعر، والتاريخ والتراجم، يتميز فيها بأسلوب علمي رفيع.

وقد أخذت منه في تراجم الرجال إبان القرن الرابع والخامس الهجري، وقد مكنني حديثه عن الفتنة القرطبية، والأطراف المتنازعة فيه من الوقوف على حقيقة هذه الأحداث التي كانت منطقا لظهور دول الطوائف.

-**كتاب الصلة**: لمؤلفه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصار المتوفى سنة 578 هـ - 1183م. لم

يعد ابن بشكوال من أعظم علماء الأندلس، كان أحسن عصره حفظا وصدقا ورواية، يعد كتابه هذا تكملة لتاريخ علماء الأندلس الذي ألفه ابن الفرضي، وقد انفرد ابن بشكوال عن غيره من أصحاب التراجم الذين سبقوه أو معاصرون بعبقرية في ضبط الرجال وخصوصا من عاشوا أيام اضطراب الأندلس في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين، وامتاز عليهم بالتفصيل في مناقب الرجال.

يتضمن كتاب الصلة، 1541 ترجمة لعلماء الأندلس، وطارئين عليها وقد رتبها ترتيبا أبجديا زمنيا أي من الأقدم وفاة إلى الأحدث.

لقد أفاد البحث في العديد من الأعلام البربرية، سواء من كان لهم إسهام علمي، أو رجالات السياسة والجيش منهم.

كما أفاد البحث في تراجم العلماء الذين استشهدوا في المواجهات بين البربر وأهل مدينة قرطبة.

– جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري. ولد بقرطبة 384 هـ 994 م، عالم الأندلسي في عصره وأحد أئمة الإسلام، كان حافظا فقيها، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة.

درس ابن حزم مذهب الشافعي وتعمق فيه وتعصب له، في مرحلة من حياته ودرس فقه المالكية، ودرس الموطأ، وقام بتنقيح مذهب داود، وضع الكتب في تبسطه وشرحه، وأخذ بعد ذلك مذهبا خاصا وآراء تفرد بها. عرف بالمذهب الظاهري.

كان ابن حزم غزير التأليف فقد روى عنه ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو "400" مجلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة ومنها: جمهرة أنساب العرب، الناسخ والمنسوخ، المكي، رسائل ابن حزم ،طوق الحمامة بين الألفة والألاف، نقط العروس .... الخ.

يعد كتابه الجمهرة واحد من المصنفات الهامة في مجال الأنساب ويعد مرجعا هاما لكل من يروم الكتابة في أنساب العرب والبربر – واليهود... وفيه سجل المؤلف أنساب القبائل العربية الثلاث: عدنان، وقحطان، وقضاعة، ثم ألحق بها ذيولا من بينها أنساب البربر، وبيوتاتهم بالأندلس.

وأما بالنسبة لعلاقته بالبحث فقد أمدني الكتاب، بأصول البربر، وبيوتاتهم بالأندلس بشكل مفصل، وما امتاز ابن حزم عن غيره من النسابة: هو التعريف بالمشاركة في الأحداث لبعض العائلات البربرية في الأندلس.

المصادر الجغرافية:

1- كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك؛ لمؤلفه أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي المتوفي سنة 478 هـ – 1085م.

لم تصلنا من هذا المؤلف سوى بعض النصوص المتعلقة بالأندلس، والتي تعتبر أحسن ما نشر من الأصول الأندلسية، حيث يشتمل على ذكر كور عديدة وما يتصل بها من أحداث تاريخية وعلى الرغم من اختصارها إلا أنها ذات أهمية بالغة.

يبقى هذا الكتاب من أجود الكتب وأحسنها في الحديث عن الثغور الإسلامية وعن الأسر المستقلة بها، ومن هنا كان كتابه ذا أهمية كبيرة بالنسبة لبحثي حيث اهتديت به أثناء التعريف بالكور إلى أحداث تاريخية افتقدتها في العديد من المصادر، ومن ذلك على سبيل المثال أنه عند ما تحدث عن مدينة رندة ذكر ثورة أهلها على بني يفرن ودعوتهم إلى المعتضد بن عباد.

2- **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحميري التونسي المتوفي عام 726 هـ / 1326م.

بيّن المؤلف في مقدمة كتابه حدود الخطة التي التزم بها في تأليفه؛ فقد أراد أن يصنع معجما جغرافيا مرتبا على حروف المعجم ليسهل على الباحث كشف اسم المواضع المشهورة. والأصقاع التي تعلقت بها قصة أو كان في ذكرها فائدة[1].

كما جعل الإيجاز وسيلة، وقد كان وفيا لجانب كبير من هذه الخطة فهو حقا قد صنف معجما جغرافيا تاريخيا أو بالأحرى معجما تاريخيا جعل الجغرافيا مدخلا إليه، وقد أفادني إفادة بالغة من خلال تحقيق الكثير من الأماكن الواقعة في منطقة جنوب الأندلس، كما استفدت من مصادر ومراجع أخرى سترد أسماؤها في قائمة الببليوغرافيا.

3–معجم البلدان لمؤلفه ياقوت الحموي بن عبدالله شهاب الدين، هذا المؤلف الذي سبي صغيرا فاشتراه تاجر بغدادي المسكن حموي الأصل يدعى عسكري ابراهيم، ونسبه إليه. نهج صاحب الكتاب نهجا خاصا اتبع فيه طريقة التعريف بأماكن العالم المعروفة عند المسلمين في عصره ورتب مادته وفق حروف المعجم ترتيبا بسيطا، قاصدا تسهيل استعمال القارئ للكتاب، وتجنب التعقيدات، وكانت المادة التاريخية والأدبية وتراجم الرجال طاغية على عمله، اعتمد ياقوت الحموي على العديد من الكتب الجغرافية المؤلفة في زمانه "كالمسالك والممالك" للبكري أبو عبيد و"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، هذا وقد أفاد البحث في أغلب ما يتعلق بملوك الأندلس. وللإشارة فإني قد وظفت كتاب معجم الأندلس الذي قام بإخراجه وتحقيقه الأستاذ محمد حقي.

[1]- محمد المنوني، المرجع السابق، ج1، ص 78.

وإلى جانب هذه المصادر فقد صاحبتني جملة من المراجع المتخصصة في هذه الحقبة من تاريخ الاندلس ،إذ لا أنكر كباحث مبتدإ أني اهتديت بواسطتها إلى العديد من مصادر التاريخ وفي مقدمتها:

دول الطوائف لمؤلفه عبد اللّه عنان ،يعد هذا الكتاب أحد أفضل المراجع في تاريخ الاندلس خاصة في حقبة الطوائف وهي حقبة معقدة كما أشرت، إلا أن الكاتب قدم مادتها جلية مبسطة اغترفت منها ما دعت إليه الحاجة ،باعتبار أن الأستاذ عبد اللّه عنان يعد في طليعة كوكبة المؤرخين الذّين وضعوا أيديهم على مخطوطات هذه الفترة من تاريخ الاندلس.

يضاف إلى هذا المرجع الهام جملة من المراجع التي لا تقل أهمية عنه ،مثل كتاب معالم تاريخ الاندلس، للأستاذ حسين مؤنس، وكتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس،، لمؤلفه السيد عبد العزيز سالم، وكتاب الإسلام في طليطلة، عبد المجد نعناعي، وكتاب البربر في الأندلس لمؤلفه محمد حقي، بالإضافة إلى المراجع الأجنبية وخاصة منها الإسبانية كتاب luis suarez fernandez "historia de españa"، وكتاب Anwar cherjene "historia de Espana Musulmana" وأخرى فرنسية، منها كتاب André clot "l'espagne musulmane VIII X X Siecle" وكتاب Pierre Guichard " Al-Andalus 711-1492 ".

الفصل الأول

البربر والأوضاع السياسية والاجتماعية في الأندلس قبل عهد الطوائف

بالرغم من التباينات الإثنية التي ميزت المجتمع الأندلسي في العهود السابقة إلا أن الخلافة الأموية استطاعت أن تجعل منها كتلة واحدة، ومع حلول القرن الخامس الهجري تصدع النسيج الاجتماعي كنتيجة طبيعية للانحلال السياسي الذي ألم بالأندلس، فانزوت كل طائفة إلى ما بحوزتها من مناطق فالصقالبة في شرق الأندلس والأندلسيين في الوسط والغرب أما البربر فتجمعوا في الجنوب أما العناصر الأخرى ذات الإنتماء الإثني الباهت فقد انبثت في الإمارات التي تدين لها بالولاء.

العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي

تشكل النسيج الاجتماعي في الأندلس من عدة أجناس مختلفة، تتمثل في البربر والعرب والصقالبة والمولدين، والمستعربين، واليهود والنورمان[1]. إلا أن العنصرين الرئيسيين الذين يأتيان في مقدمة العناصر الوافدة هم العرب ،والبربر. غير أنه من الصعوبة بمكان أن يميز الباحث بين عدد الذين دخلوا البلاد الاندلسية من هذا العنصر أو ذاك ،لأن ندرة المصادر، سواء العربية منها أو اللاتينية، تجعل من العسير جدا الحصول على معلومات كافية في هذا الموضوع، ضف إليها عامل مهم ،يتمثل في ما اتسمت هذه الفترة من غموض واضطرابات ،وما غشى الضفة الجنوبية لبلاد الاندلس من اندفاعات بشرية أثناء الفتوح الإسلامية لهذه البلاد .مع ذلك فان المناهج المتداولة حول دراسة العلاقات بين دول الطوائف، ترتكز أساسا على التقسيم العرفي القائم على ثلاثة مجموعات متباينة من حيث الاصول والعادات، وهم العرب ، والبربر، والصقالبة[2].

وأياًّ كانت التقسيمات، فإن العناصر الأكثر حضورا، واستقطابا في شبه الجزيرة الأيبيرية،سواء في المرحلة التي أعقبت الفتح، أو بعده هما العرب والبربر. ومع ذلك وتجلية للأوضاع التي سبقت عهد الطوائف، وتبيانا للعناصر المكونة لهذا النسيج الاجتماعي، فإنه من الأهمية بمكان أن نشير ولو باقتضاب إلى هذه العناصر، وان لم يكن لها الدور الذي كان لمثيلاتها من العناصر المشار إليها.

---

[1]- حسين يوسف دويدار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، 138هـ 422هـ، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط1 1999، ص: 12-13.

[2]- أحمدبن عبود، مباحث تاريخ الأندلس ومصادره، منشورات عكاظ، المغرب 1987، ص: 45-46.

أولا: البربر

يعد البربر من أول العناصر التي وطئت ارض الاندلس واكثرها عددا[1].وهم من اشترك إلى جانب العرب في فتح بلاد الاندلس، إلا أن غالبية الفاتحين الأوائل كانوا من البربر.

فالحملة الاستطلاعية الاولى التي قادها طريف بن مالك[2] سنة 91هـ-710م ، وقوامها أربعمائة رجل، يصحبهم مائة فارس من البربر.[3] ولعل هذه الاعداد الهائلة، وخبرتها بالمنطقة، وحسن بلائهم بالقتال، وانقيادهم لقادتهم كل ذلك كان دافعا لموسى بن نصير بتوكيل مهمة الفتح إلى العناصر البربرية قيادة وجندا. فعهد بهذه المهمة إلى مولاه طارق بن زياد، فجعله على رأس جيش البربر المكون من سبعة الآف مقاتل[4]. وقد تدعم هذا العدد بما يقرب من خمسة الآف مقاتل بطلب من طارق بن زياد، وذلك عندما عسكر بجيشه في وادي لكة ينتظر وصول لوذريق الذي زحف بجيشه من الشمال. وقد زاد في اصرار طارق على تلقي الامداد من موسى بن نصير، تلك الأنباء التي حملت إليه ،تحرك لوذريق بجيش قوامه أربعين ألف مقاتل أو يزيد.

فتهيب طارق الموقف ،فلم ير من مخرج إلا الاستعانة بموسى، حيث تذكر المصادر انه عندما حشد لوذريق جيشه لقتال طارق، أرسل هذا الأخير إلى موسى بن نصير يطلب الامداد ، فبعث إليه خمسة ألآف مقاتل من البربر[5].

---

[1]- محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر ميلادي، الخامس هجري، الدار التونسية للنشر، (د ت) ص:237.

[2]- طريف بن مالك: يكنى بابي زرعة طريف بن مالك المعافري، بعثه موسى بن نصير على رأس حملة استطلاعية، سار بها حتى بلغ الجزيرة التي تقابل الاندلس المعروفة بالخضراء ،ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها، ومنها انطلق إلى الضفة الأخرى، أين أصاب سبيا ومالا كثيرا وامتعة فلما رأى الناس ذلك تشجعوا على الدخول. المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس،دار صادر 1388، ج1، ص: 255.

[3]- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقفة بها، تحقيق اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص:97.

[4]- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والاندلس، مؤسسة الثقافة الجامعة الاسكندرية، ص:57.

[5]- المقري التلمساني، المصدر السابق، م1، ص: 233.

وهذا ما يدل على أن الخزان البشري من البربر في العدوة الجنوبية كان لا يزال يعج بالمتطوعين، الذين كانوا يعبرون بانتظام نحو شبه الجزيرة تحت قيادة موسى بن نصير.

عندما أضيفت الفلول التي بعث بها موسى إلى طارق ،أصبح عدد الجيش إثنا عشر ألف مقاتل من البربر، وهو العدد الذي واجه به طارق جيش لوذريق، وألحق به الهزيمة بالرغم من التفوق العددي لجيش القوط. لم يتوقف تدفق البربر مع الحملات الأولى ، بل توالت الهجرات من بلاد المغرب ومن الشرق نحو شبه الجزيرة دون انقطاع، ولا شك ان نصيب البربر كان اكثر من نصيب العرب بسبب كثرة أعدادهم في الطوالع التي زحفت على الأندلس. فغادروا ديارهم ليجعلوا من البلاد المفتوحة وطنا لهم، حيث اتجهوا نحوها من كل صوب، وعبروا المضيق بكل ما وقعت عليه ايديهم من قوارب ومراكب.[1]وكانوا ينزلون بصفة خاصة في المناطق والاقاليم الجنوبية والغربية من الاندلس، نظرا لشبهها ببلادهم وبيئتهم في بلاد المغرب[2]. وكانت منطقة رندة[3]، وإقليم تاكرنا[4]، بالتحديد منزلا لجماعة البربر، استوطنته بعد استقرار عملية الفتوح الأولى.

---

[1]- عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس، المدار الاسلامي، ط1، بيروت، 2004 ص: 157.

[2]- صالح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، (د ت)، ص: 30.

[3]- رندة: وصفها ابن الخطيب بقوله «أم جهات وحصون وشجر ذات غصون وجنات خصيب وحمى مصون، بلد زرع وضرع، وأصل وفرع منحازاتها بالبرمالية وأقواتها جديدة وبالية» تقع رندة غرب مالقة وقد كانت من اهم القواعد الاندلسية وتعتبر حصنا منيعا لمدينة مالقا، ابن الخطيب لسان الدين، كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية 1423-2002، ص: 130.

[4]- تاكرنا: تقع بمقربة أستجة وهي مدينة أولية إليها تنسب الكورة وبها بلاط من بنيان الاول لم يتغير ومن مدنها الهامة مدينة رندة عاصمة بني يفرن خلال عهد الطوائف كثيرة الجبال والعيون ومنها كانت تجلب المياه إلى المدن المجاورة وبها حصون منيعة كما يشتهر هذا الأقليم بوفرة مياهه وتنوع منتوجاته الزراعية، مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية 1428- 2007، ط1، ص124، الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان بيروت، 1975، ص: 607، الزهري محمد بن أبي بكر، كتاب الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (د ت)، ص: 90.

وقد ذكر ابن حزم في كتابه "جمهرة أنساب العرب" بيوتات البربر في الأندلس بشكل مفصل وذكر أهم البطون والأفخاذ، ومنهم بنو دليم الفقهاء من وزداجة[1]، وعوسجة، بشنت مرية[2]من ملوزة ومنهم بنو إلياس من مغيلة[3]، وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس[4] من مكناسة[5]،وبنو الخروبي[6]من ونتاتة ،وكذلك بنو عزوى الأمراء بشنت مرية من زناتة أيضا.

[1]- وزداجة: يعتبرهم بعض النسابين من البربر البتر، ووزداجة من هوارة، وكان لهم وفود ،وكثرة.وكانت مواطنهم بالمغرب الاوسط بناحية وهران ،وكان لهم اعتزاز وآثار في الفتن والحروب.ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية 2002-1424، ج6، ص: 148.

[2]- شنت مرية: مدينة في الاندلس من مدن أكشونية، وهي أول الحصون التي تعد لبنبلونة وهي أتقن حصون بنبلونة وأعلاها سموكا، مبتناه على نهر أرغون وهي مدينة أولية ،وبها دار صناعة الاساطيل وبجانبها جزائر في البحر ،تنبت شجر الصنوبر وهي كثيرة الاعناب والتين ،وبها مسجد جامع ومنبر وجماعة. مجهول ،تاريخ الاندلس، ص: 107، الحميري، المصدر السابق، ص:148.

[3]- مغيلة: هم إخوة مطماطة ولماية كان منهم جمهوران ،أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب نهر شلف جنوب مازونة، ومن ساحلهم اجاز عبد الرحمان الداخل إلى الأندلس. وكان منهم أبوقرة المغيلي الدائن بدين الصفرية الخوارج، ملك أربعين سنة- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج6 ص: 148.

[4]- سليمان بن وانسوس:وفي الأصل وانسنوس، هو الوزير الذي ينسب عليه بنو ونسوس .وهم من مكناسة توفي سنة 307هـ، ابن حزم ،المصدر السابق، ص499. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، ط1، 2009 ج2، ص: 152-164-175.

[5]- مكناسة: تقع جنوب غرب فاس على مسافة 60 كلم سميت باسم مكناسة البربرية ،من آثارها القديمة باب المنصور والاصطبلات القديمة تعتبر خامس مدن المغرب، بعد الرباط، والدار البيضاء،ومراكشن، وفاس. عرفها ابن الخطيب بقوله «مدينة اصيلة وشعب المحاسن وفصيلة فضلها الله ورعاها واخرج منها ماءها ومرعاها فجانبها مريع وخيرها سريع» ولمكناسة تاريخ حافل ولذلك حظيت بعناية المؤرخين فكتبا في تاريخها ما خلد آثارها، ابن الخطيب المصدر السابق، ص: 165 وحاشيته رقم 111، في نفس الصفحة، عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الثقافة الجزائرية 2007، الحاشية رقم 3، ص: 221.

[6]- بنو الخروبي: أصلهم من لقنت وهم من قبيلة زناتة ومنهم عبد الله الخروبي، ابن حزم، المصدر السابق، ص:499، ابن عذارى المصدر السابق، ص: 164/159.

ومنهم الأمراء بالثغر، وبنو هذيل من مديونة[1]، وبنو عبدوس من سرته، وبنو ريس بالسهلة، وبنو ذي النون بويذة[2]. ولا يفوت ابن حزم وهو يفصل في أصول هذه الجماعات البربرية، ان يذكر مساهمة جماعة منهم في الفتنة القرطبية، وضلوعهم فيها، وان منهم من استأثر بالأقاليم الجنوبية من الاندلس على عهد ملوك الطوائف[3]، إذ كان ابن حزم يرى في فتنة القرن الخامس الهجري، القشة التي قسمت ظهر الاندلس، وان من ساهم فيها او تسبب فيها يحمل اوزارها، وهو لم يفتأ يتحدث عن البربر ويصف زعماءهم برؤوس هذه الفتنة.

وعلى العموم فإن أغلب من دخل الاندلس من البربر ينسب إلى زناتة، الذين انتشروا بشكل مكثف في الوسط والجنوب،[4]وكان منهم بنو الخروبي،وبنو الليث ،وبنو يفرن ،وبنو برزال، وبنودمر، وبنو خزر، وكان سبب دخول هؤلاء الزناتيين، تلك السياسة التي يسلكها عبد الرحمان الناصر الأموي ازاء بربر العدوة الجنوبية والقائمة على استمالة زناتة، واستعمالهم كدروع لمجابهة الفاطميين[5].

وفيما يتعلق بالمناطق التي استقر بها البربر، فهي عبارة عن مناطق جبلية، اجتذبتهم إليها عوامل كثيرة، منها تشابه البيئة الطبيعية في الاندلس مع بيئتهم التي نزحوا منها في بلاد المغرب[6]،

---

[1]- مديونة: فصيل من قبائل زناتة منهم كان ثابت بن عامر المديوني وهو خال بني ذي النون، ابن حزم، المصدر السابق، ص499، اسماعيل ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ط2، 1411-1991، ص: 19.

[2]- وبذة: مدينة بالأندلس، وهي حصن على واد بقرب إقليش وعلى وادي ويذة كثير من الأرجاء يمر هذا النهر على عدة قرى فيسقيها وبالقرب من وبذة قرية صغيرة تسمى بنتيج أهلها نصارى، وينعقد ماءها في الإناء فيصير حجرا أصفر وكذلك ينعقد في اسنان أهلها وتشملهم علة الحصى، الحميري، المصدر السابق، ص: 607.

[3]- صالح خالص، المرجع السابق، ص: 30.

[4]- jacinto bosch vila- los berberes en al-andalus imazghen delmagreb entre occidente y oriente introduccion de los berbereses edi rachid kana ahmed grenada 1994, p : 91.

[5]- عثمان الكعاك، البربر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، ص: 84.

[6]- حسين مؤنس، فجر الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، ط3، ص: 315.

حيث قاموا فيها بتربية المواشي، وإقامة البساتين، وترع السقي، وشجعهم على ذلك، الاستقلال والتمرد من السيادة العربية[1].

يذكر الاستاذ عبد القادر بوباية في بحث له حول استقرار البربر في الاندلس «إن لجوءهم إلى المناطق الجبلية كان نابعا من رغبتهم ولم يكن تحت مضايقة العرب، ويضيف على أنه إذا كانت المناطق الجبلية دافعا للاعتصام بها باعتبارهم قدموا من مناطق تشبهها، فهذا لا يعني كل البربر، وإن كانوا يمثلون الأكثرية»[2].

وهذا لم يمنع من وجود من سكن السهول والمدن، إذ أن في بلادهم مناطق سهلية، ومدن آهلة بالعناصر البربرية مثل طنجة وسبتة، وهي مدن ساحلية، ولذلك فإن العديد من الأسر البربرية فضلت الاستقرار في حوض الوادي الكبير وسهول شرق الأندلس[3].

وفوق هذا وذاك فان البربر المقيمون في المناطق الجبلية لم يكتفو على الرستاق الجبلي لوحده، بل إنهم في أغلب الأوقات يضيفون إليه رستاقا سهليا مجاورا له، وينتقلون بينهما حسب فصول السنة[4].ومن جانب آخر لا يجب ان يغيب عن الاذهان، ان نفور البربر من العناصر الاخرى التي الفت العيش في البسائط والمدن وأحوازها، كان امرا طبيعيا أن يدفع الاجزاء المبعثرة من البربر، ليتكتلوا في موضع واحد يتلاءم مع بيئتهم التي قدموا منها.

وبالإضافة إلى العوامل السالفة الذكر، يلفتنا ليفي بروفنسال إلى عامل آخر لا يقل اهمية عن العوامل الاخرى، وهو تململ حركات الاسترداد المبكرة التي اندلعت في الشمال وزحفت نحو الجنوب من سلسلة جبال كنتريا، أجبرت مجموعات كبيرة من الفلاحين البربر على النزوح نحو منطقة الجنوب

---

[1]– لفي بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية711– 1031، ترجمة إيميليو غارثيا غومث إلى الإسبانية وإلى العربية علي عبد الرؤوف البمبي ، علي ابراهيم منوفي، السيد عبد الظاهر عبد الله، مراجعة صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص: 86-87.

[2]– عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس، ص: 100.

[3]– pierre guichard, structures sociales et occidentales et orientale dans l'Espagne musulmane mont on paris la hage 1977, p: 137.

[4]– محمد حقي، البربر في الأندلس، شركة النشر والتوزيع، المدارس الدار البيضاء، ط1، ص: 62.

الجبلية حيث استوطن اغلبهم في مناطق شذونة[1]، وجبال رندة، ومالقة، ومنحدرات جبال الثلج، sierra neveda[2]، وذاع صيت من سكن هذه المناطق من البربر امثال بني برزال الذين نزلوا بقرمونة وبني يفرن برندة، وبمنطقة الجنوب، ويضاف الى هذه المجموعات البربرية في منطقة الجنوب، المجموعات البربرية في الثغر الأعلى. ومنهم بنو عميرة من ولهاصة من نفزة من ناحية شاطبة ،بنو زرين من مديونة من السهلة ،وبنو ذي النون من هوارة ،من وبذة، وبنو الفرج من مصمودة،وادي الحجارة وبنو إلياس من مغيلة شذونة،وبنو عزون من زناتة شنترية،وكان هؤلاء وغيرهم من القبائل الاخرى-سأذكرها بالتفصيل في ملاحق هذا البحث- امراء على نواحيهم مما يدل على كثرة بربرية فيها. وفي المقابل يذكر ابن حزم قبائل بادت وانمحت ولم يعرف لأعقابهم بقية، ومنهم من مصمودة، حيث يذكر أنهم بادوا كبني سفيان بن عبد ربه الحاجب ،وبنو يحي بن كثير الذين عمروا ارض الاندلس ثروة وعددا[3].

وما زالت سماؤهم تطلق الى اليوم على اماكن عديدة في اسبانيا والبرتغال، يقول الاستاذ مختار العبادي نقلا عن الأستاذ محمود علي مكي.

«وكثيرا من اسماء المواضع التي تحمل حتى الآن اسماء القبائل البربرية نذكر منها al bornoz في قرطبة واشبيلية، وكذلكalbrornos في آيلة Ayila وبرنس بن بر،وهوجد لشعب كبير من شعوب البربر يدعى بصيغة الجمع البرانس، وإليه تنتمي مجموعة كبيرة من القبائل مثل كتامة، وصنهاجة ومصمودة، واوربة، وهوارة، ومنها azuaga في بطليوس وهي قبيلة زواغة إحدى قبائل البرانس وzaneta في قشتليونceneta في مرسية واللفظان مأخوذان من زناتة و mequiheza في سرقسطة وهي مكناسة إحدى قبائل زناتة، gazules في فارس وهم بنو بزوالة من البرانس، و gomara غمارة في المرية ،وهي من البرانس، orba اوربة في دانية، واوربة إحدى قبائل البرانس»[4].

---

[1]- شذونة: تتصل باحواز كورة مورر، تجمع بين خيرات البر والبحر، وبها مراعي كثيرة، ومياهها غزيرة، كثيرة الثمار كالزيتون والعنب والتين، ولها أقاليم عديدة، وبها مدن لم يبق لها أثر عدا مدينة شريش، ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الانفس، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، 1375-1955، ص: 294.

[2]- ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص: 87.

[3]- ابن حزم، المصدر السابق، ص: 500.

[4]- العبادي احمد مختار، صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، ط1، 200، ص: 58-59.

لم يتوقف تدفق البربر على شبه الجزيرة الاندلسية، وظلت العدوة الجنوبية خزانا لا ينضب معينه من العناصر البربرية، بل ازداد هذا التدفق في أواخر عهد الخلافة خاصة في السنوات الأخيرة لعهد الحكم المستنصر، وفي عهد الحاجب المنصور بن ابي عامر وابنه المظفر بن عبد الملك[1].

وقد اشادت المصادر بدور البربر في الحروب التي خاضوها في تلك الفترة، وما ابلوه من بلاء حسن في ترجيح كفة النصر لصالح الخلافة،مما حدى بالخلفاء للاستعانة بهم في الحروب في رد الاعتداءات الخارجية أو القلاقل الداخلية، وغدت سياسة الحكومة الخارجية عامل جذب لهذه العناصر، فكان منهم من زناتة بنو الليث، وبنو يفرن، وبنو برزال،وبنو دمر، وبنو خزر، منهم محمد بن الخير المغراوي.وكان رئيس زناتة كلهم بالأندلس في الفئة البربرية في حدود الاربعمائة من الهجرة[2].

ولم يكتف خلفاء بني امية في الاندلس بالاستعانة بالعناصر البربرية الزناتية، الذين اندفعوا نحو العدوة الأندلسية تحت ضربات الفاطميين بمعية صنهاجة، بل فتحوا الباب على مصرعيه لكافة البربر دون النظر لانتمائهم الإثني،إذ لم يكن يهم الخلافة الاموية وقتئذ، سوى مواجهة الفاطميين في بلاد المغرب واخماد القلاقل الداخلية، ومواجهة زحف الجلالقة في الشمال .اللهم بعض الفلول من صنهاجة الذين لم يسمح لهم بالدخول حتى وقت متأخر من عهد الخلافة العامرية اين سمح لزاوي بن زيري وابناء اخيه ماكسن حباسة وحبوس[3]. يضيف ابن الخطيب قائلا« ورغم ان عدة الفرسان من البرابرة الغرباء في ديوان ابي عامر ثلاث ألاف ينضاف إليها من رجاله الرقاصة السودان الداخليين في عدادهم من رجالهم تتمة خمسة ألاف»[4].

---

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف بيروت، ط2، 1956، ص: 63.

[2]- ابن حزم، المصدر السابق، ص:461-467.

[3]- ابن الخطيب، لسان الدين، الاحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، بيروت، ج1، ص: 521.

[4]- ابن الخطيب، أعلام الاعلام، ص: 102.

وما هو جدير بالإشارة هو أن استخدام العناصر البربرية في الجيش الاندلسي، نجمت عنه آثارا سيئة: في مقدمتها ،تراجع الأرستقراطية العربية عن الاهتمام بشؤون الحرب وركونها إلى استئجار من يتولون هذه المهمة، فانتهت بذلك البلاد إلى الفوضى والانحلال .

ثانيا: العرب

أما العناصر العربية التي دخلت الأندلس في شكل طوالع منذ الفتح، فقد كانت محدودة العدد إذ كانت طالعة موسى بن نصير اكثر عددا.

تشير المصادر أن عدد من دخل الاندلس في طالعة موسى بن نصير بلغت ثمانية عشر ألف مقاتل من القيسية واليمنية[1]. واعقبتها طالعة هزيلة، صاحبت عبد الرحمان الثقفي سنة97هـ/ 715م وقد اشير إليها سلفا وأغلبها من اليمنية[2]، ثم اعقبتها طالعة بلج بن بشر القشيري سنة 124هـ/ 741م، عقب الثورة البربرية ببلاد المغرب، وقوامها ثمانية الآف من العرب[3] اغلبهم من القيسية، بالإضافة إلى ألفين من موالي بني أمية، وقد تسببت هذه الطالعة في نشوب فتن وقلاقل بينها وبين العرب البلديين الذين كانوا يرون أنهم زحموا في مصالحهم، وأن هؤلاء الوافدين الجدد من العرب قد فوتوا عليهم فرصا كثيرة في الاستلاء على باقي الأراضي. هذا على الصعيد المادي، اما على الصعيد السياسي والاجتماعي، فقد استولت العناصر الجديدة على معظم المناصب الحساسة في الجيش والإدارة، خاصة أن هذه العناصر قد أبلت البلاء الحسن في المواقع القتالية في بلاد المغرب. إلى جانب بني أمية في مواجهتهم للبربر المحالفين للفاطميين.

وفي حقيقة الأمر فإن أصول هذه العداوة ترجع إلى ما كان بين هذين الحيين من صراع في دواليب السلطة الاموية، فكان إذا اشتد أحد على الآخر نكل بصاحبه وجماعته ولاحقهم في كل مكان مما يضطرهم إلى الهجرة، حاملين بين جوانحهم ضروبا من الحقد واللدد ،وعزم لا يقهر للانتقام

[1]- المقري، المصدر السابق، م1، ص: 251- 252.

[2]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص: 5.

[3]- ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، بيروت 1980، ص: 33.

وهناك تلتئم أجزاؤهم المبعثرة. وينضمون إلى أبناء عشيرتهم، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية، ويتجدد النزاع القبلي أكثر مما كان عليه في قلب الدولة الأموية.[1] وظل هذا الصراع قائما ومحتدما حتى دخول أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي[2] واليا على الأندلس سنة 125هـ/ 743م، بصحبة طائفة عربية قليلة العدد لم يتجاوزوا الثلاثين رجلا، وكان أبو الخطار ،يقول صاحب أخبار مجموعة «رجلا من خيار أهل الشام من أهل دمشق، فرضى به الشاميون والبلديون، وأطلق الأسرى والسبي، فسمي ذلك العسكر عسكر العافية ،وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبي نسعة وعشرة من قواد الشام وأمن ابني عبد الملك بن قطن[3] فاستقامت حال الناس بالأندلس ، وأنزل أهل الشام بالكور»[4].

وفور دخوله الاندلس قام بتوزيع جند الشام على كور الأندلس، وذلك من أجل الحد من عصبيتهم القبلية، فأنزل كل فريق بالجهة المشابهة للبيئة التي أتى منها من المشرق، فكان نصيب أهل دمشق البيرة، وأهل الأردن رية، وأهل فلسطين شذونة، وأهل حمص اشبيلية ،وأهل قنسرين جيان، أما أهل مصر فقد انزلهم ببجانة وتدمير.[5]ومما تجدر الاشارة إليه فإن الطوالع التي دخلت الأندلس فيما بعد كانت محدودة العدد خلال عصر الولاة إلا أن أعددا قليلة ضاقت ذرعا باضطهاد العباسيين لهم، وكانوا مع ذلك يشكلون أقلية قليلة، مقارنة مع من سبقهم من الحشود العربية التي وفدت إلى الأندلس[6].

---

[1]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 185.

[2]- أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي: كان موصوفا بالحزم والشجاعة، وكان شاعرا بليغا، ولاه حنظلة بن سفيان عامل افريقية على الاندلس سنة 125، اظهر ميلا حين توليته شؤون الحكم- لقومه من اليمانية وثار عليه الصميل بن حاتم وانصاره وأسروه وخلعوه وولو مكانه ثوابة بن سلامة سنة128، إلا أن المضريةالتفوا حوله وقامت الحرب بين اليمانية والمضارية، وقتل أبو الخطار سنة 130هـ، ابن الأبّار، المصدر السابق، ج 1، ص: 62.

[3]- عبد الملك بن قطن: بن نهشل الفهري من الامراء الشجعان، شهد وقعة "الجرة" في ايام يزيد بن معاوية سنة 53هـ عبر إلى افريقية ثم إلى الأندلس، تولى الامارة بعد مقتل الغافقي سنة 114هـ غزا أراضي الشكنس، عزله الحبحاب إلا أن أهل الأندلس لم يرضوا به بديلا، فلم يرضي ذلك العرب وثاروا عليه، وثم قتله سنة 123هـ، القري التلمساني، المصدر السابق، ج1 ص: 236-291-299.

[4]- مجهول، أخبار مجموعة، ص: 119.

[5]- ابن القوطية ،المصدر السابق، ص: 44.

[6]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 379.

وكانت الطوالع العربية السالفة الذكر، والهجرات البربرية القادمة من عدوة المغرب، النواة الأساسية لاستقرار العناصر العربية والبربرية في الأندلس، وذلك بعد استكمال عملية الفتح حيث استقر السواد الأعظم منهم في الأراضي المفتوحة، وأقبلوا على المصاهرة والتزاوج من نساء اسبانيات. ومما هو جدير بالذكر فإن هذا النوع من الزواج قد أثار جدلا واسعا بين الباحثين، حول ما إذا كان الفاتحون العرب قد دخلوا الاندلس أفرادا دون أسرهم، ثم أقبلوا بعد ذلك على الزواج من نساء ذلك البلد المفتوح ،ورائد هذا الطرح حسين مؤنس[1]أما pierre guichard يرى أن الفاتحين دخلوا الأندلس في جماعات اسرية، ويستند في رأيه هذا على أن العرب والبربر الذين استقروا في الأندلس قد حافظوا على النظام القبلي، ولو على نطاق بسيط خلال قرنين من الزمن، ويرى انه لا يمكن ان نفسر تلك السلوكيات إلا على أساس وجود روابط اجتماعية قبلية بين قبائلهم، ومن البديهي عدم وجود روابط اجتماعية قائمة فقط على الذكور.[2]وعليه فاءنه قد ترتب على هذه المصاهرة ظهور أجيال متلاحقة من المولدين المسلمين، وقد تقاسم العرب والبربر أراضي الاندلس فيما بينهم فكان للعرب نصيب منها وللبربر نصيب، والراجح ان منازلهم تركزت في المناطق السهلية خاصة سهول حوض نهر الوادي الكبير وفروعه[3]،كشرق اشبيلية وفحص البلوط، وقرطبة،وأستجة وفي الفحوص الخضراء لوادي شنيل[4]، شنيل[4]، وفي مروج شرق الاندلس ،وفي السواحل الجنوبية ،والجنوبية الشرقية لبلاد الاندلس، ففي اشبيلية استقر بنو زهرة، وبنو قيس عيلان، وبنو الباجي وبنو هوزان[5] وبنو عصيب، وبنو خلدون الحضارمة، وبنو عباد حكام هذه المناطق في عصر ملوك الطوائف[6].

---

[1]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 365.

[2]- Pierre guichard- op.cit, p: 137.

[3]- دوزي رينهارت، تاريخ مسلمي اسبانيا، ترجمة حسين حبشي، دار المعارف القاهرة، ج1، ص: 157.

[4]- الإدريسي أبو عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق عالم الكتب بيروت 1421-1989،ج1، ص: 205.

[5]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 271- 273.

[6]- نفسه، ج1، ص:277.

واستقر في غرناطة من اليمنية الحضرميون والأزد ،ومن المضرية مرة بن ذبيان ونميره بن مضر ،وفي الجزيرة الخضراء استقرت كنانة وخولان وجذام[1]، واستقر التوجبيون في الثغر الاعلى من الاندلس، وكان من هؤلاء الجد الاعلى صمادح المرية في عصر ملوك الطوائف، واستقر ببطليوس الحضرميون وبنو زهرة[2].

لقد كان استقرار هذه العناصر العربية بالأندلس وغيرها من القبائل يتخذ شكل قبائل وأسرات ترتبط بينهما برابط النسب والعصبية، وقد أشار المقري التلمساني إلى ذلك بقوله«وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والافخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن عامر....»[3] ومن الاهمية بمكان ان نشير الى ان هذه التقسيمات وهذا الانتشار القبلي في أرض الاندلس، كان سبب من اسباب تفاقم الثورات التي شهدتها الأندلس خصوصا في القرن الثاني من الهجرة ،كما تجدر الاشارة إلى ان الوافدين من العرب على الاندلس، استطاعوا تكوين النواة الأساسيةللأرستقراطية العربية في المدن ،وأصبح نمط عيشهم يحاكي السادة الرومان والقوط ،حيث أصبحوا يملكون اقطاعات كبيرة يستخدمون في زراعتها وخدمتها الفلاحين الاسبان والمولدين من العامة وكانت إقامتهم في ضيعاتهم قرب المدن، فأصبحت حياتهم تشبه حياة الملوك، وقد اشار المؤرخ الفرنسي لفي بروفنسال إلى سبب اختيار العرب الاقامة في المدن أو الجهات القريبة منها بقوله« اختار العرب الاقامة في المدن للاشتغال بالوظائف أو تقدير الحكم الاقامة في بيوتات ريفية مريحة ومسلية كسادة اقطاعيين وعهدوا بفلاحة ضيعاتهم إلى مولدين من العوام أو فلاحين مسلمين مقابل ايجار معين أو المشاركة في المحاصيل التي تغلها الأرض»[4] هذه هي الاوضاع التي تميزوا بها عندما قدم عليهم عرب الشام لشد عضدهم في مواجهة بربر الأندلس،[5] وكان منهم اخرون من الأسر العربية التي استقرت في المناطق

---

[1]- حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص: 302.

[2]- نفسه، ص303.

[3]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 174.

[4]- لفي بروفنسال، المرجع السابق، ص85.

[5]- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص122.

الزراعية البعيدة عن المدن فأنشأ أصحابها قلاعا وحصونا مثل حصن مراد الواقع بين اشبيلية وقرطبة، وقلعة يحصب في اقليم غرناطة، وقلعة خولان الواقعة بين الجزيرة الخضراء واشبيلية، وقلعة أيوب التي أقامها أيوب بن حبيب اللخمي في الثغر الأعلى، وقلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة[1].

لقد كانت هذه الأرستقراطية تمثل تهديدا مباشرا لسلطان بني امية ونفوذهم في الاندلس، واكبر دليل على ذلك هو كثرة تمردهم على السلطة في قرطبة ومن هذه الثورات على سبيل المثال ثورة بني الحجاج بإشبيلية ضد الحومة المركزية بقرطبة بعد وفاة الامير عبد الرحمان الأوسط 206-238هـ/ 822-852م[2].

ظلت جذوة هذه الثورات متقدة إلى أن جاء الأمير عبد الرحمان الناصر الذي بويع بالخلافة فيما بين 316-350هـ واستطاع بحنكته ودهائه من القضاء على استقلالهم [3].

ثالثا: الصقالبة

يقصد بالصقالبة سكان البلاد المختلفة من بلاد بلغاريا التي امتدت أراضيها من بحر قزوين إلى البحر الادرياتيكي، إلا ان الجغرافيين العرب في العصور الوسطى أطلقوا هذه الكلمة على الشعوب الاسلامية عامة، ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على جميع ارقائهم الذين جلبوهم من أية ام مسيحية،[4] أو الذين جيء بهم من جليقية،وقطالونيا،ولمبارديا وكانوا يباعون احداثا، ومن الجنسين ويربون تربية اسلامية.[5] يذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار الاندلس في القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي، أنه عندما يكون هؤلاء الصقالبة على مشارف الاندلس يخصون، وكان من يفعل بهم ذلك هم تجار اليهود،[6] أما إذا سبوا في اماكن اخرى تركوا فحولتهم على أحوالهم مقرورين على صحة

---

[1]- السيد عبد العزيز سالم،تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص: 122.

[2]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص225.

[3]- نفسه، ج2، ص: 163.

[4]- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص: 8.

[5]- نفسه، ص: 9.

[6]- ابن حوقل أبو القاسم، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص: 106.

صحة أجسامهم[1]، وكان معظمهم من الاطفال من الجنسين وتتم تنشئتهم ومن ثم استخدامهم في الحرس والحاشية، والجيش، واخذ عددهم يتنامى حتى عجت بهم القصور[2].

أما بالنسبة للوظائف التي كانوا يشغلونها فلم تكن من الوظائف المتدنية على غرار الاجناس الأخرى، بل كانوا يشغلون وظائف محترمة، وأهمها العمل في القصور وذلك لخدمة الحريم، وعندما اشتد عضدهم أقحموا في الجيش الأندلسي وكذا المناصب الادارية، وقد احسنوا صنيعا بهم عندما استغلوهم في هذه الوظائف، واستعانوا بهم لتدعيم سلطانهم بالأندلس واخماد الحركات الانفصالية والقضاء على المؤامرات الداخلية حيث وجد منهم الأمويون اداة طيعة لتنفيذ مشاريعهم، والتصدي للانقلابات التي كان يقوم بها أشراف العرب والمولدون.

وقد بدئ في استخدامهم أيام عبد الرحمان الداخل، وأخذ عددهم يتزايد لحاجة الامراء الأمويون لهذا العنصر الاجنبي الذي تفانى في خدمة أمراء بني أمية حتى وصل عددهم في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر 300هـ 3750 رجلا و6750 من النساء[3] وكان هذا العدد الهائل في كفاية القصر من مطعم وملبس[4].

وعلى أية حال فإن الأمويين اعتمدوا في اكثر أيامهم على جيش من الصقالبة، ونال هؤلاء منهم عناية وحظوة، وتمكن عدد كبير منهم أن يصلوا إلى مناصب حساسة في السلطة الأموية، حتى ان بعضهم استطاع امتلاك اراضي شاسعة، وثروات طائلة وزاد شانهم وارتقى مركزهم في عهد الخليفة الحكم المستنصر، وكان هذا الأخير يقربهم ويتغاضى عن الأعمال المخالفة لتقاليد القصر التي تصدر منهم من حين لآخر، ويلتمس لهم الاعذار، ويحث المقربين منه بالإحسان إليهم، والتغاضي عن

---

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 106.

[2]-نفسه، ص: 106. المقديسي شمس الدين، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية،2003/1424، ص: 194.

[3]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص: 102.

[4]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص40-41.

تصرفاتهم غير اللائقة وكان يقول: «هم أمناؤنا فينبغي للرعية أن تلبي لهم وترفق في معاملتهم ، فتسلم من معرتهم إذ ليس يمكننا في كل وقت الانكار عليهم»[1].

وازدادت مكانتهم مع وفاة الحكم المستنصر، وتولي هشام المؤيد مقاليد السلطة واعتبروا انفسهم أصحاب السلطة العليا في البلاد، وأن إدارتها أصبحت بين أيديهم، لقد استعان بهم بنو أمية لتدعيم سلطانهم كما اسلفنا.

إلا أنهم في حقيقة الامر كانوا نقمة على البيت الاموي بأكمله، وأن اختلاطهم بالطبقة الدنيا في المجتمع الاندلسي كان شبه منعدم، وظلوا طوال عهودهم بالأندلس محافظين على النوع العرقيhomogènes وأنهم ظلوا متضامنين فيما بينهم. والدليل على ذلك هو عند سقوط الخلافة الأموية اتحدوا في كتلة واحدة، وقرروا أن يجمعوا شملهم ويستقروا في شرق الأندلس حيث تمكنوا من تكوين طائفة خاصة بهم[2].

وازداد نفوذ الصقالبة بعد وفاة الحكم المستنصر، وتدخلوا في الشؤون السياسية للدولة ولما وصل المنصور بن أبي عامر إلى سدة الحكم، وأصبح مطلق التصرف في شؤون الدولة عمل على تشتيت شمل هذه الطائفة، وأخذ يعتمد على غيرهم ممن يطمئن إليهم ويأمن جانبهم.

وعلى الرغم من ذلك فقد حاول واحد من الفتيان العامريين[3] في فترة حجابة المظفر عبد الملك الوصول إلى الحكم وتدبير شؤونه، فاستفحل أمره حتى أصبح الآمر الناهي مستغلا مرض الحاجب المظفر أبي مروان عبد الملك ليحقق ما كان يهدف إليه من السيطرة على شؤون الحكم، فما كاد عبد الملك يشفى من مرضه، حتى زج به في السجن ثم دس له من قتله[4]. ويستنتج من هذه الحادثة، ان طاعة هؤلاء لسادتهم كانت مرتهنة بقوة القائد وبطشه.

---

[1]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص: 259.

[2]- العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 408.

[3]- ابن الخطيب لسان الدبن، المصدر السابق، ص: 121.

[4]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 24-26.

وعندما تضعضعت أركان الخلافة الاموية، كان لهؤلاء الصقالبة ضلع في المؤامرات التي قامت في قرطبة، وسائر بلاد الاندلس وكان خيران العامري هو الرأس المدبر ، والقائد لهذه المجموعات الصقلبية.

وعندما أفل نجم الخلافة الأموية، وانمحت معالمها ظهرت دويلات صغيرة في شرق الأندلس وتحالفت فيما بينها وتسمت بالدولة العامرية الصقلبية[1].

رابعا: المسالمة:

أطلقت هذه التسمية على العناصر الاسبانية الحديثة باعتناق الاسلام ،وهم ممن اعتنق الاسلام طواعية إما بحثا عن مصلحة شخصية أو إيمانا بهذا الدين الذي ضمن لهم حقوقهم، وفي مقدمتها المساواة

مع العرب المسلمين[2]. وقد أطلق عليهم العرب الفاتحون الآسالمة أو المسالمة[3].

وكان مما شجع هؤلاء على الدخول في الدين الجديد، سياسة التسامح التي اتبعها الفاتحون وهي في الأصل مستمدة من مبادئ دينهم ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[4].وقد استجاب خلق كثير من الاسبان للدعوة الجديدة.

يقول الأستاذ كرد علي «كره العرب التعصب، ولا سيما في الأندلس وعمدوا إلى تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الإسبانيين والبرتغاليين حتى أنهم كانوا إذا شجر خلاف بين مسلم ومسحيين من الجند، يعطى الحق غالبا للمسيحيين... ورخصوا أن يتعبدوا كل إنسان بالصورة التي يراها، فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب».[5]

---

[1]- العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 277.

[2]- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 127.

[3]- حسين المؤنس، المرجع السابق، ص: 341.

[4]- قرآن كريم، سورة البقرة ،جزء من الآية: 256.

[5]- كرد علي، غابر الأندلس وحاضرها، المطبعة الرحبانية بمصر ط. 1341، 1423 ص: 38.

لقد ولد هذا التسامح ، ولين الجانب عند الأسبان رغبة في اعتناق الدين الإسلامي الجديد، وهي خلال لم يألفها هؤلاء عند من غزو أرضهم من غير المسلمين. ليس هذا فحسب، بل اعتبر المسلمون أن من دخل من هؤلاء الذميين الاسلام تسقط عنه هذه الصفة تلقائيا، وينتقل إلى وضع المسلم دون تفريق أو تمييز وهو عكس ما كان يحدث في الشرق الاسلامي[1]، وعلى هذه الشاكلة دخل كثير من أهل الأندلس الإسلام وعدوا من الجماعة الإسلامية، وتلاشى كل شيء يتصل بأصلهم[2] وكانت الجماعات الأولى التي احتضنت عقيدة الفاتحين هم من العبيد وأقنان الأرض الذين نظروا إلى الإسلام كمنقذ لهم من المتاعب التي كانوا يئنون تحت وطأتها[3]. وبانضوائهم للعرب العرب الفاتحين قويت شوكة المسلمي.

خامسا: المستعربون:

هم نصارى الإسبان الذين تعايشوا مع المسلمين وتأثروا بلغتهم وعاداتهم مع احتفاظهم بدينهم، وكانت لفظة مستعربين شائعة على ألسن نصارى الأندلس[4]، ولم يشرع في استعمالها في اسبانيا النصرانية إلا عندما استولى ملوك النصارى على البلاد التي فيها نصارى مستعربون، بيد أن العرب كانوا يسمونهم بعجم الذمة[5]، وقد اندمج هؤلاء في المجتمع الاسلامي اندماجا كليًّا لا يفصلهم عنه سوى عقيدتهم التي بقوا عليها،[6] وهم يتكلمون بلسان عربي مبين ،ويقرضون الشعر ويغوصون في مجاهل اللغة العربية ، لقد تمتع هؤلاء المستعربون بكامل حريتهم الدينية والاجتماعية وحتى السياسية.

ولا أدلّ على ذلك من أن حرية العقيدة كانت مكفولة من لدن العرب المسلمين، تلك الكنائس والأديرة التي أنشئت في أحيائهم، وكانوا يقرعون النواقيس وهي بمثابة حرية التعبير والإفصاح

[1]-السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 126.

[2]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 344.

[3]- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 130.

[4]- حسين المؤنس، المرجع السابق، ص: 342.

[5]- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 130.

[6]- انخيل جنثالث بالنثيا، المرجع السابق، ص: 5.

عن العقيدة، وحماية الشعائر والطقوس التعبدية بشكل علني دون أن يمس أحدهم بأذى أو يشعر بمضايقة من قبل المسلمين، وقد أشار ابن حزم الأندلسي في كتابه "طوق الحمامة " إلى هذه الشعيرة من طقوس النصارى في قوله:

أَتَـيْتَـنِـي وَهِـلَالُ الجَّـــوِ مُـطَلِعُ قُبَيْـلَ قَـرْعِ النَصَـارَى لِلنَـوَاقِـيـسِ

وَلَاحَ فِي الأُفْقِ قوْسُ الله مُكْتَسِيًا مِنْ كُلِ لَـوْنٍ كَـأَذْنَـابِ الطَـوَاوِيسِ[1]

ومما يدل على حرية تعبدهم واستئناس المسلمون بهم، ما أورده صاحب المطمح في ترجمته لأبي عامرأحمد بن عبد الملك بن شهيد[2] حيث يقول: «انه بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة... وقرع النواقيس يبهج سمعه والقس قد برع في عبدة المسيح، متوشح بالزنانير أبد توشيح»[3].

وعند انهيار الخلافة الأموية، واختلال أركانها مع نهاية القرن الخامس الهجري، الحدي عشر الميلادي لم تستهدف هذه الشريحة، ولم تصب كنائسهم ولا بيعهم بأذى. وفي غمرة الحرب الأهلية وانهيار السلطة المركزية ظل هؤلاء يمارسون نشاطهم الديني والدنيوي بكل حرية[4].

هذا فضلا عن الامتيازات الأخرى والتنازلات بحيث كان يسمح لهم أن يكون لهم رئيس في كل مدينة يكن لهم فيها تواجد، وكان يطلق عليه اسم القومس. لقد ظل هؤلاء المستعربين ينعمون بالحرية والحياة الكريمة إلى جانب الفئات الأخرى من مسلمين وغير المسلمين، دهرا طويلا إلى أن دخل المرابطون الأندلس.

[1]- ابن حزم، طوق الحمامة بين الألفة والألاف، تحقيق الطاهر أحمد المكي، دار الهلال، الرياض 1914 ص: 133.

[2]- أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي وزير من كبار الأندلسيين أدبا وعلما كان مولده سنة 382 هـ 992م. عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حاز قصب السبق فيها، كان نسيج وحده، له شعر جيد يهذل فيه ويجد وتصانيف بديعة منها "كشف الدك وإيضاح الشك" و "حانوت عطار" و"التوابع والزوابع" وله بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومدعبات. ابن خاقان الفتح، كتاب تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس المعروف بمطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق مديحة الشرقاوي مكتبة الثقافة الدينية ط2، 2001، ص: 81.

[3]- ابن خاقان الفتح، نفسه ، ص: 262.

[4]- محمد عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص: 262.

سادسا: الموالي

وإلى جانب هذه العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي، هناك عناصر أخرى لا تقل أهمية من العناصر السالفة الذكر، من حيث المساهمة السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، سواء في مراحل الترابط والانسجام بين عناصر المجتمع الأندلس في العهود الأولى للخلافة 300 هـ 366هـ[1] أو في مراحل تلاشي هذه الروابط وبزوغ صلة قرابة العصب، والسلالات الارستقراطية والمجموعات العرقية الواسعة[2] ومن هذه العناصر الموالي.

يقصد بالموالي الشريحة التابعة للبيت الأموي والتي توافدت بشكل قوي مع طالعة بلج بن بشر الذي كان جيشه يتألف من ألفي مولى وثمانية ألاف من العرب[3]. إذ لم يشكل هؤلاء كتلة واحدة متماسكة، بل كانوا افرادا يتوزعون هنا وهناك، ولم يظهروا كقوة سياسية فاعلة في المجتمع إلا مع دخول بلج بن بشر الأندلس من موالي بني أمية وممن دخلا بعدهم[4]، وازدادت الحشود نحو هذه الكتلة حتى صارت دولة بني أمية لا تعرف إلا بهم[5].

ولقد دأب خلفاء بني أمية على اصطناع الموالي لما لمسوه فيهم من الأركان والطاعة، وما قاموا به من جهود في إرساء دعائم الدولة الأموية بالأندلس، وهناك شخصيات من المولي لمعت في أفق السياسة،وتبوأت منزلة رفيعة في جهاز الدولة مثل عبد الرحمان بن بخت أحد زعماء موالي المروانية، الذي عضد عبد الرحمان بن معاوية في تأسيس الدولة.و عندما آل نجم الدولة الأموية إلى الأفول تنكر

[1]- شريفة محمد عمر دحماني، العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في جنوب الأندلس في عصر الطوائف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 2005، ص: 81.

[2]- نفسه، ص: 64.

[3]- ابن القوطية أبو بكر، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق اسماعيل الغربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 29.

[4]- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص: 126.

[5]- نفسه، ص: 126

البعض منهم وقلب لهم ظهر المجن.حتى كانت نهاية رسم دولتهم على يد أحد الموالي وهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور[1] .

سابعا: اليهود

شكل اليهود طائفة مهمّة من طوائف المجتمع الاسباني[2] قبل مجيء العرب الفاتحين وكثرت جماعاتهم حتى غصت بهم بعض المدن ومنها اليسانةlucena[3] والبيرة[4] ولقد لقي اليهود عداء شديدا تحت حكم الرومان بدخول المسيحية شبه جزيرة ابيريا، وخاصة بعد القرارات التي اتخذها المجمع الطليطلي التي تفضي بضرورة تعميد الأولاد الذين هم من زيجات يهودية نصرانية[5] ومنع زواج المسيحيات من اليهود، ومنع الختان الذي كان يفرضه اليهود على عبيدهم، ومعاقبة من يفعل ذلك بمصادرة أملاكه وعزل اليهود عن مناصبهم ، وإلزامهم بوضع شارات تميزهم عن باقي العناصر حتى

---

[1]- ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور: تولى أسلافه من الجهاورة الحجابة والوزارة والقيادة والكتابة إلى وقوع الفتنة ، ولما لم يكن بمقدور أعقاب بني أمية إدارة الحكم في قرطبة صار إليه تدبير أمر قرطبة بعد خلع هشام بن محمد. ساس دفة الحكم من مقر سكناه، ولم يتحول إلى قصور الخلافة وتميز بالرجاحة والدهاء، ذكر بن حيان بعض تدابيره في السياسة قال: «متى سئل قال: ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم وإذا رابه أمر عظيم أو عزم على تدبير ، أحضرهم وشاورهم، شهدت قرطبة في عهده استقرارا وأمنا، وجنب قرطبة من كان يطلبها من أمراء البرابرة، ابن الأبار أبو عبد الله، الحلة التراء، دار الكتب العلمية بيروت ط1 2008 ص 189-190، الحميدي أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، بيروت، ط1 2004/1425، ص: 185.

[2]- صلاح خالص، المرجع السابق، ص: 33.

[3]- اليسانةlucena: مدينة اليهود لأن أكثر من سكنها من اليهود ولها ربض يسكنه المسلمون وبها المسجد الجامع، وهي محصنة بسور منيع، واليهود يسكنون ، بجوف الميمنة لا يداخلهم فيها مسلم البتة، وأهلها اغنياء مياسير أكثر غنى ممن اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين ومن اليسانة إلى قرطبة أربعون ميلا- الإدريسي أبو عبد الله الشريف- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق اسماعيل الغربي،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1483/ 1983- ص: 299.

[4]- البيرة: تقع شمال شرق مملكة غرناطة وهي بلدة مرتفعة صاطية الجو أسسها عبد الرحمان بن معاوية وهي من قواعد الأندلس الجليلة خربت أيام الفتنة وأنحاز أهلها إلى غرناطة وبساحلها كان نزول الأمير عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس حين عبوره إليها – الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس- ص 28-29. ابن الخطيب لسان الدين، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1423/ 2002، ص: 104.

[5]- حسين المؤنس، المرجع السابق، ص: 411.

يسهل التعرف عليهم[1]. وحيال هذه القرارات المهددة لكيانهم هاجر الكثير منهم وبقي البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المستترين judaizantes.

هذا ولم يتنفس اليهود الصعداء إلا في عهد الملك سيونتالا الذي لم يكن متعصبا لدينه ثم جاء من بعده سسناند الذي طالب بتجديد القرارات التعسفية ضد اليهود، وهكذا ظل اليهود يتقلبون بين حكام متعصبين تارة، وبين مسالمين تارة أخرى، ولعل التعصب الذي ذاقه اليهود في فترات مختلفة راجع إلى المؤامرات والدسائس التي يحيكونها في المجتمعات التي حلوا بها [2].

وعلى أية حال فإن اليهود ذاقوا مرارة الذل والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب الذي أخذت تتوق إلى الخلاص دون أن تجد إلى ذلك سبيلا[3]. ولما حل المسلمون ببلاد الأندلس، تخلص اليهود من كبوس الاضطهاد، واستمتعوا بحرياتهم التي منحهم المسلمون إياها ومنها الحرية الدينية التي ظل اليهود يكتمونها قبل دخول الاسلام إلى اسبانيا.

ومما تجدر الإشارة إليه فإن العرب المسلمين لم تكن معاملتهم المتسمة بالتسامح ولين الجانب نابعة من شريعتهم ومبادئهم كمسلمين فحسب، بل يعود ذلك إلى الجميل الذي أسداه اليهود للمسلمين أثناء الفتح. ولقد أدى هذا المتنفس، والشعور بالأمان إلى مشاركتهم في الحياة الاقتصادية والعلمية بشكل فعال، وسجلوا حضورهم في ميادين العلم المختلفة، وكانوا على جانب كبير من التنظيم فقد توارثوا حب الدرس والجلوس اليه. حيث يروي الشنتريني أن الشاعر الأندلسي الشهير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد[4] كان استاذا ليهودي اسمه يوسف بن اسحاق،[5] يعلمه الشعر

---

[1]- حسين يوسف دويدار، المرجع السابق، ص: 46.

[2]- نفسه، ص: 46.

[3]- محمد محمد زيتون، المسلمون في الأندلس -1419-1990 ص: 151.

[4]- ابن شهيد: هو احمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن سعيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعي. شاعر مفوه أوتي جوامع الكلام يقتصر على المفيد منه، ذا قريحة مطواعة يرتجل الشعر والنثر دون الحاجة إلى اقتناء الكتب. له رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والإهزال ، يميز بسرعة البديهة وحضور الجواب، الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص: 118. ابن الأبار عبد الله، الحلة الشراء، تحقيق علي ابراهيم حمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 136.

[5]- يوسف ابن اسحاق، عاصر ابن شهيد الشاعر وكان تلميذ له، قال فيه «لم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ذري تربه وطلع عشبه ثم تفتح زهره...»الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص: 146.

والأدب[1]. وكان علماؤهم أصحاب التلموذ يسلكون طرقا مشابهة للطرق التي يسلكها الفقهاء المسلمون، وعلى شاكلتهم سار الاطباء، والمترجمون الذين برعوا في ترجمة العديد من المصنفات بلغات مختلفة، منها العبرية والعربية، والقشتالية وأحيانا اللاتينية واليونانية. وقد استمر عدد كبير من بين هؤلاء العلماء امثال حسداي بن شبروط طبيب الخليفة الناصر الذي كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والمماليك الأجنبية[2].

ولا يمكن تفسير هذه المكانة والتألق الذي آل إليه اليهود، إلا تفسير واحد، ألا وهو التسامح ولين الجانب الذي منحه المسلمون لجميع الجاليات غير الاسلامية، سواء تلك التي كانت متواجدة في شبه الجزيرة قبل الفتوح الاسلامية، أو الذين دخلوا الأندلس بعد الفتح.

فقد لقي هؤلاء من المسلمين من حسن المعاملة، ما لم يلاقيه مع أمم أخرى، بل أشركهم المسلمون في جميع شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية مما حدى ببعض المؤرخين اليهود المعاصرين، إلى الاشارة إلى ان اليهود في العصر الوسيط الاندلسي كانوا أحسن حالا من غيرهم في بقاع العالم الأخرى.

فقد نعموا بالاستقرار والرفاه الاقتصادي، والحرية المطلقة في ممارسة جميع نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، مما دفعهم إلى تطوير ابداعاتهم العلمية والادبية يقول حاييم الزعفراني «....وتجدر الاشارة هنا إلى ان اليهودية في الاندلس كانت أحسن حالا من غيرها من البقاع الاخرى، من حيث الامن والاستقرار، وقد لعب يهود الاندلس، بما كانوا عليه من وضع قانوني دورا مهما في ازدهار حياة البلاد الاقتصادية، بل في الشؤون العامة، وإليهم يعود الكثير من الفضل في الازدهار العام فمنحهم هذا الرفاه والرخاء ،التفرغ لطلب العلم وبلوغ المراتب العليا في الفكر في كل مشاربه المتمثلة إذاك في العلوم والاداب العربية الأندلسية، مما مكن اليهود من ان يؤثروا تأثيرا كبيرا في

[1]– ابن بسام الشنتريني أبو الحسن، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/ 1998م، ج1، ص: 145.

[2]– ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة، ذو قار قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص: 108.

تطور الفكر اليهودي، وأن يسهموا في اخصاب واغناء مختلف أشكاله التعبيرية، وكان نتيجة لذلك نالت الدراسات العبرية في جوانبها اللغوية والأدبية»[1].

وحتى في مجال الشعر الذي كان العرب المسلمون قد قطعوا فيه شوطا بعيدا، ووظفوه في حياتهم اليومية، والدينية، والدنيوية، والعاطفة، واطلقوا العنان لقرائحهم الشعرية أن تجود بالقصائد الرائعة التي تغنت بها أجيال متوالية، كما عبروا عن خلجات النفس والروح، ولم يجدوا في ذلك عائقا دينيا يمنعهم من ذلك. في حين لم يعن الشعر اليهودي في بلاد المشرق – الذي كان حسن الشعر الديني– الشعر الدنيوي، إن صحّ التعبير، إلا بعد انتقاله إلى الأندلس، فقد ظهرت بالتدرج اتجاهات شعرية منحت بالشعر العبري إلى الخروج من هذا المسمى إلى مجال أكثر تفتحا. يعبر به أصحابه عن مواقفهم من الطبيعة، والحياة اليومية اقتداء بالشعراء المسلمين، مما جعل هذا الاتجاه موضع جدل وخلاف بين رجال الدين، واصحاب هذا الإتجاه من شعراء اليهود، فأدى ذلك إلى ظهور مدرستين متنافستين يتزعم إحداها دوناش بن لبراط، والثانية يتزعمها مناحم بن سروق، وغدا الإتجاه الثاني مثله مثل شعراء المسلمين في الأندلس في مقاصده، وأهدافه، وموضوعاته، واصنافه، وتقنيات نظمه[2].

وعلى أي حال ففي مستهل عهد الطوائف، وبالرغم من الفتنة التي عمّت الاندلس وعصفت باعداد كبيرة من المسلمين الذين ينتمون إلى مختلف الطوائف الإثنية، لم يثن ذلك اليهود من أن يتبوؤا مناصب حساسة في امارات مختلفة كغرناطة التي وصل فيها واحد من اليهود وهو ابن النغريلة الذي تقلد مرتبة الوزارة في دولة بني زيري، وأصبح مطلق التصرف في شؤون الدولة، وحذا حذوه الكثير من اليهود الذين كانت تحدوهم الرغبة في التألق، والوصول إلى مناصب هامة في المملكة[3].وبهذه المعاملة الحسنة التي لقيها اليهود من المسلمين في الاندلس، جذبت كثير من اليهود الشرقيين إلى هذه البلاد[4].

[1]– حاييم الزعفراني، يهود الاندلس والمغرب، ترجمة أحمد سحلان، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ج1، ص: 176.
[2]– نفسه، ج1، ص: 175.
[1] – David wasserstan- Samuel ib naghrila ha hagid and islamic historiography in al-andalus Al – qantara revista de estudios arabes vol XII madrid, 1993 fase.
[4]– صلاح خالص، المرجع السابق، ص: 33.

البربر في جيش الخلافة الأموية قبل عهد الطوائف.

سار عبد الرحمان الثالث في أول عهده على نهج جده، في الاحتفاظ بالمرتزقة الذين أقحمهم الأمير عبد الله في صفوف جيشه، وظل عبد الرحمان يستعين بهم ويستجلب رجالا أخرين[1]. وهو ما ذكره ابن حيان: «فأكمل النظر في شد كورة شذونة، وبنى حصن أشبرة ،غيره على حصن أقوط، وأدخل فيه جميل بن عقبة البلوي ،عاملا وصير معه فيه عدة كثيفة من الفرسان والبربر الطنجيين والرجالة الملحقين والعدة التامة من الأطعمة والأسلحة»[2].

ومع ذلك فإن عبد الرحمان الناصر لم يكن مسرفا في استجلاب البربر إلا بقدر ما كان يحتاج إليه من مواجهة اعدائه، متبنيا سياسة التوجس والحذر .مقتصرا بذلك على توجيه الغوغاء والأغفال من عامة البربر الذين ليس لهم من ملكات الإلتآم والتمرد التي تسمح لهم بتهديد أمن واستقرار الخلافة[3]. وهو ما يؤكده ابن حيان قائلا«استخدم من البرابر أرذالهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم موقعا عليهم إسماالطنجيين مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم أقل الرواتب مصرفا لهم في أشق الخدمة»[4].

لا شك أن المتأمل في هذا النص أعلاه، يستخلص ان الناصر كان على دراية وبصيرة بأخلاق البربر وطبائعهم، فهم أي البربر كثيرا ما شقوا عصا الطاعة سواء في عهده أو في عهد أسلافه . لذلك تزعزعت ثقته بهم[5].

---

[1]- ابن حيان القرطبي، المقتبس، الجزء الخامس، نشر وتحقيق، بشالمينا، المعهد الإسباني الغربي للثقافة، مدريد 1979، ج5 ص: 63.

[2]- نفسه، ج5، ص: 88.

[3]- عمر بوخاري، الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس وعلاقتهم بملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي، كنوز للنشر والتوزيع، 2012، ص: 23

[4]- ابن حيان، المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، بيروت 1426/ 2006م، ص: 148.

[5]- عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس، ص: 147.

ثم أن ابن حيّان لا يورد لنا معلومات أو إشارات تمكننا من معرفة أعداد البربر المرتزقة، ولا عن انتماءاتهم القبلية، مكتفيا فقط باسم "الطنجيين" إذ أن ذكر العدد قد يعطينا صورة واضحة عن ميل عبد الرحمان الناصرللعنصر البربري من عدمه.

وللإشارة فإن تجنيد البربر من قبل عبد الرحمان الثالث ،لم يخضع دائما لهذه القاعدة التي ذكرها ابن حيان ،فهو قد استخدم زعماء البربر وجعلهم على رأس الجيش والكتائب، وزج بهم في معمعة القتال، ليختبر ولاءهم لبني امية ،لان عملية الاختبار والانتقاء لم تكن لتغيب عن خلفاء بني أمية ،خصوصا في بلاد تجمع أجناسا مختلفة ومتباينة. كما هو الشأن بالنسبة إلى لسعيد بن المنذر الذي قدمه ضابطا وقائدا لمدينة الفرج[1] وأغزاه مع نفسه[2].

ومما يدل على حسن اختيار الناصر لقادة جيشه ،سواء كانوا بربر أو من جنس آخر، هو ما كان يتحلى به هؤلاء من صلابة المراس، والقيادة الموفقة للجيوش .وهو ما يورده ابن عذاري في البيان قوله« فلما كان في صباح الجمعة لاثنتين عشر ليلة بقيت من صفر اندفعت الخيل في أكمل تعبئة وأهذب ترتيب وأوكد ضبط وأبلغ حزم إلى حصن وخشمة »[3].

والشأن نفسه مع أحمد بن يعلى الذي عينه الناصر على رأس جيش نحو جليقية الذي باغت العدو بخطة محكمة فافتتح ثلاث حصون وسبي نحوا من ألف سبية[4].

كما عمد الناصر إلى استخدام أشراف القبائل وزعمائهم الذين فرّوا من مطاردة الفاطميين لهم، فيمّموا نحو قرطبة لإلتماس الأمان، ومن مشاهير هؤلاء حميد بن يصل المكناسي الذي التحق بالناصر سنة336هـ/ 946م فأكرم نزله، واستعرض له الجيش وأقام له حفلا بهيجا[5]، وكانت سياسة سياسة عبد الرحمان الناصر ترمي إلى استقطاب أمراء العدوة المغربية ،ليس فقط لإخماد المعارضة في

---

[1]- الفرج: تنسب مدينة الفرج إلى الفرج بن سالم الذي تنسب إليه مدينة سالم بن وزعمال بن وكذات، ابن حزم، المصدر السابق ص:501.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 176.

[3]- نفسه، ج2، ص: 177.

[4]- نفسه، ج2، ص: 217.

[5]- نفسه، ج2، ص: 215.

الداخل بل لمواجهة بني عبيد الذين بدأت تهديداتهم منذ وفاة جده[1]. ولم يكتف الناصر بالاستعانة بأشراف قبائل العدوة الجنوبية ،بل عمد إلى الثوار المتحصنين الذين تنغصت بهم الخلافة الأموية في الأندلس واستنزلهم من حصونهم[2]، فهو قد ورث من أسلافه بلادا تعجّ بالثورات والاضطرابات حسب قول ابن الخطيب: «ولي الناصر لدين الله الامر والأندلس جمرة تحتدم ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الأفاق فسكنها الله بسعده»[3]. لذلك وجد نفسه مكرها على انتهاج سياسة أسلافه في مسالمة الثوار تارة ومحاربتهم تارة اخرى[4]، حيث كانوا في حاجة ماسة إلى الدعم العسكري لمواجهة الحركات المناوئة وكان يقوم بمعظمها العرب والمولدون والهجمات التي كان يقوم بها النصارى في الثغور الشمالية[5].

ومن هؤلاء الثوار الذين استنزلهم الناصر من حصونهم حصنا حصنا[6]. بني هابل الأربعة بكورة بكورة جيان[7]، وهم منذر بن حريز بن هابل وأخوه أبو بكرامة هابل بن حريز، وأخوه عامر وأخوه عمر، هؤلاء ثاروا في حصون جيان في أيام الأمير عبد الله وشقوا عصا طاعته،[8] وكانوا يتقلبون بين الولاء والعصيان، فعندما تغزوهم الصوائف يتمثلون ويطيعون، وعندما تكف يعودون إلى ماكانواعليه

---

[1]- بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، المدار الاسلامي، بيروت 2003، ص: 132.

[2]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 353.

[3]- ابن الخطيب المصدر السابق، ص: 29.

[4]- نفسه، ص: 36.

[5]- عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص: 145.

[6]- ابن حيان، المقتبس، ج5، ص: 60.

[7]- جيان: من أحسن المدن، ثمارها كثيرة ومتنوعة ،وبها اثنا عشرة عينا، وهي من اشرف البقاع تقع على سطح جبل عالي جدا وبها أقاليم عدة وبها حمامات ذات مياه عذبة.الحميري، المصدر السابق، ص183. المقدسي أبو عبد الله محمد أبي بكر المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم دار إحياء التراث الغربي، بيروت، 1987 ص: 193.

[8]- ابن عذاري، المصدر السابق،ج2 ص136. محمد دياب تاريخ العرب في اسبانيا، مكتبة الثقافة الدينية 2001/1421 ص248.

من المعصية والتمرد[1]، وظلوا على هذه الحال إلى قدوم عبد الرحمان الثالث الذي عمد إلى سياسة الإستنزال«فنزلوا على حكم الأمان فحسنت طاعتهم وخدمتهم»[2].

وحتى لا يعود هؤلاء إلى أعمالهم السابقة كان يحولهم مع عائلهم ويقحمهم في الوظائف التي تناسبهم، وكانت في الغالب وظائف عسكرية وفي هذا يقول ابن حيان: «فنزلوا عن معاقلهم إليه وكلهم مذعن بطاعته محكم في نفسه، وأوسعهم عفوه وألبسهم فضله وأخلى مواطنهم منهم وقدم اولادهم ونسائهم وأثقالهم إلى قرطبة، وصاروا لرجاله إسوة واستعمل على حصونهم ومعاقلهم ثقات رجاله»[3].

ويضاف إلى هؤلاء البربر الذين استنزلهم الناصر ، هماإبنا مهلب، وهم من وجوه البربر بكورة البيرة وهما خليل وسعيد، اللذان قاما بثورة على غرار الثوار وحذا حذوهم أبناؤهم من بعدهم إلى ان استنزلهم الناصر بعد وفاة أبائهم[4].

وبالرغم من هذه السياسة المنتهجة من قبل الناصر في استجلاب البربر، فهو في صدر دولته أراد احتواء ما يمكن احتواؤه من النكبة التي أصابت الأندلس من الاضطرابات والقلاقل، وكثرة الثوار التي كانت وراءها عدة أسباب يوجزها ابن الخطيب في هذا النص قائلا: «والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاث وجوه .الأول : البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقرباتهم عدو الدين.... والثاني :علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان يحصد بالأندلس مع العرب والبرابرة أشراف يأنف بعضهم من الإذعان لبعض والثالث: الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم....»[5].

---

[1]- محمد حقي، المرجع السابق، ص: 210.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 136.

[3]- ابن حيان، المقتبس، ج5، ص: 66.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 137.

[5]- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 36.

البربر في جيش الخلافة على عهد الحكم المستنصر 350- 366هـ /961 – 976م

تولى الحكم المستنصر الخلافة بعد وفاة والده عبد الرحمان الناصر سنة 350هـ/961م، وبقي متمسكا بأهداف سياسته، ولم يشذّ عن القاعدة التي ورثها عنه،وإلتزم بها في صدر دولته حيث يورد ابن حيان نصا يبرز فيه التزام المستنصر سياسة والده قائلا«وأنهى خلفه الحكم في امتثال ذلك صدر دولته، وشديدا باستعماله وربط قلب على ابرامه وأصبح أبين اعتقادا فيه، وأشد ذيادا لغلمانه وأحشامه وأجناده عن التشبه بالبرابرة، والتشكل بشكلهم والاستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم»[1]وهناك من ذهب إلى أبعد من هذا ، في وصف إمتثال المستنصر لسياسة ابيه، إتباعها شبرا بشبر، وذراعا بذراع وهو ما أورده المقري التلمساني قوله ًفجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه ًيدل النص أعلاه، دلالة واضحة على التصميم وعقد العزم بل والتشديد على إلزام غلمانه وأحشامه على تجنب التشبه بالبرابرة في أبسط الامور .

ولما أراد الحكم المستنصر أن يحول هذا النهي من حيزه النظري إلى حيزه الفعلي،كان أن حدث ذات مرة وهو سائر بموكبه نحو الزهراء، فوقعت عينه على غلام له يركب فرسا بسرج عدوي الصنعة، فامتعض الحكم وغضب غضبا شديدا، حتى أنه التفت إلى صاحبه جعفر الصقلبي منكرا عليه غفلته على هذا الفعل، وأمره بإحراق السرج واشتد العجب من هذا النكير وهاب من حضر الواقعة، واستحسنها أغلبهم[2]. قد يكون هذا الالتزام على الصعيد الداخلي فقط لتأمين الجبهة الداخلية من كل طارئ محتمل، أما على الصعيد الخارجي فقد جنح الحكم إلى اكتساح الساحة المغربية دون مراعاة الجهود التي يتطلبها هذا الغزو، وقد أنفق في ذلك أمولا ضخمة أوردها ابن حيان في هذا النص قائلا «فقاد خيول الأندلس إليهم، وربط أكابر قواده على ممارسيهم وتحويل المستمالين

[1]– ذيادا : ذودا وذيادا دفعه وطرده ويقال ذاد عن حرمه وعن وطنه وذاد عنه الهم وذاد الدواب عن الموارد وفي التنزيل "ووجد من دونهم إمرأتين تذودان "القرآن الكريم ،سورة القصص الآية 23 .المعجم الوسيط،إبراهيم مصطفى،أحمد حسن الزيات ،حامد عبد القادر محمد علي النجار، دار الدعوة، إسطنبول، 1989م ،ج1، ص: 317.

[2]– ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 148.

من أهل بلدهم عليهم، حتى قهرهم واستنزلهم عن صياصيهم »[1]. أما والده فقد تحلى بنظرة واقعية، حيث اكتفى بالاستلاء على المدن الواقعة في الضفة الجنوبية سبتة، وطنجة، ومليلية، وجعلها قواعد تحمي سواحله الجنوبية، وحتى يكسب مزيدا من التأيد، فقد كان يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ويستقبل من يفدمنهم على الأندلس بحفاوة وتجله، ويجند في جيشه المرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يفيدون عليه بأعداد كبيرة[2].وقد نجح الناصر إلى حد كبير في هذه السياسة التي جعلت الفاطميين ومن بعدهم بني زيري الصنهاجيين يصطدمون بهذا الجدار العازل. وعلى أية حال فإن الحكم المستنصر قد عدل عن سياسة الإعراض والنفور من العناصر البربرية وكان لذلك دوافع وأسباب يذكرهاإبن حيان مفصلة أثناء الحروب التي دارت رحاها مع بني محمد الحسنين المنتزين عليه بأرض العدوة المحاربين لعمله هناك[3].

إلا أن هذا التراجع والميل إلى البربر، يعود في نظري إلى العناصر البربرية المتواجدة في الاندلس والتي تقلدت مناصب عسكرية وإدارية، قبل الاصطدام بإخوانهم في العدوة الجنوبية، لقد كانت شخصية عثمان بن نصر المؤدب[4]، أقرب الشخصيات إلى الحكم المستنصر باعتباره مربيه ومؤدبه فلا ضير أن يكون لهذه الشخصيات تأثير في هذا التحول[5]. وما إن اعتلى الحكم عرش أسلافه حتى قام بتعيين جعفر بن عثمان المصحفي[6]. لقد كان لهذه الشخصية حضور قوي في الجهاز الاداري في

---

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 149.

[2]- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد 2005، ص: 388.

[3]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 148.

[4]- عثمان بن نصر بن عبد الله بن حميد بن سلمة بن عباد بن يونس القيسي المصحفي المؤدب، أدب الحكم، كان ذا سمت وعدالة وهو والد جعفر الذي أدناه الحكم فاستخدمه للكتابة، توفي عثمان سنة خمسة وعشرين وثلاثمئة وهو ابن اثنتين وستين سنة. ابن الفرضي أبو الوليد، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية 2006، ص: 271. ابن الأبار أبو عبد الله ،الحلة السيراء، تحقيق علي ابراهيم محمود، دار الكتب العلمية، ط1، سنة 2008، ص: 146.

[5]- فراد محمد آرزقي، القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف، القرن الخامس ،الهجري الحادي عشر ميلادي- ديوان المطبوعات الجامعية ص: 10.

[6]- جعفر بن عثمان المصحفي: جعفر بن عثمان بن نصر من برابر بلنسية ولي جزيرة ميروقة في أيام الناصر، وبعد وصول الحكم المستنصر إلى سدة الحكم،استوزره واتبع إليه ولاية الشرطة، وفضلا عن هذه المهام الوزارية والإدارية فهو من أهل العلم والادب البارع، وله إسهامات شعرية رائعة تدل على حسن طبعه واحساسه المرهف قال يرثي الخليفة الناصر لدين الله: ==

عهد عبد الرحمان الناصر الذي ولاه على كورة البيرة،وألمرية، ثم عزله عن البيرة التي تولاها القائد محمد بن رماحس،واكتفى بتولية جعفر على البيرة فقط وفي سنة 333هـ/ 944م ولاه عبد الرحمان الناصر قائدا على الجزائر الشرقية، ولم يتردد الحكم في اتخاذه كاتبا ووزيرا ثم منحه منصب الحجابة وهو اعلى منصب يطمح إليه رجال الدولة[1].

وظل جعفر بن عثمان المصحفي في منصب الحجابة، إلى وفاة الحكم المستنصر 366هـ وقام من بعده ولده هشام الذي اختلفت الرعية عليه، واضطرب شمل الخلافة لحداثة سنه، فقام بأعباء الحماية المنصور بن أبي عامر[2] ومني جعفر بمنافس عنيد كانت نهايته على يديه [3]كما سأبين ذلك لاحقا.

إلا أن اهم عامل جعل الحكم يهفو نحو فئة البربر ويحيطها بعطفه، هو ذلك الانتصار الذي ناله أبو علي جعفر بن علي الأندلسي[4] ،ويحي أخوه على قوات زيري بن مناد الصنهاجي، عندما

أَلَا إِنَ أَيَامــاً هَفَــت بِإمَـامِـها — لجَـائِـرَةٍ مُشـتـطـة بـاحتِكـامِـهَا

تَأْمَـلُ فَهَـلْ مِـنْ طَالِـعٍ غير آفِـلِ — بــه وهــل مــن قَـاعِـدٍ لقيَـامِهَا

وعَـايـش فهَــل مــن عائِـشٍ بِرضَاعِها — مــن الــناس إلا مَيِّــتٌ بفِطَامِـهَا

كَـأَنَ نُفـوس النــاس كانـت بنـَفْسِه — فلــما تـوارى أَيْـقَـنْـتَ بحَـمَـامِـهَا

فَطَـــار بهــا بَـأْسُ الأَسَـى وتَقَـاصَـرَت — يــدُ الصَــبْرِ عَــن أَغْوَائِهَاوإلتِـدَامِـهَا

==ابن الابار أبو عبد الله، الحلة السّيراء- تحقيق علي ابراهيم محمود، دار الكتب العلمية، ط1، 2008-1429، ص:151، الحميدي أبو عبد الله ، المصدر السابق، ص184، ابن عذاري المصدر السابق، ج2، ص: 254.

[1]- فراد محمد آرزقي نفسه ص: 11.

[2]- ابن كثير عماد الدين، البداية والنهاية ،تحقيق ومراجعة محمد محمد تامر، شريف محمود، محمد عبد العظيم، محمد سعيدمحمد،دار البيان العربي، مصر، ج6، ص: 332.

- عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب، دار هومة ص:261.

[4]- أبو علي جعفر بن علي: هو ابن علي بن حمدون بن سملك بن سعيد بن ابراهيم بن أحمد بن عبد الحميد الجذامي الداخل إلى الأندلس، نزل بكورة البيرة صحب جده إلى الحج ،ووقع في بلدة كتامة وبها تزوج واتبع مذهب أبي عبد الله الداعي، وهو من سماه عليا وكان اسمه ثعلبة وأمر ببناء مدينة المسيلة وعين على رأسها بعد كمالها ،وجعفر يومئذ بمدينة المهدية إلى أن أوصله عبيد الله إلى المسيلة وامتاز جعفر بخصال الأدب والبراعة وأعجب به الناس والتفوا حوله وتولى جعفر امر المسيلة بعد مقتل أبيه ،وظل بها إلا أن قتل زيري بن مناد على يد الزناتيين، ابن حيان المصدر السابق، ص: 23-24.

التقى الفريقان في معركة ضارية تحدثت بها الركبان في رمضان 360هـ/ 970م، عند وادي الملوية على مشارف المغرب الأقصى.

ومما قاله صاحب مفاخر البربر عن هذه الواقعة «فاشتد القتال بين الفريقين وزيري في صدر خيله يحرضها بفضل نخوته، وشدة جرأته إلى أن عقر به فرسه وجدت زناتة في القبض عليه وصنهاجة في استنفاذه ودارت رحى الحرب ساعة قتل فيها من أنجاد الطائفتين جماعة إلى أن ظهرت عليه زناتة وهو عقير فحتزترأسه »[1]وقتل في هذه المعركة معظم رجال زيري الصريع، وتم الاستلاء على معسكره[2]. معسكره[2].

لقد كانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع التي شهدتها بلاد المغرب يومئذ لما شهده من هول ووطيس، وتدحرجت فيها رأس زيري بن مناد يقول بن حيان واصفا هولها «وكانت هذه الوقيعة من أعظم الوقائع وأبعدها صيتا وأشنعها ذكرا،إحتوىالزناتيون بها عسكر زيري وأثخنوا القتل في جموعه وأدركوا آثارهم المنيم منه[3]».

وعقب هذه الحادثة كتب جعفر بن علي الخليفة الأموي، معلنا ولاءه ومخلعا لدعوة الشعيين ويطلب منه الإذن بالدخول إلى الأندلس، فكان له ما أراد ودخل قرطبة مع بني خزر يحملون رأس زيري بن مناد[4]،ورؤوس كبار رجاله وسرّ الحكم بقدوم الوافدين عليه وخصهم باستقبال كبير.[5]دعى كبير.[5]دعى له كبار الشخصيات والأعيان واكرم نزلهم بان أرسل إليهم الخيول، والبغال، والهوادج، والملابس،++ وهو ما جاء في كتاب البيان المغرب قوله «وفي القعدة منها خاطب المستنصر بالله قواده وعماله بكورة الأندلس في استقدام كبارها وأعلام رجالها لمشاهدة دخول يحي بن علي بن

---

[1]- صالح بن عبد الحليم الإيلاني، مفاخر البربر ، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، ط3، 2008، ص: 109.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ث243، صلاح بن عبد الحليم، نفسه، ص: 109.

[3]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 24.

[4]- ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الشأن الأكبر تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، 1421هـ/2000م، ج7، ص: 37.

[5]- josiane lahlou- les zirides fondateurs d'alger et de la grenade edition dalemen 2011, p: 63.

حمدون، وبني خزر امراء زناتة القادمين برأس زيري بن مناد الصنهاجي قائد معد بن اسماعيل الشيعي ورؤوس أعيان أصحاب[1]».

وفي غمرة هذا الاحتفال انبرى الشعراء بذكر فراق جعفر وأخيه يحي لسلطنهما بالمغرب وقدومها على الخليفة المستنصر ومما قاله يوسف بن هارون [2] ينبهه بحقيقة هؤلاء البربر وان يرفع ثقته بهم.

ولقد عجبت لغفلة المستنصر إذا أكثف الجيش للهيام لجعفر

وأن من أهواه أبرز وجهه قامت لواحظه مقام العسكر[3]

ظلّ الحكم متحفظا إزاء الاعتماد على البربر بالرغم ما قام الزناتيون ببتر ذراع الفاطميين في بلاد المغرب، إلى أن كانت المواجهة مع بني محمد الحسنين[4] الذين تخلو عن دعوة المروانية وانضووا تحت لواء جيش بلقين بن زيري الصنهاجي[5]، وذلك حين اعلن عن حركته الشهيرة لاستئصال شأفة

---

[1]- ابن عذاري المصدر السابق، ج2، ص: 243.

[2]- يوسف ابن هارون: أبو عمر يعرف بالرمادي وتعني بالاسبانية الدارجة أبو جنيس والتي تعني الرماد بالاسبانية senisa وترجمة الرماد على هذا النحو ceniciento، وهو شاعر مفوه سريع القول اشتهر بين الخاصة والعامة في مختلف فنون المنظوم وله في مدح الحكمة المستنصر شعر طويل كتب في سجنه كتابا سماه "الطير" وصف فيه كل طير معروف وذكر خواصه، وذيل كل قطعة بأبيات شعرية يمدح فيها ولي عهده هشام مستشفعا به إلى أبيه بغرض العفو عنه وإطلاق سراحه. الضبي أبو جعفر، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ص:457. آنخيل جانثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ص: 68 .

[3]- آنخيل جانثالث بالنثيا، نفسه، ص: 68.

[4]- بني محمد الحسنين: هم بني محمد بن القاسم بن ادريس الحسيني وكبارهم أذاك الأخوان الشقيقتان قنون وابراهيم. لسان الدين ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 218.

[5]- بلكين بن زيري الصنهاجي: هو يوسف المكنى بأبي الفتوح والملقب بسيف العزيز بالله هو من أعلن الحرب على زناتة ولاحقهم وفتح معاقلهم وهو من ناب عن والده في تأسيس مدن، الجزائر ومليانة، والمدية. لسان الدين ابن الخطيب المصدر السابق ص221. الهادي روجي ادريس، الدولة الصنهاجية ، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي بيروت 1992 ج1، ص: 60.

الزناتيين ومن حالفهم. وكان الحسن بن قنون[1] اول من سارع إلى بيعة الشيعة، ونصرة بلقين بن زيري في مقاتلة أولياء المروانية وقطع دعوتهم من بلاد المغرب[2].

لم ينتظر الحكم المستنصر طويلا لمعالجة الموقف، قبل أن تلتحم قوات الحسن بن قنون مع قوات بلقين،وتتمكن من اختراق الجدار العازل الذي أنفق والده الناصر جهودا مضنية في اقامته وليس هذا فحسب بل رأى الخطر الفاطمي بالنسبة للمروانيين لا زال قائما فهو إن زالت قيادته، فقد بقي شيعتهم الذين ينوبون عنهم في بلاد المغرب، ولذلك انبرى الحكم المستنصر للمواجهة المباشرة وسارع إلى تعبئة الجيوش والأساطيل ومنح قيادة الجيش للقائد المحنك محمد بن القاسم بن طملس[3] وأوصاه بالآداب التي يمكن أن يسلكها أثناء الحرب وأن يؤثر العفو والصفح عند المقدرة [4] ،وأن يجند على الفور من دخل في طاعته من البربر في صفوف جيشه، وفي الحادي عشر من شهر شوال 361هـ/ 971م[5] تلاحقت الجيوش المبحرة إلى مدينة سبتة التي عدت قاعدت إنطلاق للجيش الأندلسي ومنها إلى مدينة تطوان[6].

---

[1]- الحسن بن قنون: ابن محمد بن القاسم بن ادريس الحسني، أخذ الولاية بعد انصراف أخيه إلى الغزو الذي مات فيه وهو آخر ملوك الأدارسة درات بين الحسن والحكم المستنصر حرب سجال، الى أن كانت هزيمته على يد غالب مولى الحكم الذي اقتاده إلى قرطبة مع ثلة من رجاله. لسان الدين بن الخطيب نفسه ص221-222. ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1420/ 1999، ص: 108.

[2]- لسان الدين ابن الخطيب، نفسه، ص: 221. ابن أبي زرع، نفسه، ص: 111.

[3]- محمد بن القاسم بن طملس: هو القائد الذي أرسله الحكم المستنصر على رأس الجيش لمواجهة الحسن بن قنون وانتهت المعركة بهزيمة جيش الأندلس وقتل ابن طملس وحزن الحكم حزنا شديدا واستخلفه بغالب مولاه. ابن حيان المصدر السابق، ص67.

[4]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص: 245.

[5]- نفسه، ج2، ص: 254.

[6]- تطوان: تقع شمال العدوة الجنوبية تبعد عن البحر 6 أميال، تجري بها مياه كثيرة، فتحها المسلمون بعد دخولهم مدينة سبتة. أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق ادريان فان ليوفن وأندري فيري الدار العربية للكتاب، تونس ج2 ص781..حسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة إلى العربية محمد حجي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي بيروت، ط2 1983، ج1، ص: 318.

فالفاها خالية ثم يمّم نحو طنجة لمؤازرة عبد الرحمان بن رماحس الذي وقف على مشارفها، ودعي أهلها إلى الطاعة، إلا أنهم أساؤوا الرد عليه وامتنعوا، وكان الحسن بن قنون يحرضهم ويشد عزائمهم على الثبات، إلاّ أنه لم يستطع مقاومة الحصار وفضل الهجوم بدل المكوث داخل المدينة، وبعد الالتحام مع جيش الحكم أيقن بالهزيمة، وولى مدبرا ولاذ بالفرار في ثلة من أصحابه تاركا وراءه ما خف أو ثقل من الأموال والأخبية، يصف ابن حيان بعض من هذا المشهد القتالي قائلا«وتأمل ذلك حسن مغويهم، فاعتزلهم وفر هاربا في خاصة من أحبابه لا يلوي على أحد، ولم يعرج على ما كان له ولهم بالمدينة من أموالهم وأمتعتهم، وما كانوا قد عدوه فيها من أخوادهم وذخائرهم[1]».

فلما يئس أهل طنجة من عودة قائدهم، خرج شيخهم ابن الفاضل مع اعيان المدينة، يتقدمهم ابن رماحس وهم يرددون الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم ثم طلب الشيخ الامان لأهل بلده فكان له ما اراد، وأوفد ابن رماحس كتابا إلى الحكم يزف إليه الانتصار مع صاحب البريد، فحلول بن هذيل ومسعود بن محمد، فسر الحكم لهذا الانتصار وكافأهم بمائة دينار لكل واحد منهم وخلع عليهما خلوعا طرازيه[2].

لقد نجح الحسن بن قنون في تأمين خط الرجعة والوصول إلى قاعدة إرتكازه في فحص مهران[3] أين أمكنه اعادة تنظيم قواته واستجماعها. وفي يوم من أيام شهر ربيع الأول من سنة 362هـ/972م التقى الجمعان ودارت بينهما حرب عظيمة انتهت بانتصار ابن قنون على قوات محمد بن القاسم، بسبب أتعاب الملاحقة والإجهاد. وقتل محمد بن القاسمبن طملس في جملة من أصحابه الفرسان ناهزوا الخمسمائة، ومن رجالاتهم نحو الالف[4]. وفجع الحكم المستنصر بنبأ مقتل قائده ابن طملس، مما زاد في اصراره على مواجهة البربر واخضاعهم بالقوة، ومن ثم استمالتهم إلى

---

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 66.

[2]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 67.

[3]- يذكر ابن أبي زرع الفاسي هذا المكان ويسميه فحص بني مصرخ، ويسميه ابن عذارى فحص مهران. ابن عذارى المصدر السابق،ج2، ص: 246. ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص: 112.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 246.

صفوف جيشه معترفا ببسالتهم وحسن بلائهم في الحروب، فهو بالرغم من بغضه لهم إلا أنه أراد أن يقوى بهم على خصومه في مختلف الجبهات، وخاصة العدوة المغربية التي كانت تعج بالمناوئين أتباع الفواطم، وقد ألمع ابن حيان هذا الميل والاغتصاص الذي تجرعه الخليفة الأموي الحكم المستنصر بقوله" ووافته على ذلك شارة رجال هؤلاء الحسنين من غلمانهم وصنائعهم المرغمين لهم وله بإذعانهم لإذعانهم للذي سبق لهم لديه من الإغتصاص بمرارتهم والإعتراف ببأسهم فاستضم جميعهم عنهم وألحقهم بجنده ونعشهم بعطائه وبوأهم بداره"[1].

وعلى أية حال فإن الحكم المستنصر دفعهم بكل حزم على محو آثار هذه الهزيمة، واسترداد كرامة قواته ونفوذه في بلاد المغرب[2].فقام على عجل لا يلوي على رأي، وخاصة عندما استغاثه الجند الذين فروا إلى مدينة، سبتة وتحصنوا باستدعاء غالب بن عبد الرحمان مولاه صاحب الثغر[3] من مدينة سالم[4].

وكان غالب هذا على غاية الحزم والنجدة والشهامة والدهاء والإقدام[5]،فوافاه بقرطبة في ثلة من القادة والرؤساء والأجناد، وضم إليه جيشا عرمرما وأمده بأموال معتبرة وعدة ومؤن وأوصاه عند توديعه وصيته الخالدة " سر سير من لا إذن له في الرجوع إلا حيا منصورا أو ميتا معذورا، وابسط يدك في الانفاق، فإن أردت نظمت الطريق بيننا قطار مال"[6].

---

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 149

[2]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 232.

[3]- لسان الدين ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 221.

[4]- مدينة سالم: medinaceli من أعمال قشتالة على الحدود أرغونة جنوب سرقسطة أي شمال مدينة مدريد بحوالي 153كم.أمين واصف بك، معجم الخريطة ، تحقيق أحمد زكي باشا مكتبة الثقافة الدينية ص: 104.

[5]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 112.

[6]- ابو علي صالح بن عبد الحليم المصدر السابق ص:111 – وردت الوصية في كتاب روض القرطاس بصياغة اخرى " سر سير سير من لا إذن له في الرجوع إلا حيا منصورا أو ميتا معذورا، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس" ابن أبي زرع الفاسي المصدر السابق، ص: 112.

وفي مدلول هذه الوصية التي اسمعها الحكم لقائده غالب، هي أن يعمل السيف في المعاندين، ومن ركبوا رؤوسهم في مواجهة المروانيين من ناحية، وأن يبسط يده بالعون والإحسان لمن لم يشهروا سيوفهم في وجهه من القبائل البربرية. وعليه فإن الوصية لم تكن مجرد خطاب لرفع معنويات القائد فحسب بل اتبعها بتدعيمات مادية وبشرية أرهقت خزينة الدولة يومئذ عدها بالتفصيل في هذا النص قائلا :" وقرب بها من فاخر الكسوة، الديباج والخز والمطارف والسيوف المحلاة عددا للخلع عليهم محددا ذلك من الديباج المضطلع الملون أيضا خمسون جبة، ومن المطارف المفصلة الملونة مائدة جبة، ومن العمائم اللاسية الملونة مائة عمامة، ومن السيوف العدوية الحالية والشطر منها محرمة عشرة سيوف"[1].

أبحر غالب في اليوم المحدد يريد طنجة وفي الوقت نفسه تحرك القائد عبد الرحمان بن رحماس بأسطوله نحو مدينة أصيلا[2] كي يبقى قريبا من أسطولالقائد غالب[3]،وقد بارك الخليفة الحكم هذه الخطة وعدها من حسن التدبير، وأن الركض بهذه الطريقة يؤدي إلى الاتجاه الصحيح[4].

– لم يتوقف الحكم عند هذا الحد من الدعم، بل أرسل في مدائن وقرى العدوة، الشعراء والقضاة، والأمناء ليبثوا في أوساط البربر الدعوة لولاء المروانيين، ومثال ذلك الشاعر محمود بن حسنين التميمي المعروف بالطبيني[5]، ومن رجالاته ذوي الحنكة والدهاء قاضي اشبيلية وصاحب الشرطة محمد

[1]– ابن حيان، المصدر السابق، ص:81.

[2]– أصيلا: مدينة آهلة كثيرة الخير والخصب، ولها مرسى مقصود ويقبلها قبائل تواتة وبنو زياد من هرارة، تطل على المحيط الأطلسي أسسها الرومان وكانت خاضعة لأمير سبتة ثم استولى عليها القوط إلى أن أخذها منهم المسلمون. الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 42. الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص:311، الصديق بن العربي كتاب المغرب الاسلامي، 1984، ص: 57.

[3]– أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ص: 233.

[4]– ابن حيان، المصدر السابق، ص: 87-88.

[5]– الطبني: هو محمد بن الحسين بن محمد بن أسد بن محمد بن ابراهيم بن كعب بن مالك التميمي الحصاني الطبني الرابي شاعر مكثر ومن بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة قدم الأندلس سنة احدى وثلاثون وثلاثمائة حافظا للأخبار عالما بالأنساب ولي الشرطة وتوفي سنة أربع وتسعين وثلاثمئة خلف أولاد نجباء لهم شهرة في الأدب والفضل ومن شعره.==

ووَغْــدٌ إن أردت لــه عِقَــابًا عفوًا عن ذنبــه حَسبي ودِينِي

محمد بن أبي عامر الذي لقب فيما بعد بالمنصور، فقد عينه الحكم على قضاء العدوة المغربية فأظهر براعة وحسن تدبير، وعلى صيته وحمدت آثره[1]. وبهذه الخطة والحشد الغفير أطبق الحصار على ابن قنون في مكمنه بحجر النسر، وبدا له أن المواجهة ضرب من المخاطرة، وفضل الاستسلام وطلب الأمان فكان ذلك ودخل غالب الحصن وصلى في المسجد الكائن به ودعى للخليفة المستنصر[2].

توجه غالب نحو الأندلس بصحبة قنون في نفر من شيعته بنو ادريس الحسينيون ملوك المغرب[3] وكان دخوله الأندلس يوما مشهودا لما ظهر فيه من فخامة الملك واحتشاد الجموع.[4]

ولقد وفى الحكم للحسن بن قنون بالعفو والتكرمة، وأوسع له ولقومه في العطاء، وأسكن الحسن بجواره، وظل يغدق عليه إلى أن ساءت العلاقة بينهما بسبب قطعة عنبر[5]. والحكم وإن احتمل للحسن بن قنون أشياء منكرة وفاء بذمته. كان يبغي مساءته ويبيح هجوه، وقد انشده شاعره محمد بن شخيص[6] لتهنئته يوم العيد بقصيدة طويلة هجن فيها الحسن وقومه فقال:

عِصَـابَةٌ تَـدَعِي فـي هشـام نَسَبَا   ومـا يَصِـحُ فـي هـشـامٍ نَسَـبَا

يُؤَنِبُـني بغيـبة مُستَطِيـل   وَيَلْقَانِي بصفـحة مُستَكِينِ

ولَـوْلَا الحِـلم إن له لِـجَامًا   لَدَاسَ الفَحْلُ بَطْنَ ابنِ اللَّبُونِ

وَقَـالُوا قد هَجَاكَ فقلت كَلْبُ   عَوَى جـهلاً إلى لَيـثِ العَرِينِ

== – الحميدي أبو عبد الله، المصدر السابق ص: 56-57، الضبي أبو جعفر، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1426هـ/2005م، ص: 67.

[1]– العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 233.

[2]– ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص: 248.

[3]– ابن عذارى المراكشي، ج2، ص: 248.

[4]– أبو علي صالح الايلاني، المصدر السابق، ص: 111.

[5]– يرجع ابن أبي زرع سبب الخلاف بينهما إلى العنبرة التي كانت بحوزة ابن قنون وكانت لغرابة شكلها تبهر الناظرين، ظفر بها ابن قنون في بعض سواحل بلاد العدوة أيام ملكه بها فسواها مشورة يتوسد بها فبلغ الحكم المستنصر خبرها فسأله إياها فامتنع عليه، وأردف هذا الامتناع بأن زاد على اعتذاره قوله"إن هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب". ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 114. صالح الايلاني، المصدر السابق، ص: 113.

[6]– محمد بن شخيص: هو محمد بن مطرف بن شخيص كان من أهل الأدب المشهورين من أعيان الشعر متصرفا في القول سالكا في أساليب الجد .والهزل مات قبل الأربعمائة، الحميدي، المصدر السابق ص: 95.

وَزَادَ عَـــمَــاهَـــا أن أقـــرّ لَـــهـــا أَلْقَى العَصَا حَيْـثُ لا عِلْـمَ وَلاَ أَدَبَ

إذا غَـــدَا حَسَنٌ فــيا لِمَــنْ حَــسُنَ رَأَسًــا فَيَـا لَيْــتَ شِعْرِي أيما الذب[1]

ويورد ابن الخطيب بشئ من التفصيل في هذا النص قائلا:" وكان دخول العلويين صحبة غالب إلى قرطبة أول المحرم مفتتح سنة أربع وستين وثلاثمائة وعفا عنهم الحكم ووفى للحسن بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء، وكانوا سبعمائة من الشجعان واستمر سكناه في جوار الحكم وتحت بره إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة، ثم ساء ما بين الحسن بن قنون وبين الحكم بسبب قطعة عنبر"[2].

وتجدر الاشارة هنا إلى حرص الحكم المستنصر على استقدام العناصر البربرية لما أبلوه من بلاء في هذه الحروب، بالرغم ما أشجوه في قادته المقربين الذين حموا الثغور، وهذا ما أشار إليه صاحب المفاخر بقوله:" .... فذلك ما حمل الحكم على اعتمادهم بالصنيعة واتخاذهم للدولة، وهذا كان السبب في توافر هذه الطائفة بالأندلس"[3]

لقد بلغ عدد الوافدين على الحكم سبعمائة رجل من عليّة البربر يعدلون سبعة ألاف من غيرهم[4] وفي مقدمتهم محمد بن فرجولة، وحسين الخليع، وأحمد بن رجاء بن مقاتل، وسليمان النقرات النقرات وأبو شفة بن ميمون، وخلف الله بن مزكيدة، وفتحون بن عساكر، وخلوف الشرقي ومطروح بن مساوش[5].

ما من شك أن الحكم المستنصر ظلّ تحت ضغط حاشيته التي اوغلت صدره على الحسن بن قنون ورفاقه، وخاصة بعد تجرئه على الخليفة ،بالإضافة إلى وطأة النفقات.

ومن ثم لم يجد بدا من التخلص من هذا المشاكس العنيد، الذي تطاول عليه، فأمر بإجلائهم[6] بعد أن أخذ منهم عهدا ألاّ يدخلوا بلاد المغرب[7]. فمن ألمرية أبحر ابن قنون نحو مصر،

---

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، التهميش رقم 200، ص: 215.

[2]- ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ص222.

[3]- أبو علي صالح، المصدر السابق، ص:111.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 114.

[5]- ابو علي صالح، المصدر السابق، ص:11.

[6]- فراد محمد آزرقي، المرجع السابق، ص: 14.

[7]- العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص:234.

أين استقبلهم نزار بن معد، فأكرم نزلهم وأقاموا عنده مدة طويلة وفي سنة 373هـ/983م متهم على العدوة إلى بلاد المغرب وأيده بعامله على المغرب بلقين بن زيري، وانضمت إلى قبائل البربر وشرع في بث دعوته[1].

فأزعج ذلك المنصور، فبعث إليه قواته التي أجبرته على الاستسلام والتوجه ثانية إلى الأندلس، فكان له ذلك، ولما بلغ المنصور ابحاره تنكر له، وبعث من قتله وحزّ رأسه وأوصله إليه كان ذلك سنة 375هـ/985م.ومن الاهمية بمكان ان نشير إلى أن سياسة الحكم في جلب العناصر البربرية لم تكن بالأمر الهين فهو كان يستدرج العناصر البربرية الكفأة من رحم الخطوب والملاحم، ويجبرها على التوجه نحو الأندلس ليطعم بها جيشه، ضاربا الذكر صفحا عن مختلف انتماءاتهم العقائدية يقول ابن حيان"فتقبلهم معرضا عن نحلتهم على بصيرة مسمحة، واكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاث البربرية الرجال، رجال بني حسن ورجال ابني الأندلسي ورجال البرازلة عسكر ضخم يقاربون السبعمائة فارس منهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر والرئاسة جميعهم من البربر الذين طال مقت السلطان لهم وزهدهم فيهم"[2].

ومما هو أجدر بالملاحظة والذكر فإن الحكم المستنصر الذي ظل يمقت البربر ويزهد فيهم ويأبى الالتفات لهم أو ذكرهم، تحول فجأة إلى الاهتمام بهم والتعويل عليهم وخاصة عندما بلغه حسن بلائهم واستبسالهم في الحروب، وطريقة قتالهم في الحروب وركوب جيادهم وتشنجهم فوقها، وهذا ما لم يكن في جيش الاندلس الذي أخذت تتلاشى عنده مثل هذه الفنون الحربية وقد أشار إلى ذلك ابن حيان قائلا" فمنحهم الله قبوله وحسن عنده زيهم واستنبل تخفيفهم في مراكبهم وانكماشهم في ثقلهم، ورأى ان أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم"[3].

لقد أدرك الحكم بعد الصراع المرير الذي خاضه ضد بربر العدوة وما لاقاه، منهم من شدّة واستماتة حتى كادت أن تنال من قواته، لولا الدعم المادي والبشري الذي امد به قواته. ادرك عندئذ

---

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 115.116.

[2]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 150.

[3]- نفسه، ص: 150.

حسن تدبير والده الذي اعتمد على هذه العناصر، وخاض بها حروبه ضد المناوئين له في شتى أنحاء الاندلس، واخمد بها الفتن والاضطرابات التي كادت أن تطيح بالمروانيين في الأندلس[1].

لذلك حرص على تجديد قواته بهذه العناصر البربرية التي لا تحسن إلا القتال، فكان الخزان البشري الاجدر بهذه المهمة هو خزان العدوة المغربية، التي كانت تعزز أبطال الحرب من رحم المواجهات سواء بين القوى المغربية نفسها او مع جيش الخلافة.

فظل الحكم مجبورا يشيد بهذه الفئة، ويعجب من حوله بهذا التحول لدى الحكم من المقت إلى الرضا، حكى ابن حيّان أنه في أيام اعتلاله كان يمتع نظره بهم، وهم يستعرضون أمامه شتى فنون القتال:"....حتى انه ظل أيّام علته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام اعطائهم، يتطلع على فرسان البربر إذا تحركوا للعب، شاخصا إليهم معجب بهم، يقول لمن حوله انظروا إلى انطياع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر[2]"بقوله:

فَكَأَنَّمَا وُلِدَت قِيَامًا تَحْتَهُم وَكَأَنَّهُـم وُلِدُوا عَلى صَهَوَاتِهَا

ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم[3].

ومع ذلك فقد تزامنت نهاية الحرب على الحسينيين والقضاء على حركتهم مع اعتلال الحكم المستنصر الذي أصيب بمرض الفالج، وركدت رياح المروانية بالعدوة إلى حين [4]، وانتقلت ادارة شؤون الخلافة إلى

---

[1]- عمر بوخاري، المرجع السابق، ص: 29.

[2]- الشاعر هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي ولد بالكوفة كان شاعرا مفلقا راجح العقل عظيم الذكاء ملم بأوابد اللغة وشوردها سريع البديهة يجيب بشواهد كلام العرب من نظم ونثر ادعى النبوة واستتابه أمير حمص فعاد إلى رشده وتاب، التحق بسيف الدولة بن حمدان فمدحه فأحبه وقربه وأغدق عليه ،كانت وفاته في 27/رمضان سنة 354 أيلول سنة 965هـ على يد فاتل بن أبي جهل الأسدي عندما كان راجعا إلى بغداد.

والبيت من قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد عمران ومطلعها:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمَت ذَوَاتُـهَا دَانِي الصِفَاتُ يُفِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

أَوْفَى فَكُنْتُ إِذَا رَمَيْـتُ بِمُقلَتِي بَشَرًا رَأَيْتُ أَرْقَى مِن تَخَـيُرَاتِهَا

ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية، ص: 185- 186

[3]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 150.

[4]- أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 115.

وزرائه وحاشيته ونسائه، فاضطربت شؤون الخلافة في الداخل،وتحركات الاسبان في الشمال وتكررت اعتداءاتهم على الثغور المجاورة لحدودهم[1].

مما حدى بالوزير جعفر بن عثمان المصحفي باستدعاء القائد يحي بن محمد التجيبي من المغرب ليسد به الثغور الشمالية[2]، واستبداله بجعفر بن علي الأندلسي وأخيه يحي، وقد وقع عليهما الاختيار لعدة اعتبارات، منها معرفتهما بشؤون العدوة وأهاليها وعداوتها التقليدية لبني زيري وحلفائهم الفاطميين، وحلّ بهذه الجهة سنة 365هـ 976م وبين أيديهما الألوية والطبول[3]، مؤيدين من قبل قبائل زناتة من مغراوة[4]، وبني يفرن[5]، وغيرها من القبائل[6]. وفي حفل بهيج سلم لهما القائد يحي بن محمد التجيبي مقاليد الأمور، وقفل عائدا إلى الأندلس، وعلى عجل ودون إنتظار، وجهه الخليفة إلى سرقسطة[7].

[1]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 246.

[2]- أبو علي صالح، المصدر السابق، ص: 115.

[3]- ابن عذارى المصدرالسابق، ص: 249.

[4]- مغراوة: أوسع بطون زناتة وهم أهل بأس في الحروب وهم إخوة بني يفرن، وبني يرنيان، ولهم مع اخوتهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة، وهم الذين هاجر أميرهم صولات بن وزمارإلى المدينة المنورة ووفد على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأكرمه وعقد له موضعه ووطنه. ابن خلدون عبد الرحمان- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشان الأكبر تحقيق الأستاذ خليل شحاذة، سهيل زكار دار الفكر بيروت 1421-2000، ج7، ص: 34. الميلي مبارك تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائر 2004م ص:581. إبن الأحمر إسماعيل، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972، ص: 28.

[5]- بنو يفرن: من فروع قبيلة زناتة البترية وأوسع بطونها وهم بنو يصلتين من مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديدات بن شانا، وهم إخوة مغراوة لكون مغراوة ويغرب أخوين شقيقين وأبوهما يصلتين وانحدرت منهم أفخاذ منها واركو ومرنجيسةوبنوواسين، ابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص: 15. الناصري السلاوي أبو العباس الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى اعتنى به محمد عثمان- دار الكتب العلمية 2007/1428، ط1ج1، ص: 206.

[6]- العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 234.

[7]- سرقسطة: تقع شرق الأندلس ومن قواعدها حسنة الديار والمساكن تحيط بها جنات وبساتين يمر بجانبها نهر كبير وهي مدينة مسورة بأسوار منيعة، ولها مدن ومعاقل منها قلعة أيوب وتعرف بالمدينة البيضاء لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض استولى عليها النصارى سنة 502هـ. الحميري، المصدر السابق، ص: 317. ابن غالب، فرحة الانفس، مجلة معهد المخطوطات العربية ،جامعة الدول العربية، المجلد الأول ربيع الأول 1375، نوفمبر 1955 تحقيق لطفي عبد البديع ص: 287.

وبهذه السياسة الرشيدة التي انتهجها الحكم المستنصر حيال البربر، وهي سياسة نابعة من الواقع الذي فرض عليه المهادنة معهم والاحسان إليهم تارة، ومجابهتهم، والضغط عليهم تارة أخرى. كل ذلك من أجل أن يتحقق لديه بناء جدار عازل يسد به الاخطار التي قد تأتيه من هذه الجهات، وقد ذاق ويلاتها من قبل، وخاصة من بني زيري الذين اشهروا سيوفهم في وجه الزناتيين،لذلك رأى الحكم أن الآلة التي تكفيه شر المجابهة مع بني زيري ومن والاهم من القبائل، هي العناصر البربرية الزناتية لذلك سخر الحكم كل ما لديه من أجل القضاء على المناوئين له داخل المربع الزناتي الذي يعد بالنسبة له الخزان الأساسي الذي يلجأ إليه حالة الطوارئ والملمات، ومن هنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لدين الله في سياسته حيال افريقية، فقد كان الناصر يكتفي بالحد الذي يقف عنده في كل ميدان،وفيما يتصل بالمغرب، اكتفى بالاستلاء على سبتة، وطنجة، ومليلة، واعتبرها أجزاء من بلاده، وجعل منها قواعد تحمي سواحله الجنوبية، وعند طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التي كانت تناوئ الحكم الفاطمي، ويستقبل من كان يفد منهم على الاندلس، ويقابله بالتجلّة والتكريم والإنعام، ويضم إلى جيشه الجموع البربرية التي ترغب في التجنيد.

أما الحكم فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالي وأنفق في ذلك جهدا مضنيا وأموالا ضخمة، ولم يجن من وراء ذلك إلا إضعاف الثغور الشمالية.

مكانة البربر في اصلاحات الجيش العامري:

لما أحسّ الحكم بدنو أجله جمع كل من يثق بهم من المقربين منه، وأخذ منهم العهود والمواثيق، للوقوف إلى جانب نجله الحدث، والإخلاص له في تسير شؤون الدولة[1]. مما يعني أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على هذا الفتى الصغير[2].لقد انقسم هؤلاء إلى فريقين،فريق يتكون من العسكريين وآخر من المدنيين أو حاشية السلطان .تشكل هؤلاء العسكرين من الصقالبة ورجال الجيش، والحرس الخليفي، وقد زادوا عن الألف، وهم يرون أن الملك بأيديهم وأن لا غالب لهم، لقد تكونت عندهم هذه القناعة للحظوة التي تمتعوا بها في القصر منذ عقود، وفاتهم أن أمرهم قد دبر بليل، وأن تصفيتهم وإخراجهم من القصر مسألة وقت فقط.

ترأس هذا الفريق فائق المعروف بالنظامي صاحب البرد والطراز بمعية جؤذر صاحب الصاغة والبيازة، وإليهما كان أمر الفتيان الصقالبة خارج القصر[3]. اما المدنيون فتألفوا من حاشية الخليفة وهم وهم الحجاب والوزراء، ومنهم زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم، وهشام بن محمد بن عثمان وحتى بعض الشخصيات البربرية والتي كانت مألوفة لدى القصر من أيام الحكم المستنصر مثل بني برزال[4] الذين هم بطانة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي الذي طالما شجع الخليفة الحكم على استقدامهم وهو من يرأس هذا التيار[5].

وفي حقيقة الأمر هناك جماعة أخرى، وهي طبقة الفقهاء التي تشكلت معظمها من العناصر العربية يمنية وقيسية، وزعيم هذه الطائفة هو محمد بن أبي عامر المعافري اليمني الذي عرف كيف

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 253.

[2]- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والاندلس، دار الرشاد ط8، 2005/1426، ص: 390.

[3]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 259.

[4]- بنو برزال: من أكثر وأعظم بطون زناتة وهم من بني يفرن كانوا قاطنين بالزاب الأسفل من افريقية، وهم ينسبون إلى برزال بن وريند الذي يرتقي نسبه إلى جدهم الاكبر جانا التي منها لفظة زناتة وهو أبو الجيل وهو جانا بن يحيى ،كانت مواطن بني برزال في جبال السلات وما ولاها من أعمال المسيلة .ابن حزم أبو محمد، المصدر السابق، ص: 498، ابن خلدون عبد الرحمان ، المصدر السابق، ج7، ص: 72.

[5]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص: 260.

يدير الصراع القائم بين الطائفتين، ويجردهما من عناصر القوى التي تمتعت بها الطائفتان، وظل يحيك المؤامرات دون كلل حتى وصل إلى سدة الحكم وذاع صيته، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عامر بن أبي عامر بن الوليد.

بن يزيد ابن عبد الملك المعافري وهي قبيلة يمنية عربية وهي فرع من حمير، وهم بيوت متفرقة بالأندلس منهم آل حجاف ببلسية وبنو مفوز بينبة[1] وبنو منخل ، وهم بيوت متفرقة بالأندلس ولهم دار جامعة[2] وأمه تميمية بريهة بنت يحي بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال حتى قال فيه أحمد بن دراج القسطيلي[3] يثبت نسبه لأمه وأبيه فقال:

تَلَاقَتْ عَلَيهِ مِن تَمِيمٍ وَيَعْـرُبِ شُمُوسٌ تَلَأْلَأُ فِي العُـلَا وَبُدُورُ

من الحِـمْيَرِيِينَ الذِينَ أَكُفُهُـم سَحَائِبُ تَخْمِي بِالنَدَى وَبُحُورُ[4]

وكاد الخلاف المحتدم بينهما أن يجر الفريقين إلى أتون المواجهة، لولا ان تدارك الأمر الحاجب جعفر بن عثمان بحيل المؤامرة وتفويت الفرصة على الفريق الاول، وذلك بالاقدام على قتل المغيرة بن عبد الرحمان الناصر الذي أراد الصقالبة تعيينه خلفا للحكم بدل نجله هشام، فأقدم محمد بن أبي عامر على تنفيذ المؤامرة مؤيدا من جماعته الذين قالوا له«أنت أحق بتولي كبره لخاصتك بالخليفة

[1]- ينبة:تقع إلى الغرب من مدينة لبلة إلى جهة البحر، قاعدة عملها توارثها إمارتها البكريون، ورئيسهم المشهور ابو زيد عبد العزيز بن محمد البكري، ومنه أخذها المعتضد بن عباد، ولحق هو بقرطبة . إبن سعيد الغرناطي،المغر في حلى المغرب ،تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م، ج1، ص: 267.

[2]- ابن حزم أبو محمد، المصدر السابق، ص: 419.

[3]- القسطلّي احمد بن دراج: أدرجه بعض من ترجم له على انه من العلماء والمقدمين من الشعراء البلغاء وشعره غزير ومجموع يدل على علمه له طريقة في البلاغة والرسائل يستدل بها على حذاقته وقوته، وكان عالما بنقد الشعر واعتبره من أعجب بشعره من فحول شعراء الأندلس، توفي في احدى وعشرين وأربعمائة. ابن بشكوال أبو القاسم، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت 1423-203، ص: 48-49. ابن بسام الشنتيريني الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت 1998/1419 ج1، ص:34.

[4]- الحميدي، المصدر السابق، ص: 84، المراكشي أبو محمد المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية ، بيروت 2006/1426، ص: 38.

هشام ومحلك من الدولة[1]» وكانت هذه الخطوة الجريئة التي أقدم عليها المنصور لا تعدوا أن تكون رسالة أوعز بها إلى أعدائه ومقربيه، مفادها أنه لاتعوزه الأسباب إذا ما أراد الوصول إلى مبتغاه وانه لا يتورع في الإقدام على فعل أي شيء.

وفوق هذا وذاك فإن المنصور اتسم بطموح لا حدود له ،وحنكة سياسية لا جدال في جدارتها كما انه تميز بقدرات خاصة على اجهاض الدسائس والمؤامرات[2].

والجدير بالذكر فإن هذه الشخصية التي ذاع صيتها إنما ساهمت في صنعها الظروف السياسية، فهو بالرغم من انتمائه إلى بيت متواضع فقد تمكن بالاستئثار بالحكم طوال عهد هشام المؤيد، واستطاع بدهائه أن يتخلص من أعدائه بالقتل تارة[3] وبالعزل أخرى.

كانت أولى خطوات التألق، يوم ان فتح له مكتبا قرب باب القصر، يكتب للناس تظلماتهم ومرافعاتهم للسلطان، فقد سمح له عمله هذا بالاحتكاك بخدام القصر.

فلما استعملته واطمأنت إليه، نبهت الحكم إلى مهارته وحسن تدبيره، فولاه عدة مناصب[4]، اظهر فيها نجابة واستحقاق، وأبان عن الكثير من خصال التفوق،سواء في مجال التسيير الاداري أو في تدبير الشؤون العسكرية[5]، إلى ان عينه الحكم قبل وفاته وزيرا لابنه هشام.

وذاع صيته بين الجند والرعية حين تصدى لتحرشات الاسبان في الشمال[6]، وتعد هذه الحادثة الحادثة من الظروف التي استغلها المنصور أحسن استغلال، وهي مناسبة ملائمة، حيث تزايد خطر الحملات الصليبية على الخلافة بعد وفاة الحكم، وصادف ان أبدى أبو جعفر المصحفي تهاونا في

[1]- الحميدي، المصدر السابق، ج2، ص: 261.

[2]- ليفي بروفنسال، تاريخ اسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية 1031/711، ترجمه إلى اللغة الإسبانية اميليو جارثيا قومت والى العربية علي عبد الرؤوف اليمني وعلي ابراهيم منوفي والسيد عبد الظاهر عبد الله مراجعة صلاح فضل، المجلس الاعلى للثقافة 2000، ص: 445، - أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص: 242.

[3]- عبد الله بن بلقين- المصدر السابق، ص: 56.

[4]- مجهول، جغرافيا وتاريخ الاندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، مؤسسة البلاغ للنشر والتوزيع، ط. خاصة، ص:291.

[5]- قايد مولود، البربر عبر التاريخ في اسبانيا الاسلامية، ترجمة ابراهيم سعدي دار النشر ميموني، ص: 119.

[6]- المقري المصدر السابق، ج1، ص: 399، فراد أرزقي، المرجع السابق، ص: 16.

مجابهتها، فانبرى لها المنصور وقاد عدة حملات عسكرية كللت بالنجاح، وعلى صيته بين الأجناد وتردد اسمه بينهم كبطل مغوار عدّ من رجالات طوارئ الدولة ، خاصة وأنه عاد بغنائم كثيرة من حملاته تلك فأغدق على الناس وكان ذلك كافيا لإستمالتهم إليه دون الحاجب المصحفي الذي تميز بالنبل والفصاحة[1].

ونظرا للمكانة التي حظي بها المنصور لدى السيدة صبح البشكنشية أيام الخليفة الحكم فقد ازداد حظوة لديها بعد وفاته، فقد كانت الأمور تجري على يديه فقد كان هو الداخل والخارج بالأوامر منها للحاجب والوزراء[2]، ومع ذلك فقد وجد أمامه طريقا شاقا محفوفا بالمخاطر، يتربص له فيه الخصوم والأعداء، واستطاع بعزيمته التي لا تقهر وذهنه المتقد، أن يشق طريقه كقائد عسكري وسياسي، منتهزا في ذلك الفرص المتاحة، فقوى نفوذه على حساب رجال الدولة وتفرد بالحكم وتسمى بالمنصور ومارس مهام السلطان نيابة عن الخليفة القاصر هشام المؤيد[3].

واستطاع بدهائه أن يمكر بهم ويضرب بعضهم ببعض[4] إذ كان يرى ان بقاءهم في جهاز الدولة يحول دون تمرير مشروعه الإصلاحي. وفي كتاب التبيان اشارة إلى هذه التصفية التي أقدم عليها المنصور «.... وإخماله لأهل الدولة الحكمية وتقصيهم بالقتل متأولا في ذلك أن به تصفى دولته ويقوى سلطانه، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وملاك المسلمين حتى اتسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى»[5].

شرع ابن أبي عامر في ترسيم سياسته بالتنكيل بالصقالبة، مستعينا بذلك بجعفر بن عثمان المصحفي وقد أمعن المنصور في التنكيل بهم واخراجهم من القصر. يقول صاحب كتاب تاريخ

---

[1]- سيف الدين الكاتب، الحاجب المنصور، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1982/1403، ص: 29-30.

[2]- مجهول، تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية بيروت 1971، ط1، 2007/1428، ط1، ص: 220.

[3]-Xavier Ballestin navarro almansur y la dawla amiriya una dinàmica de poder y le gitimidad en el accidente musulman médiéval, éditions universidad de Barcelona, page151.

[4]- العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 244.

[5]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 56.

الاندلس: «فأعمل الرأي مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي في الصقالبة القائمين بأمر القصر والمملكة حتى أخملهم[1] وأذلهم حتى عجب الناس من شدة السخط عليهم»[2].

واستطاع بهذه الطريقة أن يقمع الصقالبة، ويخرجهم من القصر، ويعوضهم بالفتيان العامريين[3] العامريين[3] الذين كانوا نواة دولته.

لم يتوقف المنصور عند هذا الحد بل مضى في تخفيف كل المنابع التي قد يأتيه منها الخطر فاحتاط لذلك بالتخلص من خصم عنيد، له دراية بخبايا القصر ألا وهو جعفر المصحفي، وحتي ينفرد به ، مهد لذلك بالتقرب إلى ذي الوزارتين والسيفين القائد غالب بن عبد الرحمان[4] صاحب مدينة سالم وأمير الثغور، فارتبط به برباط المصاهرة وتزوج من ابنته أسماء، عند ذلك أفصح عن مواقفه حيال جعفر المصحفي فأمر بعزله عن الحجابة والقبض عليه وزجه في السجن، فلما اشتد به الحزن على حالته التي آل إليها، واصل استعطافه واستغفاره إليه، ووصل به خوره طمعا في الحياة أن كتب إلى ابن أبي عامر، يعرض نفسه عليه لتأديب ابنيه عبد الله وعبد الملك فقال ابن أبي عامر:«أراد أن يستجهلني، ويسقطني عند الناس، وقد عهدوا مني ببابه مؤملا، ثم يرونه اليوم بدهليزي معلما»[5].

ولم يكتف المصحفي بهذا العرض فحسب بل وظف كل وسيلة رجاء والتماس العفو من المنصور، وراح يضرب على وتر الشعر عله يمس شغاف قلبه ويتجاوز عن زلاته. ومن شعره في هذا الباب.

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيْن العَفْوُ والكَرَمُ إِذْ قَادَنِي نَحْوَكَ الإِذْعَانُ والنَدَمُ

---

[1]- أخملهم: أسكتهم- تخمل- خمولا- ويقال خمل صوته إذا وضعه وأخفاه ولم يرفعه وفي الحديث أذكروا الله ذكرا خاملا أي خفضوا الصوت بذكره توقيرا لجلاله وهيبة لعظمته، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين – لسان العرب- دار صادر، بيروت، ج5-6، ص 160.

[2]- مجهول تاريخ الاندلس، ص220، ابن عذاري المصدر السابق، ج2، 263-264.

[3]- العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص 244.

[4]- غالب بن عبد الرحمان: يعرف بذي السيفين، صاحب الثغر الأعلى قائد جيوش دولة الحكم وسيفها وصاحب عزها، كانت كانت بينه وبين جعفر وحشة استغلها المنصور في الوقيعة بينهما. لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص 61.

[5]- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص268.

يَـا مَـنْ مُـدَّت الأَيْـدِي إلـيه أَمَـا تُـرْثي لِـشَيْخٍ نَعَـاهُ عِنْـدَكَ القَـلَمُ

بَـالَغْـتَ فِـي السُخْـطِ فَاصفَـحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ إن المُلُوكَ إِذا مَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُو[1]

يقول المقري التلمساني معلقا على موقف المنصور من هذه الأبيات «فما زاده ذلك إلى حنقا وحقدا وما أفادته الأبيات إلا تضرما ووقدا»[2]. لم يصغ إليه المنصور وبالغ في إذلاله إذ كان يأخذه مكبلا بالحديد[3]، وأوعز إلى شاعره الخاص عبد الملك بن ادريس[4] أن يرد عليه بأبيات بروي مماثل فأنشد عبد الملك قائلا:

الآن يَا جَاهِـلاً زَلَتْ بِـكَ القَدَمُ تَبْغِي التَكَرُمَ لَمَا فَاتَـكَ الكَـرَمُ

أَغْـرَبْتَ بِـي مُلْـكًا لَـولَا تَثَبُتِه مَـا جَازَ لِي عِنْدَهُ نُطْـقًا وَلَا كَرَمُ

نَفْسِي إِذا سَخَطَت لَيْسَت بِرَاضِيَة وَلَمْ تَشْفَع فِيكَ عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ[5]

فلما استيأس المصحفي وظن أنه واقع به، استكان وأيقن بالنكبة وزوال الحال وأدرك أنها سنن الله الماضية، وأن للزمان مسّارات وأحزان، وكان من هلاكه هذا على يقين ولم يمنعه خوفه من حتفه الذي هو آيل إليه لا محالة، من أن يتفوه بهذه الأبيات

لَا تَـأْمَنَنَ مِـن الزَمَـانَ تَقَلُبًا إن الزَمَـانَ بِأَهْـلِهِ يَتَقَـلَبُ

وَلَقَدْ رَآنِـي والـلُيُوثُ تَهَابُنِي وَأَخَافَنِي مِن بَعْد ذَلِكَ الثَعْلَبُ

حَسْبُ الكَرِيم مَذَلَـةً ومَهَـانَةً أن لَا يَـزَالَ إِلَـى لَئِيمٍ يَطْلُبُ[6]

---

[1]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص: 268.

[2]- نفسه، ج1، ص: 408.

[3]- ابن عذارى المراكشي، نفسه ج2، ص: 270. العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص: 245.

[4]- عبد الملك بن ادريس الجزيري، الكاتب أبو مروان وزير من وزراء العامرية، عالم أديب غزير الشعر وهو معدود من أكابر البلغاء ومن ذوي البديهة وله رسائل وأشعار مدونة ومن أحسن قصائده تلك التي قبلت في الآداب والسنة، وصل إلى الوزارة في عهد عبد الملك المظفر وتآمر مع طرفة الصقلبي على المظفر ففشلا في سعيهما وأودع نفس المطبق الذي مات فيه جعفر المصحفي ولقي نفس النهاية. ابن خاقان الفتح أبو نصر، كتاب تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الاندلس، المعروف مطمع الانفس ومسرح التأسي في ملح اهل الاندلس، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية 1428هـ/2007م، القاهرة، ص: 74.

[5]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 408، ابن الأبّار، المصدر السابق، ص: 153.

[6]- ابن خانقان أبو نصر، كتاب تاريخ الوزراء، والكتاب والشعراء في الأندلس المعروف بمطمع الأنفس، ص: 63، ابن الأبّار القضاعي، المصدر السابق، ص: 153.

وعزله المنصور في سجن المطبق بمدينة الزهراء إلى أن لقي حتفه، وقيل قتل خنقا، وقيل أمر به فجعله في تابوت وأحرق بالنار وهو حي[1].

وبعد أن تخلص ابن أبي عامر من خصمه العنيد، استدار نحو خصم أخطر منه، يتربص به للإطاحة به، حيث كان يعلم نواياه، وأهدافه التي كان يرمي إليها، بعد أن أصبحت مفاتيح السلطة في يده وبدت علامات الانفراد بالسلطة لا يرقى إليها شك إلى أن وقعت الوحشة بينهما، وساءت العلاقات، فأخذ كلاهما يتوجس من الآخر فأدى ذلك الحرب بينهما، علق على ذلك ابن الخطيب بقوله: «فنافسه غالب لما رآه يطوي الدولة طيا وينشئها خلقا جديدا منسوبا إليه، معروف باصطناعه فأضمر له الخديعة ورجا منه الاراحة وصانعه ومال في هواه[2]».

لقد كان المنصور يعلم أنه ليس من السهولة أن يقضي على هذه الشخصية، لأن غالبا كان عسكريا صلب المراس، يفوق المنصور في الفروسية والشجاعة والاقدام، لذلك اهتدى المنصور إلى الاستعانة بقائد بربري لا يقل عنه شجاعة وفروسية، ألا هو جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي الذي استقدمه من المغرب في ستمائة من المقاتلين البربر، كل ذلك من أجل أن يعضد ساعده ويتفوق على خصمه غالب[3].

وللإشارة فإن هذه الدفعات البربرية هي اللبنة التي أسس عليها المنصور جيشه[4]وكانوا هم الدعامة الأساسية التي انضافت إليها طوالع أخرى من البربر، لما لقوه من الاحسان والعناية وفي هذا يقول ابن عذاري «وكانت هذه القطعة من البربر نحو الستمائة ومازال بعد ذلك يستدعيهم ويضمن الاحسان إليهم، والتوسع عليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس وانثالوا على ابن أبي عامر وما زالوا يتلاحقون وفرسانهم يتواترون... »[5].

---

[1]- ابن الأبّار، المصدر السابق، ص: 62.

[2]- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 62.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 278.

[4]- luis G valdea vellaho- histoire de espana manules de la revista occidente berbera de bregenes bregenes 12- madrid p: 714.

[5]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 279.

لم يكتف ابن أبي عامر بهذه الثلة من البربر المقاتلين الذين جعلهم في ميمنة جيشه الذي أعدّه للقاء غالب بقيادة جعفر بن علي، بل دعم صفوفه جيش من جند الثغور بقيادة أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي، وحسين بن أحمد بن عبد الودود وجعلهم في الميسرة [1] .

وفي عام 371هـ 981م التقى الجمعان في معركة فاصلة في سان فيسنتي، اضطرب فيها المنصور بن أبي عامر لما رأى من هول المعركة، والتنظيم المحكم الذي كان عليه جيش غالب، الذي كادت كفة النصر أن ترجع لصالحه، لولا أن حدث ما لم يكن متوقعا حيث سقط غالب من على فرسه، وعثر عليه مقتولا بين حوافر الخيل.

وبشر المنصور فكان ذلك أسعد أيامه، ولم يبق له بعد ذلك من يخاف منه على ملكه[2].

وبعد نهاية المعركة استغل المنصور حماسة جيشه المنتصر، وزحف به نحو الشمال في أراضي ليون وشنّ هجومات، ضد راميرو الثالث الذي شارك في جيش غالب، فانتصر عليه وعلى حلفائه، سانشو ملك نافار ،وغارسية فرناندو ملك قشتالة.[3] ومع ذلك فقد ظل المنصور دائما في تصفية من يتوجس منهم أو يشك في موالاتهم له.وكان يصل إلى تحقيق ذلك دون أن يثير القلاقل[4] وكانت الدائرة على من قدم له المساعدة في التخلص من خصمه غالب، ألا وهو جعفر بن علي بن حمدون، فاستعان عليه بأبي الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي فارس المغرب في طائفة من أصحابه الأندلسيين فدعاهم إلى وليمة كان قد أعدها، وقدم له شراب تناوله جعفر حتى ثمل، وارصد له من يقتله وهو سائر بالليل إلى منزله في قصر العقاب عام 372هـ / 989م، وتظاهر المنصور بالحزن عليه[5] .

---

[1]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 63.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 279.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 65.

[4]- مصطفى أبو ضيف أحمد، القبائل العربية في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية،91- 422هـ/710- 1031م ص372.

[5]- ابن الأبّار، المصدر السابق، ص: 174، ابن عذاري المصدر السابق، ج2، ص: 281، عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ص: 262.

ومما يدل على ظلوع ابن أبي عامر في قتل جعفر، يستشف ذلك من الحوار الذي دار بينه وبين يحي بن علي أخو جعفر، وكان أول لقاء بعد قتل أخيه، فقال له «قد علمنا قتله وهذا جزاء مثله، ولا مقام بأرضك بعده، فقال المنصور : لولا أن أصدق ضنك في أخيك لألحقتك به، فاخرج إلى لعنة الله غير مكلوء ولا مصاحب»[1].وليمحو المنصور آثار جريمته، قتل أبا الأحوص وانفرد وحده بالحكم[2].

تعزيز الجيش بالعناصر البربرية:

لما تخلص الحاجب المنصور بن أبي عامر من مناوئيه في الداخل، وهي الزمرة التي قدر المنصور أن يأتي منها الخطر، وهذا العمل دأب عليه خلفاء بني مروان في الأندلس وعلى رأسهم عبد الرحمان الناصر الذي كان يسعى إلى تنقية الأجواء الداخلية ثم التفرغ للجبهة الخارجية. هذا وقد عمد المنصور بعد ذلك إلى تقوية مركزه بإصلاح الجيش الذي يضمن له ذلك.

وعليه فقد كانت أولى الأولويات هو تطعيم هذا الجيش بالعناصر البربرية التي ليس لها ولاء داخل الأندلس سوى ولاء من أحسن إليها، فقسم المجال لهذه الشريحة من البربر[3].

واستقدم أعداد كبيرة من البربر وأدخلهم في خدمته ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يخشى بأسه، حتى سخط أهل الأندلس من هذه العناصر البربرية الغريبة عن بلادهم، مما أدى إلى فرار العديد من الأندلسيين من الجيش، وكان هذا النفور يحول دون اتحاد الجيش القديم ضد المنصور.

وفي النص الذي اورده ابن حيان ما يشير إلى هذا الولاء والمكانة التي حظي بها هؤلاء لدى المنصور قوله : «وأسرع موت الحكم على تفيئة ذلك فأعقبهم عاقب جعفر بن عثمان في تدبير سلطان هشام الوالي بعد محمد بن أبي عامر خيره فاستظهر على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاض بهم الرياسة في حياته[4]».

---

[1]- ابن الابار، المصدر السابق، ص: 174.

[2]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 279.

[3]- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 399، فراد محمد أرزقي، المرجع السابق، ص: 16.

[4]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 151.

إن أولى الدفعات من البربر التي خبرها المنصور في ميدان الحرب تلك التي صاحبت جعفر بن علي بن حمدون حين جوازه إلى الأندلس سنة 367هـ/987م وكانت عدة جيشه الذي واجه به غالب نحو ستمائة، حيث استبسلت في هذه المواجهة ورجحت كفة النصر لصالح ابن أبي عامر بعدما كانت الهزيمة تلوح في الأفق.

وحول حرص المنصور على البربر والتعويل عليهم ، يسوق ابن خلدون نصا في غاية الاهمية قوله: «ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة، ومغراوة، وبني يفرن ،وبني برزال ،ومكناسة[1]وغيرهم[2]».

– وصادف ذلك أن تحرك في هذه الفترة نائب الفواطم على افريقية بلقين بن زيري الصنهاجي طالبا ثأر أبيه زيري في حملته التي أجهز بها على المغرب الأقصى، وأجفلت قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبتة قاعدة المروانيين في المغرب[3]، فاستغل المنصور هذا الوضع وبعث إلى رجال زناتة يدعوهم إلى القدوم إليه، وكان أعوانه قد أشاروا عليه بذلك حين قالوا له «قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم، فأرسل إليهم يأتوك فيجدوا إحسانك إليهم مكانا[4]».

وظل المنصور يستزيد من العناصر البربرية، يكبلهم بسلاسل الاحسان ويغدق عليهم خيراتهم، فتدفقوا عليه من كل نواحي العدوة ،وهذا ما ألمح إليه ابن عذارى بقوله : «يجيء الرجل منهم بلباس الخلق على الأعجف فيبدل له بلباس الخز الطرازي وغيره ويركب الجواد العتيق، ويسكن قصرا لم يتصور له في منامه مثله، حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس، ولم تزل طائفة البربر خاصة ابن أبي عامر

[1]- مكناسة: تعد مكناسة ووتناجةوأوكتة بطون من بني لور صطف بن يحي ولمكناسة بطون كثيرة منها صولات وبنو جوات وبنو ورفلاس وبنو وردوسوقنصارةوونيفةوريفلتة وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن أعلاه سجلماسة إلى مصب في البحر، ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج6، ص: 153-154.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، نفسه، ج4، ص: 177، المقري، المصدر السابق، ج1، ص:397.

[3]- صالح الايلاني أبو علي، المصدر السابق، ص: 118.

[4]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 293-294.

وبطانته وهم أظهر الجند نعمة وأعلاهم منزلة[1]»وبهم خاض دياجر الحروب وقاد الحملات ضد المسيحين ونال بذلك الشرعية في إدارة البلاد[2]. وبهذه الروح الاصلاحية التي تحلى بها المنصور، كثرت أعداد البربر فحسنت أحوالهم وكثرت اموالهم، وحلوا محل جند الاندلس، ونسخ بهم جند الخليفة الحكم، وما زالوا خاصته وبطانته إلى ان انقضت الدولة العامرية[3]».

ومما يعزز النص اعلاه، ويدل على النعم التي اغدقها المنصور على البربر، هو النص الذي اورده المقري نقلا عن كتاب الأزهار المنثورة في الاخبار المأثورة، الذي ينسبه احسان عباس محقق كتاب "نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب" إلى ابن سعيد المغربي . حيث يجعلنا المقري أمام نص يكتسي اهمية بالغة في إظهار هذه الحقيقة حيث يقول: «فقدم إلى المنصور وانزمار بن أبي بكر البرزلي أحد جند المغاربة، وجلس للعرض والتمييز، والميدان غاص بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى يا مولاي مالي ولك ، أسكني فإني في الفحص، فقال: وما ذاك يا وزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتني عنها والله نعمتك، أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجتني عنها وأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس، أتراني أبعد القمح عني؟ ليس ذلك من رأيي، فتطلّق المنصور وقال: لله درك من فذ عييّ لعييّك في شكر النعمة أبلغ عندنا، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أتشدق متزيد وبليغ متفنن، وأقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس فقال: يا أصحابنا هكذا فلتشكر تنكر الأيادي وتستدام النعم، لا ما انتم عليه من الجهد اللازم، والتشكّي المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الغالية»[4]

ومن النص أعلاه يتبين مدى اعتزاز البربر وولائهم للمنصور بسب النعم التي ما فتئ المنصور يغري بها البربر، ويناله في مقابل ذلك إخلاصهم له، والانصياع للأوامر، ثم إن الرطانة التي ميزتهم في التعبير عن أحوالهم، لا شك انها كانت تبعدهم عن مجالسة الاندلسيين من العرب وفي ذلك مصلحة

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 279.

[2]-kanza hamam loudlyl -abdellah el ghazouani al- andalus ombre et lumiere 2009 casa blanca p:134-135.

[3]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 279.

[4]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 417.

للسلطة الحاكمة إلا أن المنصور لم يتحرج من دعوة كبار البربر في مجالسه مع خاصته من رجال الدولة، بالرغم من إيذائهم له أثناء حربهم معه، وما حكاية زطزون البربري التي يرويها ابن عذاري إلا مثالا صغيرا لهذه السجاذة والجهل.

ففي احدى المجلس التي دعي إليها زطزون بن نزار البرزلي سأل المنصور فقال له «يا مولاي لما قتلت عبد الله ابنك» وله من الشجاعة والخصال الحميدة ما له، فقال له المنصور «لا يسؤك ذلك فلو لم أفعل لقتلني، ما كان من ولدي وبهذا اتهمت أمه وكانت أمة سوء وقالوا إن الأرحام الردية تفسد الذرية »

فقال زطرزون «كذا يا مولاي؟ فحرام أمه، فحرم أبيه» فخجل المنصور وقال«شقينا بهذا الملعون في حياته وبعد موته» وغلم ما كان عليه زطرزون من الجهالة فاعرض عنه، وصارت كلمته مأثورة يتداولها الناس مدة من الزمن[1].

وبالرغم من قلق الاندلسيين من هذه الشريحة من البربر ، ظلت تتدفق على بلاد الأندلس حتى بلغ جند البربر في جيش المنصور في وقت قريب من بلوغه سدة الحكم أربعة ألاف ومائتي فارس[2].

أما ابن الخطيب فيحدد عددهم إلى خمسة الاف فارس وألفي رجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور بن أبي عامر [3].

إن المتأمل في السياسة الاصلاحية التي انبرى لها المنصور ابن أبي عامر في الميدان العسكري، استهدفت تخليت الجيش من الغالبية الأندلسية، وإحلال العناصر البربرية، الحديثة العهد بدخولها الاندلس. لقد أصبح الجيش العامري ذو المكون البربري خطرا يهدد النسيج الاجتماعي الاندلسي بالانقسام حيث بدأت ارهاصاته في الجيش نفسه، وهذا الانقسام سيؤدي حتما في حالة اضطراب

[1]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج2، ص: 285.

[2]- الصفدي خليل بن أبيك، المصدر السابق، ص: 87.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 102.

النظام إلى حرب اهلية، وبالموازاة لذلك أنشأ الحزب العامري من الطامعين الانانيين الذين لا يهمهم سوى الاستحواذ على التركة التي خلفها أسلافهم من العامريين، ومن حكم قبلهم من المروانيين[1].

- لقد كان الهدف من هذه السياسة هو اضعاف الروابط القبلية والزعامات المتجدرة داخل الهيئة العسكرية، وتقريب العنصر البربري، وترقية البارزين منهم وتكليفهم بمهمات حربية لإعلاء مراتبهم [2].كل ذلك لينفي عن نفسه الاتهام، بتفضيل البربر على سائر الاجناد من العرب الأندلسيين، مثلما فعل مع جعفر بن علي بن حمدون الذي كلفه قيادة ميمنة الجيش في مواجهة غالب، ومحاربة الجلاقة المتحالفين في الشمال.

ومما تجدر الاشارة إليه أن الأرستقراطية العربية في المنتصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانت قد ابنبثت في كامل قطاعات الدولة وخاصة في الجيش الاندلسي، لذلك حرص المنصور على زعزعتهم وابعادهم عن هذه المؤسسة التي حقق المنصور بواسطتها أهدافه في الداخل والخارج، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون قائلا:«وقدم رجال البرابرة وزناتة، وأخر رجال العرب، وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر»[3].

ويفهم من قول ابن خلدون أيضا أن المنصور أقحم في جيشه متعمدا العناصر البربرية بمختلف اطيافها وانتماءاتها القبلية، البرابرة الذين يراد بهم صنهاجة وزناتة ،هاذين الفصيلين الذين لهما من سوابق التناحر والتدافع ما تحدثت به الركبان في بلاد المغرب، وهذا ما كان يرسعى إليه المنصور من تجميع العناصر المتنافرة داخل الجيش لضمان خضوعها وولائها له، ويكون بذلك قد حقق الانفراد بالملك والاستبداد بالأمر، بعد أن أذل قبائل الأندلس وضربهم بأضدادهم[4].

---

[1]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 404.

[2] – jorge lirola delgado el poder naval de al- andalus en la epoca del califato omeya universidad de grenada p: 273.

[3]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج4، ص: 177.

[4]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 404.

ومع ذلك فإن المنصور لم يقدم علة احداث هذا التغيير للغاية التي أسلفنا ذكرها ،وإنما لخلفيات عاينها المنصور في بداية مشوار الحجابة، عندما لاحظ رجالات المروانية أن نفوذهم بدأ يتقلص ليس هذا فحسب بل لاحظوا أن حركاتهم وغدواتهم وروحاتهم أصبحت تحت الرقابة.

وتحت هذا الضغط الذي لم يألفوه من قبل دبروا مؤامرة من أجل القضاء عليه وإعادة النفوذ إلى غيره من أفراد الامويين الاكفاء[1]

وبدافع لهذه الخلفيات وغيرها، التي خبرها المنصور في الأندلسيين هي التي كانت وراء احداث هذه الهيكلة الجديدة .

لاجدال في أن المنصور ظل طوال حياته متخوفا من هذه الفئة ولم يتردد في التعبير عن قلقه من هذه الفئة، ونعني بها الفئة المروانية- حتى في لحظات نزعه الأخير عندما دعا ابنه عبد الملك وقرأ عليه وصيته الطويلة وقد أوردها ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام ومنها : «...وصاحب القصر قد علمت مذهبه وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب بإسمه فلا تنم عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء الظن والتهمة... ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة فتنسوا آمالكم في بطون بني أمية وتوسعتهم بقرطبة»[2]

ظل المنصور يستخلص رجالات البربر لنفسه، ويعتمد عليهم اعتمادا كليا. ولكي يضمن ولاء صنهاجة وزناتة قرب أعيانهم وسراتهم، حيث كان نوح الدمري[3]أحد كبار أعيان بني دمر[4]

---

[1]- مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص: 369.

[2]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص:81-82.

[3]- نوح الدمري: يعد مكن رؤساء الخطط التي اقتطعت فتيل الفتنة، وأعدهم المنصور في جملة رجالات البربر الذين أخذهم كأعمدة ملكه، وفي أيام المعين ولاه أعمال مودور و أركش واستبد بها أيام الفتنة وبعدها وافاه أجله سنة 433ه، ابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص: 71.

[4]- بنو دمر: ينتمون إلى احدى بطون زناتة، وجدهم هو زنا بن يحي، وتفرعت عنهم بطون كثيرة أهمها بني ورغمة الذين سكنوا جبال طرابلس وبنو ورنيد أوسع البطون المنحدرة من بني دمر، وكانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس، وكانوا أكثر انتشارا في جبالها المحيطة وكانوا منهم آخرون رحل لا يعرفون الاستقرار، ينتقلون عبر سهوب افريقية والمغرب الاوسط لا يعرفون الاستقرار ومن بني ورنيد جماعة في الجبل المشرف على تلمسان. انتقلوا إليه من السهوب الجنوبية بسبب ضغوط بني==

والمقربين عنده، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله:«وكان من رجالاتهم نوح الدمري وكان من عظماء أصحاب المنصور »[1].

وكانت هذه الفئة من بربر بني دمر حيث استظهر بهم المنصور على خصومه في غزواته المعروفة التي ناهزت ست وخمسون غزوة[2]، وكانت غزوة جربيرة[3] وهي احدى الغزوات التي ابتلى فيها جيش المنصور وزلزلوا زلزالا شديدا ،حتى أنهم ودعوا بعضهم بعضا بعد أن يئسوا من الحياة، وفي كتاب أعمال الأعلام إشارة إلى هذا البأس والهزيمة المؤكدة حين يقول:«حتى جعل كاتب المنصور عبد الملك بن ادريس الجزري، يقول سعيد بن يوسف المعروف بابن القلينة «هلم إلى التوديع يا شهيد» قصعا على حلول المنية فكان مأثورا بعد انقضاء اليوم»[4]. وهي الوضعية التي أسالت دموع المنصور حزنا على فراق احبته وولده، وكان قائما إلى جنبه، يتلفت إلى الحرب، فلا يأذن له ابوه فأستأذنه وودعه، وجعل يقبّل وجهه، ونحيبه عال وأرسله نحو الميمنة موطنا على فقده»[5]

وفي غمرة اليأس انبجست ثلة من فرسان البربر وعلى رأسهم كيدر الدمّري الأبرص الذي شق طريقه نحو قوامس ابن غومس ،وجاء برأسه ليحول الهزيمة إلى نصر، ويلخص ابن الخطيب هذا

==راشد الذين زاحموهم في تلك البسائط.ابن حزم، المصدر السابق، ص: 498، ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص: 215. ابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص: 71.

[1]- ابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص: 71.

[2]- مجهول تاريخ الاندلس، ص: 226.

[3]- جربيرة: نسبة إلى الجبل الذي وقعت فيه الغزوة قدم إليه المنصور من مدينة سالم أين أحشد الروم من جميع بلادهم فاجتمع منهم خلق عظيم لا يحصى، وثبت المسلمون لحربهم حتى استشهد منهم نحو سبعمائة رجل ثم مال عليهم المسلمون، وركبوهم بالسيف وسبو محلاتهم وأخذوا فيها من الاموال والسلاح مالا يحصى.

وقد صورالشاعر صاعد في قصيدة طويلة، هذه المعركة، وثبات المسلمين فيها، قوله

جَدَدْتُ شُكْرِي لِلْهَوى المُتَجَدِدِ وعَهِدْتُ عِنْدَكَ مِنْه مَا لَم يَعْـهَدِ

اليَومَ عَاشَ الدِينُ وابتدَأَ الهُـدَى غَضَا وَعَادَ المُلْكُ عَذْبَ المَورِدِ

مَنْ فَاتَهُ بَـــدْرٌ وَأَدْرَكَ عُـــمرَه جُرْبِير فَهُوَ مِن الرَعِـيلِ الأَسْعَد

فَوَدَدْتُ لَو خَـتَمَ القَضَاءُ بِأَنَني فِي القَـوْمِ أَوَلَ طَالِـع مُستَشْهِدِ

مجهول تاريخ الأندلس، ص: 235، ابن الخطيب المصدر السابق ص: 72-73.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 71.

[5]- نفسه، ص: 71.

الحدث بقوله«........ومعه أبطال من أعلام المسلمين الأندلسيين والعدويين عامتهم فرسان البرابرة على أن الاسم منهم في هذا اليوم ذهب إلى كبير الدمّري الأبرص من كبار القواد وأحد ملوك بني دمر بالعدوة وكان له إقدام عظيم قتل في احتدامه ذلك قوامس ابن غومس وجاء برأسه واستمرت الهزيمة على أثره وما قصد عبد الرحمان بن المنصور في شدة الاقدام، وثبت المقام وكانت حربا عظيمة تغتاض عن الصفة»[1].

ومن هذه الوقائع وغيرها التي اظهر فيها البربر استبسالا وجلدا منقطع النظير ظل المنصور يستزيد منهم ويحسن إليهم في آن واحد، ويستدعي كراءهم وأعيانهم من صنهاجة وزناتة[2].

- ونجد تبريرا عند ابن حيان لحاجة المنصور لهؤلاء البربر كمقاتلين أشاوس، ووصفهم وصفا يليق بهم في ميدان الحرب والكريهة بالرغم من موقفه السيء حيالهم كعنصر بربري كان وراء الكثير من المفاسد التي لحقت بالأندلس حيث يقول: «وقاموا مقام الفلاذ في الحديد، فلا يقتل الاعداء إلا بهم، وتعم الأرض إلا في جوارهم»[3].

وقد اكسبت هذه المشاركة المستدامة في جيش المنصور سمعة وثناء خاصة البطولات والروائع التي أنجزوها في ساحات المعارك، وغدو من أيامهم حديث الخاص والعام، فتسامع الناس بهم عبر كامل أرجاء الأندلس مما أثار غيرة الأندلسيين وحسدوهم على هذه المكانة، وتمنوا أن يكونوا مثلهم وقد أشار ابن الأثير إلى هذه الحادثة بقوله: «لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور ابن أبي عامر لقد نشطنا هؤلاء-أي البربر- للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد»[4].

وعلى أي حال فإن المنصور ابن أبي عامر عرف كيف يتماهى مع هذه الفئة من المغاربة ويجعل منها أداة يضرب بها على أيدي أعدائه في الداخل ويسكت أصواتهم وأداة لمواجهة اعدائه من

[1]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 70.
[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج4، ص: 147.
[3]- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق،ج2، ص: 9.
[4]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص: 400.

الجليقيين في التخوم الشمالية حيث كان المنصور يسجل حضوره بجيشه مرة و مرتين في السنة دون أن يقرع طبول الحرب واتخذها سنة جهادية، ليرفع بها هامة جنده، ورعيته.

عاش المنصور طوال أيام حكمه متأهبا لا يركن إلى راحة أو خلو بال، حيث يذكر ابن الخطيب أن كاتب المنصور طلب منه أن يريح نفسه بعد سهر طويل في تدبير شؤون الدولة فأجابه: «حارس الدنيا لا ينام، إذا نامت الرعية: لو استوفيت نومي، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة...»[1].

ومع ذلك فقد كان قلقا متبرما على دولته التي بناها بالطموح والتضحية، ولعله كان يعرف أنه بحنكته ودهائه، جاثم على صدر الكثير من الفتن التي تحتدم في جوف المجتمع الاندلسي، المتكون من عناصر قبلية مختلفة ،وطبقات وكتل تحرص بعضها بعضا، وكان هذا الوضع قابل للاشتعال في أية لحظة، يغفو أو يختفي فيها الحاكم وهذا شان الدول التي تربط مصيرها بالأفراد فتصعد مع الشخصيات الفذة وتهبط مع الضعفاء[2].

اختفى المنصور عن مسرح الأحداث سنة 392هـ/1001م وهي السنة التي توجت آخر غزواته إلى بلد ابن غومس صاحب قشتالة. بمدينة سالم التي بناها بوادي الحجارة من الثغر الشمالي، وأقامها في أراضي العدو.

ولما اشتد به المرض، وفترت قوته، لم يقدر على الحراك، صنع له سريرا من الأخشاب وحمل على أعناق الرجال[3] عزيزا على فراش التجلّة والتكرمة[4]، وعسكره يحف به وبين يديه لمدة أربعة عشر عشر يوما حتى بلغوا مدينة سالم، وفيها أسلم الروح لبارئنا في 27/رمضان/392- وهو ابن خمسة وستون سنة وعشرة أشهر ودامت دولته ست وعشرون سنة، غزا فيها اثنين وخمسين غزوة ،واحدة في

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 76، ابن عذارى، المصدر السابق،ج2، ص: 298.

[2]- ابراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانية منذ الفتح حتى سقوط الخلافة 92-422هـ/711-1031م، دار النهضة العربية بيروت، 1406هـ/1986م، ط3، ص: 333.

[3]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 402.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 81.

الشتاء والأخرى في الصيف ، وكان قوام جيشه من البربر الذين حارب بهم الحروب عشرة ألاف وخمسمائة وأجناد الثغور مثيل هذا العدد[1].

وتناهى إلى الأسماع مغرب ذلك اليوم في أصقاع الأندلس أفول نجمه فرثته ألسن الشعراء ومما قيل فيه بيتان من الشعر كتب على شاهد قبره:

آثَـارُهُ تُنْبِـيكَ عَـن أَخْــبَارِهِ كَــأَنَـكَ بِالــعُيُــونِ تَـــرَاهُ

تَـالله لَا يَـأْتِي الزَّمَـانُ بِمــِثْلِهِ أَبَدًا وَلَا يَحْـمِي الثُغُورَ سِوَاهُ[2]

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 301. أرزقي فراد، المرجع السابق، ص: 21.

[2]- ابن عذارى، نفسه، ج2، ص: 440-443.

الحرب الأهلية ودور البربر فيها

تشير بعض الدراسات التاريخية الحديثة. على أن بذور إنهاء الخلافة التي انطلقت شرارتها نهاية القرن الرابع الهجري، قد ولدت في عهدي عبد الرحمان الناصر والحاجب المنصور بن أبي عامر[1].

بيد أن الوقائع التاريخية التي شهدتها الأندلس في عهد المنصور، تبرز بوضوح أن عهد الانهيار قد حملتها أيام المنصور وحده، لتنفجر بعد أقل من عقد من الزمن بعد وفاته.

أما عبد الرحمان الناصر فقد أسس لدولة استمرت عهد نجله الحكم المستنصر الذي لم يكن في مستوى والده من حيث ادارة الحكم ،وحجة هؤلاء ان الخلافة الأموية قد ارتبطت بالفرد وليس بنظام، ولأن استمرت القوة فذلك مستمد من أسلافهم.

فمثلا القوة والدور الذي ظهرت عليه الدولة الاموية في الأندلس على عهد الخلافة فهي القوة التي كان يكتسبها الحاكم من سلفه[2].هذا صحيح ولكن حكم الفرد ليس بالضرورة حكما فرديا في جميع الأحوال.

فدولة الخلافة في عهد عبد الرحمان الناصر قد مارست الحكم الفردي على مؤسسات ولكن من جانب الحرص على ضمان فعالياتها واستمرارها، أما ادارتها وتسييرها فقد مورس من قبل عناصر الدولة الأكفاء.

لذلك فالبناء المستوي لهذه المؤسسات من شأنه أن يستمر في أعقاب الحكام الذين يتوالون على كرسي الخلافة.

وعلى أي حال فإن الوقائع التي انبعثت منها شرارة الفتنة، فهي تبدأ بالعزلة المطبقة التي فرضها المنصور على هشام المؤيد وسياسة حزّ الرؤوس لمعانديه، مما جعل المنصور مطلق التصرف في شؤون الدولة من جميع النواحي، حيث يصور لنا ابن حزم شخصية هشام أمام هذا التسلط قائلا:«وما كان هشام المؤيد بدونهم إلا أنه كان ممسكاً لا يؤذي أحدا ولا يمنع أحدا من أن يؤذى»[3].

---

[1]- عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص: 306.

[2]- نفسه، ص: 306.

[3]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج2، ص: 73.

حتى شاعت آنذاك أبيات شعرية لاكتها ألسنة الساخطين على العامريين

أَلَيْـسَ مِن العَـجَائِبِ أنَّ مِثْلِي يَرَى مَـا قَل مُمْتَنِـعًا عَلَيهِ

وَتَمْـلِكُ بِإسـمِه الـدُنْيَا جَمِيعًا وَمَـا مِن ذَاكَ شَيئًا فِي يَدَيهِ[1]

وفضلا عن هذا السخط الشعبي ظل مكرسا منذ بداية تولي المنصور مقاليد الحجابة، فهذا ابراهيم بن ادريس الحسني[2] أحد الغيورين على البيت الأموي يصدع بهذه الأبيات وهي تحمل هجاء فضيعا يدل على تذمر وانكسار قائلا:

فِيمَا أَرَى عَجَبٍ لِمَن يَتَعَجَب حَلَت مُصِيبَتَنَا وَضَاقَ المَـذْهَبُ

إني لَأُكَذِبُ مُقلَتِي فِيـمَا أَرَى حَتَى أَقُولُ غَلَطْت فِيمَا أَحْسـبُ

أَيَكُونَ حَـيًا مِـن أُمَـيةَ وَاحِد وَيَسُـوسُ المُـلْكَ هَـذَا الأحَـدبُ

تَمْشِي عَسَاكِرُهُم حَولَ هَوْدَجٍ أَعْـوَادُهُ فِيـهِـنَ قِـرْدٌ أَشْـهَبُ[3]

ظل المنصور كما أسلفنا يقبض على الحكم بيد من حديد فخمدت من أيامه القلاقل والاضطرابات وخمدت معها الأحقاد والعصبيات التي ظلت تختلج في صدور أصحابها من مختلف شرائح المجتمع الأندلسي.

فلما أفل نجم المنصور خلفه ابنه عبد الملك المظفر الذي لقب بسيف الدولة وكان سنه آنذاك 28سنة، وقد ورث عن والده ملكا واسعا ولكنه كان مهددا بالأخطار وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كثيرة أثبت فيها جدارة ومهارة عالية[4].

وهو بهذا الفعل أراد أن يحافظ على هيبة الدولة، وان يظهر للناس بأنه ليس بأقل شجاعة في الحروب من أبيه، وأنه باق على سياسة الغزو التي سار عليها والده[5].

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 280-281.

[2]- ابراهيم بن ادريس الحسني: كان أديبا شاعرا عاش في أيام المنصور بن أبي عامر وعاش إلى أيام الفتنة، أصله من المغرب، وسكن قرطبة إلى أن أخرجه المنصور مع أهل بيته عن الاندلس بعد مقتل الحسن بن قنون زعيمهم، كان ذا لسان سليط وصفه الحميدي الخبث الهبء، الحميدي المصدر السابق ، ص:151، ابن الأبّار المصدر السابق، ص: 131.

[3]- ابن الأبار، نفسه، ص: 131.

[4]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: 406.

[5]- خالد الصوفي، تاريخ العرب في اسبانيا نهاية الخلافة في الأندلس، منشورات الجمل: بيروت، 2011، ص: 59.

ويستنتج من هذا الاقدام ومواصلة حرب الناصر ،أن الحاكم الجديد كان يستمد مكانته كحاكم قوي توجب طاعته من حربه للنصارى، وهذ ما يلاحظ عند أغلب الأمويين، ولعل هذا الحرص على بلوغ المكانة هو الذي أودى بحياة عبد الرحمان شنجول عندما أصر على الخروج في الأيام الأولى التي كان فيها حتفه.

لم يدم حكم عبد الملك أكثر من ستةأعوام وبضعة أشهر، حيث مرض أثناء غزوته السابقة فحمل إلى قصر الزهراء في 16/صفر سنة 399-20/أكتوبر/1008.

وشهدت الأندلس أيامه حالة من الاستقرار ويسر الحال، والابتهاج ففي كتاب المعجب ما يدل على ذلك «كانت أيامه أعيادا في الخصب والأمان، دامت سبع سنين إلى أن مات وثارت الفتن بعده»[1] فأعقبه أخوه الذي لم يقتف أثر أبيه، ولا هو حاك أخاه، بل كان نسيج وحده في الخلاعة وضعف الشخصية، وتبذير المال العام[2].

وكان نسبه من جهة الأم محل ازدراء وشؤم، إذ كانوا ينادوه بشنجول الصغير فهو حفيد ملك بنبلونةسانشوا غرسيه الثاني، وكان يلتقي مع هشام الثاني في كون الوالدتين من نبرة[3]، وكانت هذه الوشيجة دافعا لدعوى كل منهما الآخر إلى بعض الإحتفالات التي كثيرا ما شارك فيها الحريم من الطرفين فكان هذا الإنصراف إلى اللهو يولد عند القرطبيين نقمة وحسرة، إلى ما آل إليه السيد الجديد لإسبانيا[4].

لم يقف عبد الرحمن شنجول عند هذا الحد، بل قاده تهوره واستهتاره إلى أبعد من ذلك، وكان يسعى إلى أن يستصدر مرسوما بتعيينه وليا للعهد، بحيث تنتقل إليه الخلافة بعد موت هشام وقد

---

[1]- عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت، 1426هـ/ 2006 م، ص38.

[2]- عبد المجيد كمال، الفكر الاندلسي بين الطموح والانتكاسة، قراءة في الفعل السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري بالأندلس خلال القرن الخامس هجري، منشورات مجموعة، ص:21. لفي بروفنسال، المرجع السابق، ص: 509.

[3]- نبرة: بفتح أوله وسكون ثانيه وراء بعدها هاء والنبرة عند العرب ارتفاع الصوت ومنه نبرات الحر إذا همزته ونبرة إقليم من أعمال ماردة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 140.

[4]- لفي بروفنسال، المرجع السابق، ص: 509.

تسمى بألقاب الخلافة كالناصر، والمأمون تيمنا بالخلفاء العظام ، من العباسيين والأمويين في الأندلس، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة ولعلها أول محاولة في تاريخ الإسلام يطمح فيها رجل من خارج السلالة القرشية وقد أثارت هذه الحادثة غضب الأندلسيين[1] وامتعض منها فقهاؤهم[2].

وقامت قيامتهم لأن الرجل من الناحية الأخلاقية لم يكن مؤهلا لهذا المنصب. وحول هذا التهور اللامسؤول يقول ابن حيان«قد تقدم القول بسبب هذا قلق هذا الجاهل، بدعوى الخلافة عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة بل جرها بالعجلة»[3].

ومهما يكن من أمر فإن عبد الرحمان بن المنصور تعجل الوصول إلى نهايته، التي بدت وشيكة، بعد أن هيأت خطواته الجريئة، الأسباب للانقضاض عليه. وحول هذه المحاولة في طلب ولاية العهد أورد الدكتور ابراهيم بيضون نصا في غاية الأهمية، قائلا: «فالدولة العامرية التي حكمت الأندلس من منصب الحجابة لاغية دور الخليفة القابع في قصره، لم يتح لها ذلك دون جهود المنصور وعبقريته السياسية التي لم ينتقل منها شيء إلى ابنه الجاهل(كما وصفه ابن عذارى) فعلى العكس من ذلك كان الحاجب الجديد هو القيصر متآمرا عليه بسكوته النافر واستخفافه بالأعراف قبل أن يسوقه إلى حتفه خلال شهور قليلة، وكأنه جاء فقط لتكريس عملية السقوط المخزي»[4].

كانت هذه التصرفات الحمقاء كفيلة بأن توقد حذوة الفتنة التي اتت على الأخضر واليابس، حيث يقول ابن عذارى أن ادعاء العهد هو الباعث على الفتنة[5].وعليه فإن الأندلسيين قد ذهلوا من

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 90.

[2]- فوزي عماد القبوري، فقهاء الأندلس والمشروع العامري 367-939-978-1009. دار كنوز للنشر والتوزيع، السعودية 1431، 2010، ص: 214.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص:91. حول نص القرار بولاية العهد، أنظر: ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 44-45- 46، ابن الخطيب، نفسه، ص:91-92-93.

[4]- ابراهيم بيضون، المرجع السابق، ص: 339.

[5]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 42.

انتقال الخلافة من العصبة المضرية إلى أيدي الأسرة العامرية القحطانية[1]، وقد صور ابن عذارى، ما نزل على الأندلسيين من حزن وضيم لم يسبق لهم أن تجرعوه من قبل قوله: «وعزا وجوه الناس من أهل قرطبة لهيئة المغرور عبد الرحمان بهذه المحنة التي كانت أعظم محنة كلهم يعزي عنها نفسه ويكفكف عبرته ثم تحملوا بالملق.....وخرجوا من عنده أي المروانيون وأهل بيت هشام- وقلوبهم موقودة ببغضه»[2]. وضجوا لذلك واستعظموا طغيانه وغيه[3]، وكانت هذه الأسباب القاهرة التي أدت إلى ظهور الفتنة في الشهور الأولى من حكم شنجول وما لبثت ان تحولت إلى حرب أهلية بالمفهوم المعاصر.

وكانت بداية هذا الحراك حين التف الأمويون حول شاب يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار.[4]

هذا الفتى الذي سبقه والده في محاولة انقلابية ضد عبد الملك ابن أبي عامر، وباءت بالفشل وأعدم لتوه[5]، مما ترك أثرا بالغا في نفسيته، دفعته للأخذ بالثأر من العامريين مستغلا سقطة شنجول وطلبه للخلافة وغضب الأندلسيون عليه[6].

لم يكن المروانية وحدهم في هذا التدبير، قصد سحق العامريين، فقد عظمتهم الفلول الناقمة من سائر قريش والمضرية واليمنية، ومن سائر البيوتات العربية التي عانت من سياسة القمع التي مارسها ابن أبي عامر عليهم، واخضاعهم عنوة للعناصر البربرية والصقالبة[7].

1- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 206.

2- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص:47.

3- ابن الكردبوس التوزري، المصدر السابق.ص:67.

4- محمد بن هشام بن عبد الجبار: لقبه المهدي كنيته أبو الوليد، أمه أم ولد اسمها مزنة لقبته العامة المنقش لهشاشته وطيشه، كان بابا للفتنة يسبب الشقاق والنفاق ولي مرتين الأولى يوم خلع هشام بن الحكم والثانية بعد سليمان الذي انهزم أمامه في موقعة عقبة البقر، ثم كانت الهزيمة على المهدي في موقعة وادي آره ففر إلى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي فقتلوه، الحميري المصدر السابق، ص: 30، ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 50.

5- ابن عذارى، نفسه، ج3، ص:35.

6- نفسه، ج3، ص: 52.

7- مصطفى أبو ظنيف احمد، المرجع السابق، ص: 389.

ومما هو جدير بالذكر وقبل الحديث عن وقائع هذه الفتنة التي تأرجحت بين مسميات مختلفة، كالفتنة البربرية وهي تسمية تداولها أهل الاندلس[1] والفتنة القرطبية، التي آثر بعض المؤرخين الإعراض عن تعيين المتسبب فيها، لكن أوعزوا إليه في قضايا المتون التي تجعل الباحث يقف كل من كان وراء الفتنة دون إمعان نظر.

وفي المقابل نفى الكثير من المعارضين مسؤولية البربر إثارة الفتنة، عندما نسبوا ذلك إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار، ومنهم ابن الأبارالقضاعي الذي عاش في القرن السابع الهجري. وهو مع ذلك خبر تاريخ الأندلس ورجالاته ليقول: «محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر باعث الفتنة بالأندلس وهو موقد نارها الخامدة وشاهر سيفها المغمد»[2]

وبنفس العبارة، والحدة ، أورد ابن عذارى نصا صريحا، استلهمه في حقيقة الأمر من الوقائع التي مهدت للفتنة ، حيث كان ابن هشام السهم الذي لم يخطئ المروانيون به عندما صوبوه نحو العامريين، وفي هذا يقول ابن عذارى: «فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار فكان الأحق والأولى»[3].

وعلى هذا المنوال نسج المقري التلمساني، حيث ألقى اللوم على محمد بن هشام في اشعال نار الفتنة قائلا: «لقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا، فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس وماحي معالمها حتى تفرقت الدولة وانتشر السلك وكثر الرؤساء وتطاول العدو إليها وأخذها شيئا فشيئا حتى محى اسم الإسلام منها»[4]

وتتابعت أقلام المؤرخين في تحميل هذه الشخصية مسؤولية الفوضى والانهيار اللذين ألما بالأندلس، وهذا ابن خلدون عبد الرحمان لا يفوت على محمد ابن هشام اتهامه ببعث الفتنة بقوله:

---

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 76.

[2]- ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص: 5.

[3]- ابن عذاري، ج3، ص: 76.

[4]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 577.

«حتى خشي الناس من اقتحام البرابرة عليهم فأعزوا أهل القصر وحاجبه، المدبر المهدي، وأن الفتنة إنما جاءت من قبله»[1]

وفي الجانب الآخر يقف ابن حيان وهو عمدة من أرخوا لهذه المرحلة ليحمل البربر مسؤولية ما حدث أيام الفتنة، فقد ألف كتابا أنافت أسفاره على المائة أسماه "أخبار الدولة العامرية" المنسوخة ب"الفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشائعة "وفضلا عن هذا المؤلف، فهو قد حمل البربر مسؤولية البدء في إشعالها في الكثير من النصوص التي حوتها كتبه منها هذا النص: «واعتدوا بعده على الخليفة في معنى في معنى الامتعاض منهم، لعدواتهم على ولده اعتداء صار إلى ما هم الآن بصدده من أبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة»[2].

مع ذلك يمكن القول: أن مذهب ابن حيان في تحميل مسؤولية الفتنة جاء في إطار شامل للمجموعة الآتية على حد قول الأستاذ الباحث محمد بن عبود قوله: «يمكننا أن نستنتج بأن منهج ابن حيان لعهد الطوائف كان شاملا، بحيث انتقد جميع العناصر الآتية المسؤولة عن اندلا ع الفتنة»[3]

وعلى أية حال فقد حلت ساعة الحسم عندما تهيأ عبد الرحمان بن أبي عامر للقيام بحملة عسكرية شاتية 399هـ 1009، ولم يلق بالا لفتاه الأكبر الذي خصمه بالعدول عن الغزو والبقاء في قرطبة، احتياطا لما قد يحدث من مكروه ،فقد بلغه أن أحد المروانيين يهتم بالقيام عليه، وقد استجاب له خلق من الجند فرد عليه عبد الرحمان قائلا: «والله لو اجتمع بنوا مروان إلى مرقدي، وأنا نائم ما أيقظوني»[4]

كانت أولى العمليات الفدائية إن صح التعبير وبعد أن أطمأن محمد بن هشام محل دخول شنجول بلاد صقلية وأمن من سرعة رجوعه، أذن الرجال بالدخول إلى القصر بعد أن أعدوا لذلك

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج4، ص: 181.

[2]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 151

[3]-احمد بن عبود. مباحث في التاريخ الأندلسي وصادره، منشورات عكافا-نطوان، 1987 ص: 57.

[4]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 96- عبد الوهاب خليل الدباغ، الفتنة الأندلسية – 399-422/1009- 1035ط. 2012، ص: 45.

الهجوم بإحكام، فدخلوا على صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر، وأوكل مهمة القبض عليه إلى طرطوس المجوسي وكان أشجع جنده، ثم أسلمه إلى محمد بن هشام الذي ضرب عنقه، وفصل رأسه عن جسده وترك جسده مطرحا وسط الطريق تطؤه الأقدام، كل ذلك لبث الرعب والخوف في أوساط مناوئيه.

فتداعت لهذا الحدث الفضيع جماعات من العنازين والجزارين والسفلة وسائر الغوغاء الذين لا يحصى لهم عدد[1].

وما إن استقر له الأمر ، وتمكن من بسط نفوذه، أرسل إلى عليّة القوم من فقهاء وقضاة لعقد البيعة له ،ولم يتخلف أحد عن مبايعته، وتسمى بالمهدي في جمادى الأخيرة سنة 399هـ 1009م.

فلما انتهى خبر الثورة إلى عبد الرحمان بن أبي عامر قفل راجعا إلى قرطبة، يسابق الريح في الوصول إليها.

وفي الطريق انسحب كل من كان معه من الجند حتى لم يبق معه إلا خاصته[2]بسبب احتقارهم له ونصه "واضح" حاكم طليطلة بألا يفعل، إلا أنه ركب رأسه، وتوجه نحو قرطبة يحسب ان أهلها سوف يرحبون به[3] .وارتكبت جموع البربر المرافقة له ، لما سمعوا التفاف أهل قرطبة حول ابن عبد الجبار، وخوفا على أسرهم البربرية من العامة توجهوا نحو قرطبة مسرعين، وفي مقدمتهم أبو زيد بن دوناس اليفرني في جماعته، وزيري بن عرابة المطماطي، وحباسة بن ماكس بن زيري الصنهاجي في جماعة من إخوانه، وتبعهم رؤساء القبائل البربرية، وحتى لحقوا بالخليفة الجديد .وعندما شارف منزل ارملاط تخلى عنه من بقي معه من الجند، وبات في ارملاط يقلب كفيه على ما حدث له من سوء التدبير.

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 56.

[2] - luis suarez-fernandez historia de espanaedad media editoriacaredosmadria page 105.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 56.

وهناك أرسل إليه محمد بن هشام من قتله واحتزّ رأسه وحمله إليه 3رجب- 399هـ/ 3مارس 1009، وكانت تلك هي النهاية المحزنة التي انتهت إليها الدولة العامرية[1].

فتزايدت أعداد البربر على ابن عبد الجبار ،وعلى رأسهم كوكبة من زعماء البربر تعلن ولاءها للعاهل الجديد بعدما أدركت تضعضع الحكم العامري وفشل عبد الرحمان بن أبي عامر في إدارة الحكم[2].

ومن هؤلاء زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، وبنو ماكير ابن أخيه زيري، ومحمد بن عبد الله البرزلي، ونصيل بن حميد المكناسي، وزيري بن عرابة المتيطي، وأبو زيد بن دوناس اليفرني وعبد الرحمان بن عطاف اليفرني، وأبو زيد بن قرة اليفرني، وأبو الفتوح بن ناصر، وخزرون بن محصن الخزراوي، وبكساس بن سيد الناس، وحمد بن ليلى المغراوي[3].

لم يلق انحياز البربر لمحمد بن هشام ترحيبا يليق بموقفهم هذا فقد لفضتهم جموع المروانيين رؤسائهم وعامتهم، كونهم كانوا وراء ظهور ابن أبي عامر، والأداة التي تغلّب بواسطتها عليهم، وساموهم بها سوء ما يكرهون[4].

لم يعرف المهدي كيف يقابل هذه الفئة التي لجأت إليه، وهو كان في أمس الحاجة إلى مؤازرتهم وتدعيم صفوفه بهم، خاصة وأنهم اظهروا بسالة في الحروب.

ليس هذا فحسب بل فتح عهده بالانتقام منهم وأمر بتحريض العامة على نهب دورهم[5] . فقد نهب حي الرصافة الذي كان يقيم فيه الصنهاجيون[6] ولم يبد اهتماما لحمايتهم[7].

---

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 51،50 ، عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 297-298.

[2]- القري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 427.

[3]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج4، ص: 180.

[4]- ابن خلدون، نفسه، ج4، ص: 180.

[5]- فراد أرزقي، المرجع السابق، ص: 23.

[6]-ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص: 516.

[7]- دوزي رينهارت، المسلمون في الاندلس، ج2، ص: 11.

وقد جنّد لهذا الغرض كل من يقدر على حمل السلاح من الأسواق والأرباض، الذين يمتهنون الزبالة، والجزارة، والفحم، وهم من سفلة القوم، والغوغاء[1] فاندفعوا دون خبرة قتالية في مجموعات متفرقة لا تلوي على شيء، مجردين من الوازع الديني والأخلاقي.

وكانت أولى الرموز المستهدفة مدينة الزاهرة العامرية[2] فعاثوا فيها فسادا، ونهبوا ما كان فيها من الأموال والأسلحة، والخزائن والآلات السلطانية واقتلعوا الأبواب المحكمة، والخشب الضخم، وغير ذلك مما حوته القصور وبيعت في أنحاء شتى من البلاد[3].

ولم يرعو هؤلاء في ارتكاب المزيد من الجرائم فقد امتدت أيديهم إلى منازل البربر ودخلوا دور بني ماكسن وبني زاوي وأهانوهم.

مما دفع بزاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى مقابلة المهدي، فاستوقف عند باب القصر بالرغم من مكانته الاجتماعية والسياسية ومنع من الدخول، ولم يسلم من اعتداء الحراس عليه بضرب فرسه، وحول هذه الحادثة يورد ابن عذارى نصا مفصلا ينم عن الأسباب الحقيقية للفتنة التي كانت لعامة قرطبة ضلوع فيها بلا جدال.

حيث يقول:«وكان أعظم ما جرى عليه بعض ذلك زاوي بن زيري بن مناد عظيم صنهاجة أصحاب افريقية وملكهم وقومه ملوك افريقية يملكون من اطرابلس إلى طنجة، فاحتبس بالباب للازدحام مدة لا يفرج له ولا يعرف مكانه ،وكلما همّ بالاستقدام ردوه وقرعوا رأس فرسه فلما أكثروا عليه جعل يقول هذا الرأس فضربوا، فالدابة لا ذنب لها، فكانوا يرون أن ذلك مبتدأ حقده»[4].

---

[1]- ابن عذري، المصدر السابق، ج3، ص: 74.

[2] – andriclot, l’Espagne muslimane VIII X V sieclelibrerieaccademiqueperrain 1999 p :175.

[3]- الزاهرة العامرية: بناها المنصور بن ابي عامر في سنة 368هـ-978م وإنتقل إليها وإستوطنها ورتب وزراءه وكتابه ونقل إليها الدواوين وجعل حرس الشرطة على بابها وأقامت الزاهرة معمورة ثلاثين سنة وفي أيام الفتنة دمرت على آخرها.مجهول،تاريخ الاندلس، ص: 22.

[4]- ابن عذرى، المصدر السابق، ج3، ص: 61.

وأمام هذه المواقف التي أبداها محمد بن هشام حيال البربر، أيقنوا أن ما يخبأ لهم هو أعظم، وكيف لا وهو شخصية متذبذبة، ومتهورة تحركها النزاعات الخاصة وليس لها هدف أسمى[1] ففكروا في شخصية يمكن الالتفاف حولها فلتفوا حول زعيم جديد من هذه الأسرة وهو هشام بن سليمان[2] الملقب بالرشيد وانتهت المواجهة بانهزام البربر ولقي الرشيد مصرعه[3].

ونكاية في البربر ومحاولة لتجفيف منابعهم، بالقتل والتشريد أمر بأن ينادى في الناس أنه من يأتي برأس بربري فله من المكافأة كذا، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، حتى لدخلوا على سنار البرزلي وهو ممن كانت له آثار جميلة في الجهاد، فذبح على فراشه في منزله، ولم يستثنى من ذلك صالح أو طالح، وهتك الحريم وسبي النساء، وقتلوا النساء الحوامل وبيعت الشابات.

وقتلوا سبع عشر رجل من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة واستنزل مسلم بن عبد الله الحسيني من داره وقتل ومثل به ورمي في حفر بجوار داره، وانتهب منزله وفضح بناته، وقتل قوم من أهل خرسان والشام على أنهم بربر، وقد استنكر ابن عذارى هذه الاعمال وعدّها من القبائح التي استحقت غضب الله، وجرت عليهم سننه التي محقتهم إلى الأبد[4].

وإن المتأمل في هذه الجناية التي جنح إليها المهدي ضد البربر ليدرك مدى السفاهة والتهور التي قادته إلى ارتكاب هذه المجازر في حق البربر، وكان الاجدر ان يأمنهم على أموالهم وأعراضهم، ويحافظ على مراكزهم ومكانتهم ضمن صفوف المجتمع الأندلسي[5].

1- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 75.

2- هشام بن سلمان: بن عبد الرحمان الناصر، بويع له بعد اعتلاء المهدي سدة الخلافة وتلقب بالرشيد، واتفق مع البربر على خلع المهدي وزحف بهم نحو القصر، فالتقى الجمعان فكانت الدائرة على هشام وأخذ أسيرا وأحضر بين يدي المهدي وضرب عنقه، وذلك في شوال/ 399هـ 1008. الحميري، المصدر السابق، ص30. ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 84.

3- المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص: 39.

4- ابن عذارى، نفسه، ج3، ص: 81.

5- عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص: 452.

وهو قد أخطأ التقدير في أعداد البربر المنتشرين في أرجاء الأندلس، وأن الضغط والتنكيل بفئة منهم لكفيل بأن يجمع الأجزاء المبعثرة في كامل الاندلس، وهو ما حصل بالفعل، فعندما ضيق الخناق على بربر قرطبة.

فتسامع البربر بما فعل بإخوانهم بقرطبة، فتداعت سائر البربر إلى الانضواء تحت راية سليمان المستعين الذي كان في نظر البربر هو الخليفة المرواني الوحيد الذي تجب مبايعته لتخليصهم من عدوهم المهدي.

وعلى أية حالة فإن عمليات استهداف البربر أدت إلى تكتلهم وتجمعهم حتى لا يفتك بهم أهل قرطبة[1].

وحتى هذه الساعة ظل البربر صابرين على إذاية أهل الأندلس لهم، محاولين جهد الامكان مجانبة التصادم مع الاندلسيين وفي هذا بقول ابن عذارى: «وكان البربر إذا دخلوا أسواق قرطبة تخوفوا من العامة، فإن صهل فرس على فرس قامت النفرة، لتعصب العامة عليهم وبعضهم فيهم وهم مع ذلك صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمد أحد منهم يده إلى أندلسي»[2].

وفي غمرة هذه الأحداث سعى حكماء البربر وزعمائهم، زاوي وحباسة، وحبوس أبناء ماكسن، دخلوا على المهدي، وشكوا له ما أصاب قومهم على يد أتباعه، فتظاهر لهم بالاعتذار، وأمر بقتل المعتدين وأمر وزيره أن يعلن على رؤوس الأشهاد، أن المهدي قد عفى عن جميع البرابرة، شريطة أن يعودوا إلى بلادهم لخدمة الأرض كما كانوا[3]. وكان ممن اختفى عن الأنظار، محمد بن يعلى المغراوي، ومصل بن حميد في نفر من بني عمهم وجماعة من البربر، فأمنهم وألبسهم القلانس والأردية، وأمرهم ان يتزينوا بزي الأندلسيين ويخلعوا العمائم، وأمر المهدي بالكف عن إذاية البربر، ومن خالف فله السيف، فكف الناس عنهم[4].

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 299.

[2]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 92.

[3]- نفسه، ج3، ص: 82.

[4]- نفسه، ج3، ص: 82.

لم تنطل حيل المهدي على البربر ولم يستجيبوا لنداءاته، ووضعوا هذه المرة يدهم في يد سليمان بن الحكم، وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله في شوال سنة 399هـ/ 1009م، وسار بهم نحو قلعة رباح[1] التي انظم إليه أهلها. وهناك أدرك المهدي فشل سياسته وسوء تقديره للأشياء، فحاول أن يربئ الصدع، ويفوت الفرصة على البربر[2]، فارسل إليهم رسولا من بني جلدتهم من أجل استمالتهم، فأرسل إليهم التاجر الجزائري عباس البرزالي يدعوهم إلى التعقل والعودة إلى قرطبة[3].

فلم يصغ البربر لسفير المهدي، ولم يعيروه اهتماما بل قالوا له: « لولا انك رسول وتاجر لقتلناك فليس لرجوعنا من سبيل لأنه إن أمننا لم تؤمن رعيته وإن أمنتنا رعيته لم تؤمنا جنده»[4].

ورأى سليمان ان يؤمن مواجهته للمهدي بالاستعانة بالملك القشتالي شانجه بن غارسية، الذي لم يتأخر في الانضمام لجيش المستعين، وكانت فرصة للانتقام من المسلمين.

تحرك جيش المستعين نحو وادي الحجارة[5] فتجاوزها واقترب من مدينة سالم، فانضم إليه حوالي أربع مائة من البربر الذين تخلوا عن حاكم المدينة وانضموا إلى إخوانهم[6] .وحتى يألب محمد بن هشام أتباعه ويشحذ هممهم لمواجهة البربر أخذ يشنع بالبربر ويصف لهم ما ارتكبوه من فضائع وتدمير بوادي الحجارة فتحمس الناس لمقاتلة البربر[7].

---

[1]- قلعة رباح: من أعمال حيان تقع بين طليطلة وقرطبة وهي مدينة محصنة تشرف على نهر آنة، وهي مدينة مستحدثة في عهد بني أمية، وكان الامير محمد بن عبد الرحمان الأوسط قد أمر بتحصينها والزيادة في مبانيها عام 855/241 وهي مدينة حسنة سقطة في يد ألفنسو السادس ملك قشتالة مع مدينة طليطلة سنة 478هـ/ 1085، ثم استردها الخليفة الموحدي أبو يعقوب في موقعة الارك سنة 591هـ/ 1195م، الحميري، المصدر السابق، ص: 469.

[2]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 300.

[3]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 83.

[4]- نفسه، ج3، ص: 84-85.

[5]- وادي الحجارة: مدينة تعرف بمدينة الفرج بالأندلس، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة، تبعد عن طليطلة بخمسة وستون ميلا وهي مدينة حسنة كثيرة الأرزاق بها غلات كثيرة، ولها أسوار حصينة ولها مياه عذبة، ويغربها نهر صغير على ضفافه بساتين وجنات، وكروم، يزرع بها غلات الزعفران يسوق إلى جهات كثيرة تبعد عن مدينة سالم خمسين ميلا، الحميري، المصدر السابق، ص: 606.

[6]- عبد الوهاب خليل الدباغ، المرجع السابق، ص: 67.

[7]- ابن عذارى، المرجع السابق، ج3، ص: 88.

وكان من أعظم البلاء الذي نزل على البربر، هو خروج الغوغاء من عامة قرطبة وتجمعهم حول القصر، وهم يهتفون بقتل هؤلاء البربر الذين هم معهم، ونسائهم وأولادهم لأنهم كما يقول ابن عذارى: «لأنهم أضرّ علينا من الذين يأتوننا والبربر مع ذلك مستورون عند من يؤمنهم من اهل قرطبة»[1].

واصل المستعين سيره نحو قرطبة، وفي مكان يعرف بقنطيش التقى الجمعان في معركة ضارية، استدرج فيها البربر أهل قرطبة ثم مالوا عليهم ميلة واحدة، وأخذوا في تقتيلهم ليدخلوا المدينة من مسالك مختلفة[2].يصف ابن حيان معركة قنتيش وصفا دقيقا حيث يقول : «تدنى الزحف ليوم السبت لثلاث عشره من ربيع الأول،فتسرع إليهم أهل قرطبة وخالفوا واضحا في تدبير حربهم، فاستجرتهم البرابرة حتى إذا تمكنوا منهم ،عطفوا عليهم فانكشفوا عليهم انكشافا ما سمع مثله، وانهزموا على منازلهم، وتشعبت الطرق بهم وعاد تضيق مسالك كانوا عدوها لعدوهم سدادا دونهم، فازدحموا وتناشبوا وقتل بعضهم بعضا، ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم فقتل في هذه الوقعة عالم وأبادوا أمة»[3].

ولم تعف هذه الوقعة صنفا من الناس، فقد راح ضحيتها عدد كبير من الفقهاء والمؤذنين وأئمة المساجد وحتى من اهل الطرب فقد أصيب زريوط الطنبوري وأقام له أصحابه مأتما مشهودا بعد الحادثة[4] حتى قال ابن حيان: «من كل طبقة أخذت وقعت قنيش حتى من أهل الباطل»[5].

ومن هؤلاء الادباء الذين وجب ذكرهم في هذه الحادثة أحمد بن مطرف بن هانئ التجيبي[6]

---

[1]-ابن الأبار، المصدر السابق، ص: 6.

[2]- عبد الله محمد جمال الدين، من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي للكثير بن مروان، ابن حيان، مدريد، 1977، ص: 29 احسان عباس، تاريخ الأدب الاندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت 1960، ص: 173.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 25.

[4]- نفسه، ج1، ص: 26.

[5]- نفسه، ج1، ص: 26.

[6]- أحمد بن مطرف بن هانئ التجيبي: من أهل قرطبة يكنى أبا عمر ذكره الخولاني، وقال كان على هدي وسنة مجانبا لأهل البدع البدع فاضلا صالحا وسيما حافظا مجودا للقرآن، حسن اللفظ به جدا وكان من أصحاب ابي الحسن الانطاكي المقرئ مقدما فيهم عندهم، قتل بجبل قنتيش شهيدا سنة أربعمائة ودفن بمقبرة مومرة وحضره جمع من المسلمين لا يحصى، ابن بشكوال،

والفقيد عمر بن عثمان.والعالم الأديب محمد بن عبد السلام المعروف بالتدمري[1] والاديب اللغوي الشهير سعيد بن عثمان المعروف بابن القزاز[2].

ولما احيط بالمهدي وأيقن بالهزيمة حاول استمالة البربر، فأظهر لهم هشام المؤيد، لانه كان لديهم شغلهم الشاغل، حيث كانوا يرون ان اختفاءه كان سببا في المأساة التي ألمت بالأندلس، وكانوا كثيرا ما يكثرون عليهم الترحم، ويطالبون بدمه[3]، فأخرجه للناس وظن أنهم يتعصبون له إذا رأوه[4].

غير أن البربر عجبوا من صنيعه هذا، وأعلنوا تمسكهم بإمامهم المستعين فقال له البربر: «الله محمود على سلامته، ونحن لا حاجة لنا في إمامته ولا نرض بغير سليمان»[5].

وفي رواية لابن عذارى فقد سخروا من القاضي ابن ذكوان وقالوا له «سبحان الله يا قاضي، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه انت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة عليه، وجعلوا يتضاحكون منه»[6].

كتاب= =الصلة في تاريخ علماء الاندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1- 1423-2003، ص:31.

[1]- محمد بن عبد السلام التدمري: يكنى بأبي عبد الله، روى عن عبد الله بن مفرج وغيره، حدث عنه أبو عبد الله بن عابد وذكر أنه كان صاحبه عند الشيوخ في السماع وقال انتفعت به في مدارسة العلم، كتب في المناسك لسحنون بن سعيد، فقد في وقعة قنتيش سنة أربعمائة مع أبي عثمان بن القزاز الاديب، ابن بشكوال، المصدر السابق، ص: 387.

[2]- سعيد بن عثمان: كنيته أبا عثمان روى عن مجموعة من العلماء، منهم سعيد بن جابر الاشبيلي ومحمد بن محمد بن عبد السلام الخشني، وأبي علي البغدادي، وابو محمد بن عثمان، وخالد بن سعيد أجاز له جميعهم ما رووه، كان كاتبا لابن يعلى كان حافظا للغة العربية، حسن القيام بها، متقنا في نقله، وكانت له عناية بالحديث، فقد في وقعة قنتيش، ولم يوجد حيا ولا ميتا، ابن بشكوال، المصدر السابق ص: 181-182. الضبي بن عميرة ،المصدر السابق،ص: 288.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 26.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 113.

[5]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 26.

[6]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 89.

لم تنطل حيل محمد بن هشام على البربر وولى مدبرا، ولاذ بالفرار نحو طليطلة، ولحق بالخليفة واضح، أما سليمان المنتصر في هذه المعركة فقد دخل قرطبة[1] وأمر جند الصقالبة بحفظ هشام بن الحكم في بعض حجر القصر.

وقعة عقبة البقر:

لم تمنع سياسة العفو والتهدئة التي اتخذها سليمان المستعين من مواصلة النهب، فقد قام عبيد البربر من نهب دورا من أرباض قرطبة، وحسما للفتنة والتقتيل فقد ضربت رقاب أربعمائة منهم وعاد الهدوء وسكن الناس، وعادوا إلى تغسيل موتاهم ودفنهم[2].

لقد حاول المستعين جهده للإبتعاد عن أسباب الفتنة.فنحن لو رجعنا إلى الرسائل التي بعث بها إلى ابنه محمد، والجند من موالي الصقالبة للمسنا فيها ما يدعم هذا الرأي.

فالرسالة الموجهة إلى ابنه محمد بمناسبة توليته للعهد يقول فيها: «...وينصب لهم وزيرا يلجؤون إليه،...يؤلف شملهم ويجمع كلمتهم، ويلم شعثهم، ويسكن نفرتهم، ويؤمن روعتهم»[3].

وفي الرسالة الموجهة إلى الجند من موالي الصقالبة وفيها: «فقد آن أن تثوب العلوم، فتعود السيوف إلى أغمادها والنبال في كنائنها، ونحن نعاهد الله ألاّ نؤاخذ أحدا بذنب، بل نغفر ونصفح ونزيد في العطاء»[4].

لا شك ان سليمان المستعين أراد ان يجانب سلفه محمد بن هشام في معاقبة من ناصبه العداء في هذه الفتنة، ويصدر عفوا شاملا لا يستثنى فيه احدا، ولا يحمل المسؤولية لطرف فيما آلت إليه الأمور وفي الوقت الذي كان المستعين يرتب فيه لإعادة الاستقرار، وكبح جماح الفتنة كان محمد بن هشام يتهيأ للهجوم على قرطبة، ورأى واضح أن أحسن وسيلة لاستعادة عرش الخلافة لمحمد بن

---

[1]- pierre ghichard al andalus 711- 1492 hachette literature p :100.

[2]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 90.

[3]- أحمد العزاوي، عصر الطوائف في الاندلس من خلال رسائل ديوانية، القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، دراسة وتحقيق مطابع الرباط، 1434/ 2013، ص: 39.

[4]- أحمد الغزاوي، نفسه، ص: 40.

هشام هو الاستعانة بالنصارى ،فاتصل بالكونتين النصرانيين الفرنجيين رامولبوريل الثالث ramonborell III أمير برشلونة، واخيه ارمنخولArman gol أمير مقاطعة أورجلUrgel وذلك مقابل التنازل عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط[1] وأن يلتزم بدفع دينارين في اليوم لكل نصراني ومائة دينار للقومس، وان نسائهم ودمائهم حلال عليهم لا يحول أحد بينهم، فقبل المهدي وصاحبه واضح هذه الشروط[2].

وفي 14/شوال سنة400ه /مايو/ 1010 زحف جيش محمد بن هشام مع حلفائه القشتاليين وفي مكان يدعى عقبة البقر التقى الجمعان[3] ودارت بينهما مواجهة شرسة أبلى فيها البربر بلاءا حسنا وكان البربر قد جعلوا سليمان في مؤخرة الجيش وقالوا له لا تبرح موضعك ولو وطئتك الخيل[4] ،فمال الإفرنج مع جيش المهدي عليهم ميلة واحدة، فتظاهر البربر بالفرار ليتمكنوا منهم، وظن سليمان أن البربر قد انكسروا ولاذ هو الآخر بالفرار، إلا أن البربر أعادوا الكرة عليهم، وقتلوا ملكهم أرمنقند وقتلوا خلقا كثيرا من قادتهم ووجوههم، كما قتل عدد من البربر أعداد لا يستهان بها، ولم يقتل لهم فارس واحد[5].

وكان ممن قتل في هذه الوقعة من العلماء أبو عمر أحمد بن بريك المقرئ القرطبي[6] أيوب سليمان بن هشام بن الوليد بن كليب المقرئ المعروف بابن الغماز[7].

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 26.

[2]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 94، المقري التلمساني، ج1، ص: 428.

[3]- ابن الابار، المصدر السابق، ص: 176.

[4]- ابن عذارى، نفسه، ج3، ص: 94.

[5]- نفسه، ج3، ص: 95.

[6]- أبو عمر أحمد بن بريل المقرئ من اهل قرطبة يكنى أبا عمر أخذ عن أبي الحسن الأنطاكي المقرئ بقرطبة، وجود بمصر أيضا وسمع الحديث، وكان أحد المجودين الحفاظ من أهل الحجا والفضل قتل بعقبة البقر صدر شوال سنة أربعمائة مع المقرئ اب الغماز، ابن بشكوال، المصدر الشابق، ص: 33.

[7]- أيوب سليمان بن هشام بن الوليد بن كليب المقرئ المعروف بابن الغماز يكنى أبا الربيع سكن قرطبة وأخذ بها عن ابي الحسن الحسن الأنطاكي قال عنه أبو عمر بن الحذاء كان أحفظ من لقيت بالقراءات وأكثرهم ملازمة الإقراء بالليل والنهار وكانت أطيب= =من لقيت صوتا بالقرآن، وكان ذا ضبط وحفظ للحروف، أجلسه سليمان المستعين للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة،

وأبو عبد الله لن أحمد بن قند اللغوي ويعرف بالطليطلي، وأبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن البريلي[1].

فلما رأى البربر انصراف سليمان عن ميدان المعركة، وتوجهه نحو شاطبة[2] انحازوا نحو الزهراء وأخرجوا عيالهم، وأموالهم، وأولادهم حتى لا تكون نهبا لجيش المهدي وتوجهوا نحو الجنوب إلى الجزيرة الخضراء[3]. والظاهر ان الأسباب التي جعلت البربر يفضلون هذا الموقع، كونه قريبا من موطنهم الأصلي ببلاد المغرب، تحسبا لأي طارئ، فإذا ما زادت الأمور سوء ولم يبق في مقدورهم المواجهة، فقد يضطرون إلى مغادرة العدوة الأندلسية بأقل الأضرار، كما يمكن لهم ان يتلقوا الإعانات والامدادات التي تصلهم بسهولة، وبأقصى سرعة[4].

اغتنم عامة قرطبة خروج البربر من الزاهرة، وعاثوا فيها فسادا وقتلوا كل من وجدوا بها، ودخلوا المسجد ونهبوا حصره وقناديله[5].

وقتلوا كل من تشبه بالبربر، وقتلوا حتى المغاربة التي لم تطأ أقدامهم أرض العدوة، حتى أنه من كانت بينه وبين آخر عداوة أهتبلها، وقال هذا بربري فيقتل في الحين، وحذا حذوهم في هذا الصنيع الفرنجة فسبوا الكثير من القرطبيات الجميلات، فإذا ما افتدوهن أقاربهن أخذوا أموالهم وقتلوهم[6].

وخرج معه يقيم له صلاته على رسمه، وأصيب في وجهه في الهزيمة بعقبة البقر في صدر شوال سنة أربعمائة، ابن بشكوال ص172.

1- أبو عبد الله محمد بن عيس المكنى بأبي عبد الله له رحلة إلى المشرق لقي مشيخة المصريين وأخذ عنهم، وكان موصوفا بالعلم والصلاح، والعفة والشجاعة والجهاد بثغره خرج مع المهدي محمد هشام لنصرته وقتل بعقبة الثغر في صدر شوال ستة أربعمائة، ابن بشكوال، المصدر السابق، ص: 387.

2- شاطبة: تعرف بخيراتها الوافرة لها ثلاث أقاليم، كل إقليم أربعون قرية تخترق بطامها واد اقيمت عليه النواعير ولها بساتين جميلة، مجهول تاريخ الأندلس، ص: 134. العذري أحمد بن عمر، المصدرالسابق، ص: 18.

3- الجزيرة الخضراء: ميناء في جنوب الأندلس على مقربة من جبل طارق وتسمى بجزيرة أم حكيم بنى فيها عبد الرحمان الناصر، دار للصناعة الحربية، العذري، المصدر السابق، ص:117، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 272.

4- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 304.

5- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 95.

6- نفسه، ج3، ص: 97.

وقعة وادي آره:

قبل الحديث عن هذه الموقعة تجدر الاشارة إلى موقف البربر من هذه الاعمال التي قام بها المهدي لبيعة الافرنج في حق البربر، لم يبق هؤلاء مكتوفي الأيدي أمام ما ارتكبه هؤلاء في حق عوائلهم، فابن الابّار يورد نصا في غاية الأهمية حول ما فعله البربر حيال هذه الاحداث حين يقول: «....وسليمان المستعين أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس، ورجاله ومن معه من البربر ينهبون ويقتلون، ويقفرون المدائن والقرى بالسيف وينهبون كل ما يجدون من الأموال»[1].

يستنتج من هذا أن المواجهات بين المستعين والمهدي لم تكن لتحسم الموقف بين منتصر ومنهزم، بل يترتب عن ذلك ما هو أفظع من المواجهة من تقتيل ونهب في صفوف من لم يشاركوا في الحرب من ذوي الطرفين.

بعد خروج المستعين إلى شاطبة، توجه البربر نحو الجزيرة الخضراء، استقر الأمر للمهدي بقرطبة شرع في إرسال تهديداته إلى البربر، وأقسم بالإيمان المغلظة بألاّ يعيد السيف إلى غمده حتى يفرغ من أمر البربر، وكان هؤلاء قد نزلوا بوادي آره– الذي يسميه ابن الخطيب وادي يارو أو السقائين– من أحواز مرمبلة[2]، وسار إليهم المهدي بجيش ضخم ، استنفر على كل من قدر على حمل السلاح، والتقى الجمعان في معركة دامية تجاسر فيها البربر وقاتلوا قتال من لا يطمع في الحياة، حتى رجحت كفة النصر لصالحهم[3]. يقول صاحب شواهد الجلّة واصفا استبسال البربر واستماتتهم في هذه الموقعة «....فاستقبلهم حماة القوم وعامتهم بنو برزال، وقد تناهت خيلهم أربع مائة فارس، وصنهاجة معهم في مقدار مائة وخمسين فارسا، إلا أنهم وأصحابهم كانوا يومئذ أعظم الجماعة عناء وأكرمهم مقاما وكل القوم لم يأل جهدا .....واستبحر القتل فقتل من وجوه بني برزال في الكبة بضعة عشر رجلا، ومن صنهاجة نفر... »[4].

---

[1]– ابن الأبار، المصدر السابق، ص: 176.

[2]– مربلة: مدينة بالأندلس، بالقرب من مرسى سهيل ومرسى مالقة وهي مدينة صغيرة مسورة من بناء الأول محكمة العمل ممتنعة المرام، الحميري، المصدر السابق، ص: 534.

[3]– ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 115.

[4]– أبو بكر العربي، كتاب شواهد الجلّة والأعيان في مشاهد الاسلام والبلدان، تحقيق محمد يعلى، المجلس الاعلى للأبحاث العلمية، ص: 378-379.

ورجع المنهزمون نحو قرطبة قاعدتهم الخلفية في مواجهة البربر، أما الفرنجة فلاذوا بالفرار نحو بلادهم، بعد أن لاقوا من البربر إذاية شديدة، رغم إلحاح المهدي وواضح في مواصلة القتال[1].

لقد استعاد البربر ثقتهم بأنفسهم بعد الانتصار الذي أحرزوه في هذه المعركة الفاصلة، بعد أن كانت همتهم أن ينجحوا في اجتياز المضيق والوصول إلى العدوة المغربية سالمين.

ومن علامةاستماتة البربر وحسن بلائهم في هذه الموقعة، هي الضربات الثلاث التي نزلت بابن عبد الجبار، حتى صارت مضرب مثل بين سائر البربر، وظلوا يتداولونها طوال ذلك العصر تقديرا لشجاعتهم، وبطولاتهم، وهو ما ذكره صاحب مفاخر البربر قوله:«وكان من عجائب الضراب يوم آره، المتحدث عنه في الآفاق إلى اليوم ثلاث ضربات، ما سمع بمثلها في الدهر، مضاء سيوف وقوة سواعد، منها ضربة أبي روليث، البيضة التي حملت إلى برشلونة، والتي وضعتها الفرنجة في الكنيسة هناك اعتبارا ومعذرة، وضربة حباسة بن ماكسن الصنهاجي فارس آخر منهم بدرع حصينة ثقيلة فهتكت الزرد[2] وقدته وقدت جنب لابسه فجدلته، وضربة بهلول بن تاميت الدمري بخطم[3]فرس علج منه ففصلت حديدتي اللجام، ولحيتي الفرس جميعا ورميت بخطمه، وما تكنفه من الحديد، وخر الفرس لفيه فصارت هذه الضربات أعجوبة عند الناس[4].

ومن الفجائع التي نزلت على البربر في هذه الوقعة وحزنوا لها حزنا شديدا، مقتل أبو يدّاس في أرض المعركة، فدفنته البربر وأخفوا قبره[5].

وقد صور ابن درّاج القصطلي هذه الملحمة، وحسن بلاء البربر فيها من صنهاجة ،وزناتة، تصويرا رائعا ومما جاء فيها:

أســـود هِيَــاج مَــاتَزَالُ تَرَاهُــم تطير بِهم نَحْو الكَرِيهَـــة عُقْـبَانُ

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 306.

[2]- الزرد: هو حلق المغفر والدرع والزردة حلقة الدرع ،والجمع زرود والزرّاءصانعها.إبن منظور ،المصدر السابق، ج3، ص: 175.

[3] – الخطم: م الخطم من كل دابة مقدم أنفهاوفمها، والانوف يقال لها المخاطم وخطمه يخطمه خطما،يقال ضرب مخطمه وخطم فلان فلانا بالسيف إذا ضرب وسط أنفه.نفسه، ص: 186.

[4]- صالح الايلاني، المصدر السابق، ص: 234، 235.

[5]- نفسه، ص: 233.

وأقــمار حَـربٍ طَـالـعاتٌ كأنـها عَمَائِمِهِم في مَوقفِ الرَوعِ تِيجَانُ
بِكــل زَنَــاتي كَــأَنَّ حُــسـامه وهــامه مَــن لاقَــاه نَـار وقُربَانُ
وقَـد عَلِـمُوا يـا مُـستَعين بِأَنّهــم لِرَبهِــم لــمـا أَعْـنُــوك أَعْـوَانُ[1]

وفي قصيدة أخرى تلاها أمام المستعين يمدحه فيها ويصف استبسال البربر في معركتي قنتيش ووادي آره ومنها:

وشِعَابُ قَنْتِيش وَقَد حَشَرَت لهم أَحَـمُ بُغَـاة لا يَكَـفُ عَدِيـدُهَا
وكَتَائِب الإِفْرَنْـج إذَ كَـادَت فِي أَشْيَـائِهَا والله عَـنْـكَ يَكِـيدُهَـا
شُلُّو لآرٍ مَنْقُودُها حَـشَدَت بِـه للزحف ثم إلى الجَحِيم حُشُودُهَا
ودَنُوا لَهـا فِي آرٍ تـحت صَوَارِمِ ورَيْـتُ بِعِزِ المُسْـلِمِينَ زُنُــودُهَا[2]

وأما المهدي ومن معه فقد عادوا أدراجهم نحو قرطبة، بعد أن لاحت نذر الهزيمة في الأفق.

إن الهزيمة التي مني بها جيش المهدي بمعية النصارى لا يمكن تبريرها، إلا بحماسة القتال التي تحلى بها البربر حيث ارتموا في معمعة القتال طمعا في الموت أو الانتصار، بالإضافة إلى أن البربر اختاروا موقعا يساعدهم على الاحتماء بحيث يعيق عدوهم في الوصول إليهم، إذا كان هذا الموقع بحاذاة النهر فلا يمكن للعدو إلا المرور عبره للوصول إليهم[3].

بالإضافة إلى إنضمام معظم القبائل البربرية لمؤازرة إخواهم من البربر، كبني برزال وبني يفرن الذين سبقت الاشارة إليهم، وخاصة عندما تكالب أهل قرطبة على من بقي من البربر في قرطبة وأرباضها، بعد مغادرة البربر لها إثر وقعة عقبة البقر، وهذا ما يؤكده ابن الخطيب بقوله: «وانحازوا إلى

[1]- ابن دراج القسطلي، ديوان بن دراج، تحقيق محمد علي مكي، المكتب الاسلامي، دمشق، ط2، 1389هـ/ 1969م ص: 49.
[2]- نفسه، ص: 40.
[3]- عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص: 334.

الزهراء فرفعوا أولادهم وفروا على وجوهم، ومضى سليمان فارا إلى شاطبة، وخرج أهل قرطبة، فانتهبوا أثاث البربر وقتلوا من وجدوا »[1].

وما ذكره صاحب المفاخر، نقلا عن عبد الرحمان بن عون الله في مختصره لتاريخ ابن حيان: «لما انهزمنا من عقبة البقر، ووصلنا إلى قرطبة لنحمل عيالنا وأهالينا استحملنا الخروج منها، وخرجنا مع ذلك من باب واحد لقينا من الازدحام عليه برحا من الضيق والصعوبة، وهلك من عيالنا وضعيفنا ضغطة الخروج وسدة الهرب لفرط المخافة خلق كثير لم تكن بهم نهضة، وعبرنا النهر أسفل الزهراء وهو كبير ففقدنا فيه من عيالنا وأبنائنا وأتباعنا خلق»[2].

والجدير بالذكر فإن وقعة وادي آره تمثل نقطة تحول في موقف البربر، إذ أنهم ظلوا متحفظين في المعاملة بالمثل، حيث منعهم زعماؤهم وأعيانهم من المعاملة بالمثل، رغم ما كانوا يتعرضون له من قبل أعدائهم وفي النص الذي أورد صاحب المفاخر بعد خروج البربر من قرطبة عقب انهزامهم في موقعة البقر ما يدعم هذا الطرح: «واستقبلوا نحو الساحل حيارى يحسبون كل صحة عليهم، أعظموا أملهم أن يؤمنوا على انفسهم وأهليهم، ويعطوا المراكب وينصرفون إلى بلدهم»[3].

ومن النصوص اعلاه يتبين أن البربر سبقوا إلى المواجهة مع أعدائهم بالاتحاد، فكانت وقعة آره وما أعده محمد بن هشام للقضاء عليهم، وما تعرض له إخوانهم في قرطبة والزهراء حافزا للانتقام[4].

ومن هنا يكون أمرا طبيعيا أن يقابلوا العنف بالعنف، ولذلك جاء دورهم في الفتنة عفويا وفقا لموقف المهدي وأهل قرطبة[5] وهكذا وبعد وصول فلول المهدي المنسحبة من ميدان المعركة، وقبل الشروع للاستعداد لمواجهة محتملة يمم النصارى نحو بلادهم.

---

[1]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 115.

[2]- صالح الايلاني، المصدر السابق، ص: 23.

[3]- نفسه، ص:231.

[4]- عبد القادر بوباية، المرجع السابق، ص: 415.

[5]- محمد حقي، المرجع السابق، ص: 221.

وهنا يمكن الاشارة إلى قضية في غاية الاهمية وهي موالاة عرب قرطبة للنصارى دون اخوانهم البربر من المسلمين.فقد كان أهالي قرطبة يعتبرون حربهم ضد البربر بمعية النصارى كالجهاد الأكبر.ويلاحظ هذا جليا في نهاية المعركة حيث إنكسرت شوكة النصارى وقتل منهم ثلاثة ألاف محارب، وكان لذالك أثر شديد عند أهالي قرطبة، فكان أحدهم يعزي الآخر كما لو كان قد فقد أخاه، أسفا على رحيلهم[1].

وعبثا راح المهدي يشرع في تحصين المدينة فأمر بحفر الخندق ودعمه بسور وفي المقابل لم تهدأ مناوشة البربر بالإغارة على نواحي قرطبة دون أن يجسر أحد في مواجهتهم إلى أن استولوا على جبل ببشتر[2] واتخذوه موقعا للانطلاق، والاغارة على قرطبة[3]. وبالرغم مما أصاب القرطبيين من جراء الاقتتال والفوضى التي عمت المدينة، وضواحيها، والمهدي دائب في العربدة والفسق لا يبالي بما جرى حوله يقول ابن عذارى: «....ودائب في الانهماك مظاهرا بالفسق وشرب الخمر، ومضيقا على أهل قرطبة ومفترسا للتجارة»[4] ولما ضاق أهل قرطبة ذرعا بهذه الاوضاع وأحسوا بما جناه عليهم ابن عبد الجبار، وأدرك عقلاؤهم أنّ المهدي جعل منهم رهائن وتروسا يحتمي بهم عند الحاجة ضد عدو ما قدر علي القضاء عليه، ولا تخليص أهل قرطبة من تهديداتهم يقول ابن الخطيب معبرا عن موقف اهل قرطبة حيال هذه الاوضاع «فنفروا عنه وتشاءموا به وبدالهم سوء ما ادخر القدر من أيامه وأحسوا بعقاب الله إياهم»[5]

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 99. نجاح الطائي، سقوط الدول والحكومات دراسة في النموذج الاندلسي، دار المحبة البيضاء، دار الرسول الاكرم، 1425هـ/ 2004م، ص: 308.

[2]- ببشتر: جبل كان يأوي إليه ابن حفصون أيام حكم الناصر وهو كثير الماء والمراعي والمزارع، ابن عذارى، المصدر السابق ج3، ص: 99.

[3]- نفسه، ج3، ص: 101.

[4]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 99.

[5]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 116.

وخشي أهالي قرطبة على أرواحهم وأملاكهم من انتقام البربر فتعاهدوا على التخلص من المهدي الذي عدّوه رأس الفتنة ومدبرها[1].

وأوكلوا مهمة التصفية إلى حاجبه واضح العامري، فدخل عليه في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة 400هـ/ 1010م، وقاده إلى مجلس هشام المؤيد، الذي عاتبه طويلا لما جنى من نفسه وحرمه، ثم أخرج وأعدم ومثل به[2].

ثم جدد الناس لبيعة هشام بن الحكم الذي اتخذ واضحا حاجبا له[3].

وبعد مقتل المهدي بدى للبربر بصيص من امل في انهاء هذا العراك الذي جنى عليهم وعلى أعدائهم الويل والثبور فانبرت جماعة منهم، وساروا حتى بلغوا ضفاف الوادي المقابل للعاصمة، ودعوا إلى الصلح وانهاء الخلاف فوافق بن مناو ذي الوزارتين وابا الفقهاء ذلك، وأقنعوا الناس أن الحرب أسلم لهم من الصلح، فأعطوهم واستمرت الفتنة والقتل، وتساقطت أرواح الأبرياء[4] وبقيت قرطبة تعاني الحصار، وتنهكها الغارات المتوالية[5].

ومع ذلك فقد نزلت الكتب من كل ناحية على القرطبيين تترى، ينصحونهم بالاقلاع عن مواصلة الحرب، فقد وصلت إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يقولون لهم فيها «إما ان تصالحوا البربر وإما ان تجدّوا في حربهم فإنه لا طاقة لنا ولا لكم بهم»[6].

وعلى أية حال فإن دعوة السلام من قبل اهل الثغور قد فعلت فعلها فقد كتب دعاة الصلح باسم الخليفة المؤيد إلى المستعين وقد جاءه الكتاب وهو في جمع من وزراء البربر ، فلما رأى عنوان الكتاب من عبد الله بن هشام بن الحكم أمير المؤمنين رمى به وقال: «أنا أمير المؤمنين....ما بايعت

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج4، ص: 327.

[2]- نفسه، ج4، ص: 116.

[3]- نفسه، ص:327.

[4]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 106-107.

[5]- عبد الوهاب خليل الدباغ، المرجع السابق، ص: 80.

[7]- ابن عذارى، نفسه، ج3، ص: 108.

هشاما قط، ولقد بويع له وسني ثماني سنين وقد بايعني هو طائعا غير مكره، وهو احق بأن ينصح نفسه، ويلزم الواجب عليه»[1].

وهكذا تبين للمستعين ان الأمور تجري لصالحه فهو قد تخلص من خصم عنيد فلم يبق أمامه سوى هشام الذي كان يرى فيه عقبة سهلة يمكن اجتيازها ولا تكلفه من الجهد شيئا.

فظل يتحين الفرصة، حتى كان آخر ذي الحجة سنة اثنتين وأربعمائة حينما نزل الربر غربي الوادي يقودهم وزراؤهم، طزرون بن محمد وحباسة بن ماكسن[2]، فقاتلوا قتالا شديدا وبعد المعركة أوو إلى مكان ليأخذوا قسطا من الراحة، وأهل قرطبة يراقبونهم من وراء الخندق، حتى إذا آمنوا وغفى بعضهم، انقضّ عليهم القرطبيين وكانوا سبعين فارسا، فقتلوا منهم عددا، وأصيب حباسة بن ماكسن بطعنة أردته صريعا، فأخذ أسيرا، فلما عرفوه قطعوه قطعا وتهادوا لحمه فأكلوه انتقاما لقتله إياهم يقول ابن عذارى: « ولو أنهم عرفوه قبل أخذه ما تجاسر أحد عليه»[3].

وفي رواية عن ابن الخطيب نقلا عن كتاب المتين لابن حيان ما يجعل الباحث يذهل أمام هذه الأفعال التي لا تمت بصلة لشرائع المسلمين التي تحرم التمثيل بجثث الاعداء الكافرين فضلا عن التمثيل بجثث المسلمين حيث يقول «فجروه في الطرق وطافوا به الاسواق وقطعوا بعض أعضائه وأبدوا شواره وكبده بكل مكروه من انواع الأذى...فلما سئموا تجراره، أوقدوا له نارا فحرقوه بها، جريا على ذميم عادتهم، في قبح المثلة ولؤم القدرة»[4].

---

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 109.

[2]- حباسة بن ماكسن: هو حباسة بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي كان شهما، هيبا بهمة من الهم كريما في قومه، أبيا في نفسه صدرا من صدور صنهاجة، وكان أشجع من أخيه حبوس، انتقل إلى الأندلس مع اخيه حبوس، ودخل في خدمة المظفر بن المنصور بن أبي عامر، مات في وقعة "رمداي" بطرف قرطبة في حروب البرابرة، ابن عذارى ، المصدر السابق، ج3، ص: 264، 263.

[3]- ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العالمية، ط1،1424هـ/ 2003، ج1 ص: 273.

[4]- ابن الخطيب، الاحاطة، ج1، ص: 274.

لقد كان لمقتل حباسة والتمثيل بجثته، أثر عميق في نفوس البربر فأمسوا كلهم عزم واصرار على مواجهة القرطبيين، وكان ممن تجرع مرارة الحزن على حباسة ،وعزم على الانتقام اخوه حبوس بن ماكس، وعمه زاوي بن زيري، اللذين قاد جيش البربر بكل احكام وبلغ من مراس زاوي في هذه الوقعة ليس لها نظير.

وكانت خطة البربر في هذه المواجهة التظاهر بالانسحاب، فخرج القرطبيين من خندقهم ومال عليهم البربر بعد أن اوقعوهم في الكمائن[1].والحقوا بهم الهزائم وفشلت بعد ذلك كل محاولة لرد البربر على اعقابهم، وتراجع القرطبيين، وتفرقوا في أنحاء المدينة والبربر يتبعونهم، وفتحت المدينة أمام البربر وخرج بن ذكوان في ثلة من الفقهاء يطلبون الامان، فقبلوا منهم مقابل أن يدفعوا اموالا طائلة، اشترك في دفعها عدد كبير من الناس[2].

ودخل سليمان والبربر قرطبة، وأصبحت تحت تصرفهم يوم الاثنين لثلاث بقية من شوال سنة 403هـ/10/جوانو1013 م واحضر هشام المؤيد يقول ابن عذارى: « وذلك لما عاتبه سليمان اعتذر له وتبرأ من الخلافة وسلم الامر إليه وخلع له نفسه»[3].

وفي هذه الاثناء قام اتباعه من البربر يجوبون أهل قرطبة يسومون أهلها سوء العذاب، يشفون غليلهم من هؤلاء الذين استباحوا بيضتهم بالأمس[4] وكان مما قام البربر هو الانتقام لتلك الفعلة الشنيعة التي قام بها القرطبيين في قتل حباسة والتمثيل به، حيث كان البربر يرون ان دماء أهل قرطبة جميعا لا تعدله[5].

---

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 112.

[2]- نفسه، ج3، ص: 112.

[3]- نفسه، ج3، ص: 113.

[4]- ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص: 523.

[5]- ابن الخطيب، نفسه، ج1، ص: 174.

وظل اخوه حبوس يترقب لا يهمه سوى القبض على من قتل أخاه، وحول هذه الوقعة يقول ابن عذارى واصفا دخول ابن حبوس وهو يجول داخل المدينة يروم قاتل أخيه قائلا «وعند دخوله قرطبة أتى إلى حبوس بن ماكسن رجل من أهل قرطبة فعرفه بقاتل أخيه فركب في بعض أصحابه ودخل المدينة وأهلها ينظرون إليه نظر المغشى عليه من الموت حتى أتى إلى دار قاتل أخيه، فاستخرجه، وقتله وأضرم داره نارا وحرقها، ووجد له مالا فأخذه، ومن جملة ما وجد له أربع عشرة حاوية وفرسا كثيرة وسلاحا وافرة، فاستخرج أخاه، فما وجد إلا عضامه وقد أكل لحمه فقال" والله لا كان عند أمان لعبد من عبيد بني أمية أبدا، فخافه الناس وهرب كثير منهم وأسلموا ديارهم وأموالهم فاحتوى البربر عليها، وقسموا البلد بين أنفسهم وملكوهم لا ينازعهم فيه أحد إلا قتلوه ولا يمتنع عليهم موضع إلا حرقوه وخربوه»[1].

ولم يعدم سليمان المستعين هو الآخر من شفاء غليله ممن اعتبرهم أعداء له ولأنصاره من البربر كالقاضي يحي بن وافد اللخمي[2]، الذي سيق إلى سليمان راجلا مكشوف الرأس نهارا يقاد بعمامة في عنقه والمنادي ينادي عليه «هذا جزاء قاضي النصارى، ومسبب الفتنة وقائد الصلاة» وهو يقول مجاوبا «بل والله: ولي المؤمنين وعدو المارقين انتم شر مكانا، والله أعلم بما تصفون» والناس تتقطع قلوبهم لما أصابه، فلما أدخل على سليمان، أكثر توبيخه فأمر بصلبه، فهيء لذلك: وكادت أن تضرب عنقه لولى تهاطل شفاعات الفقهاء والصالحين التي حالت دون تنفيذ الحكم، حيث لم يقدر سليمان على ردّهم نظرا لمكانتهم العلمية والاجتماعية، وأمر بضمه في المطبق الذي اعتل وأخرج ميتا في نعش في منتصف ذي الحجة سنة 404هـ فوضع في الساقية موضع غسل المجاذيب وتسترت

---

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 115.

[2]- القاضي يحي بن وافد اللخمي: هو يحي بن عبد الرحمان بن وافد اللخمي ولي القضاء سنة 401هـ 1010م فاستقل به خير استقلال على ما كان في ذلك الزمان من فتن واعتلال وحسب بن حيان كان آخر ولاة القضاة بالأندلس علما، وهديا، ورجاحة، ودينا جامعا خلال الفضل تقلد الشورى بعهد العامرية فكان مبرزا في أهلها وتقلد الصلاة بالزهراء مدة، ولما قامت فتنة البرابر، كان ابن وافد أحد الأشداء عليهم وأكبر الناس نفارا منهم، التباهي الملقي، المصدر السابق، ص: 103.

أبواب أقاربه في وجه نعشه خوفا من وجه السلطان عدا الزاهد حامد بن عمار الذي سار بنعشه إلى منزله، فجهزه وصلى عليه في طائفة من العامة ووري التراب[1].

هذا وقد استمر البربر في معاقبة من استحق العقاب، ولحق بيوت قرطبة معرة في نسائهم، وأبنائهم على حد قول المقري التلمساني[2] اما سليمان فقد أحاط نفسه بالحجاب والوزراء من البربر وأعلن عن قيام دولة بني أمية بعد أن كادت أن تختفي معالمها من سماء الأندلس إلا أن ابن عذارى عدّها أول دولة للبرابرة، وآخر دولة لبني امية بالرغم من خلافة المستعين وهو من بني أمية[3].

ورأى سليمان أن مكافأة البربر تكمن في منحهم أقاليم وكور، وابعادهم عن مدينة قرطبة، التي لا يمكن أن تندمل جراحاتها وهم يرون فلول البربر يترنّحون في شوارعها وأزقتها، وهم قد لاقوا منهم صنوف المهانة والايذاء وتطلعوا إلى الانتقام منهم[4].

وحتى يبعد شبحهم عن القرطبيين، شرع في تقسيم بعض بلاد الاندلس مكافأة وتكريما لهم[5] على ما أبلوهم من بلاء حسن في مناهضتهم للمهدي[6].فحباهم بأفضل الإمارات.[7] ومن القبائل التي نالت هذه المكافآت صنهاجة وأعطية البيرة التي بقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة، وأعطى مغراوى الجوف وأعطى منذر بن يحي سرقسطة، وبنو برزال وبني يفرن جيان وذواتها، وبني دمر وأزداجة شذونة ومورر، وولي علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن محمود على مدينة طنجة وأصيلا[8].

---

[1]- النباهي المالقي، المصدر السابق، ص: 103-104.

[2]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص: 429.

[3]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص: 114.

[4]- حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص: 34.

[5]- السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص: 85.

[6]- rachel arie, apercu sur les rayaumesberberes d'al- andalus .p :86 .

[7]- Anwar gherjene – historia de Espana musulman sa Madrid 1980.p : 54.

[8]- أصيلا: مدينة صغيرة من مدن الشمال على الشاطئ الأطلسي أسسها الرومان وكانت خاضعة لأمير سبتة، استولى عليها القوط إلى أن أخذها منهم المسلمون عام 94هـ. ليون الافريقي الحسن الوزاني، المصدر السابق، ج1، ص: 311-312. الصديق العربي، كتاب المغرب الإسلامي، ص: 57.

فلما أبلغ عبد الله البرزلي بتولية سليمان بن حمود دخل عليه فقال «يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب قال نعم، قال له أليس العلويين طالبيين؟ قال نعم، قال تاتي إلى خشاش الأرض وتردهم ثعابين، قال نفذ المر في ذلك».

ومن هنا كانت الاقتطاعات أولى الفتوق في ثوب الجزيرة الاندلسية التي أنفق فيها بنو أمية والعامريون بعدهم جهودا مضنية في الحفاظ على سلامتها، ووحدة ترابها، فلو كان هذا التعيين على أساس فردي مجرد من الانتماء القبلي لهان الأمر، ولربما قد يفوّت الفرصة على هؤلاء بالانزواء في مناطقهم عندما اشتعلت الفتنة، إلا ان هذه التعيينات كانت من منطلق إثني قبائلي هدفه الترضية والإبعاد. ومن هنا فقد أعطيت مؤشرات الصراع والتصادم مثلما حدث بين أمراء اشبيلية الاندلسيين وأمراء الأقاليم الجنوبية من البربر التي انتهت إلى حروب دامت أكثر من نصف قرن انتهت بزوال هذه الدولات.لذالك إعتبر المؤرخ القرطبي ابن حيان على ان أيام سليمان كانت أتعس وأمر على الأندلسيين حيث يقول ابن حيان: «وكانت كلها شدادا نكدات صعابا مشؤومات كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها صيف ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير النبرة وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية وطعن الامي وحلول المخافة دولة كفاها ذلاً أن أنشاها شانجة ،فقشعها أرمنقد، وثبتتها الجلالقة ،ومزقتها الافرنجة ودبرها فاجر شقي ووزر لهاخبّ دنيّ فتمخضت عن الفاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها إلا من كان أفضل وأدهى مما طوى بساط الدنيا وعفى رسمها وأهلك أهلها»[1].

وكان من نتائج هذه الفتنة التخريب والدمار الذي أصيبت به قرطبة ،واصبحت معالمها أثر بعد عين.

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص:21.

كما نجم عن هذه الفتنة مقتل العديد من العلماء الذي سبقت الاشارة إلى بعضهم ومنهم أبو الوليد ابن الفرضي[1]صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس.

فالتفت الشعراء إلى معالم قرطبة، ووقفوا على مآثرها، فلا الدار دارهم ولا الجيران جيرانهم، فقد أفلت شمس بني امية، والنجوم العامرية، فندبوها بعبراتهم الشجية[2].

وممن رثاها الفقيه الأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن سعيد بن حزم ابن وزير آل عامر الأكبر.

سَلَامٌ على دارٍ رَحَـلَنا وغُودِرَت خَـلَاء مِـن الأَهْلِيينَ مـوحشة قَفْـرَا

تَرَاهَا كَأْن لَمْ تُغْن بالأَمْسِ بَلْقَعًا ولَا عُـمِرِت من أَهْلِـهَا قَـبْلَنَا دَهْرَا

فَيَا دَارُ لَـم يُقْـفِرْكِ منا اختِيَارُنا ولـو أننا نستطيع كُنـتِ لَنَا قَبْـرَا

ويـا دَهْـرُنَا فيها مَتى أنت عَائِدٌ فَنَحْمَدُ منك العَوْدُ إن عُدَت وَالكَرَا[3]

---

[1]- أبو الوليد بن الفرضي: هو عبد الله لن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي أديب ومحدث ومؤرخ صاحب كتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس، زوى بقرطبة عن أبي جعفر أحمد بن عون الله والقاضي أبي عبد الله بن مفرج وغيرهم، رحل إلى المشرق سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة فجمع وأخذ بمكة عن أبي يعقوب يوسف بن أحمد بن الدخيل المكي وغيرهم ثم انصرف إلى قرطبة وقد جمع علما كثيرا في فنون العلم وكان فقيها عالما في جميع فنون العلم، وله اسهامات شعرية رائعة منها القصيدة التي قالها وهو في طريقه إلى المشرف في طلب العلم وكان كتب بها إلى أهله ومنها:

مضت لي شهور منذ غبتم ثلاثة وما خلتني أبقى إذا غبتم- شهرا

ومالي حياة بعدكم استلذها ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرا

ولم يسلني طول التنائي هواكم بلى زادني شوقا بدد لي ذكرى

يمثلكم لي طول شوقي إليكم ويدنيكم حتى أناجيكم سرا

سأستعتب الدهر المفرق بيننا وهل نافع أن صرت استعتب الدهر

أعلل نفسي بالمنى في لقائكم وأستسهل البر الذي جبت والبحرا

ويؤنسني طي المراحل دونكم أروح على أرض وأغدوا على أخرى

وتا الله ما فارقنكم عن قلى لكم ولكنها الأقدار تجري كما تجري

رعتكم من الرحمان عين بصيرة ولا كشفت أيدي الردى عنكم سترا

ابن بشكوال، المصدر السابق، ص: 112-215، ابن بسام، المصدر السابق، ج1 ص: 381-382.

[2]- احسان عباس، المرجع السابق، ص: 178.

[3]- ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص: 109-110.

الفصل الثاني

قيام دويلات البربر في جنوب الأندلس ودورهم في الحياة السياسية.

دولة بني حمود الأدارسة في الأندلس

دولة بني حمود بالمغرب الأقصى:

يرجع نسب بني حمود إلى الأدارسة العلويين الذين هم من سلالة إدريس بن عبد الله بن حسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1]. وكان لإدريس خمسة إخوة وهم: إبراهيم، وعيسى، ويحي وسليمان[2] ،وكان محمد النفس الزكية هو من بويع له بالخلافة، من آل البيت في آخر أيام الأمويين[3]. ولما أنقضت دولة الأمويين وقام الأمر لآل العباس، وولى منهم أبو جعفر المنصور، خرج عليه محمد النفس الزكية، ودعى لنفسه في المدينة وأراد جعفر المنصور أن يستميله بقبوله الأمر الواقع، وجرت بينهما في ذلك مكاتبات، ومحاورات في الأفضلية، فلم يتنازل فيها محمد النفس الزكية لما رأى في ذلك من أحقيته في الإمارة.

فلما أسندت بينهما أبواب الوفاق، شهر كل منهم سيفه وقامت الحرب، التي انتهت بمقتل محمد النفس الزكية وذلك في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقتل معه جماعة من آل بيته ولوحق من بقي منهم، و تقفى آل العباس آثارهم في كل فج سلكوه.[4]

وخفقت دعوة آل البيت مدة من الزمن حتى كانت موقعة فخ[5] حين عزم الحسين بن علي بن الحسين المثلث بن الحسين المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، الخروج إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة، أين كان بنو العباس وشيعتهم في انتظاره، فلتحم الجيشان

[1]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص: 23.

[2]- البكري أبو عبيد، المسالك والممااليك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م، ط1، ج02، ص: 306.

[3]- السلاوي الناصري، الاستقصا، ج1، ص: 121.

[4]- نفسه، ج1، ص: 122.

[5]- فخّ: هو موضع فيه مويه، على مسيرة ثلاثة أميال من مكة شرفها الله تعالى، وكانت الواقعة في يوم السبت الذي يصادف يوم التروية الثامن من شهر ذي الحجة من سنة تسع وستين ومائة، علي الجزنائي. جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1429هـ/2008م، ط02، ص: 10-11.

واقتتلوا قتالا شديدا، و سقط الحسين وحزت رأسه، واختلط المنهزمون بالحجاج: فذهبوا في كل اتجاه[1].

وما هو جدير بالإشارة والذكر في هذه الحادثة أن صاحب روض القرطاس، قد اخلط بين القوة التي قادها الإمام محمد النفس الزكية ضد الخليفة أبي جعفر المنصور سنة 145هـ وبين ثورة الحسين بن علي بن الحسين المثلث على الخليفة موسى الهادي في موقعه فخ سنة 169هـ، فجعل الثائرين واحدا[2]، وقد تصرف في ذلك مؤرخ المملكة المغربية الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في الطبعة الأولى أين قام بتصحيح الخطأ واكتفى بالتنبيه في الطبعة الثانية للأمانة العلمية.

وكان من بين من حضر الواقعة من أهل البيت إدريس بن عبد الله الذي أفلت من سيوف العباسيين[3]، ونجا من الموت المحقق ،وتمكن من الفرار مستترا صحبة مولاه راشد، ولحقه بمصر، وكان على بريدها يومئذ واضح الذي كان متشيعا لأهل البيت، فلم ير بدا من ابعاد إدريس عن مصر بعيدا عن أعين الوشاة فحمله على البريد الى المغرب صحبة مولاه رائد، ونزل مدينة وليلي[4] سنة اثنتين وسبعين ومائة[5] ، واستقر بها، وتوافدت عليه القبائل مبايعة، وكان أول من بايعه قبائل أوربه[6] بقيادة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوروبي، وكان لهذا الأخير دور كبير في دعوة قبيلة أوربة إلى

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج1، ص: 123.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق.ص: 17.

[3]- نفسه، ص: 17.

عبد العزيز الشهبي، تاريخ المغرب الإسلامي، كنوز الحكمة، الجزائر، 2013م، ص: 38.

[4]- وليلي: مدينة أسسها الرمان أيام حكمهم للأندلس وهي محاطة بسور من حجر كبير منحوت، وقد خرب الأفارقة هذه المدينة في الزمن القديم، ولما قدم إليها إدريس الشيعي سارع إلى ترميم المدينة واستقر بها فحولها إلى حاضرة يقصدها الناس بكثرة إلا أن ابنه لم يمكث بها وتحول إلى مدينة فاس ولم يبقى من خلفهم إلا عدد قليل من السكان وهم ممن يقدسون ضريح إدريس دفين مدينة وليلي، وتعرف هذه المدينة بمزارعها الخلابة التي تفنن أهلها في زراعاتها بكيفية جيدة وأنشأوا فيها بساتين وممتلكات مزدهرة وينابيع فوارة تنحدر إلى التلال المجاورة. الوزان العروف بليون الإفريقي، وصف افريقية، ج1، ص: 295-296.

[5]- السلاوي، المصدر السابق، ج1. ص: 124. محمود إسماعيل الأدارسة، 172هـ/375م، مكتبة مدبولي القاهرة، 1411هـ/1991م، ط1، ص: 56.

[6]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 23.

مبياعة إدريس، والالتفاف حوله، ومبايعته بالإمامة لشرف انتسابه إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت قبيلة أوربة البرنسية أعظم قبائل المغرب، وأكثرها عددا وأشدها قوة ،وبأسا وأحرها شوكة[1]. فلم تجد القبائل الزناتية بدا من تحذو حذوة مثيلاتها البرنسية. ووفدت عليه قبائل زواغة، وزواوة، وسدراته، وغياثة، ومكناسة، وغمارة، وكافة البربر.[2]

وما إن استوثق أمره وقويت شوكته، شرع في بناء جيش قوي زحف به على البلاد المجاورة، تامسنا، وحصون قندلاوة، وبهلونة، ومديونة، ومازار، وشالا، وتدلا. ثم اتجه نحو المغرب الأوسط يقصد تلمسان، التي لم يواجه فيها أية مقاومة، وخرج إليه محمد بن خزر المغراوي، مستأمنا ومبايعا، فأمنه إدريس وسائر زناتة من مغراوة، وبني يفرن[3] ولاشك أن هذا الاستسلام يعود بالدرجة الأولى إلى كون قبيلتي مغراوة ،وبني يفرن، ورحبتا بزناتة المغرب الأقصى، واستهجنت المصادمة والاقتتال مع بني العمومة.[4]

وبغزو تلمسان اتسعت الرقعة الجغرافية للسلطنة الإدارسية، وقويت شوكتها[5]. وكانت هذه أمنية إدريس الأول في أن يبسط نفوذه على كامل العالم الإسلامي بشطريه المغربي والمشرقي، وحلم بذلك من جاء بعده. لكن المنية حالت دون ذلك ،إذ بعث الخليفة هارون الرشيد، سليمان بن حريز المعروف بالشماخ، على هيئة طبيب هارب من بطش العباسيين فسقاه سما فمات سنة 175هـ-791م. وكان إقدام هارون الرشيد على هذا الاغتيال، خوفه من التفاف أهل المشرق حوله[6]. واستمرت الدولة مرهونة الجانب في عهد ولده إدريس بن ادريس الذي اتبع سياسة أبيه في تقوية قبضة المخزن في الداخل والتوسع في الخارج، مؤيدا من قبائل البربر الذين هم من الداخل، ثم

---

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 22.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 15.

[3]- نفسه، ج04، ص: 15.

[4]- محمد إسماعيل، المرجع السابق، ص: 63.

[5]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 16.

[6]- البكري أبو عبيد، المصدر السابق، ج04، ص: 306.

العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس[1]، وهم من القيسية والأسد، ومذحج، وبني يحصب، والصدف، وغيرهم. وحتى يعزز مكانتهم ويستعين بهم على غيرهم من القبائل البربرية أجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعل بطانته دون البربر. يقول صاحب روض القرطاس: «لأنه كان فريدا بين البربر ليس معه عربي».[2]

وحتى يكبح جماح القبائل الزناتية –إذا ما هي فكرت في العصيان– عمد إلى فتح الباب على مصرعيه لكافة العناصر الأخرى من فرس وعرب ،كما أفاد من جهد اليهود والنصارى في مجال المال والعمران.[3]

ظلت دولة الأدارسة على ما هي عليه من المجد والسؤدد في عهد إدريس الثاني إلى أن أفل نجمه سنة 213هـ –822م، فخلفه ابنه محمد الذي أقر لإخوته سياسة الانتزاء وتفرقت البلاد بناء على رأي جدته كنزة أم إدريس بن إدريس، وثارت الحرب داخل بيت الأدارسة وتمزقت وحدتهم وتعرضت لاضطرابات عنيفة هزت أركان دولتهم من الداخل بسبب التهافت على الإمامة من جهة وبسبب تهديدات الفاطميين والأمويين من جهة أخرى.[4]

وازداد شرخ الانقسام إلى عدة فروع، المحمديون من ولد محمد بن إدريس الثاني وكان ولاؤهم لعبيد الله المهدي بإفريقية، ثم فرع المعمريين من ولد عمر بن إدريس الثاني[5] وهو جد الحموديين الذين الذين أقاموا دولتهم بالأندلس[6] في عهد ملوك الطوائف .

على أية حال فإن اقتتال الإخوة من بني إدريس قد أتى على بنيان دولتهم من الأساس إلى أن كانت نهاية ملكهم في مدينة فاس على يد موسى بن أبي العافية[7] الذي استولى على بلادهم

---

[1]– محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص: 76.

[2]– ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 35.

[3]– محمود إسماعيل، المصدر السابق، ص: 76.

[4]– عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 91.

[5]– شريفة دحماني، المرجع السابق، ص: 101.

[6]– البكري أبو عبيد، المصدر السابق، ج02، ص: 309.

[7]– موسى بن أبي العافية بن أبي باسل بن أبي الضحاك بن الجدول بن تامريين بن فرديس بن ونيف بن مكناس بن وسطيف المكناس أمير مكناسة، ملك مدينة فاس سنة 313، وملك بلاد تازة، و تسول والكاف وطنجة، والبصرة، وسائر بلاد ==

فأجلى جميع الإدارسة عنها، يسيرون على وجوههم نحو قلعة حجر النسر[1] في حالة من القهر والبؤس، فحشروا فيها مجبرين على القعود فيها تحت حراسة أبي الفتح التسولي في ألف فارس بمنعهم من التصرف.[2]

وظلوا هناك مبعدين تتناوشهم قوى الفاطميين وأنصارهم الصنهاجيين، والأمويين وأنصارهم الزناتيين ،إلى أن انتهت رسوم عزّهم على يد المروانيين.[3]ومهما يكن من أمر فإن مجد الأدارسة لم يمت في عقبهم من بني حمود الذين سوف يحاولون استرجاع مجدهم الغابر في أرض الأندلس.

جواز بني حمود الأدارسة إلى الأندلس:

ينتهي عصر الأدارسة بالمغرب الأقصى بالقضاء على آخر محاولة لاسترجاع دولتهم وهي المحاولة التي كان يقوم بها الحسن بن قنون في عهد الحكم بن عبد الرحمان، الذي استطاع أن يقضي على ثورته بقيادة وزيره غالب بن عبد الرحمان، واستلام الحسن بن قنون الذي وفد على الحكم رفقه سبعمائة رجل أنجادا، يعدلون سبعة ألاف من غيرهم حسب قول أبي حيان.[4]

ثم ما لبث الحسن أن عاود الكرة بعد عودته من مصر مؤيدا من بلقين بن زيري الذي زوده بجيش قوامه ثلاثة ألاف فارس[5]، و بني يفرن بزعامة .يدو بن يعلى بن محمد و أخيه زيري، وابن عمه أبي يدّاس، وعدد كبير من العلويين الذين جاهروا بطاعته الذين يسميهم صاحب المفاخر أهل الفساد.[6]

==المغرب نقض الدعوة بلفاطميين ومال إلى المروانية ثم عاد إليها تحت ضغط بني زويري، ومات سنة 341، بن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 100، ابن العذري، المرجع السابق، ج1، ص: 194-200-202.

[1]- حجر النسر: مدينة عظيمة محدثة على جبل عظيم شامخ لآل إدريس وهي حصن منيع فيه أملاكهم ليس عليها طريق ولا إليها سبيل إلا من جهة واحدة يسلكه الراجل بعد الراجل وقد قام بناء هذا الحصن المنيع محمد بن إبراهيم بن محمد قاسم بن إدريس .ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص: 81-82 .

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 101.

[3]- أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 113.

[4]- ابن حيان، المقيس، ص: 145، ابن أبي زرع، ص: 114، ابن عذاري، ج02، ص: 242.

[5]- ابن أبي زرع، نفسه، ص: 116.

[6]- أبو علي صالح الإبلاني، المصدر السابق، ص: 121.

وكانت له مع ابن أبي عامر، وقائع وحروب إلى أن وقع جيش أبن قنون في الهزيمة وقع ابن قنون في قبضة جيش المنصور، الذي أمر بتعجيله إلى قرطبة، وفي الطريق أرسل إليه من قتله وحز رأسه وحمل إلى المنصور، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وتسعة أشهر.[1]

وبقتله ركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرق جمعهم، وبقي منهم جماعة بقرطبة فكانوا في ديوان السلطان إلى أن ملك علي بن حمود الأندلسي فسها ذكرهم.[2]

وعن الملامح العامة لهذه الدولة يقول ابن الخطيب «وكانت مدة ملكهم ما بين إدريس إلى الحسن بن قنون مائي سنة واثنتين وستين وخمس أشهر، وكانوا بين لحي أسد يكابدون دولتين عظيمتين من جهتها دولة الشيعة ودولة الأموية، وكان سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان وإذا اضطرب وانقبض على معتصمهم بالجهة السبتية إلى أن ذهب منهم العين والأثر وعدم الخبر فسبحان من لا تغيره الغير لا إله إلا هو».[3]

ومع ذلك فإن الأدارسة لم يفتاءوا يتطلعون إلى استعادة حقهم في الخلافة، وهو ما بينه ابن أبي زرع في روض القرطاس بقوله: «وكانوا ينازعون الخلفاء في ترك الخلافة».[4]

وظل هذا رأيهم إلى أن تجلى هذا الطموح المكبوت في أرض الأندلس حين اندلعت الفتنة وكان سليمان المستعين، احد أقطابها ، وهو الذي قاده البربر إلى سدة الحكم، من جهة جنده البربر وجهة من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب ،وهما القاسم وعليا ابني حمود.[5]ولما فتح المستعين قرطبة سنة 1403هـ-1013م، واستقر بها شرع في تعيين عماله في مختلف الأقاليم بالعدوتين الأندلسية والمغربية، وكان من جملة من كافأهم الطائفة البربرية فقد عين ست قبائل بربرية على بعض الكور الأندلسية.

---

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب في العصر الوسيط، وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام، تحقيق: احمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتابي، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ص: 224.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 116.

[3]- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 224.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 117.

[5]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ص: 113-114.

فاعطى صنهاجة، كورة البيرة، وولي مغراوة، علي جوفي البلاد،وازداجية وبنو دمر على كورتي شذونة ومورور وغيرهما من الحصون، وبني برزال وبني يفرن على جيّان وما ولاها غربا.

وفيما يخص بني حمود الإدارسة فقد أعاد القائد على بن حمود الإدريسي إلى المغرب، وولاه مدينة سبتة وعين أخاه الأكبر القاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء ومدينتي طنجة وأصيلا[1] . دون أن ينتبه أنه وضع مفاتيح المضيق في أيد لم تكن موالية، وقد أدهش قرار الخليفة حاشية البلاط من البربر الذين أوصلوه إلى العرش، وقد لاموه على هذا العمل الذي وصفوه بأنه ضد مصلحة الدولة.[2]

ولقد أزعج هذا التقسيم بني بزرال وعلى رأسهم عبد الله البرزالي الذي أسرع نحو سليمان مستفسرا ومؤنبا فقال: «يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب قال : نعم، قال له: أليس المعلويون طالبين؟، قال: نعم، قال: تأتي إلى خشاش تردهم ثعابين؟ قال: نفذ الأمر في ذلك».[3]

لم يكترث سليمان لهذا الاحتجاج، الذي ظنه انه بدافع المنافسة على المكانة التي قد يحتلها بنو حمود الأندلس وخصوصا أنهم من ثمرة النبوة.

لذلك لم يكلف سليمان نفسه عناء التفكير في داعي الإجماع ولا طرح السؤال على عبد الله عن دافع الاجتماع على تعيين الحموديين، فضرب الذكر صفحا وحسم الأمر بقوله: «نفذ الأمر في ذلك» معقبا على هذا الحكم، ولم يدر أن نهاية ملكه تكون مع يد هؤلاء الحموديين.

ولقد اعتبر العديد من المؤرخين على أن تعيين سليمان لعلي بن حمود سبتة هو ضرب من الغفلة وسوء التدبير، ومن هؤلاء المؤرخين أبن حيان، الذي وصف هذه الغفلة وسوء التدبير بالذهول كما في قوله: «وهي الاتفاق الغريب العجيب على سليمان لما استوثق له الأمر ... اختياره لعلي بن

---

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الإعلام، ص: 128.

[2]- ابن العذاري، نفسه، ج03، ص: 114.

[3]- لويس سيكودي لوثينا، الحموديون، سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان محمد آل طعمه، دار سعدان الدين، 1996م، ص: 19.

حمود على تقدمه بمدينة سبتة رأيا ذهل عنه ... ولم يكن في الدعوة والقرابة أبعد منه على وهجهم عليه وسلبه ملكه وقتله وحول دولته ومزق عشيرته وإذا أراد الله شيئا أمضاه».[1]

وقبل أن يستقر سليمان المستعين في كرسي الخلافة . بدأت تطلعات على بن حمود في الظهور للظفر بالخلافة والتخلص من سليمان. ومن أجل أن يضفي على محاولاته نوعا من الشرعية أو الحق في ذلك، زعم أن هشام المؤيد قد أرسل إليه كتابا يقر له فيه بولاية العهد وأنه أوحى إليه بالخلافة من بعده.[2]

وحول هذه الحادثة المفصلية في تاريخ المغرب الإسلامي أجد نفسي أمام طرحين مختلفين من حيث الدوافع وكذا الكيفية التي تم بها تبليغ على بن محمود بولاية العهد.

فرواية ابن حيان تتلخص في أن هشام المؤيد قد أرسل بالفعل بن علي بن حمود كتابه الذي يعده فيه بولاية العهد والخلافة من بعده، كما يبين الأسباب القاهرة التي كانت وراء حمل هشام على اتخاذ هذا القرار الخطير بقول ابن حيان: « وكان هشام عندما رآه من اضطراب أمر وثيقته من انصدام دولته بما منى به قديما وحديثا من تحالف بني عمه آل الناصر عليه، وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه».[3]

أما ابن الخطيب فذكر أن بعض الموالي العامريين لما استاءوا من الخليفة سليمان المستعين بسبب اعتماده على البربر ،كاتبوا عليا بن حمود وأرسلوا له عهدا منسوبا إلى الخليفة ألأموي هشام المؤيد بخط يده يعهد فيه بولاية العهد والخلافة من بعده.[4]

وبعد القراءة المتأنية للنصين السابقين أرى أن الرواية التي قدمها أبن حيان تلامس عين الحقيقة أو تكاد ،لأن أول عمل قام به ابن حمود بعد القبض على سليمان هو محاسبته على هشام المؤيد وقتله بيده قائلا :هذا جزاء من قتل هشام، ثم هناك قرينة أخرى لا تدع مجالا للشك وهي لو

---

[1]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 114.

[2]- نفسه، ج03، ص: 114.

[3]- ابن بسام الشنتريني، ج1، ص: 22.

[4]- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 121.

أن البربر هم من أرسلوا عليا بن حمود، فكيف تحتج طائفة منهم على تعيين العائلة الحمودية على الجزيرة الخضراء، وطنجة وسبتة، وعليه فإن رواية ابن الخطيب تبدوا بعيدة عن الحقيقة.

رغم أن هناك تعضيد آخر لما ذهب إليه ابن حيان، وهو ما ورد في كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب،" قوله: «وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها، فراسلهم علي بن حمود المذكورة وقد حدث له طمع في ولاية الأندلس فكتب إليهم بذكرهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصرا بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه».[1]

ولم تمض سنة كاملة حين بدأ علي بن حمود يتهيأ، وبعد العدة للوثوب على علي سليمان سمت نفسه إلى الخلافة[2]، مستمدا شرعيته من الكتاب الذي زعم أن هشام عهد له فيه بالخلافة وكان قد أفاده فائدة كبرى في الثورة التي أعلنها على الخليفة سليمان بن الحكم، وكان من أهم العوامل التي ساعدت على انتصاره النهائي[3]. لم يكن الدافع مقتصرا على هذا العامل فحسب، بل هناك عوامل أخرى كامنة وراء هذه الثورة وفي مقدمتها الخلافات والقلاقل التي سادت الأندلس بعد الفتنة، فعلي بني حمود كان يرى بأنه الوحيد الذي يقع عليه الإجماع خاصة أنه ينتمي إلى عائلة من أشرف العائلات وهي جهة أخرى فإن بني حمود قد تبربروا في وسط قبيلة من أعرق القبائل البربرية في بلاد المغرب وهي قبيلة زناتة.

ومما ساعده على المضي قدما نحو هدفه المنشود هو وجود أخيه القاسم واليا على الجزيرة الخضراء، وهي الجزيرة التي يمكن أن تكون قاعدة انطلاق إلى مالقة ومنها إلى قرطبة، بالإضافة إلى العدد الكبير من أمراء البربر المتواجدون في منطقة الجنوب التي يمكن أن تكون درعا قويا في مؤازرة الثورة و تكون أراضيها منطقة ارتكاز و انطلاق لمختلف العمليات التي يشنها جيش علي بن حمود.[4]

[1]- المراكشي، عبد الواحد، المصدر السابق، ص: 41.
[2]- راينهارت دوزي، المرجع السابق، ص: 153.
[3]- خالد الصوفي، المرجع السابق، ص: 195.
[4]- نفسه، ص: 196.

فلما استكملت حلقات الإعداد للثورة جاز على بن حمود إلى الضفة الأخرى ودخل مالقة سنة 405هـ-1014م، على حين غرة من حاكمها، وانتزعها من واليها عامر بن فتوح[1] احد موالي فائق الصقلبي.

وكان أول عمل قام به في سبتة هو قتل قاضيها محمد بن عيسى، وعميدها الفقيه ابن يربوع حين تأكد من عمالتهم للمسبقين الذي كان قد أرسلهما إلى مدينة سبتة للاستطلاع وتتبع آثار علي بن حمود حين بلغه أن هذا الأخير، يحضر للإطاحة به.[2]

وبمقتل هذين الرجلين يكون علي بن حمود قد أشهر سيفه في وجه المستعين، ولم ينتظر طويلا، إذ بعث بكتاب إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري، يطلب منهما الإشارة في الجواز إلى مالقة، فأمراه بالقدوم على عجل، فتحرك علي بن حمود على الفور بالقطع والعساكر ودخل مدينة مالقة سنة 405هـ-14014م على حين غرة من حاكمها وانتزعها من وإليها عامر بن فتوح[3]، الذي كان يزال على ولائه للخليفة في قرطبة، إلا أن عليها سدد عليه الخضراء واضطره إلى تسليم الحصن، ودخل مالقة وبايعه سكان مالقة واعتبروه قائدا للثورة خاصة انه من نسب شريف يكبرونه ويقدسونه، وأنه مؤيد من قبل هشام بن الحكم[4] فانحاش إليه الناس، وتلاحقت إليه الجيوش البربرية من كل صوب، فجاءه خيران العامري على رأس كتيبة الصقالية، وزاوي بن وزيري، وحبوس بن ماكس وأخوته وبنو عمه الصنهاجيون وبايعوه بالخلافة والطاعة.

فلما استكملت حلقات الإعداد للزحف على قرطبة، تحرك علي بن حمود على رأس التحالف العسكري الذي شارك في إعداده كل من زاويه وخيران، وحبوس وفي الوقت ذاته كان جيش سليمان في طريقه نحو مالقة لملاقاة جيش ابن حمود، فالتقى الفريقان في شهر محرم من سنة 407هـ-1016م

---

[1]- عامر بن فتوح، عامر بن الفائقي، مولى فائق مولى الحكم المستنصر، المراكشي، عبد الواحد، المصدر السابق، ص: 41.

[2]- ابن عذري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 115، ابن الخطيب، ص: 121.

[3]- عمر بن فتوح، أمرين فتوح الفائقي، مولي فائق مولى الحكم المستنصر .المراكشي، عبد الواحد، المصدر السابق، ص: 41.

[4]- لويس سيكودي، لوثينا، المرجع السابق، ص: 21.

ودارت الحرب بينهما فكانت الدائرة على سليمان[1] وأصيبوا إصابة بالغة وطالتهم الهزيمة، ووقع سليمان في الأسر مع أخيه عبد الله وأبوهما واقتيدوا جميعهم إلى علي بن حمود ليقتص منهم.

ودخل المنتصرون القصر آملين أن يجدوا هشام المؤيد حيا، وذكر لهم انه قتل واتهم سليمان بإزهاق روحه، وامتثل أمام بن حمود ليتبرأ من دمه، وهو في جزع وهلع شديدين ، فلم يصغ لهم ابن حمود، فامسك السيف فضرب أعناقهم جميعا وقال بلسانه الزناتي والبربري: «لا يقتل الزلطان إلا الزلطان» وذكر أن عليا قال لوالد سليمان وكان شيخا كبيرا: «يا شيخ: هكذا قتلتم هشاما؟، فقال الشيخ: لا والله ما قتلناه ولا هو إلا حي يرزق»، فلم يشفع له ذلك وانهال عليه علي بالسيف فقتله.[2]

ومن الأهمية بمكان أن نقف على الأسباب والدواعي التي كانت وراء انتصار علي بن حمود على سليمان .بالرغم من الانتصار الذي أحرزه هذا الأخير على المهدي الذي كان مؤيدا من الأندلسيين والجلقيين، وما قام به سليمان من إخلاء قرطبة وما جاورها من العناصر البربرية التي كان يتقزز منها القرطبيين، هذه الأوضاع وغيرها كانت توحي بأن سليمان المستعين كان في مركز قوة،مما يجعله يقف أمام أي غارة دامية، ومع ذلك تلاشت قواته أمام جيش متواضع يقوده علي بن حمود القادم من العدوة الجنوبية،وعليه يمكن إجمال هذه الأسباب فيما يلي:

1- يعد الكتاب الذي أرسله هشام المؤيد، يقرّ له فيه بولاية العهد، ويطلب منه في نفس الوقت إنقاذه من سليمان المستعين، بمثابة المطية التي ركبها علي بن حمود، فقد أكسبته الشرعية، والمطالبة بالخلافة في أوساط البربر وغيرهم.

2- الاضطرابات والقلاقل، وهشاشة الوضع السياسي في الأندلس ساعد الحموديين على التمرد وإزاحة الخليفة المستعين بالقوة.

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 121.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 24، ابن الخطيب، نفسه، ص: 121، ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 617.

3- شغور مركز الخلافة في قرطبة بسبب نظرة الكراهية التي كان يكنها أهل قرطبة لسليمان المستعين منذ أن دخل مدينتهم بالقوة بمعية البربر وما خلفوه من فظائع وقتل ونهب، وهو نفسه كان يدرك هذه الكراهية التي كانوا يظهروها حياله، وهو القائل:

إِذَا مـَا رَأَوْنِــي طَــالِعًـا مِــنْ ثَنِـيَةٍ يَقُولُونَ مَن هَذَا وَقَد عَرَفُونِي وَلَو

يَقـُولُـونَ لِي أَهْـلًا وَسَهْـلًا وَمَـرْحَبـًا ظَفِــرُوا بِــي سَــاعَــةً قَتَــلُــونِـي

تخلي عدد كبير من أنصار سليمان بعدما تناهى إلى أسماعهم قيام علي بن حمود في سبتة ومالقة خاصة عندما علموا أنه من بيت النبوة وأنه مؤيد من قبل هشام.

4- اندلاع الثورة في شرق الأندلس التي قادها الثائر الأموي سنة 404هـ-1014م المعروف بالمعيطي[1] ويكنى بأبي عبد الرحمان، كان حتى وقت قريب من عهد الطوائف يسكنه مع عائلته في قرطبة، ثم هاجر مع عائلته إلى مدينة دانية[2] التي كان يحكمها مجاهد العامري[3] والتف هذا وإتباعه حول المعطي ونصبوه خليفة عليهم سنة 405هـ-1014م وكان ظهور عبد الله المعيطي ومبايعته بالخلافة، بمثابة جبهة ثانية فتحت في وجه المستعين بما أضعف قوته العسكرية والمعنوية.[4]

---

[1]- المعطي: هو عبد الله بن عبد الله بن الوليد بن محمود بن يوسف بن عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد ين عثمان بن عبد الله بن عبد العزيز بن خالد بن عقبة بن أبي معبط، كان متفقها بقرطبة ثم خرج إلى دانية والجزائر فبريع بها الخلافة ثم خلعه من هذا وفر إلى أرض كتامة، وكان أبوه محدثا ثقة وقد ولد بمصر سنة 300 ودخل الأندلس ولهم غصب كثير بالأندلس ابن حزم، المصدر السابق، ص: 115.

[2]- دانية: مدينة عظيمة مشهورة الذكر عالية القدر، كثرت إليها الأسفار وشدت نحو الرحال من الأقطار وامتلأت من العلماء والكتاب والشعراء وهي كثيرة الخيرات ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ-1998م، ج02، ص: 325.

[3]- مجاهد العامري: من فحول فتيان المنصور بن أبي عامر تسمى بالموفق بالله وكتب بهذا اللقب عن نفسه وكتب له به وكان ذا نباهة ورياسة، انتزى في مدينة دانية في أول الفتنة كان جليل القدر له غزوات في النصارى في البحر مشهورة، فتح جزيرة سردانية، كان محبا للعلماء محسنا لهم كثير التولع بالمقرئين أثنى عليه ابن حيان في كتاب المتيين، وقد زاد على نظرائه من ملوك الطوائف بالأنباء منها في العلم والمعرفة والأدب، ابن سعيد الغرناطي ، نفسه، ج02، ص: 325، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 155.

[4]- إبن عذاري ،المصدر السابق،ج3، ص: 155.

استيلاء بني حمود على الخلافة في الأندلس:

لم تكن الخيارات والقرارات التي انتهى إليها المستعين بعد تربعه على عرش أسلافه الأمويين في مستوى الجهود والتضحيات التي قام بها ، حين قام بمكافأة من وقف إلى جانبه في هذه الحرب خصوصا عندما منح علي بن حمود ولاية سبتة وطنجة، يقول أحد الباحثين: «وهذا ما شكل خطأ حقيقيا على مستقبل الأندلس كرسه المستعين بارتكابه غلطة أخرى حينما منح ثقته لعلي بن حمود وهو إدريس يسعى إلى السلطة فولاه سبتة وطنجة وولى أخاه القاسم الجزيرة الخضراء، وبذلك أحكم لها السيطرة على قاعدة الأندلس وخطها الدفاعي».[1]

ولقد عده بعض المؤرخين موقفا غريبا لا ينم عن شخصية سياسية حاذقة حنكتها خطوب المواجهة ومن هؤلاء ابن بسام حين يقول: «... وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا هي بعده وإذا أراد الله شيئا أمضاه»[2] وكانت هذه إحدى المطابّات السياسية التي حذره منها عبد الله البرزالي إذ تفطن بعواقب ذلك حين قال له أن هؤلاء الحناش صيرتهم ثعالبين وبالفعل فقد تحقق ما تنبأ به البرزالي[3] فقد التوت عليه والتهمته.

ومن هنا يمكن القول أن سليمان المستعين قد وضع من حيث يدري أولا يدري حدا للمركزية السياسية التي أنفق فيها أجداده تضحيات جسام من اجل تحقيقها.[4]

وعلى أية حال فإن علي بن حمود قد وصل إلى مبتغاه، وهو الإستحواذ بل كرسى الخلافة وكان بذلك أول خليفة من أسرة الأدارسة العلويين في الأندلس[5]، ومن أجل رأب الصدع مع القرطبيين فقد نهج في مستهل حكمه نهجا سياسيا معتدلا يطبعه العدل والإنصاف بين الناس حيث حرص أن يجلس هو بنفسه للمظالم وإقامة الحدود، وفي نفس الوقت كانت سياسته ترجي لما استمالة القربيين

---

[1]- عبد الوهاب خليل الرباح، المرجع السابق، ص: 86.
[2]- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص: 23.
[3]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 311.
[4]- عبد الوهاب خليل، المصدر السابق، ص: 86.
[5]- الحميدي، المصدر السابق، ص: 33.

إليه، مكبلا إياهم بسلاسل الإحسان إليهم[1] حتى فتنوا به أشد فتنة[2] وفي مقابل ذلك أبدى صرامته وقسا على البرابرة ،رغبة منه في إستمالة القرطبيين، وعاملهم بالحدود وأنزل بهم بعقوبات لأقل شبهة.

ومما يروى أنه قدم إلى مجلسه عصابة من البربر الأعيان لارتكابهم الكبائر، فأمر بضرب أعناقهم بحضور أهليهم وعشائرهم دون أن ينبسوا بشيء[3]، وضرب أحد البرابرة على حمل عنب فلما سأله عن مصدرها قال: أخذته كما يأخذ الناس فأمر به فقتل، وطيف برأسه بسائر البلد[4]، وبهذه الصرامة التي كانت بعيدة عن تكريس العدالة كما أسلفنا، إذ لا يعقل أن تزهق نفس، لكون صاحبها سرق عنبا. والادهى من ذلك أن يطاف برأسه في شوارع المدينة.

لقد بالغ علي بن حمود في الإساءة إلى البربر ليكسب ودّ القرطبيين ،فقد كان الأجدر به أن يمسك العصا من وسطها، بان يسوي بين الطرفين، وأن يحدب على الجميع في إطار سياسة يجد فيها كل طرف أمنه ومبتغاه.

ورغم ما بذله علي بن حمود في سبيل إرضاء القرطبيين إلا أنه أنس منهم الكراهية[5] والغدر، ولم يدم هذا الوفاق معهم سوى بضعة أشهر[6]، فلما أطلع على نواياهم قلب لهم ظهر المجن، وانقلب عليهم، وهمّ بإخلاء المدينة من القرطبيين، وكان مبعث هذا الانقلاب الذي تمّ. غبّر عنه ابن عذاري بقوله: «فبرقت يومئذ للعدل بارقة خلب لم تكد تقد حتى خبيت»[7] هو ظهور المرتضى المرواني[8]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 122.

[2]- نفسه، ج03، ص: 121.

[3]- ابن بسام، ج1، ص: 60.

[4]- ابن عذري، المصدر السابق، ج03، ص: 121.

[5]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 61.

[6]- خالد الصوفي، المرجع السابق، ص: 213.

[7]- ابن عذري، المصدر السابق، ج03، ص: 121.

[8]- المرتضى: هو عبد الرحمان محمد بن عبد الله بن الناصر، قام بالثورة على ابن حمود مستهدفا إرجاع عرش اسلافه من أيدي البرابرة الحموديين، وكان بسبب قيام المرتضى إلى خيرات العامري لما دخل قرطبة مع علي بن حمود كان طامعا أن يجد هشاما حيا فلما لم يجده أظهر خلافه وفهم علي ذلك وهم بقتله ففر خيرات بنفسه إلى شرق الأندلس واجتمع بالمرتضى وتألبوا ضد علي بن حمود ابن عذاري، ج03، ص: 123.

والتفاف القرطبيين حوله، وكان من بين من سانده في هذه المواجهة خيران العامري صاحب المرية، وتألب ضده أمراء الثغور وأصبح كل شيء ضده، فكرهه الناس، ومكر به الصقالبة المروانيين وكانوا من خاصته، ودبروا له مكيدة أودت به، حيث قاموا باغتياله بالحمام في ذي القعدة سنة 408هـ-1017م.[1]

وعقب مقتل علي بن حمود خلفه أخوه القاسم الملقب بالمأمون، واستمر فيها نحو أربع سنوات إذ ثار عليه ابن أخيه يحي بن علي بن حمود، وأشار على أخيه عامل مالقة على أن يتولى ثغر سبتة، ويتولى هو مالقة، وحتى يستميل الأندلس في قرطبة وغيرها كتب إليهم.يقول لهم أن عمه اغتصب حقه في الخلافة، وأنه إذا لاق منهم تأييد فسوف بنصفهم، ويعيد العبيد والسودان في أماكنهم التي اعتادوا عليها.[2]

فاضطر إلى الخروج من قرطبة إلى اشبيلية أين بايعه أهلها[3] فوجد في الأندلس يومئذ خليفتان مما أدى إلى هشاشة الوضع، يضعف الحكم المركزي بقرطبة[4]، ولم يكد يحي يباشر مهامه حتى اصطدم اصطدم بأهل قرطبة والبربر، عندما ارتكب ما عابه الناس على غيره، فساءت حاله، واضطر إلى الفرار عن قرطبة سنة 413هـ-1022م.[5]

ولما بلغ القاسم قرار يحي من قرطبة تحرك نحوها في نفس السنة وجددت له البيعة وبقي فيها سبعة أشهر، وأما يحي فقد أنحاز إلى الجزيرة الخضراء، وهي بالنسبة للقاسم قاعدته الخلفية المفضلة، وزاد من مخاوف القاسم، وتوسيع إدريس نفوذه نحو طنجة، وبذلك يكون الإخوان قد أحاطا بالقاسم وشدد عليه الخناق وضعف بذلك أمره، ووجها إليه الضربة الأولى التي هزت أركان عرشه.[6]

---

[1]- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص: 46، لسان الدين بين الخطيب، المصدر السابق، ص: 129.

[2]- ابن عذري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 131، الحميدي، المصدر السابق، ص: 33.

[3]- لويس سيكودي لوثينا، المرجع السابق، ص: 25.

[4]- شريفة دحماني، المرجع السابق، ص: 111.

[5]- لسان الدين بن الخطيب، ص: 134، البكري أبو عبيد، المصدر السابق، ج02، ص: 317.

[6]- خالد الصوفي، المرجع السابق، ص: 239.

ولم يدم حكم القاسم طويلا في قرطبة، فقد ثار عليها أهلها لما أبدى انحيازه للبربر في فاضطر للمغادرة مرة أخرى نحو اشبيلية ومنها إلى شريش[1] أين قبض عليه، فأقتيد إلى مالقة وظل سجينا بها، ثم قتل على يد يحي بن علي بن حمود سنة، 427هـ-1035م.

بعد تخلص يحي بن علي من خصمه العنيد، تطلع إلى قرطبة، لاسترجاع نفوذه منها إلا أن أهلها سئموا من حكم البربر، وتصدوا لكل محاولة تمكن البربر من حكم قرطبة، وحتى لا تبقى مدينتهم محل إطماع البربر، عمدوا إلى شن حملة إبادة للبربر وقتلوا كل مشتبه فيه من البربر وكانت الحصيلة قتل ما يقرب ألف رجل من البربر.[2]

وبهذا الحرب المتواصلة التي أنهكت الأندلسيين والبربر في قرطبة أو في مالقة، سقطت خلافة الحموديين بقرطبة، واكتفوا بمالقة والجزيرة الخضراء، وفي العدوة الجنوبية كان لا يزال نفوذهم في سبتة وطنجة.[3]

وبقي يحي بن علي بمالقة إلى أن قتل بقرمونة في محرم من سنة 427هـ1035م[4]. وبعد مقتل يحي أسرع رجل دولته بن بقية ونجا الخادم في استدعاء أخيه إدريس بن علي من سبتة لحكم مالقة بعد تنصيبه قام بتعيين أبن أخيه حسن بن يحي بن علي حاكما على سبتة وطنجة، وتلقب إدريس بن علي بلقب المتأيد بالله، وبايعه رؤساء البربر وفي مقدمتهم حبوس بن ماكس كما تلقى التأييد والمبايعة من زهير العامري حاكم المرية[5] وكان هدفهم في ذلك هو تكوين حلف بربري للوقوف للوقوف في وجه العباسيين الذين باتوا يهددون المناطق البربرية المجاورة لهم، ولم يلبث أن أنظم محمد بن

---

[1]- شريش: هي كور شنونة وهي على مقربة من البحر، وهي مدينة حصينة حسنة الجهات، وتكثر بها الكروم والغلال، وشجر الزيتون والتين، وبين المغرب والقبلة من شريش يوجد حصن روطه على شاطئ البحر، بينهما ستة أميال، وهو موضع رباط وحقر للصالحين يقصد من الأقطار، لحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 340.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 143.

[3]- ابن الحميدي، المصدر السابق.

[4]- عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 144.

[5]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 624.

عبد الله البرزالي صاحب قرمونة[1] الذي تخلى عن خليفة بن عباد بعد أن تبين له حقده على البربر عندما أعمل السيف في البربر وعند أسوار قرمونة، حيث لم يرفع ابن عباد سيفه عنهم إلا بعد تدخل محمد بن عبد الله الرزالي لوقف المذبحة مدفوعا بعصبيته للبربر، ومن هنا يتجلى أن البربر كانوا يجنحون إلى عصبيتهم في حالة الخطر، وتلتئم بذلك أجزاؤهم المبعثرة، ويتناسون الخلافات السائدة بينهم.[2]

ومما هو جدير بالإشارة أن سقوط أمراء بني حمود بالغدر تارة ،وفي معمقة القتال تارة أخرى، قد أثار أطماع بني عباد الذين كانوا قد مضوا في تحقيق مشروعهم القاضي بالتهام مناطق البربر، فاجتاحت قواتهم قرمونة وضواحيها، فاستنجد محمد بن عبد الله البرزالي بالبربر، فهبّت قوات باديس بن حبوس وإدريس المؤيد، وهموا بمهاجمة العباديين إلا أنهم تريثوا لعدم إجماع قواتهم فقرروا الانسحاب دون أن يحققوا شيئا من هذا التحالف.[3]

إلا أن إسماعيل بن القاضي أبي القاسم بن عباد فسر هذا التراجع على محمل آخر، وهو الضعف والجبن، وتقفّى آثار هذا الجيش وانتظر إلى حين فارقت قوات باديس قوات المتأيد بالله، وتفطن باديس للمكيدة، واستغاث بقوات المتأيد التي لم تكن قد غابت عن أعين باديس، فاقتحم الجيش ودارت بينهم معركة دامية أسفرت عن مقتل إسماعيل ثم حزّ رأسه وحمل إلى إدريس المتأيد[4]، وكان ذلك انتقاما ليحي بن علي ،إلا أن إدريس لم يكترث لذلك لأنه كان مشتغلا بمرضه بجبل ببشتر ولم يلبث أن فارق الحياة بعد يومين من هذه الحادثة 16 محرم431هـم1039، ونقل جثمانه إلى مدينة سبتة ليوارى التراب.[5]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق ، ج03، ص: 141، محمد عبد الله العنان، المصدر السابق، ص: 124.

[2]- شريفة دحماني، المرجع السابق، ص: 185.

[3]- الضبي، المصدر السابق، ص: 39.

[4]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 624.

[5]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 289.

وبعد مقتل إدريس المتأيد تأجج الوضع وثارت المنازعات بين أفراد الأسرة الحمودية إلى أن بويع لإدريس بن يحي[1] سنة 434هـ-1042م، وبايعته أمراء البربر منهم باديس بن حبوس، أمير غرناطة، ورؤساء أستجه[2] ومورور ولوشة[3]، وكان إدريس هذا متناقض الأحول ، فمن سجاياه أنّه كان أرحم الناس قلبا، كثير الصدقات، ويكثر في الإخراج منها يوم الجمعة، ويعفو عن المطرودين من أوطانهم، ويرد عليهم ضياعهم وأملاكهم، ولم يسمع بغيا في احد من الرعية، وكان أديب اللقاء، حسن المجلس ويقول من الشعر أجوده ومع هذا فكان لا يصحب إلا كل ساقط نذل ولا يحجب أزواجه عنهم، ولا يتوانى في منحهم الحصون.[4]

ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس فخلعه سنة 438هـ-1046م وتلقب بالمهدي وكان لا يتورع في سفك الدماء، واستقام له الأمر في مالقة.[5]

---

[1]- إدريس بن يحي بن علي بن حمود بن أبي العيش ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس الأول، خرج مع أبيه لحي من قرطبة عندما خلعه البربر سنة 413، واستقر في مالقة حتى بويع له بالخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بالعالي ثم خلفه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود، واعتقله، ثم عاد ثانية إلى مالقة، وفي ولايته يقول أبو محمد غانم بن وليد المخزومي:

واستقبل الملك إمام الهدى	**في أربع بعد ثلاثينا**
خلافة الله سمت نحوه	**وهو ابن خمس بعد عشرينا**
إني لأرجوا يا إمام الهدى	**أن تملك الدنيا ثمانينا**
لارحم الله امرا لم يقل	**عند دعائي لك أمينا**

ابن الأبار، الحلة السيراء، ص: 187.

[2]- أستجة: مدينة كثيرة الأراضي منفسحة البطحاء، كثيرة المرافق بنيت على نهر سنجيل وهو نهر غرناطة ولها عدة أقاليم ومعاقلها كثيرة حصينة وجبالها شامخة تعلو جبال الأندلس وتخرج منه الأنهار ولا يدخلها نهر ولا يساويها جبل بالاندلس ولها معاقل منيعة وحصون وبينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا، أين غالب فرحة الأنفس، ص: 215.

[3]- لوشة: من أقاليم البيرة، تبعد عنها بثلاثين ميلا وبها جبال فيه بخار يصعد إليه وعلى فمه شجرة وبداخله أربعة نفر موتى لا يترض إليهم أحد وكان الملوك والولاة يراعون أمورهم ويجدون أكفانهم، وغدوا مزار يتردد عليهم الناس، الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 513.

[4]- ابن الآبار القضائي، المصدر السابق، ص: 188.

[5]- ابن عذري المراكشي، المصدر السابق، ج3، ص: 292.

وبايعته الإمارات البربرية في الجنوب كما في مالقة وأحسن تدبيرها وكان ذا سياسة وحنكة، يوصف بالنبل والفطانة حسن السيرة قائما بأمور المملكة محسنا بالرعية، يحسن التصرف للمجابي، قائما بأمور الأجناد، وكانت نهايته على يد باديس بن حبوس الذي أعمل الحيلة في قتله حيث أرسل مع واحد من خاصته كأسا مسمومة نادرة ، أحتسى فيها خمرا فكان فيها حتفه.[1]

وبعد وفاة المهدي ابن إدريس الحمودي سنة 444هـ/1052م شهدت مالقة سلسلة من الاضطرابات وتداول على حكمها خلفاء ضعاف، فاتبل باديس بن حبوس بن زيري الصنهاجي أمير غرناطة هذه الفرصة، فتحرك بجيشه نحو مالقة واستولى عليها سنة 449هـ/1058م، دون مقاومة فخلع محمد المستعلى بن إدريس العالي آخر الحكام الحموديين بمالقة.

وبذلك أسدل الستار على آخر فصل من فصول الحموديين في مالقة وأفل نجمهم وانتهت رسوم عزّهم بتلك البلاد بعد أن قضوا فيها اثنان وخمسين سنة.[2]

ومما يمكن استنتاجه عن دولة الحموديين في الأندلس أنه كان أمر طبيعي أن تؤول دولتهم إلى هذا الوضع السيء لاعتبارات عديدة منها:

- لم يكن أهل الأندلس راضين بقرار منح علي بن حمود سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء لأخيه القاصر اللذان جعلا منها قاعدة للإنطلاق إلى مناطق أخرى في الأندلس حين أستنجد بهما.

- كان دخول الأدارسة الحموديون في فترة اضطراب وانقسام وقد ظهرت الخلافات العصبية ودخلت في حروب دامية كان لها انعكاسات وتداعيات عمقت من شرخ الانقسام.

- كان انتقال الحموديين إلى قرطبة رغبة في تسلم الخلافة وكان هذا من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها الحموديون حيث غاب عنهم أن القرطبيين كانوا يتطلعون إلى عودة حكم الأمويين ولم يرضوا عنهم بديلا.

---

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 141.

[2]- ابن عذاري المصدر السابق، ج03، ص: 218، صبح الأعشى، تحقيق فوزي محمد أمين ، الهيئة العامة بقصور الثقافة، 2004م، ج05، ص: 246، وكمال السيد أبو مصطفى، مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، مؤسسة شباب الجامعة، 1993م، ص: 16.

بنو برزال في جنوب الأندلس:

بنو برزال في بلاد المغرب:

بنو برزال بطن من بطون زناتة البربرية[1] وهو فرع من بني دمر[2] التي تفرعت عنها بطون كثيرة ومنهم بنو ورنيد[3] ،وبني ومرتاتين، وبني عزرول، وبني ورغمة، وبني صغمار وبني يطوفت وبني برزال[4] ولم تكن هذه القبائل تنتسب إلى أسمائها بل كانت تنسب رأسا إلى بني دمر، فيما عدا بني برزال[5] الذين ذكروا باسم نسبهم دون نسبتهم إلى بني دمر.[6]

وإذا اتبعنا أصول بني برزال بشكل أدق فإنهم حسب ابن خلدون ينسبون إلى بني ورنيد بن وانتين بن واردين بن دمر بن ورسيك بن الديرت بن جانا[7]، وكانت مواطنهم التي عرفوا بالاستقرار فيها هي جبال السلات وما ولاها من أعمال المسيلة والزاب الأسفل بالمغرب الأوسط[8]، وكثر نسلهم نسلهم وانتشروا بأعداد كبيرة وذاع صيتهم وقويت شوكهم[9] لما كانوا يحققونه من انتصارات للذود عن عن حدودهم المترامية الأطراف من إقليم الزاب.

---

[1]- ابن حزم أبو محمد، جمهرة انساب العرب، ص: 498.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج07، ص: 08.

[3]- بنو ورنيد: بن وانتن بن واردن بن دمو، وبن شعوبهم بني ورتالتين وبني عزرول وبني توغرت وبقايا بني ورنيد لهذا العهد إلى عهد ابن خلدون بالجبل المطر على تلمسان، بعد أن كانوا في البسيط قبيلته، وفزاحمهم بنو راشد حين أجلوهم من بلاد الصحراء إلى التل وغلبوهم على تلك البسائط فانزاحوا إلى الجبل المعروف ومن بهم لهذا العهد وهو المطل على تلمسان، ابن خلدون عبد الرحمان، ج1، ص: 71.

[4]- ابن خلدون، نفسه، ج4، ص: 08.

[5]- يذكر صاحب مفاخر البربر وإستنادا إلى رواية أبي مروان عبد المالك بن موسى الوراق، أنهم فخذ من زناتة من بني يفربن بينما نسب صاحب المعجب أنهم بطن من صنهاجة، أبو علي صالح، المصدر السابق، ص: 157، المراكشي عبد الواحد، المرجع السابق، ص: 61.

[6]- سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص: 78.

[7]- ابن خلدون، المصدر، ج02، ص: 09.

[8]- ابن غدري المراكشي، ج03، ص: 267.

[9]- ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 72.

وكانت نحلة هؤلاء تعرف بالنكارية وقد سبقت الإشارة إليها ،وهم الذين أنكروا أحقيّة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم في خلافة أبيه ،وقد أطلق عليهم أعداؤهم أسماء تشين إلى سمعتهم حيث سموا بالملاحدة، والتبعة، والنكارية.[1]

ترجع علاقة البرزاليين بالخلافة الأموية بالأندلس إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، حيث كان الصراع على أشده بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في بلاد المغرب، وكانت القبائل الزناتية آنذاك موالية لبني مروان بالأندلس، وكانت حينهاصنهاجة موالية للفاطميين.

وكان الصراع والتنافس بين الخلافتين يؤجج الخلاف بين القبيلتين، إلى أن جرّها ذلك إلى أتون الحرب والإقتتال، وكانت صنهاجة تسيطر باسم الفاطميين على القسم الشرقي للمغرب، اما القسم الغربي لنهر الملوية إلى طنجة فقد سيطرت عليه زناتة وحلفاؤها من بنتي مروان في الاندلس.[2]

وما لبث أن اتسعت هوة الخلاف بين الطرفين، عندما عزم الفاطميون على مبارحة بلاد المغرب بعد أن يئسوا من إقامة دولتهم على أرض المغرب والتوجه نحو مصر.[3]

وهال الفاطميين أن يتركوا بلاد المغرب شاغرة دون تعيين من ينوب عنهم في إدارة شؤونه لاعتبارات كثيرة منها: إبقاء إبقاء بلاد المغرب مجالا حيويا يحتاج إليه الفاطميون كمورد اقتصادي هام، وخزّان بشري، قد تدعوا الحاجة إلى استجلاب أعداد منهم لمواجهة أعدائهم وفي مقدمتهم العباسيين، ومن جهة أخرى إبعاد الخطر المرواني عن بلاد المغرب خاصة أن لهم موطئ قدم في سواحله الشمالية الغربية ،وقد رأى الفاطميون أنه يمكن تحقيق ذلك عندما تكون القيادة والزعامة بأيدي المغاربة أنفسهم.

---

[1]- أبو زكريا يحي بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل الغربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، 1984م، ص: 93، الشهر ستاني أبو الفتح، المصدر السابق، ص: 146.

[2]- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص: 424.

[3]- جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، بيروت، 1994م، ص: 225.

وكانت الخطوة الأولى أن عرض المعزّ لدين الله الفاطمي على من كان يتوسم فيه القدرة على تحمل هذه المسؤولية وهو جعفر بن علي بن حمدون[1] صاحب مدينة المسيلة وإقليم المزاب[2]، فاشترط عليه جعفر شروطا تجعله مطلق التصرف دون الخضوع للفاطميين.[3]واتبعها بشروط تعجيزية توحي بتنصّل جعفر بن حمدون من هذه المسؤولية وأوجزها المقريزي فيما يلي: «تترك معي أحد أولادك أو إخوتك جالسا في القصر وأنا أدبر الأمر، ولا تسألني عن شيء من الأموال إن كان ما أجيبه بإزاء ما أنفقته وإذا أردت أمرا فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي»[4] فامتعض المعزّ لهذا الرد الذي اشتم من خلاله أن جعفر قد اقتنع أن صولة الفاطميين على بلاد المغرب قد أزفت ،وأن ساعة الحسم لاستخلاف الفاطميين من قبل البرزالين قد حلّت، فرد المعزّ لدين الله الفاطمي تحت وطأة الغضب قائلا : «يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبدت بالأموال والأعمال دوني قم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك».[5]

---

[1]- جعفر بن علي بن حمدون: يعرف بالأندلسي، وهو صاحب المسيلة وإقليم الزاب من أعمال إفريقية كان جوادا كثير العطاء مؤثرا لأهل العلم ولابن هنيء الأندلسي فيه مدائح منها:

المدنفان من البرية كلها   جسمي وطرف إبلي أحور

والمشرفات النيرات ثلاثة   الشمس والقمر المنير وجعفر

ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ج1، ص: 364، ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي، ص: 66-67.

[2]- إقليم الزاب، يشغل المساحة الكبيرة الواقعة في جنوب جبال الاوراس وهي قواعد هذا الإقليم مبرنة طبنة الرومانية التي اندثرت ومدينة بسكرة التي تشهر بواحات النخيل، ثم مدينة المسيلة وعلى مقربة من بسكرة يوجد مقام الفاتح العربي عقبة بن نافع في واحة جميلة تعرف بسيدي عقبة، ابن خلدون عبد الرحمان، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا وتحقيق محمد بن تاويت الطنجي، الجزائر، 2007م، الحاشية، رقم 02، ص: 216.

[3]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 219.

[4]- المقريزي نقي الدين، اتعاظ الحنفاء ، ص: 175.

[5]- نفسه، ص: 175.

لما يئس المعز من ردود جعفر التفت إلى بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي[1] يعرض عليه الملك من بعده، وقد عرف هذا الأخير كيف يكسب هذا العرض المغري حيث تظاهر بعدم القبول قائلا: «يا مولانا، أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح».[2]

اغتبط المعزّ لجواب جعفر بن علي، واعتبره راع لمصالح الفاطميين في بلاد المغرب وعهد إليه بالإمارة[3] وأوصاه عند توديعه بالسهر على تحقيق ما يشفي غليل المعزّ، حيث يدل علامة على حقد ومرارة ظل المعز يتجرعها وهي قوله: «اشفيني في أولاد المجوس زناتة ومزاتة»[4]

وأضاف قائلا: «إن نسيت شيئا مما اوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولي أحدا من إخوتك وبني عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوصى بالحضر خيرا».[5]

لقد كشف بلقين بن زيري عن سياسة ماهرة في الرد على المعز، إذ يدل ذلك على نضوجه السياسي ووعيه الدبلوماسي، مما يدل على دهائه وكياسته التي اكتسبها من والده الذي عرف كيف يتماهى مع سياسة الفاطميين. لم يكن ذلك الحوار الهادئ الذي أبداه بلكين ،والمفعم بعبارات الولاء سوى تحين الفرصة المواتية التي أنبجست أولى تباشيرها حين أعلن المعزّ رحيله عن المغرب، فتظاهر بالخوف من هذه المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، وهي ولاية إفريقية والمغرب، لما فيها من فوضى

---

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 272.

[2]- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص: 89.

[3]- الدرجيني أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلالي، مطبعة البعث، قسنطينة، ج02، ص: 138.

[4]- نفسه، ج02، ص: 138.

[5]- ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب، ص: 65.

سياسية واضطرابات اجتماعية وتجاذبات مذهبية، فهي لم تصف لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف تصفوا ليوسف بلقين وهو صنهاجي بربري.[1]

لم تكن هذه السياسة التي انتهجها قادة بنو زيري بدعا في تعاملهم مع الفواطم، فهم قد أظهروها كسياسة ولياقة منذ وقت مبكر، حيث آثروا الاستمرار في سياسة تجنب الاصطدام معهم،وذلك حتى يقوى عودهم فالدعوة الفاطمية في بلاد المغرب نشأت بين ظهراني كتامه[2] وجبالها الذين بذلوا جهودا مضنية في مؤازرة الدولة الفاطمية، الناشئة لذلك كانوا هم عصبها وسر قوتها.[3]

كان هناك خلاف بين المعز الفاطمي وجعفر بن علي بسبب الالتزامات المالية التي فرضها المعز على ولاية المسيلة، إذ فرض على أهل المسيلة من بني برزال ضرائب يدفعونها، وكان هؤلاء أولياء جعفر[4]، وزادت هوة الخلاف لما شاع في المغرب من أن المعز سوف يعطي ولاية إفريقية والمغرب كله لزيري بن مناد الصنهاجي. وبالرغم من ذلك فإن المعزّ لم يعزل جعفر بن علي. إلا أن زيري بن مناد أراد أن يوسع من هوة الخلاف بين المعزّ وجعفر، وأخذ يرمي هذا الاخير بالميل إلى زناتة، وظل يسعى إلى تقديم الدليل الملموس حتى استولى على رسائل بخط جعفر بن علي كانت مع محمد بن خير[5]،

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 221.

[2]- كتامة : قبيلة من قبائل البربر بالمغرب وأشدها بأسا وقوة وأطولهم باعا عند نسابة البربر، هم من ولد كتام بن يونس ويقال كتم ونسابة العرب يقولون أنهم من حميّر كما عند ابن الكلبي والطبري وأول ملوكهم افريقش بن حنيفي من ملوك التبابعة وهو الذي افتتح إفريقية وبه سميت وقتل ملكها جرجير .ويقال أقام بين البربر من حميّر صنهاجة وكتامة وتتبعوا بعد ذلك في المغرب وانبثوا في نواحيه وكانت أكثر سيادتهم ومجال تقلبهم مثل: ابكجان، وسطيف، وباغية، ونقاوس، ويكزمة، ويتكست وميلة، وقسنطينة، والقل وجيجل من حدود جبال الأوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة، ابن خلدون،المصدر السابق ج06، ص: 174-175.

[3]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 259.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 53.

[5]- محمد بن خير: بن أكبر ملوك زناتة وأكثرهم جمعا، وأشجعهم جندا، وأشدهم إخلاصا لنبي أمية، كانت بينه وبين زيري بن مناد حروب عظيمة، إلى أن كانت الأيام التي نزل فيها زي بن مناد مدينة أثير واجتمعت إليه صنهاجة، فجمع له محمد بن الخير جمعا عظيما من زناتة، وفي ربيع الآخر من سنة ستون وثلاثمائة دارت بين زناتة وصنهاجة، تفوق فيها جيش بلكين فلما أبقى محمد بن الخير أنه قد أحيط به وأيقن بالموت مال إلى ناحية فذبح نفسه بسيف، واستمرت الهزيمة على قومه سحابة=

هذه الشخصية الزناتية التي كان لها مع بني زيري حروب ووقائع عظيمة ،انتهت بمقتله بعد أن إتّكأ على سيفه حتى لا يقع في قبضة بني زيري[1]، فغضب المعزّ على جعفر فكتب إليه يأمره بالقدوم إليه، بمعية أهله وماله وولده، فتفطن جعفر لهذه المؤامرة التي حاك خيوطها زيري بن مناد الصنهاجي.

وكان مما أثار توجسه وخوفه من المعزّ لدين الله هو ما ورد في الكتاب من إشارات توحي بالغدر الذي يضمره المعز له، منه تعزيته بفقد محمد بن الخير الفرس التي كان يمتطيها ، فهي الفرس التي أهداها المعز لجعفر و أعطاها هو بدوره لمحمد بن الخير يقول أبن حيان: «وكتب إليه في فصل من كتابه يعزيه عن محمد بن الخير خليله متقرّعا له، ويخبره عن الفرس التي ذكرنا صرف زيري فقال له: أعظم الله أجرك في خليلك فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا».[2]

أدرك جعفر مرامي الغدر التي تخبؤها هذه السطور، وأيقن أن مصيره الهلاك، إذا ما أتى المعز فيمم نحو وجهة أخرى بعد أن أوهم أعداءه بالمسير نحو المنصورية.[3]

=ذلك اليوم وقتل في هذه الوقيعة بضعة عشر أميرا من زناتة وحزن الحكم بهذه الهزيمة .أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 108، ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي، العصر الوسيط، ص: 154-155.

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 26، سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص: 279.

[2]- ابن حيان، نفسه، ص: 24.

[3]- المنصورية: وتعرف باسم صبرة وتقع على بعد نصف ميل من القيروان بناها الخليفة الفاطمي إسماعيل المنصور سنة 337هـ-1948م تخليدا لانتصاره على ثورة أبي يزيد الخارجي، وعند الحميري بنيت سنة 330هـ- 1941م، عمر أسواقها واستوطنها وصارت مقر الولاة والملوك إلى حين خرابها. وإليه نقل إسماعيل الأسواق وجميع الصناعات يقول عنها البكري: «مدينة صبرة متصلة بالقيروان بناها إسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة واستوطنها وسماها المنصوبة وهي منزل الولاه إلى حين خرابها ونقل إليها معد ابن إسماعيل أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات ولها خمسة أبواب:

- الباب القبلي.
- الباب الشرقي
- وباب زويلة.
- وباب كتامة وهو جوفي.
- وباب الفتوح

ومنه كان يخرج بالجيوش» البكري أبو عبيد المالك والمماليك، ج02، ص: 198، الحمري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 550.

وهو كان يحث الخطى نحو بلاد زناتة إلى أن وصلهم وقابلوه بما يليق به مقامه عندهم بالتكرمة والتجلة، واحتضنوه[1]، وملّكوه عليهم عداوة لزيري، وقبل أن تنظم زناتة تحت قائدهم الجديد سار زيري إليهم في جيش عرمرم من صنهاجة وغيرهم من القبائل المتحالفة من قبائل البرانس إلى المكان الذي اجتمعت فيه بطون زناتة مع جعفر بن علي[2]، والتقى الجمعان في رمضان سنة 360هـ-1071م ودارت آلة الحرب وكانت عنيفة، فكبا بزيري فرسه فقتل مع كثير من رجاله واستولى الزناتيون على جميع معسكر زيري وبذلك أدركوا ثأرهم من قبيلة صنهاجة حليفة الفاطميين، وكان بالنسبة لهم ثأرا قد أنجزوه وفاء لقائدهم الصريع محمد بن الخير، يقول ابن حيان: «وكانت هذه الوقيعة من أعظم الوقائع وأبعدها صيتا وأشنعها ذكرا، احتوى الزناتيون بها على عسكر زيري وأثخنوا القتل في مجموعه وأدركوا ثأرهم المنيم منه»[3] وانتهت المعركة بهزيمة صنهاجة وقتل زعيمهم زيري واحتز جعفر رأسه وأمر أخاه أن يسير نحو الأندلس رفقة وفد هام من وجوه زناتة مصطحبين معهم رأس زيري وهم نحو مائة[4] ولم يمكث جعفر بعدهم إلا بعد أن اضطرته الظروف، أي شهر واحد من وصول أخيه إلى قرطبة.[5]

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى الاسباب القاهرة التي اضطرت جعفر إلى اللحاق بركب زناتة نحو الأندلس، فابن حيان يرى أن اعتزام جعفر بن علي بن حمدون على الرحيل إلى الأندلس هو خوفه من غدر زناتة الذي لمس فيهم ندمهم على قتل زيري بن مناد وفي هذا يقول: «وقد لحقت جعفر بن علي في مقامه لديهم مخافة من مكرهم وشرهم فاعمل الحيلة في باطنه حتى انحاز إلى الأندلس فعبر البحر في مركب اتخذه عدة لنفسه فتم له ذلك ووصل الأندلس»[6] أما ابن الأثير فيورد

---

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 145.

[2]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج04، ص: 307-308.

[3]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 24.

[4]- نفسه، ص: 253.

[5]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج08، ص: 625.

[6]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 25-26.

سبب رحيل جعفر إلى الأندلس بشيء من التفصيل: «... ورأى جعفر من زناتة تغيّرا عن طاعته وندما على قتل زيري فقال لهم إن ابنه يوسف يكرس لا يترك ثأر أبيه ولا يرضى بمن قتل منكم، والرأي أن نتحصن بالجبال المنيعة والأوعار، فأجابوه إلى ذلك فحمل ماله وأهله نحو المراكب وبقي هو مع الزناتين وأمر عبيده في المراكب أن يعملوا في المراكب فتنة، ففعلوا وهو يشاهدهم من البر، فقال لزناتة: أريد أن انظر ما تسبب هذا الشر فصعد المركب ونجا معهم وسار إلى الأندلس إلى الحاكم الأموي فأكرمه وأحسن إليه، وندمت زناتة كيف لم يقتلوه ويغنموا ما معه»[1] وكذلك ينسج إبن أبي دينار في كتابه المؤنس على منوال من سبقه إذ يقول : «ولما علمت زناتة أن يوسف بن زيري يطالبهم بدم أبيه أظهرت الغدر بجعفر وعزموا على إمساكه فلما أحس بذلك فرّ إلى الأندلس بأهله وأولاده فقبله الحكم وأجرى عليه الوظائف»[2] إلا أن الأستاذ محمد عبد الله عنان لا يقف عند هذه الحادثة إلا ليذكر سبب الجواز وهو الخوف من انتقام صنهاجة كما في قوله: « هاجر جعفر و يحي في الأهل و الصحب و المال إلى الأندلس خوفا من انتقام صنهاجة، و خدما الحكم المستبصر وحظيا في دولته»[3].

إن خوف جعفر ومن معه من بطش زناتة لا يختلف فيه اثنان، وهو ما بينه هو بنفسه عندما اعتزم الرحيل، ولكن يأسه في التفاف زناتة حوله مرة أخرى لمواجهة بلكين بن زيري بسبب ما لمسه فيهم من ندمهم على قتل زيري، هو الذي عجل برحيله إلى الأندلس خوفا من قتلهم إياه، لذلك عمل الحيلة حسب نص بن حيان .

[1]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 308.

[2]- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ص: 74.

[3]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 147.

لقد كانت حادثة مقتل زيري بن مناد نقطة تحول في تاريخ المغرب الأوسط، بدأ من شروع بلقين بن زيري في محاربة قبائل زناتة و إبادتهم انتقاما بمقتل أبيه زيري[1]، وقد نبّه جعفر قبائل زناتة إلى هذا الانتقام ،على إعتبار أنّ أعرف بشخصية بلقين بن زيري بأنه لا يترك ثأرا بيه.[2]

وقد وصف صاحب المفاخر هذه الحملة بقوله: «فأوغل في ديار زناتة وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقا لا يحصيه إلا الله، واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاي[3]، وبجاية وبسكرة وجميع المدن بالمغرب حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر، ثم انتحى مع بواديها وصحاريها بها فقتل من زناتة وهوارة ونفزة، وجميع أصناف البربر الخصاصين عالما لا يعلمه إلا خالقه وجعل يقول: لا أمان عندي لبربري ركب فرسا أو نتح خيلا أبدا حيث ما يسلك من البلاد، فأجفلت قبائل البربر قدامه وأقصرت من معارضته».[4]

جواز بني برزال إلى الأندلس:

كان لحادثة مقتل زيري بن مناد انعكاسات خطيرة على المنطقة ،وزاد اختفاء جعفر بن علي، وجوازه نحو الأندلس في إثارة غضب الصنهاجيين وعلى رأسهم بلقين بن زيري، واستطالوا على ما كان من حاشية جعفر، واستباحوا دماءهم[5]، ولم تشفع لزناتة ندمهم على قتل زيري.

وكان بنو يزرال من القبائل التي وقفت إلى جانب جعفر بن علي في مواجهة الصنهاجيين إذ كانوا يمثلون العمود الفقري لطائفة زناتة.

---

[1]- Paul luis cambuzat l evolution des cites du telle en afrikya du telle en Ifriquia du VII au Xi siècle, offre des publications et universitaires, 1986, tome I, p 124

[2]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 308.

[3]- باغاي: مدينة ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح وهي قرينة من جبل الاوراس بالمتصل بالسوس وبهذا الجبل أعتصم فيه أبو يزيد مخلد بن كيداد النفزي الزناتي النكاري ،وبه كان مستقر الكاهنة وبه قبائل هوارة ومسكيانة، البكري، المسالك والممالك، ج02، ص: 227، الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 76

[4]- أبو علي صالح الايلاني، المصدر السابق، ص: 109-110.

[5]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 268.

وعند مغادرة جعفر أرض المغرب شعر بنو بزرال الزناتيين باشتداد وطأة صنهاجة [1]، وأيقنوا أن ذلك سوف يفتح شهية الانتقام من بقايا زناتة في بلاد المغرب وبخاصة أنهم كانوا طرفا أساسيا في متقل زيري الذي مثلوا بجثته وحملوا رأسه إلى أعدائهم من المروانيين بالعدوة الأندلسية.

وخوفا من بطش صنهاجة عمد بنو برزال إلى إخطار جعفر بن علي بن حمدون يهيبون به أن يسعى في جوازهم إلى الأندلس لدى الحكم المستبصر بالله ،فلم يتوان جعفر في تلبية رغبتهم، وهم من كان ظهيرا وسندا له في حربة مع صنهاجة، وقد أظهروا بسالة وشجاعة عزّ نظيرها مع الفصائل البربرية المقاتلة. وكان وصفه لهم لدى الحكم المستنصر بأنهم مقاتلون أشاوس جبلوا على الانقياد والطاعة، كافيا للالتماس القبول ،حيث لم يتردد الحكم في الموافقة على استقدامهم وضمهم إلى صفوف جيشه، حيث كان الحكم يسعى إلى تطعيم جيشه بالعناصر البربرية القوية لمجابهة أعدائه سواء الحدود الشمالية مع الفرجة، أو العدوة المغربية لمقارعة بقايا فلول الفاطميين وحلفائهم من سكان المغرب ومن يولونهم من صنهاجة ،فانخرطوا في صفوف جيش الحكم تحت أمرة جعفر بن علي الأندلسي، الذي اخلص لهم، ووفى لهم بما قدموه من تضحيات بمعية في إلحاق الهزيمة بصنهاجة الذين افدوا ما بينه وبين الفاطميين، نسعى لهم لدى الحكم وساعدهم على العبور إلى الأندلس.[2]

وفي النص الموالي الذي أورده ابن حيان يلخص لنا بمهارة عجيبة الدور البطولي لبني برزال وجوازهم وموقف الخليفة منهم ومن نحلتهم الدينية كل ذلك في آن واحد قوله: «... فاستكمل بهم فئة بربرية رائقة ضخمة تعززوا بالمستأمنين قبل إليه من صيابة[3] بني برزال المقدمين على جماعتهم في

---

[1]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 147.

[2]- أرزقي فراد، المرجع السابق، ص: 78.

[3]- صيابة: أصيل القوم والصياب الخالص من كل شيء، والصيانة الخيار من كل شيء وصوابه مومه أي صميمهم وخالصهم وخيارهم. ابن منظور، المصدر السابق، ج 7-8، ص: 311.

البأس والنجدة وهم الذين كانوا ضامنو بني علي في لقاء زيري بن مناد الصنهاجي أمير معد على المغرب وأتيح لهم قتله»[1].

يفهم من هذا النص أن الحكم المستنصر كان على معرفة من هؤلاء البربر من بني برزال وشجاعتهم في الحرب، لذلك ظل يتطلع إلى استقدامهم حتى كانت الفرصة المواتية حين اقتتلوا مع صنهاجة الموالين للفاطميين، وَقَتْلِهِم زيري بن مناد وكان ذلك أعظم انتصار على الفاطميين في نظر الحاكم المستنصر لذلك فتح الباب على مصرعيه أمام هذه الفئة من البربر وهذا ما يؤكده ابن حيان في بقية حديثه حول انحياز بني برزال إلى الأندلس.

«فانحازوا إلى الأندلس باستدعاء من الخليفة الحكم لهم ومضمون حسن قبول وواسع عطاء وفي لهم بهما، فآوى وأحسن ونوه وقدم ذلك وقد أغمض فيهم على عوراء نحله تبعدهم عنه على تسننه واستداده في حفظ دينه ومعرفته بخارجيتهم واعتقادهم للمقالة النكارية من الفرق الإباضية[2] التي تفرد بها إمامهم أبو زيد مخلد بن كيداد[3] القائم على الشيعة فتقبلهم معرضا عن نحلتهم الدينية»[4].

---

[1]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 150.

[2]- الإباضية: فرقة من الخواج، أصحاب عبد الله بن إباض من بني مرة بن عبيد من بني تميم رهط الأحنف بن قيس، ولها مواقف إزاء مخاليفيهم من المسلمين، وقالوا ان مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون وقولهم أيضا: أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثا وإبداعا، وأن مخالفيهم من المسلمين بإزاء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين، وبانهم كفار، وأجازوا شهادتهم، وحرّموا دماءهم في السرّ واستحلوها في العلنية. البغدادي عبد القاهر عن طاهر الفرق بين الفرق، ص: 103، الشهر ستاني أبو الفتح الملل والنحل، ج1، ص: 146.

[3]- مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن ورنمت بن جعفر بن سميران بن يفرن بن جانا وأمه أم ولد اسمها سيكة المعروف بصاحب الحمار القائم بافريقية على أبي القاسم الشعبي، أشهر سيفه في وجه الفاطميين تغلب على القيروان ورقادة وعملهما، وكان له في القيام عليهم وقائع شنيعة وكانت منطلقاته من جبال الأوراس وجعل من قلاع هوارة منطلقات لثورته مال إلى النكارية منذ شبابه وأخذ علم أيام ممارسته تعليم القرآن للأطفال في ظل الرستميين في تاهرت وبما صارت مدينة تاهرت للفاطميين عاد إلى الجريد ليشرع في تأنيب السكان ضدهم، ابن عذاري، المصدر السابق، ج02، ص: 209-212، ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 18.

[4]- إبن حيان، المصدر السابق، ص: 150.

يستخلص من نص بن حيان أن الحكم المستبصر وبالرغم من أن هذه الفئة من البربر لم تكن على مذهب أهل الأندلس إلا أنه غضّ الطرف عن نحلتهم الدينية: وهو يعلم ما تحمله هذه النحلة من مخالفات لمذهبه المالكي، وخصوصا فيما يتعلق بالمحاكم فهم يعتبرون مخالفتهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار بغي وأجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم[1]، إلا أنه غضّ الطرف لا شيء سوى أنه أراد أن يغيض الفاطميين وحلفاءهم من بني زيري ويستعين بهم عليهم لما علمه من قدرة على القتال وشدة الميراس.

وعلى أيّة حال فإن بني برزال وقادتهم بقوا أيام الحكم مرموقين بعين التجلة والاحترام إلى أن حدث في السياسة الأندلسية ما دعا المنصور بن أبي عامر إلى الاستعانة بجعفر وشيعته بني برزال من زناتة على منافسيه من رجال الدولة فلما قضى عليهم وتخلص من كل مناوئ قدير عمد إلى جعفر فقتلا سنة 364هـ-974م، وقبل أن يبطش بيحي فر هذا الأخير إلى مصر، فنزل على العزيز بن المعزّ[2] إلى أن مات هناك.[3]

قيام إمارة بني برزال في قرمونة:

سبق وأن أشرت في معرض حديثي عن الفتنة القرطبية أن هؤلاء البربر البرزليون قد أبلوا البلاء الحسن في ترجيح كفة النصر لصالح سليمان المستعين. ففي موقعة وادي آره التي دارت رحاها بين المهدي وحليفه واضح الصقلبي سنة 400هـ 1009م وبين سليمان المستعين وأنصاره البربر، كان البرزليون في صفوف جيشه واستشهد منهم ومن بني يفرن سبعة عشر فارسا.[4]

---

[1]- الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص: 146.

[2]- العزيز بن المعز: تولى الخلافة بعد أبيه سنة خمسة وستين وثلاثمائة، وهو نزار بن المعز ولقب بالعزيز بالله أقر بلقين بن زيري على ولاية إفريقية، وأضاف إليه ولاية عبد الله بن يخلف الكتامي، وهي طرابلس، وكانت للعزيز حروب دامية في بلاد الشام، ضد المتمردين وجيوش الروم. ابن خلدون عبد الرحمان، ج04، ص: 62.

[3]- عبد الرحمان الجيلاني، المرجع السابق، ص: 214

[4]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 85.

ولما استتب لسليمان الأمر في قرطبة، شرع في مكافأة البربر جزاء لما قدموه من أسباب النصر، وفي مقدمتهم بنو برزال الذين أقطعهم مع بني يفرن ولاية جيّان.[1]

كما جدد لاسحاق البرزالي[2] الإقرار بولاية قرمونة[3]، أما جيّان فقد صارت لبني زيري الصنهاجيين بعد أن انتزعها منهم حبوس بن ماكس.[4]

وفي سنة 404هـ-1013م أعلن عبد الله البرزالي استقلاله بقرمونة ودعا لنفسه فيها [5] ولم يلبث عبد الله البرزالي ان دخل في دوامة المناوشات التي ابتدأها حكام الأقاليم خلال الفتنة القرطبية، كلّ يذود عن حدوده.[6]

يقول ابن الخطيب واصفا هذه النزاعات بين حكام الأقاليم ما مضمونه: «وكانت بينهم وبين جيرانهم من هذه الجهات حروب وخطوب يطول الكلام إن استقصيناها، وتوفي رئسهم هذا محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من طعام، لم يجمعه أمير قبله في الفتنة وصار أمره إلى ولده إسحاق».[7]

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 119.

[2]- إسحاق البرزالي: هو إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي، كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية، تخلى بشعبة من شعب الكتابة ، ويضبط شيئا من الحساب ويقرأ الدفاتر الغريبة، وهو دون أبيه، في الفظاظة والقسوة، وأذهب منه في فرط العصبية وكلاهما موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد آفة الملوك الثانية، وكان على المذهب النكاري الإباضي الخارجي، ابن الخطيب وأعمال الإعلام، ص: 237.

[3]- قرمونة: مدينة بالأندلس في شرق إشبيلية وبينها وبين استجة خمسة وأربعون ميلا وهي مدينة قريبة وهي باللسان اللاتيني (كارب مويه) وهي في سفح جبل عليها سور حجارة تثلّم في الهدنة ثم بني في الفتنة، وهي مدينة محصنة من جميع الجوانب عدا الجهة الغربية وبها جامع حسن البناء فيه سبع بلاطات على أعمدة رخام وأرجل صخر، وسوقها جامع يوم الخميس وبها حمامات ودار صناعة، وبداخل قرمونة آثار قديمة للأول وتحيط بها قرى كثيرة ذات مياه غزيرة وعيون وأبار. الحميري، المصدر السابق، ص: 461. البكري أبي عبيد، المصدر السابق، ج02 ص: 381.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 229.

[5]- ابن عذاري المراكشي، نفسه، ج03، ص: 311.

[6]- شريفة رحماني، المرجع السابق، ص: 132.

[7]- ابن الخطيب، نفسه، ص: 237.

ومهما يكن من أمر فإن الصراع في المنطقة الجنوبية التي أنزوى فيها البربر قد احتدم بين حكام الأقاليم بغرض المحافظة على كياناتهم الناشئة .

وكثيرا ما انتهت المغالبة بينهم إلى مجابهات مسلحة، انتفت معها الانتماءات العصبية، وأحيانا اخرى تكون التوازنات على أساس العصبية.

وفي الواقع أن مجموع هذه الدويلات الإقطاعية سواء منها البربرية، أو الأندلسية او العامرية، لا ترقى إلى مستوى لفظ إمارة او دولة، لما يحمله هذا اللفظ من معنى وشحنة دلالية، وذلك لانتفاء الشروط المادية والمعنوية التي تجعلها قمينة بهذا اللقب، وهي بالأساس لا تتوفر من حيث التنظيم على عناصر الدولة، وهي في حقيقة الأمر لا تعدوا ان تكون عبارة عن وحدات إقطاعية او عصبيات الأسر القوية. [1]

[1]- عبد المجيد كمال، الفكر الأندلسي بين الطموح والانتكاسة، ص: 32.

بنو يفرن في جنوب الأندلس

بنو يفرن في بلاد المغرب:

ينسب بنو يفرن إلى شعوب زناتة، ويعدّون من أوسع بطونها [1]، وهم حسب أبي محمد بن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب، أن بني يفرن هم من بني يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديدات بن شانا وهم إخوة مغراوة لكون مغراوة ويفرن أخوين وأبوهما يصلتين [2]، ومغراوة هؤلاء يمثلون قبيلا واسعا من زناتة، وكان لهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق، وهم الذين هاجر أميرهم صولات بن وزمان[3] ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعقد له على موضعه ووطنه.[4]

والمتعارف عليه أن بطون بني يفرن عديدة منهم: واركو، وهم إخوة مرنجسة بن يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن وارسيك بن الديرت، ولبني واركو حظور قوي في بلاد المغرب، إذ هم من ظاهر أبا يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار في حربه ضد الفاطميين [5]، ومرنجيسة[6]، وبنو وايسين[7] وبنو يفرن من القبائل الرئيسية التي اندثرت في منطقة ما بين نهر الشلف ونهر الملوية إلى

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج7، ص: 15.

[2]- ابن حزم أبو محمد، جمهرة أنساب العرب، ص: 498.

[3]- صولات بن وزمار: الوافد على عثمان بن عفّان رضي الله عنه افتقاد برا وقبولا لهجرته إليه وعقد له على قومه ووطنه، وانصرف إلى بلاده محبورا بهذا اللقاء، مغتبطا بدينه الجديد واختص صولات وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية، وكانوا خاصة بهم دون قريش، وظاهروا دعوة المروانة بالأندلس رعيا لهذا الولاء .أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 107، ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 34.

[4]- ابن خلدون ، نفسه، ج07، ص: 34، الميلي مبارك، تاريخ الجزائر، ص: 581.

[5]- ابن خلدون، نفسه، ج07، ص: 16-32.

[6]- مرنجيسة: من بطون بني يفرن بضواحي افريقية كانت لهم كثرة وقوة وهم ممن ظاهر أبا يزيد مخلد بن كيداد، وعندما تمت تصفيته، انفرد بهم الشيعة الفاطميون، ونكلوا بهم إلى أن تلاشوا وأصبحوا في الغابرين، ابن خلدون، نفسه، ج07، ص: 32.

[7]- بنوا وايسين: إخوة مغراوة وبني يفرن، وهم من بني ين وارنتين بن وارسيك بن جانا إخوة مسارة وتاجرت، ومن بني واسين تفرعت بطون كثيرة منهم بنو مرين أكثر هذه البطون عددا وأقواها سلطانا، ومنهم بنو عبد الواد وبنو توجين، ابن خلدون، نفسه، ج07، ص: 78-79.

جانب قبيلة مغراوة وفي كتاب الراشدي: « هاتان القبيلتان كانتا أكثر عددا وأقوى ملكا وجندا، وقوى تصرفهم في بلاد المغرب»[1].

وظل بنو يفرن يكتسبون مناطق واسعة من بلاد المغرب، واستقر قسم منهم في المنطقة الواقعة بين غرب طرابلس حتى إفريقية وهي مواطنهم التي اشتهروا بها، وعرفت في المصادر العربية بوطن زناتة[2] وهي مناطق تتخللها الكهوف والمغاور[3] وهي من غير المستبعد أن يكون اسم القبيلة مشتق من كلمة كلمة (إفرو) البربرية التي تحمل بين معانيها الكهف أو المغارة[4] ،وقد أكدّ ابن خلدون هذا المعنى حين حين قال: «ويفرن في لغة البربر هو الغار».[5]

وفي المناطق الشرقية من المغرب الأوسط، كان لبني يفرن انتشار واسع حيث استقر إلى جانب واركو ومرنجيسة بالجريد وجبال الأوراس، ونزح فريق منهم إلى الجنوب تحت ضغط الهلاليين.[6] إلا أن المجموعات الكبيرة من بني يفرن فضلت الاستقرار في المناطق الغربية من المغرب الأوسط، حيث استقر هؤلاء جنوب وهران إلى جبل عين راشد[7] وجاورتهم في هذه الربوع قبائل مغراوة، ومغيلة، ومديونية وجراوة، وودانة ومطغرة.[8]

---

[1]- الراشيدي احمد بن عبد الرحمان، المصدر السابق، ص: 51.

[2]- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1964م، ص: 294.

[3]- رضوان البارودي، المرجع السابق، ص: 314.

[4]- هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4 هـ-10 م، مكتبة فضالة المحمدية، 1415هـ-1991م، ج02، ص: 131.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 15.

[6]- الميلي مبارك، المرجع السابق، ص: 584.

[7]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 17.

[8]- البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 142.

وخلال القرن الرابع الهجري حين كان الصراع على أشده بين زناتة المؤيدة من قبل المروانيين وصنهاجة المحالفة للفاطميين، زحف بنو يفرن باعتبارهم زناتيين نحو المغرب الأقصى واستقروا بمنطقة سلا على المحيط الأطلسي وتادلة.[1]

ومما تقدم نستنتج أن بني يفرن كان لهم سعة انتشار في المجال الجغرافي للمغرب الأوسط، وإن تواجدهم في هذه الأقاليم مكنهم من مجاورة قبائل زناتية مختلفة، ولعلّ هذا التنوع هو الذي أعطى تحركاتهم روح المنافسة والقدرة على الانتشار والتوسع.

وكانت نحلتهم الدينية على المذهب الخارجي الصفرى[2]، الذي نزح أصحابه إلى بلاد المغرب فرارا من بطش الخلافة الأموية، وعملوا على بث عقائدهم في نفوس البربر التي كانت مهيأة سياسيا واقتصاديا لقبول دعوى الخوارج.[3]

---

[1]– تالة: تقع على الضفة اليمنى لوادي ام الربيع اشتهرت بتربية الأغنام وبجودة الأصواف ويعرف إقليمها بإقليم غزاز، الصديق العربي، المرجع السابق، ص: 91.

[2]– المذهب الصفري: هم أصحاب زياد بن الأصفر، وأقوالهم في الجملة كأقوال الأزارقة، إلا أنهم خالفوهم كما خالفوا النجدات النجدات والإباضية في أمور منها في أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا على الدين والاعتقاد، ولم يسقطوا الرحم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار، وقد زعمت فرقة من الصفرية أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلا بالاسم الموضوع له، كزان، وسارق، وقاذف، وقاتل عمد وليس صاحبه كافرا ولا مشركا، وكل ذنب ليس فيه حد كترك الصلاة والصوم فهو كفر وصاحبه كافر وفرقة أخرى قالت أن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي فيحده، وبناء على هذه التقديرات ظهرت ثلاث فرق صفية:

- فرقة تزعم أن صاحب كل ذنب مشرك.
- الكفر واقع على صاحب ذنب ليس فيه حد والمحدود خارج عن الايمان.
- اسم الكفر يقع على صاحب الذنب أحده الوالي على ذنبه.

البغدادي عبد القاهر، المصدر السابق، ص: 90-91، الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص: 147.

[3]– محمود إسماعيل، عبد الرازق الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1406هـ-1985م، ص: 35، يوبيوس فلهوزت، الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمان يروي وكالة المطبوعات الكويت، 1976م، ص: 67.

لم يكن بنو يفرن وحدهم ممن اعتنق المذهب الصفري الخارجي، بل أخذت به غالبية بطون زناتة كبني واسين، وبنو دمر وبطون مغراوة[1]، إلا أن بني يفرن كانوا في مقدمة من انظم إلى المذهب الصفري، وضربوا فيه بسهم وافر منتحلين المذهب ومقاتلين عليه .

والجدير بالذكر فإن غالبية خوارج زناتة كانوا من المغربين الأقصى والأوسط على مذهب الصفرية من الخوارج أما بطون زناتة بإفريقية فكان جلهم خوارج إباضية.[2]

وهذا لم يمنع انتشار المذهب الصفري بينهم أي في إفريقية، حتى أن بعض العرب المقيمين بإفريقية دانوا بالمذهب الصفري، وقد تسرب هؤلاء إلى المغرب صحبة الجيوش التي كان يرسلها الخليفة كإمدادات للفاتحين، حتى ذاع عن بعض الولاة اعتناقهم لمذهب الصفرى لما كانوا يبدونه من تعاطف مع أهل المذهب، فقد اتهم يزيد بن أبي مسلم بأنه من الخوارج الصفرية، وإن كان لم يستطع الجهر بذلك خوفا وتقيّة حتى قيل بأنه يعلم الحق ويكتمه.[3]

وكان لانتشار المذهب بهذه السرعة بين سكان المغرب أسباب ودواعي يقول احد الباحثين في تاريخ المغرب الوسيط: «إن أسباب ظهور المذهب الخارجي وانتشاره في بلاد المغرب يرجع بالدرجة الأولى إلى السياسة الإدارية السيئة التي انتهجها بنو أمية في بلاد المغرب، وإلى طريقة معاملة البربر المسلمين».[4]

ويستنتج مما تقدم أن اعتناق البربر للمذهب الخارجي بهذه الحماسة، والإقبال والمنافحة عليه، بمونه الإطار الروحي والسياسي والثقافي، الذي يخالف سياسة حكام بني أمية، وحتى بعض عقائدهم السنية، وهذا من شأنه أن يعطي للفرق الإسلامية، فرصة التمرد والرفض، يقول ابن خلدون: «ففشا

[1]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج07، ص: 11.

[2]- سنوسي إبراهيم يوسف، المرجع السابق، ص: 129.

[3]- محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص: 49.

[4]- موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص: 178.

في البربر المذهب الخارجي، وضرب فيه بنو يفرن بينهم وانتحلوه وقاتلوا عليه وكان أول من جمع لذلك فيهم أبو قرة من أهل المغرب الأوسط».[1]

وكانت هذه أولى المطايا التي ركبها البربر من بني يفرن، حتى يتخلصوا من حيف وظلم بني أمية الذين جنحوا إلى إثارة الخلاف بين العرب أنفسهم حين كان تعيين ولاة المغرب الإسلامي على أساس العصبية.

وحتى هؤلاء الولاّة لم يعاملوا قبائل زناتة معاملة تليق بهم: كقبائل وقفت إلى جانبهم، وبذلك تغيرت نفوسهم على العرب وشرعوا في الانقلاب عليهم، وتعصب بنو أمية للعرب دون سائر المسلمين.

وقامت زناتة بالثورة على ولاة بني أمية، ولم تكن هذه الثورة خروجا على الدين بل كان خروجا على السلطة الحاكمة التي خرجت عن تعاليم الدين ومنها المساواة[2] ،التي يراها كل مسلم مقياسا لشرعية الحكم من عدمه .

[1]- ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج 07، ص: 16.

[2]- سنوسي يوسف إبراهيم، المرجع السابق، ص: 131.

جواز بني يفرن إلى الأندلس:

يعد بني يفرن من المجموعات البربرية التي يمم أفرادها شطر العدوة الأندلسية أيام حكم عبد الرحمان الناصر، حيث توجهت أول مجموعة منهم سنة 347هـ-958م بعد مقتل الأمير يعلى بن محمد اليفريني الذي ملك مدينة تاهرت والمسيلة وتلمسان ومدينة البصرة[1] من بلاد المغرب[2] وهو من اختط مدينة أفكان[3] وكان يعلى بن محمد مواليا لبني أمية بالأندلس.

وهذا ما كان يزعج الفاطميين، وازداد قلقهم من تحركاته، بتخريب المدن وحرقها بغية تفويت الفرصة على الفاطميين كي لا يجعلوا منها مركزا أو قواعد ينطلقون منها ويرتكزون عليها، مثلما فعلوا بمدينة وهران حيث عمد يعلى عن تخريبها [4] وحرقها[5] فلم يجد الفاطميون بدا من التخلص منه فأوعز المعز لدين الله إلى قائده جوهر بتصفية الأمير يعلى بن محمد.

وكان جوهر عندما هم بالمسير إليه اضمر الخديعة والفتك به، حسب رواية ابن خلدون التي يقول فيها: «فلما فصل جوهر بالجنود بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفريني إلى لقائه

[1]- البصرة: أسسها الأدارسة في القرن الثالث الهجري اشتهرت بالازدهار والعمران حتى القرن الرابع الهجري ثم خربت ، وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حول موقعها، رجح البعض أنها كانت بين طنجة وفاس وأنها كانت تعرف ببصرة الكتاب لاشتهارها بتجارة الكتاب وتعرف بالحمرة لحمرة ترتبها وسورها مبني بالحجارة والطوب، وبها عشرة أبواب وجامعها سبعة بلاطات وبها حمامات، ونساء البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس في المغرب أجمل منهن.

قال أحمد بن فتح المعروف بالخزار التيهرتي:

قبّح الله اللهو إلا قينة بصرية في حمرة وبياض
في شكل مرجي ونسك مهاجر وعفاف سني وسمت إباضي
تاهرت أنت خلية وبرية عوضت منك ببصرة فاعتاضي.

البكري، المصدر السابق، ج02، ص: 293.

[2]- لسان الدين بن الخطيب، تاريخ المغرب الغربي، ص: 164.

[3]- إفكان: تقع قرب مدينة معسكر حاليا كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة رحل إليها خلق كثير من تاهرت ووهران ويلل اختطها يعلى بن محمد وهي على سفح جبل وعليها سور من الطوب واشتهرت بكثرة المساجد والأرجاء والحمامات، البكري أبو عبيد، نفسه، ص: 79، الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 51.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 24.

[5]- الراشيدي، المصدر السابق، ص: 52.

والإذعان لطاعته والانحياش إليه ونبذ عهد الأموية، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إفكان وأعطاه يد الانقياد وعهد البيعة عن قومه بني يفرن وزناتة فتقبلها جوهر وأظهر الفتك به وتحيز لذلك يوم فصوله من بلده وأسر إلى بعض مستخلصيه من الأتباع، وأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة وتقبض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة [1] فغص بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة وذهب دمه هدرا في القبائل وخرب جوهر مدينة إفكان».[2]

وفي الفترة التي قضى فيها يعلى بن محمد على يد جوهر الصقلي، وقيام ابنه يدّو بن يعلى غادرت جموع غفيرة بن بني يفرن أرض العدوة المغربية متوجهة نحو الأندلس.[3]

وللإشارة فإن يدو بن يعلى الذي تولى الأمر بعد أبيه و اتبع نهجه في بسط نفوذه غير عابئ بمضايقة الفاطميين ،فقد ملك الكثير من البوادي وكانت بينه وبين زيري بن عطية حروب عظيمة فكان إذا غلب يدّو دخل إلى مدينة فاس، وإذا غلب زيري أخرجه منها إلى أن كانت نهاية يدّو بن يعلى وذلك سنة 381هـ-991م.

وتتابعت مأساة بني يفرن بسقوط زعمائهم على يد الفاطميين تارة ،وعلى أيدي الزناتيين تارة أخرى، فبالأمس سقوط يعلى بن محمد الذي لم يكن سقوطه أمرا هينا إذ يحتمل على الأرجح أن يكون زعيما روحيا يلهب صدور أتباعه بروح الإقدام والاستشهاد.

لذلك كان سقوطه فاجعة لهم، وآثر فريق منهم مغادرة أرضهم إلى غير رجعة والاتجاه غربا إلى المغرب الأقصى ومنهم من توجه إلى الأندلس لائذين بحماية الأمويين ،أما المجموعة الثانية فقد دخلت بعد مهلك يدّو بن يعلى والتمثيل جثته.[4]

---

[1]- الهيعة: هاع يهاع ويهيع وهاعا رجل هائع لائع، وضعيف جزوز وامرأة هاعة لاعة أي جزوعة موجعة والهيعة صوت الصارخ للفزع وقيل الهيعة الصوت الذي تفزع منه مخافة من عدو. ابن منظور، لسان العرب، ج03 ص: 856.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 25.

[3]- ابن خلدون، نفسه، ج07، ص: 25.

[4]- لسان الدين بن الخطيب، تاريخه المغرب العربي، ص: 165.

يقول صاحب مفاخر البربر «إن سبب جواز بني يفرن مهلك أميرهم يدّو بن يعلى بيد جوهر ... وفتكهه به في عسكره بناحية شلف فهرب بنو يفرن ولحقوا بالأندلس، فكانوا يخدمون في عسكر محمد بن أبي عامر، فأقاموا بالأندلس إلى أمد الجماعة ونزول الفتنة المبيدة، فكسحوا في الفتنة كما فعل غيرهم واستقر أمرهم أخيرا بمدينة رندة وأحوازها وبلاد شذّونة وتاكرونا ومورور»[1].

ومع هذا لم تسلم قيادة بني يفرن مما لحق أبائهم من الغدر والقتل، فبعد اختفاء يدّو بن يعلى ظهر ابن أخيه حبوس بن زيري بن يعلى[2] الذي لم تدم رياسته طويلا حيث وثب عليه ابن عمّه أبو يداس بن دوناس[3] فقتله.

ومنذ ذلك الحين اضطبرت الأمور داخل الأسرة الحاكمة لبني يفرن، والتبست الأمور على رعاياهم وانقسموا فريقين قسم منهم يميل إلى إبقاء الإمارة في عقب يدو بن يعلى وأسرته و هؤلاء لم يكن ولاؤهم للمروانيين ،وقسم آخر مع القيادة الدائنة بالولاء للمروانيين، وكان هذا الاختلاف عليه[4] سببا في الانحياز إلى الأندلس.

يقول صاحب المفاخر «فاختلف عليه بنو يفرن واضطر إلى دخول الأندلس مستأ منا فيمن كان معه عند تلك الفتكة فجاء الجمع عظيم كانوا في الأصل في تكاثر هذه القبيلة».[5]

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن المهاجرين من بني يفرن نحو الأندلس كانوا في غالبيتهم من أبناء وأحفاد يداس بن دوناس بن محمد بن صالح اليفريني ومن والهم من اليفرنين ،في حين أن أبناء وأحفاد يعلى بن محمد استقروا ببلاد المغرب[6] وانضووا تحت رياسة الأمير حمامه بن زيري بن يعلى

[1]- أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 148.

[2]- حبوس بن زيري بن يعلى، هو أنو يدّو بن يعلى وقد خلفه على رأس بني يفرن بعد انهزامه أمام زيري بن عطية، أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 127.

[3]- يداس بن دوناس، ابن عم حبوس وهو من وثب عليه وقتله، وهو عائد إلى الأندلس بعدها اختلف عليه قومه، نفسه ص: 127.

[4]- نفسه، ص: 127.

[5]- نفسه، ص: 128.

[6]- رضوان البارودي، المرجع السابق، ص: 359.

يعلى واتخذوا من مدينة سلا عاصمة لهم، وانقضت أيامهم في مجابهة المغراويين وجهاد برغواطة المارقين على أيام أبي الكمال تميم[1]، الذي استأصل شأفتهم وقهر ضلالتهم وإستوطن ديارهم، وظل عقب بني يفرن على هذه الحال، إلى كانت نهايتهم على يد المرابطين الذين دخلوا مدينة فاس سنة 462هـ-1070م وبذلك أفل نجم اليفرينيين في بلاد المغرب كما أفل نجم يقيتهم في رنده جنوب الاندلس على يد المعتضد بن عباد.

بنو دمّر وبنو خزرون في بلاد المغرب:

ومن هذه الإمارات الصغيرة المنزوية في جنوب الأندلس بنو دمر وهم من البطون الزناتية التي يجمع المؤرخون على سلسلة نسبهم إلى جانا أبو زناتة[2] وقد تفرعت عن بني دمّر بطون كثيرة منهم: بني ورنيدين أو ورنيد، وبني ورتانين، وبني غزرول، وبني ورغمة، وبني صغمار، وبني يطوفت وبني بزرال[3] والجدير بالإشارة أن هذه البطون لم تنسب إلى أسمائها بل نسبت إلى بني دمر دون ذكر البطون والأسماء والأفخاذ ما عدا بني برزال التي ذكرت باسمها دون نسبها إلى بني دمر في كثير من كتب المؤرخين ،الأمر الذي دعى إلى الاختلاف حول نسبها.[4]

وبني ورنيد الذين هم من أصلاب بني دمر سكنوا في الجبل المشرف على تلمسان، انتقلوا إليه من السهوب الجنوبية بسبب ضغوط بني راشد الذين كانوا مزاحمين لهم في تلك السبائط.

---

[1]- أبو كمال تميم: هو تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح أبو الكمال اليفرني دفين شالة وتحكى حاليا شالة كانت بينه وبين حمامة بن المعز بن عطية المغراوي حرب أنهزم فيها هذا الأخير وفر إلى تلمسان، ودخل تميم مدينة فاس وأعاد حمامة الكرة عليه وانصرف تميم إلى شلا سنة 429هـ ومنها كان يشن الغابات على برغواطة، وتناقل المؤرخون إيقاعه باليهود أيام استلائه على فاس وقتل منهم ستة آلاف، توفي سنة 446هـ .البكري أبو عبيد، المصدر السابق، ج02، ص: 324-325، لسان الدين بن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص: 161.

[2]- ابن حزم، المصدر السابق، ص: 498.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 71.

[4]- سنوسي إبراهيم يوسف، المرجع السابق، ص: 78.

ومنهم من كان بجبال السلاّت بنواحي المسيلة [1] وفي إفريقية استقرت بطون كثيرة من بني دمر حيث سكنوا الجبل المقابل لجزيرة جربة والمجاور لقابس.[2]

وفيما بين تلمسان وتاهرت، انتشرت بطون عديدة من بني دمر، ففي مدينة الخضراء الواقعة على مقربة من تنس، أقام بنو دمر إمارة لهم في ضاحية قصر البخاري ،واتخذوا من تيملاص عاصمة لهم ،وفي عهد رئيسهم مصادف بن جرتيل بنو حصنا لهم يبعد مسيرة ثلاثة أيام من بلاد المتيجة.[3]

وكانت نحلتهم الدينية على مذهب الإباضية[4] إلا أن أبا محمد بن حزم الأندلسي صاحب الجمهرة، يذكر انهم من مجموع البطون التي اعتنقت مذهب المعتزلة[5] واستثنى منهم بني برزال وبني واسين وقال عنهم أنهم إباضية، وعن جمهور مغراوة وبني يفرن فسنية. [6]

وفي البحث الذي أعده سنوسي إبراهيم يوسف حول زناتة فيذكر أن غالبية بطون بني دمّر خوارج إباضية وهبية[7] ونكارية[8] فقد كانت بطونهم الضاربة في جبل دمر إباضية وهبية في حين يذكر يذكر التيجاني صاحب الرحلة، أنهم كانوا من الخوارج النكار وأنهم لم يكونوا يعرفون من الإسلام

---

[1]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 295.

[2]- نفسه، ج03، ص: 215.

[3]- الجلالي عبد الرحمان، المرجع السابق، ج1، ص: 207.

[4]- ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 295.

[5]- المعتزلة: فرقة من الفرق الإسلامية سميت بالمعتزلة ذلك أن واصل وعمرو بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن البصري واستقلا بأنفسهما في ناحية من المسجد بسبب اختلافها على الحسن ،بأن مرتكب الكبيرة لا مؤمن مطلقا بل في منزلة بين المنزلتين فسموا بالمعتزلة كما قالت عقيدتهم على نفي الصفات القديمة للذات الإلهية واتفقوا على أن العبد خالق لأفعال خيرها وشرها وتستحق على ما يفعل ثوابا وعقابا، الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، 65-66، احمد أمين، فجر الإسلام، ص: 288.

[6]- ابن حزم أبو محمد، المصدر السابق، ص: 418.

[7]- الوهابية: تنسب هذه الفرقة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم بن بهرام بن دوسار بن سابور بن ببكال بن سابور ذي الأكتاف الفارسي بويع بالإمارة بعد أبيه عبد الرحمان بمدينة تيهرت بنحو شهر، ومن هذه الفرقة خرجت عدة فرق كاليزيدية أتباع عبد الله بن يزيد والعمرية إتباع عيسى بن عمر واحمد بن الحسين، وللوهابيين ميل وتعاطف مع هذه الفرقة، ولقي الوهابيون معارضة شديدة من قبل النكّار وهم من معارضي إمامة عبد الوهاب بن رستم وكانت بين الفريقين، حروب دامية. ابن الصغير أخبار الأئمة الرستميين. ص: 44، الشماخي أبو العباس، كتاب السير، ج1، ص: 272.

[8]- سنوسي إبراهيم، المرجع السابق، ص: 78.

سوى الاسم ،ويؤكد انه أقام بينهم فترة من الزمن فلم يسمع أذانا، ومع ذلك وصفهم بالأمانة وان حياتهم يظللها الأمن الذي لم يسمع بمثله في بقعة من بقاع الأرض.[1]

ومهما يكن من أمر الاختلاف، فإن بني دمر كانوا على شاكلة إخوانهم بني برزال في الانتماء المذهبي الإباظي النكاري.

حيث يظهر هذا الأمر بكثير من التجلّي عند دخولهم الأندلس في عهد الحكم المستنصر، هذا الخليفة الذي كان حريصا على وحدة المذهب في أرض الأندلس، وللحاجة التي دعته إلى إغماض عينيه عن هذه النحلة الدينية التي رآها حسب اعتقادي أنها نحلة ليس فيها من سمة القدرة على الانتشار في أرض الأندلس، و حتى ابن حيّان عند حديثه عن هذه الفئة القادمة إلى الأندلس لم يغفل عن ذكر نحلتهم الدينية النكارية[2] .ثم أن مذهب الاعتزال الذي ينسب الى بني دمر كان أقل انتشارا في بلاد المغرب لأن أصحابه كانوا أقل اضطهادا من الخوارج والشعبة الذين فروا بعقائدهم نحو بلاد المغرب.

ومما يذكر عن بني دمر أيام الفتح الإسلامي للأندلس كانوا ضمن الطلائع البربرية التي قادها موسى بن نصير لنجدة الكتائب الأولى للفاتحين بقيادة طارق بن زياد وكانوا الحماة في الوغى والملاحم.

أما ظروف جوازهم الى الأندلس، فتجمع المصادر التاريخية على أن جواز بني دمر كان على عهد الحكم المستنصر، إذ في عهده لاقت بطون زناتة وأفخاذها صنوف التنكيل والإدارة، على يد بلقين بن زيري بعد مقتل أبيه، عملا بوصية الفاطميين. فاندفعوا نحو أرض الأندلس للتماس الأمان وتوافق ذلك مع سياسة الحكم في اجتلاب العناصر البربرية التي كان في أمسّ الحاجة إليها بعد وهن الجيش الأندلسي الذي كان في حاجة الى تطعيم بالمقاتلين البربر.

---

[1]- التيجاني أبو محمد عبد الله، رحلة التجاني، ص: 187.

[2]- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 150

إلا أن هذه المصادر لا تشير إلى الظروف والأسباب التي دفعت بني دمر إلى العبور نحو الأندلس باستثناء صاحب مفاخر البربر الذي يورد الأسباب العامة من الظروف التي أحاطت بقبيلة زناتة قاطبة قوله: «فأوغل في ديار زناتة وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقا لا يحصيهم إلا الله، واستولى على تاهرت، والمسيلة وطبنة وباغاي وبجاية، وبسكرة، وجميع المدن بالمغرب حتى لم يبق لزناتة في شيء منها أمر».[1]

ومما يثبت أن هؤلاء بربر بني دمر قد دخلوا الأندلس على عهد الحكم المستنصر، ما ذكره ابن خلدون قوله: «وكان قد أجاز إلى الأندلس من بني دمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر فضمهم السلطان إلى عسكره».[2]

وعلى أية حال فإن البربر ظلوا يتوافدون على الأندلس حتى بعد وفاة الحكم المستنصر، وكان مؤشر توافدهم حسب الأزمات التي تحدث داخل الأندلس وخارجها، وفي عهد المنصور تطلب المشروع الذي تبناه في إصلاح الجيش، إلى عناصر جديدة، فكان لبني دمر نصيب منها، وطارت شهرتهم في آخر عهد العامرين وبداية الفتنة، بما قدمه رجالات منهم في معمعة القتال، يذكر صاحب شواهد الجلّة ما أظهره أعلامهم المحاربين بهلول بن تمايت الدمّري إلى جانب ثلاث شخصيات طارت شهرتهم في الآفاق: «وكان من عجائب الضراب يوم آره المتحدث عنه في الآفاق إلى اليوم ثلاث ضربات ما سمع بمثلها في الدهر مضاء سيوف وقوة سواعد منها ضربة أبي زوليت ... البيضة التي حملت إلى مدينة برشلونة، وإلى وضعتها الإفرجة في الكنيسة هناك اعتبارا ومعذرة وضربة حباسة بن ماكس الصنهاجي طعنت فارسا آخر منهم له درع حصينة ثقيلة فهتكت الزرد وقدته وقدت جنب لابسة فجدلته وضربة بهلول بن تمايت الدمري أخو بني تريد الذي رأس بعد قومه لخطم فرس علج

[1]- أبو علي صالح الايلاني، المصدر السابق، ص: 110.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج07، ص: 71.

منهم ففصلت حديدتي اللجام ولحية الفرس جميعا ورمت بخطمه وما تكنفه من الحديد ناحية وخز الفرس لفيه فصارت هذه الضربات أعجوبة عند الناس».[1]

ومن الإمارات الصغيرة التي أنزوت في جنوب الأندلس، إمارة بني خزرون الذين كان لأسلافهم تواجد في هذه المناطق الجنوبية[2] التي تبقيهم بمحاذاة عدوتهم ،يتسللون إليها عند شعورهم بالخطر.

لم ينل بنو خزرون من الذكر والتفصيل في أنسابهم، ما نالهم غيرهم من القبائل البربرية الداخلة إلى الأندلس، كالعناصر البربرية المنتزية بجوارهم في جنوب الأندلس، وما ذكر عنهم عبارة عن ومضات تشير إلى أنهم من بني يرنيان الذين هم إخوة مغراوة وبني يفرن، ومواطنهم في جنوب المغرب الأقصى ما بين سليمانة وكورسيف وانسلت منهم بطون وأفخاذ عديدة منها: بنو وطاط الذين استقروا بالجبال المحاذية لوادي ملوية.[3]

أما جمهورهم بالمغرب الأوسط فمنهم من كان يضرب في الجبل المطل على تلمسان، أما غالبيتهم فكانوا يضربون في المنطقة التي حول مدينة هاز[4] وظلوا بها إلى أن أجلاهم عنها زيري بن مناد وخرب مدينتهم فأصبحت أثرا بعد عين. وكان لبنى يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز[5]، ومشاركة في الحروب، واستهدفتهم غارات بني زيري انتقاما لمقتل أبيهم، ونظرا لقلة عددهم وعدتهم، وتفرق كلمة القبائل الزناتية إنتشروا في جيوب الأرض يرومون العدوة الأندلسية كما فعلت فصائل زناتة قبلهم.وفي عهد الحكم المستنصر الذي أجاز عدد كبير منهم، أنظافت أعداد باقية في عهد المنصوريين أبي عامر وكانوا أفحل جند الأندلس وأشدهم شوكة[6] إلى أن كانت الفتنة القرطبية، والتي شاركوا فيها مشاركة دعت الكثير من المؤرخين إلى نسبته إليهم وتسميتها بالفتنة البربرية، وكان بني خزون من الفئات

---

[1]- ابن العربي أبو بكر، شواهد الجلة، ص: 379.

[2]- عبد الواحد ذنوب طه، المرجع السابق، ص: 261.

[3]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج07، ص: 66.

[4]- عبد الرحمان الجيلاني، ج01، ص: 249.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 66.

[6]- نفسه، ج07، ص: 66.

البربرية التي عضدت سليمان المستعين ضد المهدي وكانوا وراء إنجاح سعيه إلى الخلافة فكافأهم مع مجموعة البربر ومن الشخصيات المؤسسة لكيان هذه الجماعة عماد الدولة أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزاري أمير بني برنيان، ثار بقلسانة سنة اثنين وأربعمائة عند استحكام الفتنة ثم غلب على أركش وهي من أعظم معاقل الأندلس، يقول عنه ابن عذاري المراكشي: «... وأقام ملكها ضابطا لها مثمر أموالها وكان فتاكا قتالا سفاكا إلى أن مات في حدود عشرين وأربعمائة ووليها ابنه».[1]

الإمارات البربرية الصغرى في مواجهة بني عباد:

تطلب مشروع بني عباد التوسيعي إتباع خطة حربية تمكنهم من استئصال شأفة الإمارات الواقعة غربي مملكتهم، حتى يخضع الغرب كله من الوادي الكبير إلى المحيط للسلطان بني عباد.[2] كانت في مقدمة هذه الإمارات مدينة لبلة الواقعة غربي إشبيلة، وقد وجد المعتضد صعوبة في ضمّها إليه حيث قضى المآت من خيرة جنده على مشارفها.

لقد دارت معارك شرسة خلف أسوارها، وقد وقف بنو الأفطس حلفاء أمراء لبلة وذادوا الى جانبهم عن حياض المدينة، والحقوا بجيش المعتضد أمير أشبيلية هزائم متكررة، إلا أن المعتضد ظل مصرّا على معاودة الكرة إلى أن رجحت كفة النصر لصالحه بعد أن جرد لبلة من حليف مشاكس من بني الأفطس، وعندئذ سهل عليه التهام هذه الإمارة حيث اضطر ناصر الدولة أن ينزل على حكم الحركة القاهرة وأن يسلم لبلة إلى خصمه القوى ويغادرها إلى قرطبة.[3]

وكذلك فعل مع بقية الإمارات في ولاية الغرب مع ولبة وجزيرة شلطيش، لقد اتجهت أطماع بني عباد إلى هتين الإمارتين، فأخذ المعتصد يضيّق الخناق على ثغر ولبة ويرهقهم بغاراته حتى ساءت أحوال هاتين الإمارتين واضطر أميرها إلى عقد الصلح والتعهد بتسليم ثغر ولبة، ويكتفي هو بجزيرة

---

[1]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 294.

[2]- عبد الله عنان، المراجع السابق، ص: 40.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 209-210.

شلطيش، فوافق ابنه عباد على ذلك، ولكنّه لم يلبث أن أخذ في مضايقته من جديد يتخلى له عن جزيرة شلطيش، وفرض عليه الحصار الى أن أجبره على التنازل عنها لقاء عشرة ألاف مثقال من الذهب.

ولم يبق أمام المعتضد في ولاية الغرب سوى إمارة شنتمرية الغرب الواقفة على المحيط جنوب البرتغال، وظل المعتضد يهدد أسوارها، ولم يبد أميرها أبن هارون[1] أي مقاومة واسلم الإمارة وخرج مع أهله إلى اشبيلية التي توقي بها سنة 449هـ1069.[2]

أما إمارة شلب فقد استبسلت هي الأخرى في الدفاع، وقد أظهر أهلها بطولات منقطعة النظير عند أسوارها، ومع ذلك لم تصمد أمام ضربات أبن عباد الذي كان قد تكون لديه جيش قوي بفعل الحروب التي خاضها ضد الإمارات الأخرى، واستطاعت جيوشه أن تقتحهم المدينة ويدخلون القصر ويقتلون عيسى المظفر وذلك في شوال 455هـ-1063م.[3]

وبهذه الخطة الحربية استطاعت إمارة الشبلية التخلص من إمارات الغرب التي كانت تعدها متكاء لخصومهم البربر في الجنوب وحلفائهم من بني الأفطس بطليوس وبني زيري في غرناطة.

ولما تحقق لبنى عباد ما كانوا يرمون إليه، وقبل أن يردوا السيوف إلى أغمادها، أشهروها في وجه الإمارات البربرية الصغيرة، كإمارة بني يفرن في رندة، وإمارة بني دمر في مورور وإمارة بني خزرون في أركش وإمارة بني برزال في قرمونة.[4]

إلا أنهم أي بني عباد، عمدوا إلى استدراج أمراء هذه الممالك بالمهادنة تارة ،والمجابهة تارة اخرى ، وكان عمدة هذه السياسة من أمراء بني عباد المعتضد بن عباد 433هـ-461م/1041م-1068م ذكر ابن الابّار خلال المعتضد نقلا عن ابن بسام قائلا: «... متهور تتحاماه الدهاة وجبار

---

[1]- ابن هارون: ولي شترية أيام الفتنة، ذو الوزارتين أبا عثمان سعيد بن هارون المارودي المولد ظل على رأس شنتمرية الغرب إلى أن مات سنة أربع أو خمس وثلاثين وأربعمائة فخلف ابنه محمد بن سعيد وحكى أنه تسمى بالمعتصم إلى أن أخرجه المقتصدين بن عباد سنة أربع وأربعين، فصارت بيد ابنه محمد بن عباد .ابن الأبّار ، المصدر السابق، ص: 182.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 298-299.

[3]- نفسه، ج03، ص: 296-298.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 214.

لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومنبت قطع فما أبقى، ثار والناس حرب، وكل شيء عليه أبد فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شانه بين قاعد وقائم حتى طالت يده، واتسع بلده، وكثر عديده وعدده.

أمره بقتل وزير أبيه حبيب طعنة في ثغر الأيام ملك بها كفه وجبارا من جبابرة الأنام، شرد بها من خالفه فاستمر يفري ويخلق ويجمع ويفرق، له في كل ناحية ميدان». [1]

وكان ممن سالمهم بنو يفرن الذين كان يتدد على قصورهم من حين لآخر [2] وهي سياسة مكنت بني عباد من التعرف على نويا البربر عن كثب، لاتقاء شرهم، حيث كانوا يشكلون قوة عسكرية كبيرة قد تشكل خطرا على العباديين إذا ما هي اجتمعت وتوحدت ومكنتهم هذه السياسة حيال البربر من تأمين جناحهم الدفاعي في تلك الناحية، والتفرغ لتوسيع رقعتهم نحو الشمال [3]، ولم يتوان في الوقت نفسه من زرع البلبلة والتفرقة، وبث القلاقل بينهم، فصدم شرهم بشرهم وضرب زيدهم بعمرهم. [4]

وبناء على ما تقدم فإن المعتضد أقدم على مخالفة البرزالي الذي استعان به على بني الأفطس ثم على قتال يحي بن حمود فيما بعد ،كما أقدم على مخالفة بني يفرن والتقرب منهم حيث يذكر ابن خلدون أن المعتضدبن عباد أقر أبا نور هلال بن أبي قرّه على ولاية تاكرونا ورندة وما حولها وكتب له كتابا بذلك عام 443هـ-1051م. [5]

[1]- ابن الأبار، المصدر السابق، ص: 195.

[2]- ابن بسام الشنتريني، ج02، ص: 20.

[3]- محمد عبد الله عثمان، المرجع السابق، ص: 44.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 214.

[5]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج07، ص: 32.

استمرت هذه العلاقة الى حين، وكان المعتضد يؤمن استمرار هذه العلاقة بإرسال الهدايا والصلات الجزيلة ،كل ذلك ليضمن حيادهم، حتى تحين فرصة الغدر بهم والانقضاض عليهم[1] يؤكد ذلك ابن بسام بقوله: «وسلمه شر غير مأمون ومتاع إلى أدنى حين»[2].

وحتى يقوى المعتضد من هذه العلاقة قام بزيارتهم في بلدانهم، حيث قام بزيارة لأبي نور هلال بن أبي قرة اليفرني صاحب رندة وسرّ هذا الأخير باستقباله وضيافته وأوسع في إكرامه.

علاقة بني عباد مع بني برزال أصحاب قرمونة:

كانت أقوى الإمارات الصغيرة في الجنوب هي إمارة بني برزال التي كلفت العباديين خسائر في الجند وحتى من أبناء الأسرة الحاكمة قتلوا في ساحة المعركة في مواجهة بين برزال ولم يتوانى المعتضد في زرع الفتن والقلاقل بينهم، وحبك الدسائس بين هذه الإمارات.

وفي كتاب الذخيرة نصا صريحا يورد فيه ابن بسام سياسة المعتضد بن عباد مع البرابر الرامية إلى تفريقهم وإحداث الفتنة بينهم حيث يقول: «ثم غمس المتعضد يده بعد في من كان يليه من أقتاله[3] البرازلة فصدم شرهم بشرهم وضرب زيدهم بعمرهم، وقد كان عندما شرعت نار الحرب بينه وبين رؤساء الغرب وهادنهم على دخن ومنح لهم حتى ضربوا حوله يعطن ليقتلهم بسيوفهم».[4]

ومن قول ابن بسام يستنتج أن هذه الإمارات لم تكن على صلة حميمية فيما بينها ولم تكن بينهم مواثيق يلتزمون بموجبها بالوقوف إلى جانب بعضهم البعض.

وهي قبل هذا وذاك إمارات حديثة النشأة إذ لم يمر على تكوينها أكثر من ثلاث عقود خاصة وأنها أنشئت أيام الفتنة التي كانوا هم احد أطرافها الأساسيين .

---

[1]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 11.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 11.

[3]- أقتالة: مصدرها القتل وقتله قتلة سوء، ومقاتل الإنسان المواضع التي إذا أصيبت قتلت كقول ابن قيس الرقيات:

وإغترابي عن عامر بن لؤي   في بــلاد كــثيرة الأقــتــال

ابن زكريا أبو الحسين بن فارس، مجمل اللغة، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م، ج3، ص: 743.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 22.

وبالتالي فهي أقرب إلى تجمع عشائري منها إلى إمارة ذات سلطة ورعية. لذلك ونتيجة لهذا الضعف ظلت محل تهديد خارجي، وكلفت جيرانها المتحالفين معها الوقوف إلى جانبها، حروبا مع بني عباد، لم يخرجوا منها بطائل، بل فقدوا أعدادا من جيوشهم كان يمكن استغلالها في مواجهة أعدائهم من الصلبيين الذين بدأت طلائعهم تناوشهم من حين لآخر.

على أية حال فإن المعتضد قد صفى حساباته مع إمارات الغرب بصفة نهائية، وأنبرى لمواجهة الإمارات البربرية الواقعة في منطقة الجنوب، وكان في مقدمة من وضعهم في مشروعه ألاستئصالي، صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالي، لم يضع المعتضد كثيرا من الوقت فقد استنفر قواته وأمرها بالزحف على قرمونة، فلم يجد البرزالي حدا من الاستغاثة بباديس بن حبوس فقد استجاب له هذا الأخير، وترحك على رأس قواته يقودها بنفسه، فلما وصل إلى مشارف قرمونة وجد قوات المعتضد في انتظاره تحت قيادة ابنه الظافر، فألتحم الجيشان، وما هي إلا جولات حتى رجحت كفة النصر لصالح الظافر، وأربك جيش باديس واجبروا على التراجع، يقول الفتح بن خاقان واصفا هذه الموقعة: «فلما وصل باديس بن حبوس إلى قرمونة أخرج إليه المعتضد جيشه يقدمه ابنه الظافر يقود منه أسودا في المغافر، فلما التقى الجمعان وارتضى ثنية المعين والمعان حمل فيهم معسكر اشبيلية جملة خلعتهم عن مركزهم وأزالتهم بالذل من تعززهم فتفرقوا في تلك البسائط والربا وشربوا بسقيا الأسنّة والظبا وأوقع بهم الظافر أحسن إيقاع وتركهم مضرجين في تلك البقاع وانصرف إلى إشبيلية وألويته تختال في أكفّ الرياح وذوابله تكاد تنقصف من الارتياح».[1]

انزعج بنو زيري لنتائج هذه المعركة التي حصدت خلقا كثيرا من أبنائهم إلى جانب البرزالة ،ولم يكن أبناء زيري على استعداد للمواجهة ولا اعدوا لها عدة، فهم قد استجابوا لنداء البرزالي على عجل تقودهم الحميّة وصلة الدم دون أن يجعلوا في الحساب قوة إشبيلية بقيادة المعتضد الذين حنكتهم الحروب مع إمارات الغرب.

[1]- ابن خاقان، الفترة قلائق العقيان، ص: 263.

وفي المقابل فقد سر أهل إشبيلية لهذا الانتصار، وعدوه نقطة تحول ايجابية في إنجاز مشروعهم التوسعي حيث خبروا جيش غرناطة جمعية جيش البرازلة اللذين لم يستطيعا التصدي لجيش العباديين.

وخيم جو من الجبور والاحتفاء على أشبيلية وتقدم الشعراء وأعيان المدينة يزفون التهاني للمعتضد ويشيدون بخلاله، وعبقريته ومن هؤلاء الشاعر بن عمار[1] الذي تقدم بقصيدة رائعة خلدت بعض وقائع هذه الحرب ومطلعها:

أَلَا للمَـعَالِي مَـا تُعِـيد وَمَـا تُـبدِي	**وفـي الله مَـا تُخْفِيـه عَنَا ومَا تُبْدِي**
جَنَـيتَ ثِمَـار النَـصْرِ طِيـبَةَ الـجَنَا	**ولا شَـجَر غَـيـر الـمُثَقَفَة المُـلْـد**
ظَفَـرت بِهِـم فَـارتَح وامْضِي كُؤُوسَهَا	**بُرُوقـا لَهَـا مِـن عُودِهَـا ضَجَة الرَعدِ**
أَطَـــل عَــلى قَــرمُـونَة مُتَبَـلِــجًا	**مع الصُـبحِ حَتَى قِيلَ كَانَ عَلى وَعْدِ**
فَـأَرْمَلَــهَا بالـسَيــف ثُـم أَعَــارَهَــا	**من الـنَارِ أَثْوَابَ الحِـدَادِ على الفَقْدِ**
فَيا حُسن ذَاك السيفِ في راحَة النَدَى	**ويـا بردَ تِلكَ النَـار في كَـبِد المَحـدِ**
يَهُــودا وكَـــانَت بَربَـرا فانتضَى النَظَا	**وأَنْـبَهَـهُـم مِـنــهـا بـأَلْــسِنَـة لُــدِ**
أَقُــول وَقَــد نـادَى ابن إسحَاقَ قَومِهِ	**لَأَرضَـــك يَرْتَـاد الــمَنِيَة مِـن بَعْـد**[2]

لقد فتحت هذه المعركة للمعتضد شهية الاستمرار في مقاتلة المبرر، ومما زاد في محاربتهم واستئصال شأفتهم فوفه من البرازلة، إذ كان يرى فيهم حسن، قد تكون نهاية دولته على أيديهم.

أورد كل من ابن بسام وابن الأبار نصا يكاد يكون متطابقا حول اعتقاد المعتضد في ضروب الغيب التي تنبأ بها احد من ينظرون في ذلك، فأنبأ المعتضد بأن نهاية دولته تكون على أيدي البرابر.ومن ساعتئذٍ ظلّ المعتضد متوجسا محتاطا لذلك ومما جاء في نص ابن بسام وابن الأبّار قولهما: «... والسبب الذي كان يغريه بطلبهم ويبعثه على التمرس بهم، أن بعض من نظر بمولوده كان

---

[1]- ابن عمار، أصله من قرية شلب تعرف بشنبوس، كان ابن عمار شاعر الأندلس غير مدافع ولا منازع، إلا أب مساوي أفعاله ذهبت لمجلس أقواله حيث مدمن على الخمر وساقته أفعاله وفسد ما بينه وبين ابن عباد فأدى ذلك إلى قتله ابن الآبار المصدر السابق، ص: 243-244.

[2]- ابن خاقان، المصدر السابق، ص: 264-265.

أخبره أن انقضاء دولته يكون على أيدي قوم يطرؤون على الجزيرة من غير سكانها فكان لا يشك أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها في عهد ابن أبي عامر فأعمل في نكالهم وجوه سياسته».[1]

ظنّ المعتضد أن شبح البربر قد اختفى مع اختفاء ملكهم في جنوب الأندلس واتفق أن دخل عليه يوما بعض وزرائه، وبين يديه كتاب قد أطال فيه النظر، فإذا كتاب سقوت المنتزي يومئذ بسبتة، يشعر المعتضد بطلائع الملثمين المدعوين بالمرابطين قد وصلوا إلى رحبة مراكش، فأخذ وزيره يهون من الأمر وأنه بينه وبينهم الفيافي والبحار فأجابه المعتضد: «هو والله الذي أتوقعه وأخشاه وإن طالت بك حياة فستراه اكتب إلى فلان، يعني عامله على الجزيرة، يحفظ جبل طارق حتى يأتيه أمري، فقضى أن خلعوا ولده وقرضوا أمره».[2]

كانت أولى المدن استهدافا من قبل المعتضد قرمونة التي تقع على مقربة من شمالي شرق إشبيلية، وتعتبر لمنعتها الطائفة حصنها من الشرق لذلك ظلت قرمونة الشغل الشاغل لأمراء اشبيلية.

أوكل المعتضد مهمة مهاجمة قرمونة والقضاء على محمد بن عبد الله البرزالي إلى ابنه إسماعيل وأمره بتجهيز الجيش والهجوم على قرمونة.وبدأ إسماعيل في شن غارات متعددة حتى كانت سنة 434هـ-1042م حين اهتدى جيش اشبيلية إلى خطة حربية، تظاهر فيها في بداية الحرب بمغادرة ضواحي قرمونة، وزرع إسماعيل فلولا من جيشه في مخابئ كان قد أعدها فظن البرزالي أن هذا الانسحاب سببه الخوف والتردد في ملاقاة جيش قرمونة، فانطلت عليه الخطة وانطلق بجيشه حتى بلغ موضع الكمائن، وبرزت قوات إسماعيل من كمائنها، وأحاط به، وحصل الإرباك والإرجاف في جيش البرزالي وأحيط به من كل مكان فهزم جيشه وقتل هو الآخر سنة 434هـ-1042م[3]،وحزّت رأسه، وضمّها المعتضد إلى رأس يحي بن حمود ورؤوس الحجاب ابن خزرون وابن نوح.[4]

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 21-. ابن الآبار، المصدر السابق، ص: 202.

[2]- ابن الأبار ، نفسه، ص: 202.

[3]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 201.

[4]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 206.

بعد مقتل محمد بن عبد الله البرزالي خلفه ابنه إسحاق على إمارة قرمونة[1]، إلا أن الأستاذ محمد عبد عنان يذكر اسما آخر وهو عزيز الملقب بالمستظهر، ولعل استأذنا عنان قد ارتكز في هذه الروايا على ابن عذاري الذي أورد نصا يذكر فيه أن إسحاق هو من بايع المستظهر حيث يقول : «بويع في اليوم الذي مات فيه أبوه سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وبايعه أخوه إسحاق فتم له الأمر وتمهدت له الأمور ورخت الأسعار وبايعت له البلاد».[2]

وحتى إبن حيّان معاصر عهد الطوائف، لم يغفل عن ذكر ومناقب وخلال هذا الرجل مع أن ابن حيّان تحامل في العديد من المرات في كتبه التاريخية على فئة البربر التي حمّلها مسؤولية النكسة.

يقول ابن حيّان «ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه وهو في حد الكهولة، كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية يتحلى بشعبة من شعب الكتابة ويضبط شيئا من الحساب ويقرأ الدفاتير القريبة، وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة وأذهب منه في فرط العصبية وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة والبعد عن آفات الملوك الشائنة، مع اشتهارها بالنكوب عن الجماعة واعتقادها بمذهب الناكرين[3]، من فرق الإباضية يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة».[4]

ظلت الطوائف البربرية في منطقة الجنوب تتجرع مرارة الهزائم التي كبدهم إياها المعتضد بن عباد وزاد في صفتهم عليه مقتل محمد بن عبد الله البرزالي احد زعماء هذه الطائفة، ليس هذا فحسب بل رأت في المعتضد خطرا يهدد أمنها واستقرارها، وحتى لا يكون مصيرها هو مصير الإمارات الواقعة في غرب الاندلس حيث التهمها المعتضد في وقت زمني قصير. آثرت هذه الطائفة

[1]- فراد محمد أرزقي، المرجع السابق، ص: 237.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 312.

[3]- الناكرين: هي فرقة من الإباضية الخوارج سموا بالنكار لأنهم أنكروا أحقية عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم ثالث رؤساء الدولة الرستمية التي تولى سنة 171هت-787م وكان لهم شأن في تاريخ الثورات الإفريقية، وسموا بالملاحدة والشعبية والتناكر. أبو زكريا، يحي بن أبي بكر، المصدر السابق، ص: 93، ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 84 الشهرستاني، المصدر السابق، ص: 146.

[4]- ابن خلدون، عبد الرحمان أعمال الأعلام، ص: 237

أن تتكتل وتستجمع قواها تحت راية واحدة، ففي سنة 439هـ-1047م التقى زعماء البربر يتقدمهم كبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح صاحب مورور وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وأجمعوا على مبايعة محمد بن القاسم بن حمود بالخلافة في الجزيرة الخضراء ولقبوه بالمهدي وخطب له على المنابر كل من إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدمّري صاحب مورور وعبدون بين خزرون صاحب أركش، وباديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة.

وكانت أولى مهمات هذا التحالف هو الهجوم على مملكة إشبيلية والقضاء على الأسرة الحاكمة بهذه الإمارة، وانضوى التحالف بجميع أطيافه تحت إمرة الخليفة الجديد الذي سار بهم نحو اشبيلية.ونظرا للقوة التي شكلها هذا التحالف فقد إنظم إلى صفوفه محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس، إلا أن حملتهم لم تحقق نجاحا يذكر فعادوا أدراجهم نحو قواعدهم وحتى ينالوا من أمير اشبيلية، قاموا بتخريب الأراضي المحيطة باشبيلية نهبا وسلبا، وهو ما ذكره ابن حيان: «ولم يقض الله لهم إربا، فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع ولا اتفاق وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء الذين حاصروا بن عباد بسوء فعلهم في هذه البركة من ظلم المسلمين واخذ أموالهم بغير حق وتغييرهم لنعمهم وقطعهم أثمارهم ومكثهم لما كانوا تعاقدوا عليه مع ابن عباد فخلصه الله منهم».[1]

يستنتج مما سبق أن هذا التحالف البربري الذي أستحدث تحت قيادة محمد بن القاسم بن محمود، ليس لكفاية كان يتميز بها وإنما رأى البربر فيه مطية للتخلص من عدوّ نذر إذايتهم واستئصال شأفتهم. فهم قد أرغموا الخليفة الجديد للسير بهم نحو اشبيلية دون تهيئة الأجواء وتجميع صفوفهم وتهيئتها بشكل يسمح لهم بمجابهة جيش إشبيلية، ثم هناك نقطة في غاية الأهمية وهي أن سير هؤلاء نحو المعتضد كان بغرض الانتقام ليس إلاّ.

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 230.

كما أن أهدافهم اختلفت من طائفة إلى أخرى، فمنهم من توجه بغرض الانتقام لمقتل محمد بن عبد الله الرزالي ،كإسحاق أمير قرمونة، ومنهم من توجه بغرض الثأر للهزيمة، كباديس بن حبوس، وابن أفطس أمير بطليوس.

وربما ضن هؤلاء أن تحالفهم هذا سوف يفضي إلى النتائج التي أفضت إليها تلك المعارك التي وقعت بين العبادتين والتحالف، وذلك حين توجهت قوات المعتضد بن عباد، فاستولت على مدينة أستجّة.[1]ثم استولت بعد ذلك على مدينة قرمونة، وعندئذ استغاث البرزالي بزملائه البربر فهب إلى نصرته باديس بن حبوس صاحب غرناطة ،وإدريس المتأيّد صاحب مالقة.

والتقى الجمعان ووقعت بينهما معارك شديدة، انتهت بانتصار البربر، ومنى الإشبيليون بهزيمة منكرة، وقتل الأمير إسماعيل بن المعتضد واسترجعت قرمونة .

لم يثن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي، فشل التحالف الذي أشرت إليه سابقا بل ظل يتحين الفرصة المواتية للانتقام بمصرع أبيه الذي قضى على أيدي قوات المعتضد ، وعندما قام محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس.[2]

إحتدم الصراع بين إشبيلية ومملكة بطليوس، ولم تجد محاولات الوزير ابن جهور ومساعيه في إيقاف الحرب بينهما وعاث كل منهما في أراضي الآخر، وظلت الحرب بينهما سجالا[3] إلى أن حلّت أحداث لبلة[4] من جديد ،وذلك حين امتنع صاحبها عن ردّ ما ائتمنه عليه ابن الأفطس من أموال وذخائر أيام الحرب[5] فأغار عليه هذا الأخير، فاستغاث بالمعتضد، الذي هبّ لإنجاد صاحب

---

[1]- أستجّة: مدينة قريبة أزلية منفسحة البطاح كثيرة المرافق وبها ضروب من الفواكه والأزهار ولها أعمال كثيرة تزيد على ألف قرية بين حصون وقرى صغيرة وبروج واشتهرت أستجة بأسواقها العامرة وفنادق كثيرة كما توجد بها آثار قديمة. الحميري، المصدر السابق، ص: 53.

[2]- دحماني الشريفة، المرجع السابق، ص: 202.

[3] محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 83.

[4]- لبلة: تعرف بالحمراء، وهي مدينة حسنة، بها عيون ويكثر بها الأشجار الزيتون وأنواع الثمار وهي مدينة سهلية. الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 508.

[5]- صالح خالص، المرجع السابق، ص: 127.

لبلة والتلقى الجمعان، ولم تثبت قوات ابن الأفطس أمام قوات المعتضد فأنزلت بهم هزيمة منكرة، وحزت رؤوسهم نحو مائة وخمسين رأسا.[1]

رأى المعتضد بن عباد في ابن الأفطس مشاكسا عنيدا، يقف في كل مرّة إلى جانب الطائفة البربرية، ليس هذا فحسب بل رأى فيه محرضا قويا له تأثير كبير على المجموعة البربرية في المنطقة كذلك رأى من الأليق مضاعفة الضربات قبل أن يتعاف وجنوده من الضربات التي أولها جند المعتضد في الموقعة السابقة.

وجهز جيشا قويا بقيادة ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام وحرضهم المعتضد على القتال والاستماتة في ساحة الحرب، وكان المعتضد قد استعان بحلفائه واتجه الجيش نحو يابرة.

وحتى لا يقع ابن الأفطس في شراك المعتضد مرة أخرى، وتجنبا للهزيمة التي قد تأتي على دولته، استنجد بحليفه إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي فأمده بقوة بربرية بقيادة ولده العزّ، ولم يكتف ابن الأفطس بقوات حليفه البرزالي راح يستنفر كل من قدر على حمل السلاح فجمع خلقا كثيرا.

وظل البرزاليون يحذرون ابن الأفطس من مواجهة جيش اشبيلية لما خبروه منهم في ساحة المعركة، ولما لمسوه فيهم من صلابة القتال، وقالوا له: «لا تلقهم فلست تعرف قدر من زحف نحوك ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم باشبيلية».[2]

لم يأخذ ابنه الأفطس بتحذيرات البرازلة، وركب رأسه غير مبال بنصائح البرزاليين، وتحركت جيوشه بمعية القوات البرزلية، تحت إمرة ابن الأفطس وإيعازه، والتقى الجمعان على مقربة من يابرة[3] والتحم الجيشان وحمي وطيس المعركة وأظهرت قوات المعتضد إرادتها في إلحاق الهزيمة بجيش البربر،

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 238، ابن غداري، المصدر السابق، ج03، ص: 235.

[2]- ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 238.

[3]- يابرة: مدنية من كورة باجة، وهي قديمة محاطة بالأسوار وبها قصبة كما أنها تمتاز بالخصب الكثير الذي يوجد بغيرها وهي أحسن البلاد بقعة وأكثرها فائدة ونشهد حركة تجارية نشيطة، الحميري عبد المنعم، ص: 615، الإدريسي أبو عبد الله المصدر السابق، ج02، ص: 544، 545.

وأوكلوهم الضربات الموجعة، فتمزقت قوات ابن الأفطس، وتخاذلت قوات البرازلة وولت الإدبار وانسحبوا من ميدان المعركة.

وقد صور ابن عذاري وقائع هذه المعركة تصويرا دقيقا حيث يقول: «... فألقى الفريقان من غير أهبة ولا تعبية فانهزمت خيل إبن الأفطس واستأصلهم القتل، وقتل العزّ بن إسحاق وحزّ رأسه وبعث به إلى إشبيلية مع رأس لعم إبن الأفطس، وكان صاحب يابرة يدعى عبيد الله الخراز ولجأ إبن الأفطس في قطعة من خيله إلى يابرة، و أقل ما سمعت في مثل تلك الوقعة من ثلاثة آلاف إلى أزيد».[1]

جزع البرزاليون لهذه الهزيمة وعلى رأسهم إسحاق بن محمد الله البرزالي، فهو لم تندمل جراحاته لفقد والده، حتى أضيفت لها نكدات ابنه العزّ، الذي مثل به وحزّت رأسه وألحقت برأس جده في دواليب المعتضد الذي كان قد أعدها لزعماء البربر من قبل يقول ابن عذاري: «وجزع إسحاق بن عبد الله البرزالي المصاب ابنه ولم يخضع لضده عباد في طلب رأسه فإن عباد أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله المختزن عنده».[2]

وفي حقيقة الأمر فإن البرزليين لم يقاتلوا في هذه المعركة بمعنويات مرتفعة وكأنهم كانوا يعرفون نتائج المعركة من قبل، وقد نصحوا لذلك بني الأفطس، إلا أن وفاءهم وردّ الجميل لابن الأفطس منعهم من النكوص وعدم المشاركة.

أما إنسحابهم من المعركة فقد كان بعد مقتل العزّ بن إسحاق البرزالي قائد قواتهم في هذه المعركة، مما أدى إلى زعزعة صفوفهم وانسحابهم ليقينهم أن كفّة النصر رجحت لصالح ابن عباد، وما زاد في تدهور جيش البربر هو انضمام المتطوعين و هم غير مدربين على القتال يقودهم حماسهم واندفاعهم.

---

[1]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج3، ص: 235.

[2]- نفسه، ج03، ص: 235.

ولحقت بني الأفطس أضرار بليغة جراء هذه الهزيمة في رجالهم و حتى مدينتهم لطليوس هزت لفقدان الشباب الذين شاركوا في هذه الحرب التي أكدت اغلبهم وظلت دكاكين وأسواق بطليوس خالية لا حراك فيها .

يقول ابن حيان واصفا هذا الجو الذي خيم على مدينتهم وعلى القاعدين من الشيوخ الذين لم يستطيعوا المشاركة: «وقل ما سمعت في إحصاء قتلى هذه الواقعة من ثلاث لاف رجل فأزيد، وأخبرني من أثق ب هان بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عباد هذه بفتيان أغمار إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذ، فاستدللت بذلك محل فشوا المصيبة».[1]

وانبرى الشاعر ابن زيدون مرة أخرى يهنئ المعتضد على هذا الانتصار الذي أحرزه على ابن الأفطس وقتل ولد إسحاق ومطلعها:

لِيَهُــن الهُدَى إنْجَـاحُ سَعْيِكَ فِي العِدَا   وإن رَاح صُـــنْعَ الله نَـحْــوَكَ أَو غَــدَا

وَبُشــــرَاكَ دُنْـــيَا غَــضةٌ العَــهْدِ طَـلْقَةٌ   كـمـا ابْتَــسَم النُــوَار عَن أَدْمُع النَدَى[2]

وللدارس أن يتأمل في هذه القصيدة التي توحي أبياتها بمدى الحقد والكراهية والانتقام التي كان يتحلى بها مسلمو عهد الطوائف وكيف كانوا يرون ضرب رقاب بعضهم بعضا، هو منة من الله عليهم، وان انتصارهم على إخوانهم هو توفيق من الله لهم.

كما في هذا البيت:

ولــمَا اعْـتَمَــدْت اللهَ كُــنْتَ مُؤَهَــلًا   لَــدَيهِ أَن تَحــمِى وَتَكْـفِى وَتَعْضِــد

واستمر بن زيدون في قصيدته يصف للمعتضد آلام ابن إسحاق وبؤسه على ابنه قائلا:

لَبِئـسَ الـوَفَـاء استَنَّ فِـي ابنِ عَقِيـدِهِ   عَــشْيَةَ لَـم يُصْـدِرْهُ مِــن حَيْـثُ أَورَدَا

وأَصْبَــحَ يُبْـكِـيهِ المُـصَابُ بِشَــكـلِهِ   بُكَــــاءُ لَبِــيدِ حِـــينَ فَـــارَقَ أَربَدَا.[3]

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج04، ص: 239.

[2]- ابن بسام، نفسه، ج01، ص: 237.

[3]- نفسه، ج1، ص: 238.

ولم يقف شاعرنا عند هذا الحد، بل راح يحرض المعتضد على أن يبقى شاهرا سيفه ليس في وجه أعدائه من الجلقيين الذين بدأت طلائعهم تظهر في البلاد الشمالية المتاخمة لهم، حيث يقول :

سيُنِـيرُ رُحْـمَــكَ كَـوكَـبًا تَـرْمِي بِـهِ   مِن نَجْـلِ إِسْحَـاق الـرَدَى شَيْـطَانًا

لم يتجاسر حد من الإمارات البربرية على معاودة الكرة بسبب ما لحقهم من الأذى على يد المعتضد. وعوض أن تستجمع قواها وتعيد النظر في هياكل قواتها ، وتنظر إلى نقاط الضعف التي انكسرت عبرها قواتهم، راحوا يحشدون قواتهم ضد جيرانهم من بني دمر، وكان قائد هذا الحلف باديس بن حبوس صاحب غرناطة، والبو النور هلال بن أبي قرة اليفرني صاحب رندة، ومعهم فلول من جيش ابن جهور، صاحب قرطبة ولم تتأخر قوات بني برزال عن هذا الحلف. [1] وامتنع ابن عباد عن دخول الحلف بسبب ما كان بينه وبينهم من عداوة من جراء الحرب المستمرة، وكان أبن عباد يتوجس من الإمارات البربرية ويرى منهم أعداء يجب تصنيفهم والتخلص منهم، وقد أشرنا إلى هذا في نص سابق، كيف امتلأت رأس المعتضد بالمخاوف، وقد تحققت نبوءة بعض الناظرين في ميلاده من المنجّمين، وهي النبوءة القائلة :إن ناسا يولدون خارج البلاد يثلون عرش مملكته ولم يكن يشك أنهم البرازلة من البربر، وأشهر سيفه عليهم حتى أفناهم جميعا[2].

وعلى أية حال فإن المعتضد أحجم عن الدخول في هذا الحلف وبقي يراقب الوضع عن كثب يقول ابن حيان: «... إن هذه القبائل تحالفت وتعاضدت على غزو بلاد بني دمر ودخل في ذلك ابن جهور ولم يدخل ابن عباد لأنه كانت بينه وبينهم الحرب، وقصدت هذه القبائل بعدما حسدت رعيتها مع زعيمهم باديس ومع أبي نور ومعهم جميع من عسكر ابن جهود حصنا من

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 269، مريم قاسم الطويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص: 144.

[2]- دوزي رينهارت، المرجع السابق، ص: 11.

حصون بني دمر ونازلته منازلة بلاد والروم وأقام هذا العسكر على هذا الحصن أياما يقاتلونهم مقاتلة الكفار حتى دخلوه عنوة».[1]

وبالرغم ما أعطت المصادر من أهمية لهذه الموقعة إلا أنها لم توضح الأسباب التي أفضت إلى عقد هذا التحالف لمجابهة دولة صغيرة ليس لها من إمكانيات المجابهة ما تستطيع الوقوف في وجه هذه القارة التي لم تشترك فيها دويلات الجوار فحسب بل أنظم إليهم ابن جهور وقد اعدوا لذلك عدة واستبسلوا في مقاتلتهم وكأنهم أمام جيش عرمرم من الروم، وقد أشار لذلك ابن حيان معلقا على هذه المنازلة قائلا: « ... ونازلته منازلة بلاد الروم ... يقاتلونهم مقاتلة الكفّار حتى دخلوه...».[2]

لم يقف هذا الحلف عند هذا الحد، وقد خضع إمارة هذا البلد، وامتنع عن المقاومة بل راحوا يعيثون في الأرض فسادا، تقتيلا وهتكا للأعراض وفتكا بالأبكار. يواصل بن حيان وصفه بهذا الاجتياج القذر، وصف دقيقا يجعل الباحث مذهولا أمام هذه الوقائع التي ينظر من خلالها أنها وقعت بين أمتين بكل منها عقيدته وانتماءه، إلا أن ابن حيان يروم من وراء ذلك تجسيد هذه الوقائع و صحائف التاريخ منبئة أن ما حل بالأندلس فيما بعد، من ضياع فبما كسبت أيدي هؤلاء.

وما أفظع ما لاقت هذه الفئة من البربر على أيدي إخوانهم يقول ابن حيان: «وهتكوا الاستار وفتكوا بالأبكار حتى كانت دماؤهن تسيل على أقدامهن عاريات باكيات واستحوذ السودان وسفال العسكر على النساء فكانت أخبيتهم مملوءة منهن إلى أن برح باديس بعد ثلاثة أيام علهن فطردوهن عاريات حافيات وخرج نساء هذا الحصن إلى سائر القرى والحصون».[3]

بنو يفرن في مواجهة بني عباد أصحاب اشبيلية:

عند فرغ بنو عباد من مقارعة بني الأفطس الذين يعدون في مقدمة من أزعج العاديين في المنطقة، شرعوا في محاربة من كان يليهم من أمراء البربر المستقلين بهذه الإمارات البربرية الصغيرة

[1]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 269.
[2]- ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 269.
[3]- نفسه، ج03، ص: 269.

القائمة في شرق الوادي الكبير ،كإمارة بني يفرن في رندة، وإمارة بني دمر في مورور، وإمارة بني خزرون في أركش وشذونة وإمارة بني برزال في قرمونة.[1]

وكان أول ضحايا المعتضد بن عباد من البربر في منطقة الجنوب تلك الإمارة الصغيرة المجاورة لمملكته التي كانت تحت إمرة الحاجب محمد بن نوح الدمري، فعمد إلى توزيع الأموال على بعض ذوي النفوذ والجاه ممن يوالون ابن نوح وبالغ في إكرامه، يقول ابن عذاري في نصّ طويل يورده عن ابن بسام: «كان أول ما بدا من حربهم هجومه على الحاجب محمد بن نوح الدمري المنتزى منهم بكورة مورور في غير كتبة نظمها ولا مقدمة إليه قدمها فخلص إلى إبن نوح هذا من رجل لا يبالي دم من تجرع، ولا يحفل بأي شيء يصنع، فبالغ ابن نوح في برّه، وتضاءل لأمره وحمل ذلك من فعله على أكد أسباب السلامة وأتمّ وجوه الاستقامة وفضّ المعتضد يوما من صميم ماله، في أوجه حماة ابن نوح ورؤوس رجاله، ما إستمال به قلوبهم، واستنصح به جنودهم».[2]

إن المتمعن في النص أعلاه يدرك مدى ما كان يرمي إليه المعتضد من استمالة أصحاب هذه الإمارات الصغيرة، فهو لم يكن يرمي إلى أخطائهم بل إلى كان يرمي مسالمتهم وكانت تلك الأموال التي كان يغدقها عليهم بمثابة عهود ومواثيق تجعلهم من يدين في حالة الحرب مع جيرانهم ممن تربطهم بهم صلة القرابة وربما الوقوف إلى جانبه.وحتى يوسع من دائرة الإحسان إلى جيرانه، خرج المعتضد بن عباد لزيارة أبي نور هلال بن أبي قرة اليفرني صاحب إمارة رندة.[3]

فاستقبله هذا الأخير وبالغ في التكريم والتجلّة وأوسع له في المجلس، واحظر أعيانه وضده. وأقبلت عليه الوفود تبادله التحايا، وكان من بينهم عناصر عربية، يبدوا أنه قرأ في عيونهم السخط،

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 214، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 45.

[2]- ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 214.

[3]- شريفة رحماني، المرجع السابق، ص: 212.

وعدم الرضى بأمرائهم البربر، وأومؤوا له بأنهم رهن إشارته إذا أراد الغدر بأمرائهم فتتبعهم بعد ذلك سرا، وأخذ يمدهم بالأموال لينقلبوا على أمرائهم المغاربة.[1]

وبينما هو مع جلسائه منهمك في الحديث معهم، إذ أومأ احد الأجناد، ولوح بقتل المعتضد فاسترق المعتضد هذه الإيماءة، ففهم أن القوم يتآمرون به ليقتلوه، إلا أنه تظاهر برباطة الجأش، وعدم الاكتراث لما يحدث، و أسر ذلك في نفسه و لم يبدها لهم ،وقد أثبت ذلك ابن بسام بقوله: « وأراد أن يطلع عليه من ثنية مكره فواطئهم يومئذ بغدره ورمز لهم بالاستراحة من شره ففهمها المعتضد وجعل تلك الكلمة دبر أذنه و أثبتها في ديوان إحنه حتى حلي بطائلها و استفاد بعد مديدة من نقائها». [2]

ومما يستنتج من هذا النص، أن المؤامرة التي همّ بها أحد الجند، كانت من وحي الحاجبين، إلا أن أمرا حال دون تنفيذ المؤامرة، وقد فهم المعتضد مصدرها، وعلى أية حال فإن صاحب اشبيلية قد خاص المكيدة، وعاد سالما إلى اشبيلية[3] ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى رواية أخرى يورها البربري صاحب نهاية الأرب،والذهبي صاحب كتاب سير أعلام النبلاء، ملخصها أن المعتضد حدثت له واقعة غريبة، فقد ذكرا أن المعتضد بن عباد، خرج يوما إلى قرمونة بعد أن شرب الخمر مع رجاله وخدمائه، وكان يومئذ على قرمونة صاحبها إسحاق ابن سليمان البرزالي، ولم يكن يصحبه المعتضد سوى عبد واحد من جملة عبيده، واستأذن بالدخول فأذن له واستقبل من قبل إسحاق البرزالي، فلما دعي إلى المأدبة وشرع في تناول مع قدم له من طعام تذكر ما فعله بني برزال، حين أغار جنده على مدينتهم، وزاد خوفه منهم لما أحس بمكرهم، وكانوا قد هموا بالتخلص منه. ومن حسن طالعه انه

---

[1]- محمد عبد الفتاح شرف الدين، تاريخ السيادة الإسلامية على الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، مكتبة الأذان، (د ت)، ص: 270.

[2]- ابن عذاري المصدر السابق، ج03، ص: 214-215، ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 20.

[3]- شريفة رحماني، المرجع السابق، ص: 212.

كان من بين الجند، معاذ بن أبي قرة اليفرني الذي حال بينهم وبين ما يريدون فعله، وبين لهم وجه الخطورة والعواقب التي يمكن أن تلحقهم إذ هم أقدموا على قتله واقتنعوا بعدم تنفيذ ذلك.[1]

ويضيف النويري مفندا هذه الواقعة ويذكر أن المعتضد رصد كان يدور من حديث بين زعماء البربر بشأنه وعلم أن معاذ بن أبي قرة هو من أبطل هذه المؤامرة، وحفظ له المعتضد هذا الجميل وأبقاه في اشبيلية.[2]

والناقد البصير من الباحثين يستغرب هذا الطرح ،إذ كيف يعقل أن يغادر المعتضد إشبيلية ويقف عند مدخل قرمونة بمعية عبد من عبيده بسبب الخمر التي احتساها مع ندامه.

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يسمح للمعتضد أن يغادر اشبيلية دون حرسه وفي جنح الليل، ثم هناك قرينة أخرى لبطلان هذه الرواية وهي ما هي المهمّة التي سار من أجلها المعتضد إلى قرمونة؟ ثم أن المسافة بين إشبيلية وقرمونة لا تسمح بأن يسير أمير مع واحد من خدّامه خصوصا وان المنطقة شهدت حروبا ووقائع في عهد المعتضد نفسه ،ثم هناك قرينة أخرى وهى لو فرضنا جدلا أن سبب ذلك هي الخمر التي احتساها مع ندامة ولعبت برأسههى التي قادته إلى عرين البرازلة، وهل كان هؤلاء يخلون سبيله دون التعرض له؟ وعليه وبناء على المقارنة بين النصين فيكون من المرجّح أن الرواية التي ساقها كل من ابن بسام الشنتريني وابن عذاري المراكش هي الارجح ومهما يكن من أمر فإن المعتضد عاد إلى اشبيلية سالما، يتفجّر غيضا على هؤلاء الأمراء، يدبّر كيدا يليق بهم ويكون من جنس عملهم، بدلا من المجابهة واستعمال السلاح[3]، فأمهلهم مدّة ستة أشهر وكتب إليهم يدعوهم لوليمة [4] زعم أنها لاعتذار أبنائه[5] وكان قد دعاهم قبل ذلك في نهاية زيارته لهم إلى زيارة مماثلة ووقفوا

---

[1]- النويري، المصر السابق، ص153.

[2]- النويري، نفسه، ص: 154-153.

[3]- نفسه، ص: 373.

[4]- نفسه، ص: 155، تاريخ الأندلس، ص: 261.

[5]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 270.

جميعهم مغتبطين بذلك ،ولم يكن احد منهم يدري أن دعوتهم إليه هي دعوة لحتفهم الأخير[1] ،يقول ابن بسام : «وجأجأ[2] بالحاجبين المذكورين لأول تمكنه من الغرة وساعة صدره من مركزه من الحضرة فتهافتا تهافت الفراش على الجمرة وجاء مجيء الكائن إلى الشفرة»[3]، وحتى ابن خزرون المنتزي صاحب أركش الذي لم يكن مدعوا لهذا الاعذار انظم متطفلا على ابن نوح صاحب مورور وابن أبي قرة صاحب رندة، فسار هو الآخر إلى حتفه مغتبطا يرفل في زينته، وفيه يقول ابن بسام: «... وتطفل محليهما الكائن ابن خزرون المنتزي كان وقته بأركش، فللّه أبوه وافدا لم تجزه الوفادة، وولاتها له قتيلا لم يحل بطائل الشهادة فجرع الكل الحتوف وحكم في عامتهم السيوف، واستمر بعد ذلك على حرب بقاياهم، وتتبع أخراهم، حتى تغلب على بلادهم».[4]

فشدّ هؤلاء الرحال ملبين دعوة المعتضد، مصحوبين بأتباعهم من الأمراء والمقربين من أعيانهم في أحسن هيئة يقول ابن عذاري: «فأتوه في أحسن زيّ وأبهى ملبس وأفخم عدة، وكانت زيارتهم له قبل ذلك مترددة فجاءوا إليه يباهون عليه في نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم»[5].

ولقد وصل هؤلاء إشبيلية سنة 445هـ-1053م وتظاهر المعتضد بسرور اللقب، وأقام لهم الولائم الفاخرة واعدّ لهم جميع أسباب الراحة التي تليق بمقام الأمراء[6]، ولكن سرعان ما قلب لهم ظهر ظهر المجيء، حيث أنه في اليوم الثالث من زيارتهم، دعاهم للدخول عليه، واخذ يؤنبهم على تقصيرهم وعدم الوقوف إلى جانبهم في محاربة أعدائه، فلما أرادوا الدفاع عن أنفسهم واخذوا يوضحون له مواقفهم ردّ عليهم بكلام خشن وأشال على أحدهم بيده[7]. فأمر عبيده بالقبض عليهم

[1]- محمد شرف الدين، المرجع السابق، ص: 208.

[2]- جأجأ: امر للإبل بورود الماء، وأصله جيء، وجؤجؤ: أمر لها بورود الماء وهي بعيرة، ابن منظور، المصدر السابق، ج03 ص: 61.

[3]- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج02، ص: 20.

[4]- نفسه، ج02، ص: 20.

[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 270.

[6]- شريفة رحماني، المرجع السابق، ص: 212.

[7]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 270.

وتكبيلهم بالأغلال ووضعهم في سجن انفرادي ،واستولى كل سائر متاعهم وخيلهم وسلاحهم، يقول ابن عذاري: « ضيق عليهم في معاشهم وكانت الكبول ضيّقة عليهم فأثرت في سوقهم حتى كان احدهم لا يستطيع الرسفان إلى حاجته حتى تحمله العامة من الرجال»[1]، فلما أحس المعتضد تدهور حالتهم وإنهم أحسوا بغدره لهم، أمر بإخراجهم وقد اعد لهم طعاما متنوع، فدخلوا عليه فأكرمهم ثم أمر بتجهيز الحمام ودعاهم إلى الاستجمام، وجلسوا إزاء الحوض، وبينما هم ينعمون فيه، أمر عبيده بالبناء فبنى عليهم على دفة بيت الحمام ،وسدت جميع المنافذ وأمر السخان، يقوي نار الحمام فالتهف الحمام بالحرارة فاستبقوا الباب يرومون الخروج فلم يهتدوا إلى منفذ أو ثغرة فاختنقوا وهلكوا جميعا.[2]

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد قراءة هذه القصة الغريبة، هو كيف تنكر المعتضد للجميل الذي أسداه أبو نور أبي قرة حين همّ أحد من البربر بقتله؟ يورد صاحب كتاب أعمال الأعلام أن الأمراء الثلاث بما فيهم أبو نور هلال بن أبي قرة، حيث يذكر أن الأمراء الثلاث ويذكرهم بأسمائهم وإنهم سبقوا إلى المذبحة جميعها قوله: «وأمر بتطييب الحمام لهم وحملهم إليه عبيده وهم الثلاثة أمراء المذكورين أبو نور وابن نوح وابن خزرون»[3] ويؤكد ذلك في موضع آخر حيث يقول: «واحتال على طائفة من رؤساء أعدائه البرابرة ببلده، فأدخلهم الحمام في سبيل التكرمة، فسد بابه إلى أن هلكوا عن آخرهم».[4]

وحتى صاحب مفاخر البربر يؤيد هذه الروايا قائلا: «وقتل رؤساؤهم في الحمام في أخبار طويلة في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة»[5]، إلا أن التاريخ الذي ذكره صاحب المفاخر متأخر جدا عن

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 295.

[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 239.

[3]- نفسه، ص: 239.

[4]- نفسه، ص: 156.

[5]- أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 148.

الواقعة التي من المرجح وقعت سنة 445هـ- 1053م، كما في كتاب البيان المغرب لابن عذاري[1]، ومن الأهمية أن نشير هنا إلى تناقض سافر وقع فيه ابن عذاري عند حديثه عن الثلاثة أمراء الذين قتلوا في حادثة الحمام، فهو يذكر في موضع أنهم قتلوا جميعهم بما فيهم أبو نور هلال بن أبي قرة، غير أنه يستدرك ذلك في حديثه عن عزّ الدولة صاحب مورور أنه لم ينج من الحادثة سوى أبونور[2] الذي أطلق المعتضد سراحه لليد التي كانت له عنده في مثلها[3]. وللإشارة فإن المذبحة لم تطال الأمراء فحسب بل شملت بعضا من الحاشية المرافقة له.[4]

والمتأمل في النص أعلاه يدرك مدى الانحلال والفساد الأخلاقي، الذي كان عليه بعض أمراء الطوائف، وكم كان صاحب تاريخ كتاب ًتاريخ الأندلس ًمحقّاً عندما وصف المعتضد بما يلي:«وكان المعتضد ظلوما غشوما غادرا، سفاكا للدماء، جائرا لا دين له ولا عهد، وكان يقتل بالعبث والعذاب، وسوء عنده في ذلك البر والفاجر».[5]

إذ كيف يعقل أن يقدم أمير مكلف بإدارة إمارة إسلامية أن يقدم على هذا العمل الشنيع ولو توقف عند هذا الحد لهان الأمر، وعد إقدامه على ذلك كردة فعل، لما أراد هؤلاء قتله وهو في ضيافتهم، بل تعداه إلى أفظع من ذلك، حين عمد إلى عمل في غاية الرداءة دلّت على سوء سريرته وفساد طبعه، فقد كانت له حديقة فسيحة الخطة ملأها برؤوس ضحاياه من الأمراء، وجعل يتباهى بها على من حلّ عنده من الأمراء والأعيان يقول ابن حيان معاصر هذه الأحداث: «وقد كانت لعباد وراء هذه الحديقة المائلة قلوب البشر ذعرا مباهاة بخزانة بلوى أكرم لديه من خزانة جواهره

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 295.
[2]- نفسه، ج03، ص: 295.
[3]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 188، صلاح خالص، المرجع السابق، ص: 128.
[4]- ابن خلدون، نفسه، ج04، ص: 188.
[5]- مجهول، تاريخ الأندلس، ص: 261.

مكنونة جوف قصره أودعها هام الملوك الذين بسيفه منها ،رأس محمد بن عبد الله البرزالي شهاب الفتنة ورؤوس ابن خزرون وابن نوع وغيرهم».[1]

يشير ابن بسام التنتزيني أن المعتضد لم يكن وحيد عصره بهذه الأفعال الشنيعة بل سبتة إليها واحد من كبار رؤوس الفتنة التي عصفت بوحدة الأندلس ألا وهو محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي يقول ابن بسام واصفا شناعة أفعاله: «... سبق عبادا إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه أيام أكثر له واضح الخصي العامري من إرسال برؤوس الخارجين عليه لأول وقته، وأصلح باب مدينة سالم، فغرس منها فوق الخشب المعلبة بها بشط النهر قصره حديقة هول عريضة طويلة الخطة».[2]

وتغنى بها شعراؤه كقول صاعد بن الحسين من قصيدة مطلعها:

جَـلَاءُ العَـيْنِ مُبْهَـجَة النُـفُـوسِ حَـدَائِــقِ أَطْلَــعَت ثَمَــرَ الــرُؤُوس

هُنَــاك الله مُهْــدِي الـمَسَـاعِـي جَـنَـى الــهَامَاتِ مِن تِلْكَ الغُرُوسِ[3]

الغُرُوسِ[3]

لقد هزت هذه الجرائم التي اقترفها المعتضد في حق أمراء البربر، ضمائر إخوانهم البربر المجاورين لهم[4]، وخاصة بنو زيري أصحاب غرناطة الذين ما إن سمعوا ما وقع لإخوانه من البربر وخاصة نصر بن أبي نور اليفرني، يصف ابن الخطيب حالة باديس بن حبوس لما بلغه الخبر وكيف أرغى وأزيد، وكاد أن يفقد صوابه يقول ابن الخطيب: «... وأنّ أميرها قام للمحادثة وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشق أثوابه وأعلى أعواله، وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه، وجفا ملاذه، وأوهمته نفسه الخبيثة تمالئ رعيته من أهل الأندلس، على الذي دهى أبا نصر».[5]

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 13.

[2]- نفسه، ج02، ص: 12-13.

[3]- نفسه، ج02، ص: 12.

[4]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 45.

[5]- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ج1، ص: 242.

فلما سكت عنه الغضب راح يخطط بمكيدة دلت على خساسة نفسه هو الآخر ،إذ أراد أن يلحق الأذى بالمعتضد من خلال إبادة رعيته الأندلسية وأقسم على ذلك، وسعى إلى التخلص منهم مدفوعا بعصبيته البربرية فهجر ملذاته، وأقلع عن الخمر، وشاور في ذلك وزيره يوسف إسماعيل اليهودي[1] الذي نهاه عن ذلك وخطأه رأيه فيه، ونصحه بالتّروي، حتى لا يثير غضب الأندلسيين عليه، وتأبهم ضده، وأنهم إذا حدث مكروه لإخوانهم في غرناطة لا يغمروا سيوفهم حتى يقضون عليك، وبالرغم من إلحاح يوسف إسماعيل اليهودي إلا انه ركب رأسه، وضرب بكلامه عرض الحائط.[2]

وأمر أمير الجند أن يعدهم للقتال وحدد يوم الجمعة للفتك بالأندلسيين إلا أن وزيره يوسف دس النساء إلى جماعة من المقربين إلى الأندلسيين يحذرهم من الحضور إلى المساجد في اليوم الذي أعده للمؤامرة، ففشا الخبر وتخلف الناس عن شهود الجمعة، وامتنع باديس لهذا العمل ولم يشك في أن وزيره يوسف بن إسماعيل هو من أذاع الخبر، وحال دون حضور الأندلسيين لأداء صلاة الجمعة، وعاقب الوزير على ما فعل، فرد عليه الوزير بكلام به حجة دحض بعض شكوكه يقول ابن الخطيب ما جاء على لسان يوسف بن إسماعيل اليهودي: « ومن أين ينكر على الناس الحذر، وأنت قد استركبت جندك، وجميع جيشك في التعبئة لا لسفر ذكرته ولا لعدو وثب إليك، فمن هناك حدس القوم على انك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم وقادك إعصارهم، فأعد نظرك يا سيدي، فسوف نحمد عاقبة رأيي وغبطة نصحي»[3].

1- يوسف بن إسماعيل اليهودي: كان هذا الرجل وزيرا لباديس بن حبوس كان جميل الوجه، حاد الذكاء، كان بارعا في إدارة شؤون القصر، واستخراج الأموال وكانت له عيون عليه في قصره من نساء وفتيات شغلهم بالإحسان إليهم والأنعام، فكان لا يخف عليه شيء من أمور باديس، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهودي ذلك، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 264-265، ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 243.

2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص: 242.

3- نفسه، ج1، ص: 242.

ومع ذلك فقد ظلت هذه الحادثة في حق البربر، شوكة في حلق باديس بن حبوس، وظل يتجرع مرارة الفعل الشنيع، وجهز جيشه واتجه نحو إشبيلية لا ينوي على شيء والتحم الجيشان في معركة ضاربة انتهت بهزيمة باديس بن حبوس.[1]

وفيما يخص أبا نور هلال بن أبي قرة اليفرني الذي سبقت الإشارة إليه والذي عدّه ابن الخطيب من ضحايا حادثة الحمام، إلا أنه قد نجا بفعل ما قد أسداه من جميل للمعتضد وقد وضحت ذلك سلفا بشيء من التفصيل، وهو إذا نجا من الموت الزآم الذي انتهى إليه أصحابه فلم ينج من الاعتقال، حيث ظل معتقلا في اشبيلية إلى حين أطلق سراحه.

ومع ذلك فقد أراد المعتضد أن يقترف جرما بواسطة هلال بن أبي قرة الذي ظل سجينا عنده مدة طويلة حتى يئس أهل رندة من عودة أبي نور، وخصوصا أنه بلغهم أنه قضى مع الحجاب الذين كانوا برفقته، وعندئذ قاموا بتعيين ابنه باديس وبايعوه على الإمارة.[2]

وكان باديس هذا معروف لدى الرعية بأخلاقه الفاسدة، عربيدا لا يتورع في ارتكاب المنكرات وجاهر بها حتى ضاق منه أهل رندة بعد أن ذاقوا منه الأمرين، يذكر ذلك ابن عذاري قائلا: «وكان فاسقا مجرما فسام الناس الخسف وامتحنهم في أموالهم بالنهب وفي نسائهم وبناتهم بالعهر وأباح لرجاله الجرم فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن والبنات من آبائهن».[3]

وللباحث أن يتأمل إلى المستوى الذي نزل إليه هؤلاء الأمراء من الإباحة والتفسخ ،وقد صور ابن حيان وهو شيخ مؤرخي الأندلس بلا منازع فقد قال واصفا عصره أي عصر الطوائف قائلا: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة فسفسف أخلاقهم، واجتث أعرافهم، وسفه أحلامهم، وخبث ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل يعلّلون نفوسهم بالباطل».[4]

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج04، ص: 189.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 313.

[3]- نفسه، ج03، ص: 313.

[4]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج04، ص: 452.

أما ابن حزم وهو الساخط على ما آلت إليه بلاد الأندلس من الفرقة والضياع، وتردي الأخلاق قائلا: «اللهم إننا نشكو إليه تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب ... وبجمع أموال ربما كانت سببا في إقراض أعمارهم، وعونا لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك».[1]

وتشير المصادر أن المعتضد بن عباد أراد أن يتخلص من باديس وذلك بأنه يسعى إلى إبلاغ أبي نور بواسطة كتاب زعم المعتضد أنه من إحدى جواري أبي نور تشكوا إليه ابنه باديس، وما نالها من حرام [2]، وأبلغه أيضا أن ابنه اقترف جريمة أفضع من سابقتها وهي الزنا بعمته[3] أي عمة باديس[4]. فلما استكملت حلقات التآمر وحيكت خيوطها بإحكام من قبل المعتضد، أطلق سراح أبي نور الذي توجه نحو بلده رندة وقد أعدّه المعتضد إعداد جيدا للتخلص من ولده باديس، وهو ما أقدم على تنفيده على عجل فأمر بإلقاء القبض على ابنه باديس، ودون أن يعمد إلى تقصّي الحقائق والمساءلة أمر بضرب عنقه وألحق به عمته[5]، وكانت هذه محنة عظيمة إنظافت إلى محنته السابقة وتجرعها أبو نور أيّما تجرع ،إلا أنه وبعد مدة أدرك أنه وقع في شراك المعتضد، وللإشارة فإن هذا الرجل قد أقدم في العديد من المرات على اقتراف مثل هذه الأساليب يقول ابن بسام: «ومن نادر أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك الأمم العاتية، وإنه لغائب عن مشاهدتها، مترفه عن مكابدتها، مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره».[6]

---

[1]- ابن حزم، رسائل ابن جزم، ج03، ص: 41.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج03، ص: 32.

[3]- ابن عذاري، ج03، ص: 313.

[4]- عمة باديس هي زوج الحسن بن القاسم الحمودي الذي أنجب معها هاشم وعقيل قتلها أخوها أبو نور بن أبي قرة، إذا اتهما بابنه باديس يسميه ابن حزم، إدريس. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص: 51.

[5]- نفسه، ص: 51.

[6]- ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 12.

فلما عاد أبو نور إلى رشده ودري فضيع جنايته، وتبين له أن المعتضد بن عباد كان يسعى للتخلص من ابنه باديس ،شعر بالذنب وألم به الأسى وندم ندما شديدا على هذا التسرع في اتخاذ قرار الإعدام، وكان عليه أن يتريّث،ولوتطلب ذلك وقتا طويلاوظلّ يتجرع مرارة ما حدث له إلى أن اعتلّ ثم وافاه أجله سنة 1057/449م، أسفا على ابنه البريء.[1]

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج07، ص: 32، شريفة رحماني، المرجع السابق، ص: 215.

أركش وموررور آخر المعاقل البربرية في الجنوب:

عندما انتزى الدمريون في منطقة الجنوب، لم تكن العلاقات مع جيرانهم من البربر أو الأندلسيون في إشبيلية قد توترت، فالإمارات المجاورة انطوت على نفسها بعد خروجها من الفتنة التي استهدف البربر الذين أصبحوا طرفا أساسيا فيها. فإزواؤهم في منطقة الجنوب، جعلهم في منآى عن إثارة الفتنة من جديد، بسبب ما خلفته من ضحايا في صفوف الأندلسيين.

وفي حقيقة الأمر فإن هؤلاء الأمراء من البربر كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه المناطق قبل نشوب الفتنة، إلا أنهم أرجئوا الإعلان عن الاستقلال إلى حلول الظروف المواتية.

يقول صاحب المفاخر: «فأقاموا بالأندلس إلى أمد الجماعة ونزول الفتنة المبيدة، فكسحوا في الفتنة كما فعل غيرهم واستقر أمرهم آخرا بالمدينة رندة واحوازها وبلاد شذونة وتاكرونا وموررور».[1]

عاشت إمارة مرورزنا ثلاثين عاما تحت إمرة الأمير نوح المدري الذي ساس بلاده وقام بالإمارة أحسن قيام، إلى أن هلك سنة 433هـ/1013م، وقد ذكر ذلك ابن خلدون: «وكان من رجالاتهم نوح الدمّري وكان من عظماء أصحاب المنصور، ولاه المستعين أعمال موررور وأركش فاستبد بها سنة أربع في غمار الفتنة وأقام بها سلطانا لنفسه إلا أنه هلك سنة ثلاث وثلاثين فولى ابنه أبا مناد محمد بن نوح وتلقب بالحاجب عز الدولة في لقبين في قرب شأن ملوك الطوائف».[2]

وبهذه السياسة التي انتهجها نوح بن أبي تزيري، ظل بنو دمر غائبين عن بؤرة الصراع المحتدم في منطقة الجنوب بين بني برزال، وبني الأفطس وخصومهم بنو عباد.

وبعد وفاة نوح بن أبي تزيري سنة 433هـ-1013م خلفه ابنه أبو مناد محمد بن نور الدمّري وتلقب بالحاجب عزّ الدولة على غرار ملوك الطوائف الذين استكثروا من هذه الألقاب[3].

---

[1]- أبو علي صالح الإيلاني، مفاخر البربر، ص: 147.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج07، ص: 71.

[3]- محدد ابن الخطيب هذه الألقاب مستخفا بملوك الطوائف الذين لم يكونوا في مستوى هذه الألقاب قائلا: (وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد، ومعتضد، ومرتضي، وموفق، ومستكف، ومستظهر ،ومستعين، ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 144

وكان محمد بن نوح هذا كما وصفه ابن الخطيب فتى غرا، وجنديا جاهلا، حديث عهد بالإمارة[1] لا يعير أي اعتبار للفضائل والمكارم، إلا أنه كان جسورا مقداما لا يعبأ بمن يعترض .

واستطاع بهذه الجرأة والحزم أن يحافظ على مملكته، مقتفيا آثار أبيه في سياسته مع جيرانه البربر، وكذلك المداهنة والمداراة مع بني عباد.

وعن هذه الخصال التي تخلى بها محمد أبو مناد في إدارة إمارة مررور يقول ابن عذاري: «وثار بمورور سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وكان له بأس ونجدة وجرأة على الفتك والهتك ودامت دولته بالسياسة مدة والعنف والجرأة وبسط الكف مدة وحفظ بلاده وسلم من الجور رعيته».[2]

إلا أن المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية ظل متوجسا من قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية والشاسعة، وظلّ حريصا على تصفيتها والتخلص منها إلى الأبد[3]، أما علاقته مع أعدائه فقد اتّسمت بالخضوع والإستسلام ودفع الجزية يقول الأستاذ حسين مؤنس : «وكان همّه منصرفا إلى جمع المال بأي طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه والعدوان عليهم وخاصة من استضعفهم من أمثال البكريين أصحاب ولبة وشنتيش وبعض أمراء الطوائف من البربر في قرمونة واستجه وتاكرنا وما إليه، أما في مواجهة ملوك قشتالة فنجد أن ذلك الرجل يتهافت ويؤدي الجزية ويعرض الطاعة دون أن يفكر في أن يدعوا إخوانه من ملوك الطوائف المجاورين للوقوف صفا واحدا أمام العدوّ، وقتئذ فقد دفع الجزية لفرناندو الأول ملك ليّون ثم أداها لألفونسو السادس ملك قشتالة وليّون».[4]

فقد كان المعتضد بارعا في الفتك بأعدائه، يهادي تارة من اجل أن يشهر سيفه في وجه أعدائه الآخرين، وكان يهادن القويّ ليتفرغ للضعيف، وهكذا إلى أن يصفّي الجميع متجنبا المواجهة على جبهتين يقول صاحب الذّخيرة : «كان أول ما بدأ به من حربهم هجومه على الحاجب ابن نوح المنتزي منهم كان بكورة مورور وفي غير كتيبة نظمها، ولا مقدمة إليه قدمها إلا فتيان ينهبان عليه،

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 239.

[2]- ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 295.

[3]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 152.

[4]- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص: 427.

ويحملان الأموال بين يديه تجاسرا على ركوب الخطر الذي تحاماه اللبيب واستنامة لصرف القدر وهو لا يدري أيخطئ أم يصيب فخلص إلى ابن نوح هذا». [1]

وبالرغم من تهديدات المعتضد الذي أخذ يستفزّ حاكم مورور إلا أنه ظل ملتزما سياسة اللين والمهادنة، لان المجابهة كانت تعني له نهاية دولته يقول ابن بسام «فبالغ ابن نوح في برّه وتضاءل الأمر وحمل ذلك من فعله على أحد أسباب السلامة وأتم وجوه الاستقامة». [2]

وقابل المعتضد سياسة ابن نوح بالاستحسان خاصة عندما كان يغدق عليه العطايا والصلات، والتودد إليه بالقدوم عليه.وقد حفظ المعتضد لهذه الإمارة حسن التعامل معها، فعندما تعرضت إمارة مورور إلى الهجمات من قبل الإمارات البربرية المجاورة وعلى رأسها باديس بن حبوس بمعية بني جهور اللّذين أرسلا جنودهما للمشاركة في هذا الحلف. [3]

وبالرغم من وجود بني عباد في المنطقة كأطراف قوية ،وباعتبارهم صانعوا اغلب الأحداث الواقعة هناك، إلا أنهم امتنعوا من المشاركة في هذا الحلف الذي استهدف بني دمر، بسبب ما كان من خصومة وحروب مع الفصائل المشاركة [4]، هذا من جهة ومن ناحية أخرى فهو أي المعتضد أراد ان يظهر لابن نوح التزامه بالعهد والمواثيق التي لاشك كانت بين الرجلين في المعاملات واللقاءات التي كانت تحدث من وقت لآخر، مع أن المعتضد كان حريصا على أن تتأصل هذه الإمارات إما على يديه أو على يد قوات أخرى فيكون قد أعفي هو من المجابهة والاقتتال. ولم يتخل المعتضد عن سياسة السلمية مع بني دمر حتى وقعت حادثة الحلف الملتف حول محمد بن القاسم بن حمود الحسيني بالجزيرة الخضراء، فقد أنضم محمد بن نوح الدمري إلى هذا الحلف الذي ضم المجموعة البربرية

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 20.

[2]- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج02، ص: 20.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 269.

[4]- نفسه، ج03، ص: 269.

التي سارت تحت راية إمامهم الجديد لمجابهة المعتضد بن عباد ولم يقضوا من ذلك وطرا وباءت حملتهم بالفشل.[1]

ولعل هذا الموقف لابن نوح الذي أغاض به المعتضد، إلى جانب ما وقفه أمراء البربر حياله، هو الذي جلب له ولأصحابه عداوة المعتضد الذي أقبل على فعله الشنيع وقتلهم شر قتلة، ومع ما قام به محمد بن نوح الدمري حين وقوفه إلى جانب بني جنسه من البربر إلا أنه خفف عقوبته إلى السجن الذي غيبه به عن إمارته مدة طويلة.

وإن الباحث ليجد نفسه مضطرا إلى معرفة الأسباب والدوافع التي كانت وراء إقدام المعتضد على ارتكاب هذا الفعل الشنيع الذي تتقزز منه النفس البشرية .لد قادني البحث عن هذه الدوافع إلى قصيرة شعرية نظمها الشاعر الأندلسي، أبو الحسن علي بن حصن الاشبيلي [2] ، وهي قصيدة طويلة ذكر فيها أسباب قدوم المعتضد على ارتكاب هذا الفعل الإجرامي، حيث يذكر أن أمراء هذه الجهات هم أول من حاك خيوط مؤامرة كادت أن تودي بحياة المعتضد لولا تدخل هلال بن أبي قرة الذي حال دون ذلك، وقد حفظ له المعتضد ذلك بتخفيف العقوبة، لأنه كان قد إنظم إلى أحد الأحلاف التي همت بحاربة المعتضد كما أسلفنا، يقول الشاعر علي بن حصن.

هُـم وَرَدُوا الـحَـوضَ الذي عَنْـهُ ذُدتَـهُم ... وَوَارِدُ ذَاكَ الـمَــاء لَابُــد يَعْــلِـقُ

هُــم نَقَــضُــوا مِيثَــاقَ عَهْــدِكَ عُنْـوَةً ... فَأَوْثَقَـهُم فِـي رَبْـقَةِ الأَسْـرِ مَـوْثِـقَ

هُــم أَنْضَــجُوا ذَاكَ الـشِـوَاء فَـرَّمَـدُوا ... وَهُــم طَبَـخُوا ذَاكَ القَـدِيرَ فَـأَزْعَقُوا[3]

فَـأَزْعَقُوا[3]

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 239.

[2]- أبو الحسن على بن حصن الأشبيلي، من مشاهير شعراء المعتضد، أديب وشاعر من أهل اشبيلية، ذكره أبو عامر بن مسلمة، مسلمة، اثني عليه ابن بسام الشتريني وأبدى تأسفه على أنماط الكتاب له من أهل عصر أو الذين جاؤوا من بعده يقول ابن بسام (وإني لأعجب من قوم من أهل أفقنا لم يعرفوه ولم ينصفوه، فأضربوا عن ذكره، وزهدوا في اعلاق شعره، ولعلهم حاسبوه بجز عبالات كان يعبث بها بين مجونه وسكر، وهيهات فضله أشهر وإحسانه أكثر ولو تأملوا قوله من قصيدة في إسماعيل لعلموا أنه رأس الصناعة وإمام الجماعة .ابن بسام، المصدر السابق، ج02، ص: 96، الحميري أبو عبد الله، المصدر السابق، ص: 383.

[3]- إبن بسام، المصدر السابق،ج2 ص: 110

وفيما يتعلق ببني خزرون في أركش، فهم لم يشذّوا عن القاعدة التي كان عليها جيرانهم من البربر فيما يخص سياستهم الخارجية والتي كانت قائمة على تأييد بعضهم البعض تارة والتزام الحياد تارة أخرى.

ففي سنة 439هـ-1058م أقدم ابن خزرون مع أمراء البربر على مبايعة محمد بن القاسم بن حمود الحسيني بالخلافة وخطبوا له على المنابر وهو ما يذكره ابن حيان قوله: «وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسيني وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء وهم أربعة أمراء إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ومحمد بن نوح الدمري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبييرهم باديس بن حبوس بعد قضاء المعتضد على أجواء البربر في حادثة الحمام، تحول الجنوب الأندلسي إلى دار حرب، واحتدم الصراع بين اشبيلية، وأجراء الجنوب».

واجتمع أمراء البربر من اجل وضع حد العدوان المعتضد، وختم هذا الحلف زعماء البربر وعلى رأسهم باديس بن حبوس وإسحاق البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدمّري صاحب مورور وعبدون بن خزرون صاحب أركشي، والمظفر محمد بن عبد الله ابن الأفطس صاحب بطلوس، وفتح الله بن يحي اليحصبي[1] صاحب لبلة على مواجهة المعتضد بن عباد في عقر داره ومعهم المهدي بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء فنازلوا المعتضد وانس أرضه وانصرفوا عنه، فلم يفض الله لهم ما أرادوا وكم يكبوا لهم بعد ذلك اجتماع ولا اتفاق.[2]

---

[1]- فتح الله بن يحي البحصبي: يويع له قبل خروج عمه من لبلة فاستقامت حله سالم المعتضد على مال يؤديه إليه كل سنة، فانقض عليه المعتضد وحاصره وأعلن عليه الحرب التي دارت رجاها في العديد من المرات وكانت الغلبة فيها لابن عباد، فلما ضاق البحيصي في ربما واثنين عزمه في مواجهة تهديدات اشبيلية، أعلن استسلامه وغادر لبلة وسلمها للمعتضد وابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج03، ص: 301.

[2]- نفسه، ج03، ص: 230-229، ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 142.

إن المتتبع لهذه الأحداث التي دارت رحاها في الزاوية الجنوبية، والتي ملأت العقود الأولى من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، حراكا وضجيجا، ولم تسكن إلا بعد أن أمحت معالم هذه الدويلات.

لم يكن هرج الاقتتال بسببه الاستفادة من الرقعة الجغرافية للطائفة الأندلسية في اشبيلية، وإن كان ذلك ضمن مشروع زعماء بني عباد المتعاقبين على عرش اشبيلية أن هؤلاء البربر الذين أنزوو في هذه المنطقة المجاورة الاشبيلية، شكلوا خطرا على الطائفة الأندلسية، بنقض العهود، وتشكيل الأحلاف العسكرية التي هددت المناطق التي كانت تعتبر مجالات حيوية لبني عباد.ظل الصراع قائما بين الطرفين، وانصرف كل طرف في مجموعته العصبية، وغدا الصراع صراعا اثنيا.

صحيح أن الصراع في بدايته بدأ عندما شرع العباديون في توسيع مملكتهم على حساب الإمارات البربرية الصغيرة، يقول الأستاذ محمد بن عبود وهو من ينفي صفة العصبية على الطوائف الأندلسية عموما وعلى بني عباد خصوصا حيث يقول «ولعل أقوى دليل ضد المنهج المبني على العرقية في معالجة علاقات ملوك الطوائف يكمن في كون الأمثلة المأخوذة من الواقع التاريخي للأندلس في عهد الطوائف تثبت عكس ذلك... فعلى سبيل المثال، مساند القاضي ابن عباد وهو عربي حاكم قرمونة البربري محمد البرزالي عندما أطاح بربري آخر هو يحي بن حمود حكمه سنة 427هـ-1035م».[1]

فإذا سلمنا جدلا بهذا الطرح الذي ذهب إليه أحمد بن عبود في نفي العرقية والعصبية في العلاقات بين ملوك الطوائف، بناء على موقوف أمير بربري إلى جانب أمير عربي في مواجهة أمير لعرق مماثل للبربري، فهذا موقف قد يلجأ إليه شخص أو طائفة في فترة من الفترات، ولا يمكن أن يبنى عليه حكم او قاعدة في تعميم نص الانتماء العرقي في العلاقات بين ملوك الطوائف، وإلا كيف نفسر سخط وحقد باديس بن حبوس على المعتضد وهو عربي ينتمي إلى المجموعة الأندلسية عندما

[1]- أحمد بن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره، منشورات عكاظ تطوان، ص: 61.

أعدم الأمراء الثلاث، وأدى ذلك إلى تكتل البربر ومواجهة جيش اشبيلية، وقرعت طبول الحرب في المنطقة إلى أن زالت الإمارات البربرية.

ولو عدنا إلى ما احتوته أشعار الشعراء الموالون للمعتضد، لوجدنا تصريحات سافرة لهؤلاء الشعراء، وهي تنعت الطائفة المواجهة بألفاظ طائفية تنّم عن انتماء عرقي كما في شعر على بن حسن الذي سبقت الإشارة إليه.

بِه أَمَـرَ الـرَحْمَانُ دُمَـرَا وانْـــطَوَى بَنُـو يَفْـرَن أَعْـدَى الأَعَـادِى وَأْمْرَقُ

وَمِـــــنْ آلَ يـَرْنِيَـــانِ أَنْـــكَثُ أُمَـةٍ لِعَهْـدٍ وَمِيثَــاقٍ وَأَغْــوَى وَأَفْـسَـقُ[1]

ثم هناك دليل تاريخي آخر يجعلنا نسلم بهذا الطرح، فسليمان المستعين عندما أزاح غريمه المهدي عن الحكم، وانتصب مكانه شرع على عجل في مكافأة البربر فأبعدهم عن قرطبة، ومنحهم أقاصي الجنوب لوجودهم فيها قبل الفتنة من جهة، ولابعاد شبحهم عن الأندلسيين في قرطبة من جهة أخرى، إن هذا التجمع الذي التفت حوله الأجزاء المبعثرة للبلاد هو تجميع عرقي بلا جدال، تصرف فيه أهله نحو الطوائف المجاورة لهم بمنطلقات تاريخية تعوض مجموعها إلى إحداث الفتنة وما قبلها.

[1]– ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج02، ص: 110.

الفصل الثالث

بنو زيري في غرناطة

بنو زيري في غرناطة خلال عهد الطوائف:

أصول بني زيري:

ينتسب بنو زيري في الأصل إلى قبيلة صنهاجة[1]، البربرية وهي بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى، وكانت منازلهم بأواسط المغرب وكان جدّهم مناد بن منقوش على رأس تلكته قبل سقوط الدولة الأغلبية 296هـ/909م ،وقد حكم قسما من إفريقية والمغرب باسم العباسيين عن طريق الأغلبية.

وكان مناد هذا كبيرا في قومه، حسن الضيافة لمن يمر به، وشاع ذكره واشتهر اسمه وذاع صيته في الآفاق[2]، وكان ابنه زيري مقدما عنده وعند عشيرته، يقود السرايا والجند من صنهاجه[3]، وهو قد

---

[1]- صنهاجة: بفتح الصاد المهملة وفتح الهاء وألف ثم جيم، أي صنهاج، وهو هناك بالصاد المشبهة بالزاي والكاف القريبة من الجيم إلا أن العرب شمولية وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج، وترتقي صنهاجة إلى صنهاج من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير وهي فخذ من هوارة، وهؤلاء من بطون البرانس، وحسب ابن الكلبي فإن كتامة وصنهاجة ليست من قبائل البربر وإنما هما من شعوب اليمانية تركتهما افريقش بن حيفي بإفريقية مع من نزل بها من الحامية، وعند الطبري ان البربر أخلاط من كنعان والعماليق فلما قتل جلوت تفرقوا في البلاد وغزا افريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم إفريقية.

أما صاحب كتاب الإكليل محمد بن الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني فإن لمتونة فخذ من صنهاجة وصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير وإن افريقش بن أبرهة لما ملك حمير خرج غازيا نحو بلاد المغرب وأرض افريقية التي نسب إليها خلق من قبائل حمير وزعمائها صنهاجة ومن جهة نظر ابن جزم نفي أن ينسب مجموع البربر إلى حمير حيث يقول: (وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير وبعضهم إللا بربر قيس عيلان وهذا باطل لاشك فيه وعلم النسابون لقيس عيلان ابن اسمه بر أصلا ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي اليمن، وعند ابن الأثير ما يعضد أقوال القدامى من أن صنهاجه من حمير وذلك في حديثه عن يوسف بلكين بن زيري بن مناد فينتسبه إلى صنهاج الحميري.

ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص: 495، القلقشندى أبو العباس، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط02، 1402هـ/1982م، ص: 170، ابن خلدون عبد الحميد، المصدر السابق، ج06، ص: 174-179، ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص: 151، عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، 1388هـ-1968م، ج1، ص: 268.

[2]- إسماعيل العربي، دولة بني زيري، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م، ص: 07.

[3]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج07، ص: 306-307.

ورث صفات النبل والشهامة من والده الذي أعدّه أحسن إعداد، وكانت هذه الخلال كفيلة بأن تظهره بمظهر البطل[1]، الذي تحدثت به الركبان في ربوع بلاد المغرب.

لقد أثارت هذه المكانة التي حظي بها زيري بن مناد مكامن الحسد عند أعدائه من صنهاجة، فكثيرا ما كان يشهر سيفه ضدهم، ويقمع شوكتهم، مما جعل أعداءه من زناتة يستغلون هذه الفجوة. إلا أن زيري لم يترك لهم فرصة المبادرة ولا حتى الاستعداد لها، فقد عاجلهم مرة عندما اشتم منهم محاولة الغدر به، فشن هجوما كاسحا على مغيلة وشتت جموعهم، وغنم ما معهم وقتل رؤساء كثيرين منهم، وعاد إلى قاعدته الخلفية الجبل تطري محملا بالغنائم، وكانت فيها ثلاثمائة فرس من خيل زناتة وزعها على أصحابه، وكانت هذه العدة نواة لخيانة زيري.[2]

كانت هذه الموقعة بأبعادها وانعكاساتها نقطة تحول في مسار هذه الدولة الفتية وبلغ صداها أنحاء المغرب، وعظم أمر زيري والتحق به خلق كثير حتى ضاق بهم المتسع، وعندئذ تولدت بينهم فكرة التجمع والاستقرار في موضع آمن يجعلونه مركزا للاستقرار وموقعا للاتكاء والانطلاق، فسار بهم إلى موقع استحسنه هو وأتباعه وبنى فيه مدينة أشير، وكان ذلك سنة 364هـ/974م.[3]

ظل الصراع محتدما بين الطرفين متواصلا، إلى أن ظهرت على مسرح الأحداث عناصر جديدة تربط مصيرها بالمروانيين بالأندلس، وأبرز هذه العناصر وأشدها خطرا هي مجموعة جعفر بن علي عامل العبيديين على المسيلة، وكانت بينه وبين زيري عداوة قديمة[4]، أحيتها أطماع كل منهما في ولاية إفريقية، عندما همّ الفاطميون بالانتقال إلى مصر.

وقبل أن تتوقف العلاقة بين جعفر بن علي والأمويين، عمد الفاطميون إلى استمالته إلى جانبهم، ومنحه ولاية المغرب حفاظا على النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب.[5]

---

[1]- الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص: 39.
[2]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 307.
[3]- نفسه، ج07، ص: 307.
[4]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 13-14.
[5]- سامية مصطفى سعد، المرجع السابق، ص: 73.

فعرض المعزّ ولاية المغرب على قائده جعفر المعروف بالأندلس، صاحب مدينة المسيلة وإقليم الزّاب الذي أعطى لآل جعفر حصانة طبيعية كونه ينحصر بين تخوم المسيلة وجبال مملكة بجاية شمالا وبلاد الجريد شرقا، وهي شديدة الحرارة وميلة لا يوجد بها إلا بئر من الماء، وتقل بها الأراضي الزراعية، وتكثر بها الوحات.[1]

غير أن جعفر تردد في تحمل المسؤولية، تحت وصاية الفاطميين[2]، ولعل هذا التمرد نابع من العلاقات الخفية مع الأمويين بالأندلس، واستحالة إخضاع بني زيري لقيادة زناتة، وهم قد شاركوا الجيش الفاطمي لإخضاع أبي بكر الجذامي عامل الأمويين على فاس[3] وهو مع ذلك قد اشترط شرطا تعجيزيا على المعزّ بحيث يجعله مطلق التصرف في بلاد المغرب تحت وصاية أحد أولاد المعز لدين الله الفاطمي، وكان رده على النحو التالي: «تترك معي أحد أولادك أو إخوتك جالسا في القصر وأنا أدبر الأمر، ولا تسألني عن شيء من الأموال إن كان ما أجيبه بإزاء ما أنفقه، وإذا أردت أمرا فعلته ولم انتظر ورود الأمر فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبلي نفسي».[4]

ومن خلال هذا الرد، يستنتج مدى الإعراض الذي أبداه جعفر محاولة منه لإبعاد الارتكاب بالفاطميين، كما يمكن أن يستنتج قوة الشخصية لدى جعفر في إصدار هذه السلسلة من الشروط وهو يعلم سلفا أنها مرفوضة جملة وتفصيلا.

لقد غضب المعز، وامتعض أشد ما يكون الامتعاض، ورد عليه قائلا: «يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبدت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت

---

[1]- الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ج02، ص: 138.

[2]- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 219.

[3]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 13.

[4]- المقريزي تقي الدين، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الحلفاء، تحقيق محمد عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م، ص: 175.

حظك، وما أصبت رشدك»[1]، ويفهم من كلام المعز أنه: رفض أن يعطي ولاية المغرب لابنه الذي قد يستقل هو الآخر ببلاد المغرب، فأعرض عن جعفر وأسند ولاية إفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري[2] الذي عرف كيف يستغل هذا العرض المغري، وأجابه إجابة اغتبط لها المعرب حيث قال: «يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح».[3]

ثمن المعّز لدين الله جواب بلكين بن زيري، وأخذه على محمل الجد، وفهم منه أن بلكين بن زيري عازم على أن يكون أداة طبيعية للفاطميين في بلاد المغرب، راع لمصالحهم فيها، ومنذئذ اعتبره المعزّ قائما بأعمال الفاطميين في بلاد المغرب وعهد إليه بالإمارة[4] وكنّاه بأبي الفتوح، وأوصاه عند توديعه بآبار الخشب قائلا: «اشفني في أولاد المجوس زناتة ومزاته»، ثم استطرد قائلا: «إن نسيت شيئا مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء، لا ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولي أحدا من أخوتك وبني عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوصى بالحضر خيرا».[5]

لقد كانت هذه الوصية من أكبر الأسباب التي أدت إلى هجرة زناتة إلى الأندلس[6]. والأرجح والأرجح في اعتقادي أن حادثة مقتل زيري بن مناد وحزّ رأسه ونقله إلى الأندلس كانت وراء تغير صنهاجة، وعزمهم على إبادة زناتة الذين ضاقت بهم أرض المغرب.

ثم أن هذه الوصايا وافقت هواً في نفس بلكين، فشن حملة كاسحة على زناتة، فلما بلغه أن أهل تاهرت قد عصوا[7] وأخرجوا عامله ،سار إليهم واعمل فيهم سيفه وخرب مدينتهم، وبلغه أن زناتة

---

[1]- المقريزي تقي الدين، المصدر السابق، ص: 175.

[2]- نفسه، ص: 99.

[3]- شارل أندري جوليان، تريخ إفريقيا الشمالية تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج02، 1983م، ص: 89.

[4]- الدرجيني احمد بن سعيد، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، ج02، ص: 138.

[5]- ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب في العصر الوسيط، ص: 65.

[6]- سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1993م، ص: 35.

[7]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 306.

زناتة دخلوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا أمامه، ونزل أهلها على حكمه، ونقلهم إلى أشير وفي المغرب الأقصى، دخل بلكين مدينة فاس وسلجمانية وملكهما وتقصى أثار عمال بني أمية، وقبض على أمير مغراوة ابن خزر فقتله، وأجفل ملوك وأمراء بني يفرن وبني حمود مثل بني يعلى بن محمد اليفرني وبني عطية بن عبد الله بن خزر وبني فلفول بن خزر، ويحي بن علي بن حمدون صاحب البصرة.

والتحقوا جميعهم بمدينة سبتة، واستغاثوا بالمنصور بن أبي عامر فأمدهم بالعساكر والحشود، والمنضوية تحت رؤساء زناتة المقيمين بالأندلس.

فلما رأى بلكين هذه الحشود التي امتلأت بهم أرض سبتة وموانئها قال: «هذه أفعى فغرت إلينا فاها»فهالة الأمر وقفل راجعا على عقبه.[1]

جواز بني زيري إلى الأندلس:

يرتبط عبور بني زيري إلى الأندلس بالأحداث التي تشهد الأسرة الحاكمة من بني زيري حيث اتفق أن ولي الأمر لأبي مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الملقب بنصر الدولة[2] على إفريقية سنة 386 هـ /1996م، وهو الأمير الزيري الثالث، بعد جده بلكين ووالده المنصور، فاستصغره أعمامه وأعمام أبيه واستهانوه ، فأشهروا في وجهه السلاح وقاتلوه، ولكنه انتصر عليهم، بعد حروب طويلة وقعت بينهم. وقد تألبت على باديس وبعض قبائل زناتة بقيادة فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي وزيري بن عطيه[3]، الزناتي أمير الغرب، واستطاع باديس بفضل قوات جيشه

[1]– ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج06، ص: 184-185.

[2]– ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب في العصر الوسيط، ص: 69.

[3]– زيري بن عطية: هو زيري بن عطية المغراوي بن عبد الله إبن تبادلت و هي أم زيري، بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي دعا لهشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، ملك زناتة وغلب على جميع البوادي وكذا مدينة فاس وعلا أمر وأرتفع شأنه فاستدعاه المنصور واستقبله بالتكريم والتجلة وكان يوما مشهودا وكتب له العهد على جميع المغرب، إلا أن هذه العلاقة لم تبق على حالها وفسد ما بينها من ود وحب شديد كما عبر عن ذلك ابن حيان، وذلك بسبب طموح زيري بن عطية للاستقلال ببلاد المغرب، مستهجنا لقب الوزارة الذي منحه إياه ابن أبي عامر، ومن يومها قطع زيري اسم المنصور في الخطبة على المنابر، مما أثار غضب المنصور فأعلن عليه الحرب، فاستبسل زيري مع جموع زناتة وكادت قوته أن ترد جيوش المنصور بقيادة ابنه

بأن يتخلص من خصومه، حيث انتهت أيام فلفل بن سعيد على يد فتوح بن علي، وكما استطاع حماد بن يوسف العزيز بالله أن يقضي على عمه ماكسن بن زيري ومن معه، فقتل ماكسن وولداه محسن وباديس.[1]

في هذه الظروف المدلهمة بخطوب الحرب والمواجهات، فكر زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي في العبور على الأندلس بمعية أبناء أخيه ماكسن، حباسة وحبوس.[2]

وقبل الحديث عن عبور زاوي إلى الأندلس، ثمة سؤال يطرح نفسه بالحاح وهو ما الذي دفع زاوي إلى التفكير في العبور، وهو يعلم أن أعداءه من الزناتيين الذين قتلوا أباه، قد سبقوه إلى هذه الأرض وصارت لهم مع حكامها صلات ووشائج.

هناك عدة فرضيات يمكن للمرء أن يحتملها، وقد صاغها إسماعيل العربي في التساؤلات التالية: هل كان هدف زاوي الاستشهاد أم المطالبة بثأر أبيه زيري بن مناد الذي لا يزال رأسه معلقا على جدار قرطبة؟ أم لمجرد محاولة اقتطاع إمارة له في الأندلس، بعدما عجز عن ذلك في إفريقية؟.[3]

صحيح أن زاوي بن زيري عندما استأذن المظفر عبد الملك للدخول إلى الأندلس بغرض الجهاد[4] فأذن له بذلك، وكانت هذه التأشيرة الوحيدة التي يمكن بواسطتها التماس الجواز إلى الأندلس.

إلا أن قراءة متأنية حول شخصية زاوي وحول تحركاته ومواقفه في الأندلس، تعطينا انطباعا قويا أن زاوي كان يبحث عن مسرح لذكائه وعبقريته السياسية[5]، وهو في إفريقية قد نازع ابن أخيه في الإمارة لكنه فشل في مسعاه.

عبد الملك لولى أن غدر بزيري فمات متأثرا بجروحه سنة 395هـ/1000م، ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 155-157- 158، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، 252م، السلاوي، الاستقصى.

[1]- ابن عذري، المصدر السابق، ج1، ص: 250-251-252.

[2]- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص: 294.

[3]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 22.

[4]- ابن عذري، المصدر السابق، ج3، ص: 263.

[5]- إسماعيل العربي، المصدر السابق، ص: 23.

وهناك قرينة أخرى تجعلنا نستبعد رغبة الجهاد عند زاوي وهي أن هؤلاء الزيريون كانوا أبعد ما يكون عن أبسط أمور الشريعة فضلا عن طلب الشهادة، فهم كانوا بواسطة الشريعة يستطيلون على الناس بما شاءوا من الشتم والعبث[1]، ومن هنا يمكنه القول أن زاوي لما لم يحقق طموحه في الملك في إفريقية كان له إلى الأندلس عزمة وركابا.

ومهما يكن من أمر، فإن زاوي بن زيري قد التجأ إلى جبل شنوة في المنطقة الساحلية الواقعة غرب شرشال، وظل ينتظر السماح له بالعبور إلى الأندلس، من المنصور بن أبي عامر الذي تردد في الإذن بذلك [2]، فهو لم يريد أن يجمع بين فصيلين متناحرين منذ أمد بأرض العدوة، كما أن السماح لزاوي بالعبور سوف يثير عليه أقوام زناتة في العدوتين، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المنصور لم يكن ليخفى عليه دهاء زاوي وذكائه، وظل حذرا ولم يسمح بذلك إلى حين وفاته.

وبمجيء المظفري عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، حصل نوع من الانفراج حيال بني زيري الراغبين في العبور إلى الأندلس، فكان لزعيمهم زاوي ما أراد، وجاز معه جمع كبير من أبناء قبيلته ومواليه ومن مقربيه ابني أخيه ماكسن، حباسة وحبوس، واستقبلوا بحفاوة، وإجلال في قرطبة.[3]

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن بعض من أرخ لهذه الأحداث يذكرون أن عبور زاوي كان عهد المنصور بن أبي عامر وفي مقدمة هؤلاء الأمير عبد الله الزيري[4] وابن خلدون عبد الرحمان[5] وممن اخذ برأيهم من المؤرخين المعاصرين أمثال محمد عبد الله عنان ،ومريم قاسم الطويل، وفي مقابل هؤلاء توجد كوكبة من المؤرخين يرجحون أن يكون عبور زاوي بن زيري في عهد المظفر عبد الملك بن منصور، ومن هؤلاء ابن عذاري المراكشي[6]، ولسان الدين بن الخطيب[7]، إلا انّه يذكر في موضع آخر على أن

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.
[2]- الهادى روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص: 133.
[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.
[4]- الأمير عبد الله الزيري، التبيان، ص: 57.
[5]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج06، ص: 186.
[6]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.
[7]- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص: 227.

أن عبور زاوي وابنه جلال كان على عهد المنصور بن بلكين[1] الذي حكم افريقية بين 374هـ-386هـ/ 984م-996م، وهي الفترة احتوتها حجابة المنصور بن أبي عامر 366هـ-392هـ/976م-1004م إلا أنه يستدرك هذه الأخطاء، ويذكر بصريح العبارة في كتاب الإحاطة قوله: «... أوجبت مخاطبة المظفر بن أبي عامر في اللحاق بالأندلس وإذن له في ذلك».[2]

ويضاف إلى هؤلاء ابن بسام الشنتريني الذي ذكر قدوم زاوي على المضطر بشيء من التفصيل والتبيين ،ومما جاء في معرض كلامه قوله: «وكان من أعظم من هاجر إليه منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي ... وكان المنصور أيامه قد التوى في الإذن له بالدخول إلى الأندلس حذرا من دهيه ومكره وبعد صيته في المغرب».[3]

وعلى أية حال فإن البربر من بني زيري قد دخلوا أرض الأندلس، بسمت الأمراء وجلال الملك الذين اضطروا إلى مغادرته لاكفلول مغربية طالبة للامان والاستقرار، وكانت هذه إحدى الأسباب التي جعلت إليهم العداء من قبل الأندلسيين.

يقول ابن بسام: «وكان شيخهم زاوي أول دخوله الأندلس يظهر أنواع البر والبشر للناس مالا شيء فوقه، وكان شأنه في الدهي والمكر والخلابة[4] عجبا وكان يرجع في إقامة ما اعتاده من سعة إنفاقه إلى ما جاء به من بلده من عقود وذخائر فيبيع من ذلك النفيس، وربما افترى من ذلك عبد الملك فيزيد في حسرته وكان عبد الملك راغبا في رفعة منزلته، وولاه الوزارة أرفع خطط أصحاب السلطان بالأندلس ووصل إليه الرسول بالصك في ذلك وطلب أن يصله عليه، فقال: لو جئتنا بمال لأسهمناك، وإنما خطتنا الإمارة لا الوزارة، وأقلامنا الرماح وصحائفنا لأجساد».[5]

[1]- لسان الدين ابن الخطيب، تاريخ المغرب، العصر الوسيط، ص: 68.
[2]- نفسه، الإحاطة، ج1، 294.
[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج04، ص: 50.
[4]- الخلابة: خلب الشيء خلبا أخذه بالمخلب، وخلب فلانا خلبا وخلابة خدعه وفتن قلبه، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ج م ع ، ط4، 1425هـ-2004م، ص: 247.
[5]- ابن بسام، المصدر السابق، ج04، ص: 51.

إلا أن بلاد الأندلس ليست هي بلاد المغرب، فإن ما كان بالأمس مباحا لهم في أقطارهم، قد يصح محضورا في الأندلس بفعل ضابط الشرع[1] الذي يقتصّ من كل هذين فهذا أبن أبي زيري قد اعتدى على مولى من موالي عبد الملك فقتله، فأخذه عبد الملك بذنبه فأقيم عليه الحد، فقتل وسلمت جثته إلى أهله.[2]

وعلى كل حال فإن بني زيري لم يستسيغوا هذه الأوضاع الجديدة التي آلوا إليها، بعد أن أنزلهم الدهر من شامخ عزهم إلى حضيض الخدمة تحت يد أعدائهم وأضدادهم [3] وتحت وطأة المعاناة كانوا يتناجون متذمرين ومنتقدين سياسة عبد الملك المظفر الذي كانت تصله بعض أقوالهم عن شخصه فيتغاض عن ذلك.[4]

وكان جنوح بني عامر إلى هذه السياسة نابع من قناعتهم بدور البربر في إنجاح سياسة العامريين في الداخل والخارج، ويبدوا أن سياستهم لقيت نجاحا كبيرا يمثل في وجود العديد من زعماء البربر رفقة أشياخهم من بلاد المغرب على دولتهم.[5]

ومهما يكن من أمر فإن بني زيري، قد تميزوا عن غيرهم من القبائل البربرية الوافدة على الأندلس أيام الحكم المستنصر الذي فتح الباب على مصرعيه لهذه الفئة لبناء جيشه.

لم يكن بني زيري كغيرهم من البربر في نظر خلفاء بني أمية ، لكون بني زيري أصحاب ملك في بلاد المغرب، فلذاك نالوا حظوة واحترام، فقد خصّ أميرهم زاوي بن زيري بمنصب الحجابة[6]، وهو

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج04، ص: 263.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 263.

[4]- نفسه، ج03، ص: 263.

[5]- عبد الإله بن مليح، إفريقية الزيرية وعلاقتها السياسية والاقتصادية بدول جنوب حوض البحر المتوسط والأندلس 361-543هـ/972-1148م، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سنة 1986م-1987م، ص: 145.

[6]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 294.

وهو منصب حساس قلما يناله رجل من العدوة، وهذا إن دلّ على شيئ فإنما يدل على المكانة التي صارت لصنهاجة أيام الدولة العامرية .

ظلّ زاوي ومجموع البربر على هذه الحال إلى أن اختل بناء الخلافة[1] بظهور محمد بن عبد الجبار في الفتنة ،الملقب بالمهدي الذي سبقت الإشارة إليه في معرض حديثي عن الفتنة القرطبية في الفصل الأول من هذا البحث.هذه الشخصية التي قامت بخلع الحاجب عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر [2]، ثم قتله. لقي البربر بقيادة زاوي بن زيري فرحتهم في المشاركة في هذا الانقلاب الذي سوف يزيد من مكانتهم، كشريحة بربرية، مساهمة في نظام الحكم الجديد.

وبدل أن تبقى هذه المجموعات خارج هذا الحراك الذي لن يزيدهم إلا نفوراً وإستهجاناً من قبل المجتمع الاندلسي ، إندفعوا مؤيدين لشخصية المهدي، إلا أن تأييدهم له لم يدم طويلا، فقد قلب لهم ظهر المجن ووجه سهام الأذية نحوهم .[3] يقول أحد الباحثين عن هذه العلاقة بين البربر والمهدي «وكانت سياسته تجاه العناصر الاجتماعية في الأندلس، مضطربة، وغير سليمة، فقد أمر الجند المغاربة بنزع السلاح، فكان ذلك بمثابة الضوء الأخضر لأتباعه بنهب دورهم، مما بدأ وكأنه أراد استرخاء أهل قرطبة، الذين يضمرون حقدا دفينا ضدهم تمهيدا للإجهاز عليهم واستئصالهم».[4]

وكان هؤلاء الجند الذين هم أداة المهدي في إقرار دعائم دولته، من نوكي الخدم وأرذال المتجندة من العامة[5] والكساحين، الذين أساؤوا إلى قادة الجند والأعيان حين أرادوا إيصال مظلمتهم إلى الخليفة المهدي واستخفوا بالكثير منهم، لطابع الجهل الغالب عليهم، وأوكلوهم وابلا من السبّ والشتم ،ولم يميزوا بين أعلاهم وأدناهم منزلة[6]، وكان زاوي بن زيري ممن نالته أذيتهم، وذلك عندما

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ج1، ص: 294.
[2]- الحميدي أبو عبد الله، المصدر السابق، ص: 30.
[3]- مريم قاسم الطويل، المرجع السابق، ص: 90.
[4]- عبد الوهاب خليل الدباغ، المرجع السابق، ص: 58.
[5]- ابن عذري، المصدر السابق، ج03، ص: 75.
[6]- نفسه، ج03، ص: 75.

سار إلى القصر ممتطي جواده لمقابلة المهديّ، فاحتبس بالباب كغيره من القادمين، وكلما تقدم خطوة ردوه، وقرعوا رأس فرسه، وكان ذلك مبدأ حقده عليهم، ولم يبد ذلك لأحد ولم يزد على أن قال: «هذه الرأس فاضربوا فالدابة لا ذنب لها».[1]

وكانت هذه من أخطاء المهدي الإدارية عندما اعتمد على عامة قرطبة في تسيير شؤون الدولة ولم يقف عند هذا الحد، بل تمادى في إظهار البغض علناً للبربر ولم يتكتم في ذلك[2] ، مما أعطى الضوء الأخضر لعامة قرطبة وفهموا من مواقف محمد بن هاشم أنها حرب معلنة ضد البربر، فاندفعوا لا يلون على شيء حتى أتاوا على دور أمراء البربر فانتهبوا دور بني ماكسن بن زيري ودور لبني زاوي بن زيري، ودور كثيرة للبربر بالرصافة[3]، فلما بلغ ذلك صاحب المدينة ضرب أرقاب ثلاثة من هؤلاء النهاية وطيف برؤوسهم، فاهتبل زاوي بن زيري وحبوس، وحباسة ابنا ماكسن وأبو الفتوح بن ناصر، هذا الاعتراف من صاحب المدينة، ودخلوا على محمد بن هاشم، فأخبروه بما حدث لهم مع عامة قرطبة، فقدم اعتذاره لهم ووعدهم باسترجاع ما نهب منهم [4]، وحتى يبين للبربر صدق نيته قام بإعدام بإعدام من قبض عليهم وكان هذا نفاقا منه إذ لم يكن اعتذاره صادر عن حسن نية تجاه البربر. فهذا كما أسلفنا قد حرّض العامة بلسان الحال أو المقال على تقتيلهم ونهب دورهم وقد علق ابن عذاري

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 75.

[2]- خالد الصوفي، المرجع السابق، ص: 137.

[3]- الرصافة: هو الموضع الذي ابتناه الأمير عبد الرحمان الداخل لنزيهته وسكان شمالي قرطبة، وشيد فيه جنانا واسعة، وجلب إليه من غرائب الغروس والأشجار من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه رسله إلى الشام من البذور النادرة، ونمت فيه أشجار ذات قطوف دانيه وسماها بالرصافة تيمنا بأرض أجداده ببلاد الشام، وكثيرا ما كان عبد الرحمان الداخل في أرجاء الرصافة متأملا، فشاهد ذات مرة نخلة أهاجب شجنة فتذكر وطنه الشامي فأنشد يقول:

تبـدت لنا بين الرصـافة نخـلـه تناءت بأرض الغـرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول ابتعادي عن بني و نعن أهلي
نشـأت بأرض أنـت فيـها غريبة فمثلك في الإقصـاء والمنتأى مثلي

المقرى، المصدر السابق، ج01، ص: 467، السيد عبد العزيز سالم في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة 1985م، ص: 41- 42، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، 1408هـ-1988م، ص: 208.

[4]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 180.

على هذا التلون والتغلب في سياسة المهدي قائلا: «فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه بسبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى».[1]

وهذه إشارة إلى أن الرأي العام الأندلسي كان وراء تجريم البربر وإدانتهم بأنهم كانوا وراء الفتنة ،في حين أن رؤوس الفتنة هم أولئك المتصارعين على كرسي الخلافة و من المروانيين وفي طليعتهم محمد بن هشام المهدي الذي لم يتورع في تحريض العامة ،والسوقة والإغفال إلى مواجهة البربر، فكان بذلك أقرب إلى قائد عصابة منه إلى خليفة للمسلمين. لذلك جعله بعض المؤرخين سواء منهم المعاصرين للأحداث أو الذين جاءوا من بعد على انّه هو من أشعل هذه الفتنة وزاد في اتقادها أمثال ابن حيان[2]، وابن عذاري [3] وابن الآبار. [4]

لما استيأس البربر من مواقف المهدي القائمة على إظهار العدل والإنصاف لهم من جهة وتحريض العامة ضدهم من جهة أخرى، وحتى أهل الأندلس لم يعودوا يثقون بالمهدي بعد أن وقفوا على كذبه وتزويره وعبثه بالأمن العام، فبايعوا خليفة آخر وهو هشام بن سليمان، إلا أن الأمر لم يدم طويلا فقد قبض المهدي على هشام وأخيه أبي بكر، وأحضروا بين يديه فضرب عنقيهما وذلك سنة 399هـ -1008م. [5]

وللإشارة فإنه لا يجب أن يفهم من هذا على أن الأندلسيين استنكفوا بابن عبد الجبار لما فعله بالبربر، وإنما كان يحركهم ضده عدم قدرته على فرض الأمن واستهتاره بالأخلاق والقيم التي أعتادها الأندلسيون في خلفائهم السابقين، فالأندلسيون ظلوا على معاداتهم للبربر، وأقلقهم تواجدهم بقرطبة،

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 76.
[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 21.
[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 76.
[4]- ابن الأبار، المصدر السابق، ص: 175.
[5]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج04، ص: 180.

للنفرة القديمة بينهم، وفي قول ابن الخطيب ما يعزز هذا الرأي «ونالت البرابرة والقبائل المغربية بدولة ابن عبد الجبار الإخافة والحمل للنفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة».[1]

وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن إغفال عامل العصبية في تحريك الصراع بين الأندلسيين والبربر أيام الفتنة، بالرغم مما كان يبدو أن المواجهات في قرطبة كانت حول السلطة، ومما جاء قول المقرى: «فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم، أبغضوهم وحسدوهم فلم نجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا»[2] صحيح أن العداوة بين الطرفين كانت نابعة من المواقف التي أبداها البربر أيام العامريين وما كان لهم من سطوة وقتئذ: «وكانت الأموية تعيد عليهم ما كان من مظاهرتهم للعامريين وبسبب تغلب المنصور وبنيه على الدولة عليهم، فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون، ولولى ما لهم من العصبية لأستأصلهم الناس، ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم».[3]

بعد مقتل هشام بن سليمان لم ييأس البربر وعلى رأسهم زاوي بن زيري من معاودة الالتفاف حول شخصية أموية تعيد لهم الاعتبار.

إستجمع البربر قواهم وإندفعوا عن بكرة أبيهم حتى انتهوا إلى فحص هلال، فنهض زاوي بن زيري خطيبا فيهم وحثهم على الإتحاد والتماسك، وحتى يجسد معانيه، وينزلها من حيزها النظري إلى حيزها التطبيقي، ضرب لهم مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدوده، ودفعها الى أشدّ من كان حاضرا منهم، وقال أجهد نفسك في كسرها واغمزها، ففعل الرجل فلم يقدر على ذلك، ثم دعاه إلى حلّها ومعالجتها رمحا رمحا فلم يصعب عليه كسرها فأقبل زيري على جماعته فقال: «هذا مثلكم يا برابرة إن جمعتم لم تطاقوا، وإن تفرقتم لم تبقوا، والجماعة في طلبكم فانظروا لأنفسكم وعجّلوا»، فقالوا: نأخذوا بالوثيقة ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة.

فقال لهم زاوي بن زيري: بايعوا لهذا القرشي سليمان يرفع عنكم الأنفة في الرياسات، وتستميلون إليه العامة بالجنسية ففعلوا.

---

[1]- لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص: 227.

[2]- المقرى التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 228.

[3]- نفسه، ج1، ص: 426.

فلما تمت البيعة قال لهم: إن مثل هذا الحال لا يقوى على أهل الاستطالة، فيقيد له رئيس كل قبيلة منكم، قبيلة يتكفل بها، وأنا الكفيل بصنهاجة، واجتمع كل فريق على تقديم سيده، فاجتمعت صنهاجة على كبيرها زاوي. [1]

إن المتأمل في خطاب زاوي بن زيري يدرك أنه أراد من وراء ذلك أن يحقق شيئين اثنين :

- جمع الأجزاء المبعثرة للبربر بمختلف انتماءاتهم العصبية الزناتية والصنهاجية وهذا من شأنه يقوي من عضدهم، حيث يبين لهم بصورة تطبيقية إنهم إن بقوا ملتحمين فإنه يصعب على أعدائهم أن ينالوا من شوكتهم، وإن هم تفرقوا فستباد شوكتهم وتذهب ريحهم.فحثهم على مبايعة سليمان، فهو ضمان لهم كي يبقوا قوة فاعلة في المجتمع الأندلسي، وتسري عليهم الامتيازات التي نالوها على عهد المنصور بن أبي عامر عندما قاموا بالأدوار الريادية في حروبه ضد خصومه.
- تتحقق لزاوي بن زيري الزعامة على البربر قاطبة ويمكنه ذالك من بناء قوة بربرية ويتشكل لهم الكيان داخل الاندلس.

وعلى هذا الأساس تمت مبايعة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر سنة 400هـ/1009م ولقبوه بالمستعين وتحركوا به نحو قرطبة، لا يلوون على شيء، وعاثوا بها فسادا وسلبوا محاسنها ومحاسن أهلها[2]، وباعتلاء سليمان المستعين كرسي الخلافة بقرطبة، تعرض الأندلسيون لاضطهاد البربر[3] مما حدى بأهل الثوار إلى مناشدة البربر بالمصالحة، فكتبوا باسم الخليفة هشام المؤيد، إلى زاوي بن زيري يناشدونه بعقد الصلح معه مقابل منحه ما يشاء من مال وولاية، ولكن خابت مساعيهم ولم ينالوا استجابة[4].

---

[1]- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص: 294.

[2]- ابن الخطيب لسان الدين، نفسه، ج1، ص: 294، المقرى، المصدر السابق، ج1، ص: 482.

[3]- الحميدي، المصدر السابق، ص: 31.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 108.

حيث كان جواب زاوي بن زيري على النحو التالي: «أما نقض عهد سلطاني ومخالفة أصحابي فلا سبيل إليه وأما السعي في الإصلاح فإني متمادي في تأليف كلمة المسلمين فوالله لا قصرت فيه حرما مني على ما يقر بني إلى الله من قطع الفتنة وحقن الدماء وإصلاح ذات البين».[1]

لم يكد سليمان يستقر بقرطبة حتى فاجأه المهدي، فاضطر إلى مغادرة قرطبة بعد موقفه عقبة البصر 05 شوال 400هـ / 1010م فانتشر البربر في الأرض ينهبون ويقتلون في ثورة من الجنون الجماعي، وفي المقابل قام أهل قرطبة بالقبض على حبّاسة بن ماكسن ابن أخ زاوي بن زيري سنة 402هـ / 1011م وذلك حين اغتنمه عناصر من قرطبة وعددهم سبعين رجلا وكان هو في أربعة من البربر فطعن طعنة تجدّل منها وسقط صريعا، وهرب عنه أصحابه واخذ أسيرا فلما عرفوه قطعوه وتهادوا لحمه فأكلوه حقدا بما فعله لأهل قرطبة[2]، وكان ذلك سببا في إثارة زاوي بن زيري وابن أخيه حبوس بن ماكسن فجزعوا لذلك جزعا شديدا، وامتلأت نفوسهم حقدا على القرطبيين، والتفوا حول سليمان المستعين، وتقوى عضدهم بهم واقتحم قرطبة سنة 403هـ/1012م[3]، وسعى إلى إجراء مكافآته على من وقف إلى جانبه في استرجاع عرشه من محمد بن هشام المهدي، وكانت البيرة من نصيب زاوي إلى جانب خمس رؤساء من البربر منحت لهم الولايات التي كانوا انحازوا إليها أيام الفتنة[4]. وقد أشرت إلى هذا في الفصل الأول من هذا البحث.

نشاط زاوي السياسي والعسكري:

كانت مدينة البيرة مأهولة بسكان مسالمين ليس لهم من وسائل الدفاع ما يجعلهم في مأمن من غوائل الفتن التي كانت تشهدها الأندلس، وكانوا على درجة كبيرة من الجبن والاستكانة لا يقدرون على قتال من اعتدى عليهم .

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 108.

[2]- نفسه، ج03، ص: 11-112.

[3]- ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 112، عبد الوهاب بخليل الدباغ، الفتنة الأندلسية، ص: 81.

[4]- ابن خطيب لسان الدين، أعمال الإعلام، ص: 119.

فلما قدم إليها زاوي بن زيري لم يترددوا في أن يمنحوه بلادهم يقول صاحب التبيان: «وكان أهل البيرة في بسيط من الأرض وكان بهم من الغش بعضهم لبعض ما إنّ الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حكم وال، وكانوا مع هذا من أجبن الناس وأخوفهم على مدينتهم لا يستطيعون على قتال احد، ولو كان الذباب إلا بمن يحميهم ويذبّ عنهم، فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس، وأنها أضرمت نارا، وتوقعوا أن يتخطفهم الناس، وجهوا إلى زاوي المذكور، شاكين ممّا هم فيه، ويقولون: إن كنتم جاهدتم قبل اليوم، فهذا الجهاد أكد عليكم: أنفس تحيونها وديار تحمونها وعزّة تأوون إليها ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا: لكم منا الأموال والسكن، ولنا منكم الحماية والذبّ عنا».[1]

وافق زاوي على هذا العرض، ونزل مع ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري برفقة حشود من البربر، واستجابت له معاقل أخرى مثل جيّان، وحصن آشر، فلما استتب له ولابن أخيه الأمر تقارع مع ابن أخيه، فكان سهم البيرة من نصيب زاوي، وجيّان وحصن آشر من نصيب ابن أخيه، واتفق جميعهم على حماية كل منهما الآخر حالة الاعتداء[2] .

لم يكد زاوي بن زيري يستقر في مدينة البيرة، حتى بدأ أهلها يتوجسون منه ومن أخيه حبوس بن ماكسن من أن تقوى شوكتهم، ولما علم بذلك زاوي وحاشيته جمعوا أهل البيرة، وصاح فيهم قائلا: «نحن لم نأت لفساد دياركم ولا قهرناكم على استيطانها وإنما كان ذلك على اختياركم لنا، وهذه الفئات مقبلة لطلبنا: فإن استوثقنا منكم دافعنا عنكم، وإن كانت الأخرى، فأعلمونا نمضي عنكم على أجمل وجه فلم نعدم الخير بسيوفنا» فأجابه أهل البيرة بعد أن أيقنوا أن عدوهم على الأبواب فاغر فاه ليلتهمهم : «اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم، فنحن رعيتكم الطائعة وأسيافكم القاطعة».

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 59.

[2]- نفسه، ص: 60.

عندئذ رأى زاوي أنه من حسن التدبير أن يلجأ إلى معقل آخر يجعل منه قاعدة للارتكاز وموقعا للانطلاق، فوقع اختياره على بسيط جميل قد جمع الأنهار والأشجار، وجميع ما يليه من البلد وتأتيه المياه من وادي شنيلي[1] المنحدر من جبل شلير[2] ووقعت أعينهم على الجبل الذي فيه الآن مدينة غرناطة التي تتوسط البلد كله ،وأنه في وسط النعم وجمهور الرعايا، ومتى ما أراد العدو الدخول إليه لم يطق له إحصارا ولا منعة داخلا وخارجا فيه، فكل ما يحتاج إليه الساكن من مرافق، فثمر الجميع عن سواعدهم وشرعوا في بناء مدينتهم من أندلس وبربر، وخربت البيرة حتى لا تكون مطلبا لأعدائهم[3] إلا أن ابن سعيد صاحب المغرب، يشير إلى أن تخريب مدينة البيرة كان متعمدا من البربر أصحاب زاوي الذي أنكر هذا الفعل: «كان داهية البربر، خرب أصحابه مدينة البيرة وعانوا فيها، واظهر هو الإنكار لذلك والعدل وقام بالمملكة»[4] بيد أن صاحب التبيان يشير إلى أن تخريب مدينة البيرة كان بالاتفاق مع أهل البيرة وجاء في نص التبيان قوله: «فرضي القوم من قولهم، وزاد ذلك فيهم رغبة، واتفق رأي الجميع أن يتخيروا لأنفسهم جبلا منيفا ومعقلا شامخا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلتهم وكثرتهم ويجعلونه القاعدة ويخربون له البيرة المذكورة».[5]

ظل زاوي في غرناطة محتفظا بلقب الحاجب، إلا أن علاقة مع قرطبة شهدت نوعا من الفتور، وظل على هذه الحال إلى أن شرع علي بن حمود في الوثوب محل الخلافة في الأندلس، بالاتفاق مع الفتيان العامريين، فلم يتردد زاوي بالانضمام إلى هذه المجموعة للإطاحة بنظام المستعين، وبعدإعداد

---

[1]– شنيلي: ويعرف بأنهم غرناطة بفتح الشين أو كسرها أو يسنجل كما يعرف النهر باسم فلوم المشتقة من اللاتينية وهو ينبع من جبل الثلج قال به المقرى: (ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من التمرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها، وفي بعض كلام لسان الدين: (وما يصر تفخر بنيلها وألف منه في شنيلها)، ابن غالب: المصدر السابق، ص: 283، المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 184.

[2]– شيلر: هو جبل الثلج هو الاسم الذي أطلقه الأندلسيون على جبال sierra nevada والاسم مشتق من اللاتيني mons, salarius لان أشعة الشمس تظل ساطعة على قممها طوال السنة، وانعكس هذا التجلى على مدينة غرناطة فنعمت بطيب الهواء و البرودة المعتدلة، ابن غالب، نفسه، ص: 283، المقري، نفسه، ج1، ص: 148.

[3]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 60-61.

[4]– ابن سعيد الغرناطي، المصدر السابق، ج1، ص: 86.

[5]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 61.

العدة، زحفوا نحو قرطبة، ولما بلغوا غرناطة انظم إليهم زاوي بن زيري على رأس جيش من صنهاجة، و وجدّوفي السير إلى أن وصلولا مشارف قرطبة وهناك خرج إليهم سليمان فشبّ قتال بين الطرفين انتهى بهزيمة سليمان ودخول على بن حمود قرطبة سنة 407هـ-1016م. [1]

ظل الزاوي على ولائه للحموديين، إلا أن في المقابل كانت الأمور تجري في غير صالح علي بن حمود، حيث أن الفتى خيران العامري الذي استقدمه بالأمس هو الذي قلب له ظهر المجن، وشرع في البحث عمّن هو أصلح منه للخلافة، وكان هذا التحول نابعا منذ أن طمح خيران في أن يجد هشام المؤيد حيًّا، فلما لم يجده استراب من علي بين حمود[2]، وفي هذا يقول ابن الأثير: «ثم إن خيران أظهر الخلاف عليه لأشياء منه انه كان طامعا أن يجد المؤيد فلم يجده، ومنها انه نقل إليه أن عليا يريد قتله فخرج عن قرطبة واظهر الخلاف عليه». [3]

فدفعه حقده إلى البحث في بقايا بني أمية عن بديل كفء يصلح لإدارة شؤون الخلاف، فدلّ على عبد الرحمان بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمان الناصر الأموي، الذي كان قد خرج إلى شرق الأندلس، فاجتمع له أكثر أمراء الطوائف، وفي مقدمتهم خيران العامري المتحمس لإمرته، ومنذر بن يحي التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى، وإسماعيل بن عبد الرحمان بن ذي النون صاحب طليطلة، وأجمعوا أمرهم على الزحف على قرطبة بقيادة المرتضى لينصبوه خليفة ويزيحوا القاسم بن حمود[4]، وجعلوا موعدهم مدينة شاطبة. [5]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 117، ابن خطيب، المصدر السابق، ص: 121، خالد الصوفي، المرجع السابق، ص: 202.

[2]- ابن الخطيب، نفسه، ص: 130.

[3]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج06، ص: 617.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 283، ابن الأثير نفسه، ج07، ص: 617.

[5]- شاطبة: مدينة جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، وهي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، ذكر القزويني أهلها بالشر والظلم والتعدي، قال صفوان بن إدريس المربي في وصف شاطبة.

شاطبة الشرق شردار ليس سكانها فلاح

الظلم عند الورى حرام وإنه عندهم مباح.

القزويني زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص: 539، الحميري، المصدر السابق، ص: 337.

فلما اجتازوا على بلنسية منعهم صاحبها من الدخول، فلما اجتمع خيران ومنذر بالمرتضى بشاطبة، أشارا عليه باصطحاب مبارك معهم للغزو فامتنع لذلك، وآثار أن يبقى مبارك في بلسية لجمع الأموال وإرسالها إليهم، فحقدا على المرتضى واتفقا على الغدر به، فأشارا عليه بالهجوم على غرناطة التي كان فيها مهلكه[1] وعن هذه الجفوة بين منذر التجيبي صاحب سرقسطه ،وخيران العامري من ناحية والمرتضى المروانيمن ناحية أخرى يورد لنا المقرى نصا في غاية الأهمية حين يقول: «فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخيران على المرتضى، وقالا: أرانا في الأول وجها ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجم الغفير، وهذا ماكر غير صافي النيّة، فكتب خيران إلى ابن زيري الصنهاجي المتغلب على غرناطة، وهو داهية البربر، وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خذّل عن نصرته الموالي العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور فأصغى ابن زيري إلى ذلك».[2]

نجح خيران العامري في تأجيج الطرفين وجرهما إلى المواجهة، وهو يعرف مسبقا بعد حبك المؤامرة، أن نهاية المرتضى قد أزفت، وابتدأت فصول المواجهة بأن دعى المرتضى زاوي على طاعته، فلما فرغ زاوي من قراءة كتاب المرتضى خاطب ابن أخيه حبوس من ماكسن فدعاه للقدوم عليه، فأتاه بعسكر ضخم، وكان قوام جيش المرتضى أربعة ألاف مقاتل.[3]

فلما أحس البربر بجدية الموقف: «اعصوصبوا بأميرهم زاوي كبش الحروب، فأحكم لهم التدبير والدولة تسعره، والمقدار ينجده، وحملت عنه في تلك الحروب حكايات بديعة».[4]

أمسك زاوي الكتاب وأمر كاتبه أن يقلبه ويكتب على ظهره وأن لا يزيد شيئا إلا ما يملى عليه فكتب:﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾[5]

[1]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج07، ص: 617.

[2]- المقرى التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 485.

[3]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 62، محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص: 122.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 283.

تَعْلَمُونَ﴾[1] فلما ورد الجواب على المرتضى عجب وأصحابه وقالوا: «إن هذا الرجل يأب الطاعة لنا، إلا أنه واثق بنجدته، وبمن معه، أو موطن على الموت أو معجب محيّن».[2]

فأرسل إليه المرتضى كتابا ثانيا يقول فيه أقد جئتك بجميع أبطال الأندلس وبالفرج فماذا نصنع وختم الكتاب بهذا البيت:

إِن كُنْـتَ مِنَا أَبْشِر بِخَيْر   أَو لَا فَأَيْـقِـن بِكُـلِ شَـر[3]

فأمر زاوي الكاتب أن يكتب في ظهره: :﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾[4] فازداد حنقه وغيضه، ويئس منه، فآثر المواجهة، وركب المرتضى رأسه وسعى إليه في تعبئة محكمة[5]، فأمر زاوي ضده بالثبات وترك الطيش فرد عليه الجميع في كلام طويل: «... إن موتنا في ملاقاتهم بعد إبلاء العذر أحب إلينا من تغلبهم على مدينتنا».[6]

ودارت رحى المعركة، ونشب القتال بين الطرفين، ونترك الأمير الزيري عبد الله بن بلقيس يصف لنا وقائع هذه المعركة في سياق تاريخي رائع « فخرجوا إليهم بأنفس بريئة، وعلى الموت موطّنة، وقلوب حنقة وللموت طالبة فلم يكن إلا كصفقة بالكف على الكف حتى ولّوهم الأدبار، وانهزموا أمامهم مذعورين يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، لا يلوي منهم احد على صاحبه واتبعتهم صنهاجة، وانبسطت عليهم أيدي البربر، يقتلون منهم نهمة أنفسهم ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسلحتهم، حتى امتلأت من ذلك أيديهم وكانت تلك الوقيعة أول ظفر ثبتوا به في أوطانهم، وهابهم الناس وانقادت لهم الرعايا، وتوطد ملكهم بغرناطة، وطاعت لهم أكثر بلاد أعدائهم المهزومين».[7]

---

[1]- القرآن الكريم، سورة التكاثر.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 62.

[3]- المقري، المصدر السابق، ج1، ص: 485.

[4]- القرآن الكريم، سورة التكاثر.

[5]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 283

[6]- عبد الله بلقين، المصدر السابق، ص: 62.

[7]- نفسه، ص: 62.

ويستنتج من هذه المعركة أن القلّة التي قادها زاوي بن زيري من البربر وكان عددها ألف فارس، حققت نصرا مؤزرا على أعدائهم الأندلسيين وكان عددهم أربعة ألاف، وهذا راجع إلى التماسك والانسجام والزوح القتالية التي أبداها زاوي إلى جانب مواقفه الشجاعة في الرد على رسائل المرتضى، في حين أن جيش الأندلسيين كان مهزوزا من داخله، ففي الوقت الذي كان خيران العامري يزين للمرتضى القضاء على الوجود البربري بغرناطة كان يجري مرسلات سرية مع زاوي بن زيري يعده بالانسحاب بالعامريين أثناء المعركة. [1]

وهكذا انتهت المعركة بسقوط الخليفة المرتضى الذي كان قد أدى كثيرا من الشجاعة في القتال، حتى اضطر إلى الفرار لما تخلى عنه أصحابه، ولاحقه العامريون وقتلوه غدرا. [2]

وفور انتهاء المعركة كتب زاوي بن زيري إلى الخليفة القاسم بن حمود، يبشره بالنصر ويشرح له تفاصيل المعركة ويعرض عليه نصيبه من الغنيمة ،ومنها سرادق المرتضى وقد رأى القاسم أن يعطي هذا الانتصار حقه من الإعلان والدعاية، فضرب السرداق المرتضى على نهر قرطبة ودعى إليه الأعيان وعليه القوم من الأندلسيين وشاهدوا بأمّ أعينهم وقلوبهم تتقطع حسرة، لما عاينوه من أسلحة البربر يقول ابن حيان: «فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت يقتل من نجم منهم في أطراف الأرض، وأيس الناس من دولتهم، ألوى الخمول بجملتهم فتقطعوا في البلاد ودخلوا في غمار الناس. وامتهنوا واستهينوا». [3]

وفي هذا الجمع أنبرى ابن الحنّاط [4] بقصيدة يمدح فيها القاسم بن حمود، ويذكر بعض وقائع هذا النزال، ودور خيران ومقتل المرتضى، ومما جاء فيها:

---

[1]– المقرى التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 485.

[2]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 127.

[3]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 284، المقرى، المصدر السابق، ج1، ص: 486.

[4]– ابن الحناط: هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الكفيف، زعيم من زعماء العصر ورئيس من رؤساء النظم ولا نثر في ذلك ألأوانه، وكان متقدما في الأدب والبلاغة، وشعره كثير مجموع مدح الملوك والرؤساء، وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلامية، عالما بالأفلاك والهيئة حاذقا بالطب والفلسفة ماهرا في العربية، لا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الاستنباط وتتطيب عنده الأعيان والملوك والخالصة.

الضبي بن عميرة، بغية الملمس، ص: 75، ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 273.

لَكَ الخَيرُ خَيْرَان إن مَضَى لِسَبِيلِهِ وَأَصْبَحَ مُلْكُ الله فِي ابْنِ رَسُولِهِ
وفرّقَ جَمْعَ الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الوَرَى عَلَى ابْنِ حَبِيبِ اللهِ بَعَدَ خَليلِهِ
وَقَامَ وَلَاءُ النَصْرِ فَوْقَ مُمَنَعِ مِنَ العِزِ جِبرِيلَ أَمَامَ رَعِيلِهِ
وَأَشْرَقَتْ الدُنْيَا خَلِيفَةٍ بِه لَاحَ بَدُرُ الحَقِ بَعْدَ أُفُولِه
مِنَ الهَاشِمِيينَ الذِينَ بِمَجْدِهِم تعَوَّدَ شَخصُ المَجْدِ جَرَ ذُيُولَهُ
فَلَا تَسَلْ الأَيَامَ عَمَا أَتَتْ بِهِ فَمَازَالَت الأَيَامُ تَأتِي بِسَولِهِ
وَلَمَا دَعَا الشَيطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبِهِ وَأَقْبَلَ حِزْبُ الله فَوقَ خُيُولِهِ

وكانت هذه ميزة العديد من شعراء الأندلس وكانوا يبالغون في الشماتة من المنهزم ليكسبوا ود المنتصر، وقد وقد وصف ابن الحناط جيش الأمويين بالكفر وقائدهم المرتضى بالشيطان.

بنُورِ كَتَائِبَ مِنْ صَنْهَاجَة وَزَنَاتَة تُضَايِقُ فِي عَرْضِ القَضَاءِ وَطُولِه
تَقَدَمَ خَيْرَانُ إِلَيهَا بِزَعْمِه لِيُدرِكَ مَا قَد فَاتَهُ مِنْ دُخُولِه
فَلَمَا الْتَقَى الجَمْعَان عَاوَدُوا رَأْيَهُ فَخَلَى لِبَعضِ الهَولِ جُلَ فُضُولِه
وَوَلَى وَأَبْقَى مُنْذِرًا مِنْ وَرَائِهِ يُقِيمُ لِأَهْلِ الغَدرِ عُذرَ نُكُولِهِ

رحيل زاوي إلى إفريقية:

بالرغم من الانتصار الذي أحرزه زاوي بن زيري على الأندلسيين وما ترتب عن ذلك من علو مكانته بين البربر، وذيوع هيبته بين الأندلسيين إلا أنه نظر بعين العقل إلى تلك التحولات التي تشهدها الأندلس والأيام المتقلبة فيها، والأحداث المتسارعة، فهو وقومه البربر لا محالة مستهدفون من قبل الأندلسيين فهو نفسه قال عندما هم بالرحيل إلى بلده.

«قد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبدا، وإن كنا قد منحنا الظفر في أول صفقة لم نؤمنهم على أنفسنا وديارنا كل حين! وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصان منا! ولا يموت لنا نحن أحد ونخلفه أبدا!»[1].

[1] – عبد الله الزيري، المصدر السابق، ص: 63.

يكاد يتفق معظم المؤرخين على السبب الذي أرغم زاوي على الرحيل إلى بلده القيروان، ولم يمض على انتصاره على الخليفة المرتضى المرواني وأنصاره من الأندلسيين سوى وقت قصير، وهو خوفه من ردة فعل هؤلاء الأندلسيين[1] ،الذين بقيت هذه الهزيمة شوكة في حلوقهم، وهم متيقنون أن هزيمتهم لم تكن عن ضعف منهم، أو لقلة عدد أو عدة، وإنما عن تخاذل أمراء الأندلس عن نصرة المرتضى والغدر به، فأيقن زاوي أنهم لا محالة مجتمعون للإيقاع به وبقومه البربر، ولذلك أوضح زاوي لأتباعه البربر، أن الانتصار على هؤلاء الأندلسيين في جولة أخرى هو قريب من المستحيل، وأوضح لهم أن أعدادنا قليلة، وأنه إذا قتل منهم واحد خلفه ألف، وإن الجنسيات المختلفة في الأندلس، مهيأة للانضمام إليهم لاعتبارات كثيرة، وظن زاوي أنه استمال بخطبته هذه الفلول من البربر إلا أنهم لم يستجيبوا له، فخرج عنهم مغاضبا لم يثنه احد عن عزمه».[2]

وقد عد ابن بسام إقدام زاوي على الرحيل من أغرب الأخبار وأعجبها، إذ كيف يعقل لرجل أنزوي في جنوب الأندلس وقد أحاطت جموع البربر، وهو حديث عهد بالانتصار على المرتضى، كيف له أن يعتزم الرحيل، أتى بلد قد غادره منذ عقدين وقد انهارت فيه عروش، وانمحت فيه رسوم أولئك الذي كان زاوي يعرفهم.

يقول ابن بسام «فكان من أغرب الأخبار في تلك الدولة الحمودية، انزعاج ذلك الشيخ الباقعة زاوي بن زيري عن سلطانه، ولفظه لما كان يلوكه من فلذة كبد الأندلس، أرض البيرة بأثر الفتح العظيم الذي أتيح لع على المرتضى ومن كان معه من عساكر أهل الأندلس. فأخذ في عبور البحر حين صفا العيش واحضر عوده، ووقم العدو وفل غربه»[3].

وفي موضع آخر ينتقل بنا كل من ابن بسام وابن عذاري إلى نص في غاية الأهمية يرويانه عن ابن حيان:

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج06، ص: 239.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 63، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 128، ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 285.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 286.

«وحدّثت في السبب المزعج للذي كان لزاوي يومئذ في ارتحاله وذلك أنه لما أنهزم المرتضى قال زاوي لقومه كيف رأيتم ما قد خلصنا منه فقال عظيم قال فلا تتناسوه وتغالطوا نفسكم انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا إنما حده مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا فإني رأيت ذلك من يوم نزولهم ولذلك كنت أقوى أنفسكم وقد نجّانا الله منهم ومضى القوم ولم يقدموا إلا رئيسهم واستخلافه هيّن عندهم ولست آمن عمودهم جملة إليكم فيما بعد فلا يكون لنا قوام بهم، فالرأي الخروج عن أرضهم واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة والرجوع إلى الجملة التي انفصلنا عنها كانفين للعيال والذرية مباعدين لما وراءنا من زناتة أعداءنا الذين لا يغفلون عنا ،لاسيما وقد قرفنا قومهم وثبتنا أحقادهم المدفونة بيننا، فإن فزعوا لنا على قلّة عددنا أو ظاهروا علينا الأندلس وقعنا منهم بين الحي أسرف مظلمون، وها أنا قد أديت لكم النصيحة وأنا راحل عن الأندلس فمن أطاعني فليرحل معي، فلم يساعده أحد من أهل بيته فرحل من المنكب واستوطن ابن أخيه غرناطة بعده وأورثها عقبة»[1].

ومع ما قدمه زاوي من الحجج والبراهين لاستمالتهم، لم يهضم البربر طرح زاوي رغم ما يكنه هؤلاء لزعيمهم زاوي من احترام وتجلة، وليس البربر فقط من امتنع عن الرحيل مع زاوي، بل حتى أولاده عارضوه واعتبروا ذلك سذاجة وسخافة في الرأي، فقد انبرى أحد أولاده، يسوق له الكلمات والأدلة كي يثنيه عن عزمه، وفي هذا يقول عبد الله بن بلقيس: «وكان لزاوي بنون يعدل كل واحد منهم ببدنه مائة فارس في نجدته وقوة بأسه ورأيه: منهم بلقين بن زاوي، فأعاب هذا الرأي على أبيه، وقال له: بنيت لغيرك فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضرا لغائب! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشراف من نفسك على الهلاك! فقال زاوي: نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاتة الموثوق بهم في المهمات من يثقفها وينوب منابي فيها حتى أباشر بنفسي حال القيروان وكيفية دولتها فإما أن يتهيأ غرضنا وإلا انصرفنا إلى مركزنا»[2].

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 286-187، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 128-129.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 63.

إن المتأمل في النصوص التي ساقها المؤرخون حول رحيل زاوي بن زيري عن غرناطة يدعون إلى الوقوف مليا أمهما ويجعلنا نستخلص العديد من النوايا الخفية التي أراد زاوي أن يحققها، ويتجلى ذلك فيما يلي:

- أراد أن يجر جموع البربر إلى مرافقته إلى إفريقية لمناصرته في الاستيلاء على عرش أسلافه بعد أن تبين له استحالة الوصول إلى سدة الخلافة في الأندلس.

- طمع زاوي بعرش القيروان، بعد وفاة مليكها باديس واستخلافه من قبل ابنه الطفل المعزّ بن باديس[1] فشرهت نفسه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، ولم يصده عن عزمه كما أسلفنا لا البربر الذين أبلوا معه البلاء الحسن في حد أعدائهم سواء أيام الفتنة أو عندما زحف عليهم الأندلسيين لقيادة المرتضى، ولا أبناؤه الذين عملوا ما في وسعهم لثنيه عن المغادرة، وهذا ما يفسر مدى شراهة زاوي في الوصول إلى الحكم مهما كان الثمن.

ويمم زاوي بن زيري نحو القيروان ليتدارك الأمر قبل فوات الأوان، واستخلف مكانه بغرناطة بعض شيوخ قومه الذين يثق بهم، ليقوموا مقامه فيها، ريثما يرى كيفية مخرجه من القيروان، واستحلفهم ألا يدخلوا عليه ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن زيري ولا أحد غيره، وقيل أنه استخلف مكانه وناّ بن زاوي، فظعن وناّ لأهل غرناطة وأساء السيرة فيهم فبعثوا إلى حبوس من بعض الحصون لتولى أمر غرناطة قبل فوات الأوان فبادر إليهم، ونزل بغرناطة، وبايعوه، فملكها واستند بها»[2].

[1]- المعز بن باديس: بويع المعز يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي الحجة سنة 406هـ/1015م، وعمره يومئذ ثمانية أعوام، واستنابه ابن عمه كرامة بن المنصور حتى يلحق الولد بدار الملك، وجلس للعزاء، ثم ركب الموكب وبايعه الناس وأخذ يركب كل يوم ويطعم الناس بين يديه ترحما على أبيه، وكان المعز أول من صرف دعوة العبيديين إلى غيرهم من بني العباس وأزال أسماءهم من السكة في سنة إحدى وأربعين ونفس فيها: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلا يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) ولما وصل ذلك إلى صاحب مصر دبر في دخول العرب إلى إفريقية، فنسبوا البلاد ويتمنوا الأولاد، ابن الخطيب لسان الدين، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ص: 73-74، محمد الطمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجه، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 83.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 287.

وفي رواية لابن الخطيب: "ولهول ما عاينه زاوي من اقتدار أهل الأندلس في تلك الحروب وجعاجعهم وإشرافهم على التغلب عليه، هان سلطانه عنده بالأندلس، وخرج عنها ناظرا إلى عاقبة أمره، ودعا لجماعة من قومه لذلك، فعصوه وركب البحر بجيشه وأهله ولحق بإفريقية وطنه"[1]. وفي موضع آخر يورد ابن بسام نقلا عن ابن حيان أن أحد أبناء زاوي بن زيري وهو حلالي ابنه لم يتبع أباه عندما اعتزم الرحيل، وبقي بغرناطة أياما لتدبير حاجاته في تهيئة الأجواء لإستخلاف أبيه، وقد دبر مع الراحلين من بني عمّه القبض على قاضي البلد ابن أبي زمنين والمشيخة الموافقة لأبيه إلى المنكب إذا رجعوا إلى ديارهم ليأخذ أموالهم، فاهتدى أبو زمنين إلى المكيدة، وجدّ في السير إلى حبوس الذي كان هو الآخر من بائر يرقب ركوب عمه البحر، وحتى يستعجله القدوم أبان له عواقب الإبطاء، وما هي إلا لحظات حتى أظل عليهم حبوس قارعا طبوله، فخرجت صنهاجة عن بكرة أبيها تستقبله، ووقف حلالي بن زاوي فاغر فاه لا يدري ما يفعل وقد فسد تسيره، وبطل ما حاكه لابن أبي زمنين وصعد حبوس إلى قصبة غرناطة دون أن يعرج على ابن عمه حلالي.

وحتى يذيب حبوس عوامل الإخلال، ويقطع دابر الأحقاد والنزاعات في مستهلها ،خرج إلى ابن عمه حلالي الذي عاقبه على هذا الإعراض قائلا: «أهذا دخول مكتئب بفراق عشيرته؟ هو بدخول شامت أشبه !! كأنك فتحت بلدا وطردت عدوا ؟! ورد عليه حبوس وكان في غاية الانتشاء بما حازه من ملك، متبقيا بان الأمر قد صار إليه وقال: ما ذاك إلا لرسم الإمارة وإرهاب الرعية».[2]

إلا أن صاحب كتاب التبيان يظهر أن المؤامرة ضد زاوي وأولاده حيكت بليل وقد شرع في نسج خيوطها منذ أن تفوه زيري بنية الرحيل إلى القيروان، ومما جاء في نص كتاب التبيان: «ثم خرج عن البلدة كأنه بقاء قودا فلم يخرج منها بمرحلة إلا وكتب مستخلفيه سائرة إلى حبوس بن ماكسن،

[1]- ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص 296.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 287.

يسفهون رأي زاوي ويقولون له أن يعجّل بالقدوم إلى البلد، وانّه أحق بولايته من غيره، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه أو يشره إليه من فغر فاه إليه بزوال زاوي عنه»[1] .

ويضيف ابن بلقين بأنّه ندم على ما كان منه، بعدما بلغه ما فعله مستخلفه ولامه أولاده على ذلك،[2] ولاشك أن زاوي قد تجرع الأمرّين عند نزوله القيروان فهو قد ضيّع ملكا بين يديه، وراح يبحث عن ملك قد صار لغيره من بني إخوته وعمومته، وحول نزول زاوي مدينة القيروان وموقف وزراء المعزّ وحاشيته، اختلف المؤرخون حول مصير زاوي.

فعبد الله بن بلقين يذكر أنه لما وصل زاوي القيروان وأحسّ بمذهبه بعض وزراء المعزّ نكروه وخافوا دواخله وتحكمه عليهم، وان يكدّر ما صفا لهم ،ورأوا أن ولاية المعزّ على طفولتيه، وعيشهم معه وتحكمهم عليه، أهون عليهم من تولي داهية مثل زاوي قد يفوت عليهم فرصا وحظوظا في ظل هذا الفتى المالك، ويضيف ابن بلقين انه تحاشيا لحدوث ما يتوقعونه منه، دسّ إليه من سقاه سما، فمات في تلك البلاد[3] في ظروف غامضة.

إلا أن ابن الخطيب يورد عن هذه الحادثة خلاف ما ذهب إليه عبد الله بن بلقين، ومما جاء في قول ابن الخطيب: «... وعبوره البحر بعد أن استأذن ابن عمه المعزّ بن باديس، فأذن له، وحرص بنوا عمه بالقيروان على رجوعه لهم لحال سنه وتقريبهم يومئذ من مثله من مشيختهم مهلك جميع إخوتهم، وحصوله هو على مقرر بني مناد الغريب الشأن في أن لا تحجب عنهم نساؤهم وكن زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت هن ذوات محرم من بنات إخوته وبناتهن وبني بنيهن».[4]

ويعضّد هذا الرأي كل من ابن عذاري، وابن خلدون، فابن عذاري يذكر أن زاوي بن زيري الصنهاجي حلّ بالقيروان سنة 410هـ، 1019فخرج إليه يوم وصوله شرف الدولة المعزّ بن باديس

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 63.

[2]- نفسه، ص: 64.

[3]- نفسه، ص: 64.

[4]- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص: 296.

بزي عظيم، فترجل له الشيخ زاوي، ونزل شرف الدولة فسلم عليه، وسار معه حتى أنزله بالمنصورية[1]، ويضيف ابن عذاري في نص لاحق انه ارتفع شأن زاوي بالقيروان وأقره المعزّ في دولته وكنفه.[2]

أما ابن خلدون، فيذكر بشيء من التفصيل عمّا مقام زاوي في كنف ابن أخيه بلقين ما نصه: «... وأنزل على المعزّ بن باديس حافد أخيه بلكين أجل ما كانت دولتهم بأمر إفريقية، وأترف وأوسع ملكا، وأوفر عددا فلقبه المعز بأحسن أحوال البر والتجلة، وانزله ارفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة، وأسكنه بقصره وأبرز الحرم للقائه».[3]

وكان ابن بسام وهو من أرّخ لعهد الطوائف، ومع ما تميز كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) من نسوج أدبيه غالبة على محتويات كتابه إلا انّه فصل في بعض المسائل التاريخية، وأبدع في طرحها مبينا مدى التّرحاب والتّجلة التي حظي بها زاوي في كنف أهله وذويه. وما خلّف وراءه من رغد العيش، وأوضاع استتبت له بعد عناء شديد أنفقه مع أتباعه ومع ذلك آثر الرحيل يقول ابن بسام: «فأخذ في عبور البحر حين صفا العيش وأخضر عوده، و وقم العدو وفل غربه فصمم في الرحيل بعد أن استأذن صاحب افريقية يومئذ المعز بن باديس ابن عمه، في ذلك، فأذن له وحرص جميع بني عمه بالقيروان على رجوعه لهم لحال سنه، وتعريهم يومئذ عن مثبله من مشيختهم بالمهلك جميع إخوتهم وحصوله هو قعدد بني مناد ... فرحل عن الأندلس سنة عشر وأربعمائة واستقلت به سفينة من مرسى المنكب، وفي شحنتها من ذخائر الأندلس ما يفوت الإحصاء كثيرة لعظيم ما خمسة أيام الفتنة، فاجتمع شمله بالقيروان وأقره المعز في دولته وكنفه».[4]

ولإن اختلف المؤرخون حول دوافع ودواعي رحيل زاوي بن زيري إلى بلاده افريقية وكذا السنة التي بارح فيها سواحل غرناطة، فهم يتفقون حول علو همة هذا الرجل وحسن بلائه في الدفاع عن الكيان البربري الصنهاجي والزناتي في الأندلس وكيف انزوى بعنصر صنهاجة إلى ركن منيع في

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص: 269.

[2]- نفسه، ج03، ص: 128.

[3]- ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ج06، ص: 239.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 286.

الجنوب، وبنى لهم فيه عزّ وسؤدد وظلّ هذا الركن حصنا منيعا لمن لاذ به وكان بذلك آخر معقل في الأندلس.

ومع ما سجلته أقلام المؤرخين عن سيرة هذا الرجل إلا أن التاريخ لم ينقل إلينا كثيرا من سيرته ومناقبه [1] ،وما أوردنا عنه في هذا البحث المتواضع هي مجرد نتوف وإيماءات منبثة هنا وهناك في ثنايا المصادر التي نحسب أن أصحابها اجتهدوا في التأريخ و التدوين، والقيام بعملية مسح للصناعة التاريخية للأمة العربية والإسلامية في الدولتين المغربية والأندلسية.

ومما يدل على شموخ وعلو همة شخصية زاوي بن زيري ما أورده صاحب المفاخر قول : «قلت وأخبار هذا الداهية غريبة وحروبه كثيرة، ومن أغربها أن المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر قائد وزارته، وكتب له بذلك عهدا قرئ على الناس فلما أعطي الزاوي أعرض عنه ولم يقبله، وقال لرسول عبد الملك الذي حمله إليه خطتنا الإمارة لا الإزارة وأقلامنا الرماح وصحائفنا الأجساد، أحمل قرطاسك لا حاجة لي به، فبلغ ذلك المظفر، فحقدها له، وقطع عنه الجراية، فأخرج من ذخائره إغلاقا نفيسة وذخائر عظيمة القدر فباعها وأنفقها على قومه صنهاجة، وربما اشترى منها المظفر في خفية». [2]

وما أورده صاحب الإحاطة من ثناء وإطراء عن شخصية زاوي ما تستحق الذكر: «وكان زاوي كبش الحروب، وكاشف الكروب، خدم قومه شهير الذكر أصيل المجد، المثل المضروب في الدهاء، والرأي، والشجاعة، والأنفة والحزم، أحكم التدبير، والدولة تسعده، والمقادير تنجده، وحكيت له في الحروب حكايات عجيبة». [3]

هذا وكانت وفاة زاوي بن زيري في أيام ابن عمه المعز بن باديس [4] وفي حقيقة الأمر فإن أيام زاوي انتهت وافل نجمه منذ رحيله عن الأندلس حين كانت الأحداث تجري، وهو من كان يقود بعضا من فصولها، وركدت ريحه في بلاد المغرب، وهو من كان ينوي بناء مملكة جديدة في القيروان. [5]

---

[1] – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 42.

[2] – أبو علي صالح الإيلاني، المصدر السابق، ص: 228.

[3] – ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، 294.

[4] – أبو علي صالح الإبلاني، المصدر السابق، ص: 228.

[5] – Billal jj sarr ,Marocco , la Granada ziri 1013-1090 anadisis de una taifa andalusi editional de launiversidad de granada p: 132

عهد حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد (410هـ-429هـ/ 1019م-1037م):

لما عزم زاوي بن زيري الرحيل عن غرناطة والتوجه إلى إفريقية، كانت حاشية حبوس بن ماكسن قد هيّأت الظروف لاستقدام حبوس وتنصيبه خلفا لزاوي، وكان على رأس المتآمرين ابن أبي زمنين، وأقنعوه أنه أحق بالولاية من غيره، وحذروه من التردد في هذا الأمر المصيري، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه.[1]

وأقبل حبوس يحث الخطى نحو قصبة القصر على رأس موكب وسط الأهازيج والطبول دون أن يعرج على ابن عمه حلالي الذي وقف حائرا لا يدري ما يفعل بعدما رأى أن الأمر قد حسم، وأيقن أنه لا جدوى من المشاكسة والاعتراض، فجمع متاعه ولحق بوالده بالقيروان، يصفه القلقشندي بأنه مارس شؤون الإمارة وأساء السيرة، فاستنجدت الرعية بابن عمه حبوس بن ماكسن ومما جاء في قوله: «... واستخلف مكانه بغرناطة ابنا له فأساء السيرة فيهم فأرسلوا إلى ابن عمه حبوس بن ماكسن بن زيري فحضر إليهم فبايعوه وعظم فيها سلطانه إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة».[2]

وعلى أية حال فإن حبوس بن ماكسن، قد استولى على الإمارة خلفا لعمه زاوي، وكان جديرا بكرسي الإمارة، وهو من خاض إلى جانب عمه زاوي خطوب المواجهات من أيام الفتنة إلى الحرب ضد المرتضى المرواني وأبلى فيها حبوس البلاء الحسن.

عدّد ابن حيان خصاله التي استحق بها قيادة صنهاجة حيث قال: «وكان على قسوته يصغي إلى الأدب وينتمي في العرب، للأثر المقفوا في قومه صنهاجة، وكان كذلك يؤثر لذلك كتاب التيجان لابن دريد، في ذكر مناقبهم ولا يغب سماعه ومطالعته، وكان وقورا حليما، فظًّا مهيبا، نزر الكلام

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 63.

[2]- القلفشندي أبو العباس، صبح الأغشى، ج05، ص: 257.

قليل الضحك، كثير الفكر، شديد الغضب، غليظ العقاب، شجاعا حسن الفروسية جبارا متكبرا، واسع الحيلة، كامل الرجولة، له في كل ذلك أخبار مأثورة».[1]

وكان حري برجل اجتمعت فيه هذه الصفات أن يصفو له الأمر، ويسير بالدولة بأجمل سيرة وأعدل طريقة، وقد صرف خطته وأحكامه إلى جميع قضاة البلاد التي خضعت له، وزاد انقيادهم له، حين تعفف عن كل شيء، وجمدت يده عن الحرام والأموال.[2]

وكانت خطته في بناء الدولة، هي الإكثار من الأجناد، وخصص لذلك أموالا طائلة أمدّ بها رؤساء الكور التابعة له، وأمرهم هؤلاء القادة بان ينتخبوا من الرجال عددا يناسب الرقعة الجغرافية التي أنيطت بهذا أو ذاك.

وكان ينهي إليهم في بعض مراسلاته: «ألا فائدة تفيدوني بها تنفق عندي من مال أو تحفة غير الاستكثار من الأجناد ،فمتى دعوت أحدكم لمهمة وبصرت عسكره أكثر عددا وأجود خبرة، فذاك الأثير عندنا الخطي لدينا».[3]

ولعل هذه النزعة التي تحلى بها حبوس في الإكثار من الأجناد نابعة من الثغرة التي شكى منها زاوي بن زيري حين تعلل عند خروجه من غرناطة والتوجه إلى إفريقية حين قال لمن حوله أن عددنا قليل! وهم إن مات منهم واحد خلفه ألف ! لذلك راح حبوس في هذا الاتجاه جاعلا كثرة الأعداد من الأبناء هي أولى أولوياته.

وهب في عهده كل من استطاع حمل السلاح إلى اللحاق بالجندية، وتنافسوا بينهم على ركوب الحرب والتحلي بخصالها، وقامت هممهم واشرأبت أعناقهم إليها يترقبون من ينادي إليها.[4]

ومن حسن تدبير حبوس ومهارته في توجيه قادته وإبقائهم على مسافة واحدة منهم هو ما كان يعاملهم به، بأن لا يقطع أمرا إلا بمشورتهم ، وكان يسعى إليهم في كثير من الأحيان دون أن

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 287-288.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 64.

[3]- نفسه، ص: 64.

[4]- نفسه، ص: 64.

يكلفهم مشقة الوصول إليه حتى أنهم لا يجتمعون معه للحكم في موضع خارج قصره دون السير إليه وذلك استحسانا منه، ولكي لا يترك لأنفسهم حظا يشعرون من خياله بالمذلة والإهانة ثم ينقمون عليه، ورفيقا بهم، محسنا إليهم حتى أفصح إليهم ذات يوم وبين لهم مكانتهم عنده قائلا: «إن صنهاجة عندي مثل الأسنان في الفم، إن عدمت منهم واحدا لا نخلفه أبدا».[1]

علاقته مع جيرانه من أمراء الطوائف:

بعد أن فرغ حبوس من ماكسن من بناء جبهته الداخلية، وإرساء دعائمها، وقد أنفق في ذلك جهدا مضنيا في ترشيد البربر من صنهاجة إلى ضرورة الإتحاد والتماسك وهي سياسة قد دعى إليها قبله عمّه زاوي بن زيري.

ورأى حبوس أن بناء الجيش وإبقاء البربر على التماسك والإئتلاف فيما بينهم، لا يكتمل ما لم تكن هناك قاعدة محضة يكون فيها الانطلاق وإليها الارتكاز فسعى إلى بناء مدينة غرناطة، وقصبتها، وتحصينها بالأسوار وهفى إليها السكان.[2]

ففيما يتعلق بعلاقته مع بني حمود فبالغرم من تخلي خيران العامري عن علي بن حمود الذي رافق حبوس في استقدامه إلى مالقة ومنها إلى قرطبة، فقد انتزى خيران بالمرية، فأما حبوس لم يحذو حذوه بل بقي على سنة سلفه زاوي، غذ يفي على الدعوة والولاء لبني حمود، وعلى الرغم من الاستقلال وبعد الصيت الذي أصبحت تتمتع به غرناطة منذ انتصار بربر صنهاجة على المرتضى المرواني، وظل مقتنعا بسيادة الحموديين على قرطبة.

لم تبق سياسةحبوس حيال الحموديين حبيسة الولاء والدعوة لهم، بل دافع عنهم بجيوشه وبنفسه، وذلك عندما سار المعتضد بن عياد لجيشه إلى زهير العامري، لما رفض الخطبة باسم هشام الذي افتعل شخصه المعتضد. هبّ حبوس بجيشه لنصرته رفقة محمد بن عبد الله البرزالي، مما اضطر جيش اشبيلية إلى التراجع، وكادت هذه الجيوش المتحالفة أن تصل إلى اشبيلية، لولى أنهم اكتفوا

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 64-65.

[2]- نفسه، ص: 64-65.

بتخريب الكور المحاطة بها. وفي هذه الأثناء عقد هؤلاء البيعة بينهم لإدريس بن علي الحمودي، وتعاقدوا على القيام بدعوته، وعاد زهير إلى رشده، وأعلن الخطبة لإدريس بن علي الحمود. [1]

لم يرد حبوس أن يشذّ عن سياسة عمّه زاوي في موالاته بالحموديين بالرغم مما أذاقه هؤلاء من ويلات للبربر، وقلبوا لهم ظهر المجن، وسامهم علي بن حمود سوء العذاب ومع ذلك لم ينجح حبوس إلى الانتقال أو على الأقل خلع الولاء والدعوة لهم، كما أن كره الفتيان العامرين للبربر والنفور منهم لم يحل دون تحالف صاحب غرناطة معهم والوقوف إلى جانبهم حين يستغيثون به. [2]

والظاهر أن سياسة حبوس، حيّال ملوك الطوائف كانت تجري على نفي الاعتبارات العنصرية، وبوجه آخر أراد حبوس أن يقطع دابر تلك التحالفات القائمة على قرابة النسب lien de parente التي ذاق ويلاتها البربر أنفسهم من تحالفات الأندلسيين الذي كانت لهم القدرة في تجميع حتى العناصر الأخرى التي كانت تدين لهم بالولاء لا بالنسب، فمن هذا المنطلق عرف حبوس كيف يدير علاقته مع باقي ملوك الطوائف، دون أن يلفتهم إلى العامل العنصري الذي كان بينه.

وهذا ما يؤكده لنا محمد بن عبود، وهو احد الباحثين الذين قدموا بحوثا محترمة حول العصبية في الأندلس قوله: «إن أمثلة الصراع بين ملوك الطوائف من أصل عرقي مماثل لا يثبت في حد ذاته غياب العصبية كقوة محركة للعلاقات بين ملوك الطوائف إلا أنها تشير إلى أن هذه العلاقات لم تكن مبنية على نمط عرقي واضح لمجموعات متحالفة من ملوك الطوائف العرب والبربر والصقالبة». [3]

ومما يدل على مكانته بين ملوك الطوائف ووعيه بما كان يجري من علاقات بينهم حريصا على ود العلاقات بينهم دون تمييز بين انتماءاتهم العصبية، محذرا إياهم على الاستقراء بالنصارى على إخوانهم من الطوائف الأخرى، حيث كان يرى أن حلول فلول النصارى بينهم هي بداية لنهايتهم لكياناتهم في الأندلس .

[1] - ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 191.

[2] - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 46.

[3] - أحمد بن عبود، مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره، منشورات عكاظ، تطوان، (د ت)، ص: 62.

ويتجلى ذلك في تلك الرسالة الطويلة التي وجهها إلى صاحب شاطبة[1] الذي دعاه إلى التصالح مع المظفر أمير سرقسطة التجيبي، وحذّره من مغبة الاستعانة بالنصارى، ومما جاء في هذه الرسالة التي تميزت بأسلوب رشيق، سامي البلاغة، ينبض بالحياة، ويرشح بالنفحة الأدبية الرائعة: «كتبت يا سيدي ومشارب الآمال قد تكدّرت ووجوه المحاسن قد تغيرت ... إلا أن يتلافى الله الخلل بتسديد نظر كما ... واتصل بي ما وقع بينكما وبين المظفر أبي محمد من التنازع الذي أخاف أن يفضي بكم إلى التقاطع ... فلم أر نفسي في سعة من إهمال التذكرة وإغفال التبصرة، والله يعيد الكل من الشتات والشمات، ويعيدكم إلى المواساة والمواتاة ولم نخف .... ما في صلاح ذات البين من الفوز بخير الدارين، وأمر العباد وحصب البلاد وإعزاز الدين، وإذلال القاسطين، وتوهين المشتركين، وقوة العضد ووفور العدد ... وفد علمتم انه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية والقرون الخالية إلا بتقاطعهم وتحاسدهم وتدابرهم وتخاذلهم، وأن النجاح مطية الجهل، والهوى آفة العقل، والحمية من أسباب الجاهلية والعصبية من العنجهية».[2]

وبعد أن دعى كل من صاحب شاطبة وأمير سرقسطة إلى التصالح ونبذ الخلاف، وحذرهما من أن يركب أحدهما رأسه ويتمادى في غيّه، ويقوده طيشه وعنجهيته إلى الاستعانة بأعداء الملة والدين من النصارى كما في قوله: «فقد بلغني أن مذهبكم لاستجاشه بالنصارى إلى بلاد المسلمين يطأون ديارهم، ويعفون آثارهم ويحتاجون أموالهم ويسفكون دماءهم ويستعبدون أبناءهم، ويستخدمون نساءهم وإن نفذ هذا –وأعوذ بالله– فهي حال مؤذنة بالذهاب وجريرة تؤذي بالخراب».[3]

[1]– شاطبة: مدينة جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان وهي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، وهي قريبة من جزيرة شقر ويعمل بها كاغد لا نظير له بمعمور الأرض يعم المشرق والمغرب، وفيها بنيان قديم من عمل الأول يقولون له الصنم، الحميري عبد المنعم، المصدر السابق، ص: 337.

[2]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 395-396.

[3]– نفسه، ج1، ص: 396، احمد العزاوي، عصر الطوائف في الأندلس من خلال رسائل ديوانه، ص: 62-63.

وثارت ثائرة حبوس بن ماكسن ولم يهدأ له جفن عندما بلغه ما حدث بين المؤتمن[1] وأبي المنذر والموفق[2] من خصومه دفعتها على الاستنجاد بالنصارى واستقدامهم إلى بلاد المسلمين فأمر وزيره أبي عبد الله البزياني[3] أن يكتب: «... فنظرت في الأمر بعين التحصيل وتأولته بحقيقة التأويل، فعظم قلقي، وكثر على المسلمين شفقي في أن يطأ أعداؤهم بلادهم ويوتموا أولادهم ويتسع الخرق على الراقع ... ولو لم تكن – يا سيدي- الفتنة إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيدنا بالمشركين واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حرمتنا، ومنحناهم قوتنا وقتلنا أنفسنا بأيدينا ... كانت الدائرة أمضى، والمحنة أشد والأعمال أبسط، والأحوال أسقط».[4]

يستنتج من هذه الرسالة الديوانية حرص حبوس على جمع أكبر عدد ممكن من الإمارات الطائفية ضمن الحلف الكبير، من غير العصبيات البربرية لتقوية الحلف البربري المكون من صنهاجة وزناتة، لأن إنفراد البربر بعصبتهم وانزوائهم في منطقة الجنوب، يجعل منهم أقلية مستهدفة قابلة للاندثار والزوال ،وهو ما كان يتخوف منه زاوي بن زيري في بداية تشكيل الكيان البربري في مدينة غرناطة.

لذلك أراد حبوس أن يتجاوز ما توجس منه عمّه فأجرى علاقاته مع أعدائه بالأمس لدرء ضغائنهم وأحقادهم حيال العناصر البربرية ،والحد من تلك النفرة الطبيعية [5] التي تعب منها البربر قبل

---

[1]– المؤتمن: هو عبد العزيز بن عبد الرحمان بن أبي عامر الحاجب المنصور، أول سلاطين العامريين في بلنسية وغيرها توفي سنة 452هـ. ابن عذاري، ج1، ص 155.

[2]– الموفّق: هو أبو الجيش مجاهد العامري، انتزى في مدينة دانية وكان من فحول فتيان بني عامر قدمه المنصور بن أبي عامر عليها، وكان ذا نباهة ورياسة زاد على نظرائه من ملوك الطوائف بالأنباء البديعة منها العلم والمعرفة والأدب وكان من الشجاعة والتدبير والسياسة .قصد جزر يابسة وميورقة ومنورقة فانتزى بها لنفسه وتغلب عليها وحماها. ابن عذاري، المصدر السابق، ج1. ص: 155.

[3]– عبد الله البزيالي: احد شيوخ الكتاب وجهابدة أهل الادب ممن أدار الملوك ودبرها وطوى الممالك ونشرها كان في خدمة حبوس ثم إلى بني عباد، ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 387.

[4]– ابن بسام، المصدر السابق، ج، ص: 389.

[5]– النفرة الطبيعية: أشار ابن الخطيب لسان الدين في كتابه أعمال الأعلام، ص: 227.

الفتنة ومن بعدها، هذا من جهة ومن ناحية أخرى أراد حبوس أن يفوّت الفرصة على النصارى الذين أخذت طلائعهم تهدد الثغور الشمالية، ويقدم مشروعه التصالحي إلى الطوائف المتحاربة فيما بينها.

وإن الباحث المطلع على الرسائل الديوانية في عهد حبوس يقف على هذا الانشغال الجامح عنده وهو يدعو المتخاصمين إلى إعمال العقل وتحكيم الشرع تارة ،وبالتقريع والتهديد تارة أخرى.

وكان حبوس في علاقته مع الإمارات البربرية الصغرى أحرص على إبقائها ضمن الحلف الذي كان يسعى إلى تكوينه ليتصدى به إلى حلف الأندلسيين الذي تزعمته إشبيلية، وكانت أكبر هذه الإمارات، وأكثرها حضورا في الساحة السياسية إذّاك.

وأكثر ما كان يشغل حبوس بن ماكسن في هذه الاونة هي إمارة قرمونة بقيادة زعيمها محمد بن عبد الله البرزالي، الذي كان أقرب إلى قيادة اشبيلية منه إلى الحلف البربري ،بالإضافة إلى عوامل أخرى أثرت على العلاقات بينه وبين محمد عبد الله البرزالي .منها اتساع رقعة مملكة غرناطة في عهد هذا الأمير حيث ضمّ ولايات ومدن قبره وجيّان وغيرها، فكان ذلك سببا توتر العلاقات بينهما.

ومع ذلك ظل حبوس يسترضي محمد بن عبد الله البرزالي، ويطلب منه أن يحدد موقعه من الجماعة في الرسالة التي يعثها إليه وهي كما يورها ابن بسام رد على رسالة بعث بها محمد بن عبد الله البرزالي إلى حبوس كما يظهر في محتويات وأوردها ابن بسام بوصفها قطعة من النثر الفني الجميل

إشارة إلى أن الأندلسيين توارثوا أبا عن جد كرههم للبربر والنفور منهم، وظل يجري على الشفاه بيتان ظلّ البربر يتقززون منهما:

رَأَيـتُ آدَمَ فِـي نَومِي فَقُـلْـتُ لَـهُ أَبَـا البَرِيَـةِ إن النَـاس قَـد حـَكَمُوا
أَن الـبَرْبَرَ نَسْـلٌ مِنــكَ قَـالَ إذَن حـَـوَاءُ طَـالِقَةٌ إن كَـانَ مَا زَعَمُوا.

والبيتان للشاعر السميسر وهو أبو القاسم خلف بن فرج الأليبري شاعر الهجاء من قرطبة أصلا والبيرة إقامة، أدرك الدولة العامرية وانقراضها كان أعجوبة دهره وله طبع حسن وتصرف مستحسن في مقطوعات للأبيات خاصة إذا هجا وقدح ،وأما إذا مدح فقلما رأيته ينجح ويفلح، ينسب هنري بريس هذين البيتين إلى شاعر مجهول، ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 552، المقري، المصدر السابق، ج03، ص: 412.

هنري بريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1408هـ / 1988م، ص: 236.

وأنموذجا رائعا للرسائل الديوانية، المعمول بها في العصر الوسيط ، وهو فضلا عن كونها موشاة بالحلل الأدبية إلا أنها وثيقة تاريخية هامة حملت إلينا مرحلة حاسمة في تاريخ العلاقات بين ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي.

ومما جاء في هذه الرسالة: «من النصح تقريع، ومن الحفاظ تضييع، ولكل مقام مقال، إذا عدي به عند استحال ووصل إلى منك كتاب طمست منحاه، وعميت معناه، أومأت فيه إلى النصح ودللت على سبيل النجح، فوقفت على فصوله ومعانيه، وأحطت علما لجميع ما فيه ولم يكن لمن أو حشت جهته، وتغيرت مودته، أن يدخل مدخل الناصحين، وقد خرج من جملة المشفقين، وكان بالحملة أوله سباب، وآخره إعجاب، والسباب لا ينطق به كريم، والإعجاب لا يرضى به حليم، وقد نزهني الله عن المقارضة بهذا ومثله وما أحسن قول القائل:

وَتَجْــهَلُ أَيْــدِينَا وَيَحْـلُمُ رَأْيُــنَــا   وَنَشْـتُــمُ بِالأَفْـعَـالِ لَا بِالتَـكَــلُمِ.[1]

فإن كنت أردت أن تستصلح منّي بسبّك ما كان فاسدا، وتستقرب من ودّي باستطالتك مباعدا، فما هذه شيّم يقضي بها الفضل، ولا سياسة يحكم بها العقل، وإن كنت أردت التخويف والإبعاد والإيراق[2] والإرعاد[3] فقد كفاني بيت الكميت[4].

أَبــرِقْ وَأَرْعِــدْ يَــا يَــزِيد   فَــمَا وَعِيــدُكَ لِــي بِضَــائِــرِ

و أنا أحد البرابرة: لا أخرج عن جماعتهم، و لا أبعد عن موافقتهم، ولا أرغب نفسي عن نفوسهم.

وَمَــا أَنَــا إِلَا مِــن غَــزِيَّة إِن غَـوَت   غَــوَيْتُ وَإِن تَـرشُــد غَــزِيةُ أَرْشُـدُ[5]

---

[1]- الشاعر هو معبد بن علقمة المازني.

[2]- الإبراق: أبرق الرجل، تهدد وأوعد برق الشخص برق لمن لا يعرفك هدد من لا علم له بك فإن من عرفك لا يعبأ بك، احمد مختار عمر معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب 2008م، ج1، ص: 192.

[3]- الإرعاد: الرعدة الناقض يكون من الفزع وغيره وقد أرعد فارتعد أخذته الرعدة الارتعاد الاضطراب وأرعدت فرائضه عند الفزع ابن منظور، لسان العرب، ج05-06، ص: 173.

[4]- الكميت: الكميت بن زيد أحد بني أسد بن خزيمة، عالم بلغات العرب خير بأيامها .ابن بسام حاشية، رقم 33، ج1 ص: 388.

[5]- دريد بن الصمة.

وأما قولك: «فمن كان متبوعا قلّما يستقيم أن يكون تابعا، ومن عرف في النادي مطاعا لم ينقلب مطيعا، إلا أن يصادف هدي العمرين وأجدر بذلك أن يبعد» فقد أزريت على كل خلافة، وبنيت انك خارج عن كل فرقة، وأن عرضك المحاماة عن عزك، والمراماة دون حرزك، وليس هذا نظر مشفق ولا قول محقق، إذ لا تتم ديانه إلا بإمامة يدعى إليها، وتجري السنن عليها، إلا في مذهب نافع بن الأزرق[1]، وعبد ربه وأشباههما.

وفي فصل منها ما ذكرته من الذي بين الطائفتين من بني عمّنا بالعداوة فكل أمر يقدر ﴿**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ**﴾[2] والدنيا أحوال والحرب سجال وخيرهم وشرهم عنّا بعيد، وكل من نصرك وأيدك فهو القريب الودود، وإن تفرقت الآباء والحدود، ومن شذّ عن الجماعة وفارقها ونابذها وشاقها فهو الجاني على نفسه وعليها، والجار سوء العاقبة إليه وإليها، وأكثر الوبال واقع على الظالم ونازل بالجارم، والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق.[3]

ومن خلال هذه الرسالة وبعد القراءة المتأنية يدرك المتأمل أن الإنشقاق الذي حصل بين الزعيمين هو موقف كل منهما من الخلافة الحمودية فمحمد ابن عبد الله البرزالي ناصب هذه الأسرة العداء منذ أن ولى المستعين عليًّا وأخاه القاسم، شبه الجزيرة الخضراء، وظل ممتعضا منهم حتى بعد وصول هذه الأسرة إلى سدة الخلافة، وازداد حقده عليهم لما قسى الحموديون على البربر.

في حين أن حبوس ظل يدين بالولاء والطاعة للحموديين حتى في فترة ضعفهم لأنده كان يرى أنهم أقرب إلى البربر مودة من غيرهم، وأن البقاء تحت مظلتهم يقهمم غوائل المتربصين بهم من الأجناس الأخرى.

---

[1]- نافع بن الأزرق: هو نافع بن الأزرق الحنفي المكنى بأبي راشد، تزعم أبرز فرقة في الخوارج وأشدهم شوكة وزعم نافع وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر ويجوز قتل الأطفال والنساء وأنكرت الأزقة الرحيم، بايعوا نافع بن الأزرق وسموه أمير المؤمنين وانضم إليهم خوارج عمان واليمامة البغدادي، الفريق بين الفرق، ص: 85.

[2]- القرآن الكريم، الآية 67 من سورة الأنعام.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 388.

الوزراء والكتاب على عهد حبوس:

حرص حبوس بن ماكسن بعد توليه مقاليد الحكم على إنشاء مملكة[1]، مهابة الجانب وبإدارة محكمة قيض لها كتاب ووزراء تميزوا بالجهبذة الأدبية، والمهارة بالشؤون السياسية ومن هؤلاء الوزير والكاتب أبي عبد الله البزلياني، عد في زمرة شيوخ الكتاب وجهابذة أهل الآداب وقد أورد ابن بسام جملة من رسائله الديوانية المفعمة بالرشح الأدبي والمعاني السامية وقال عنه: «هو ممن أدار الملوك ودبرها وطوى الممالك ونشرها».[2]

ومن وزرائه احمد بن محمد بن احمد بن يزيد الهمذاني اللخمي من أهل غرناطة: كان ضالعا في الفقه، وكان من الوزراء المقربين لدى حبوس وحظي عنده بالإجلال والتكريم والمصاحبة، توفي بالبيرة في العقد الثالث من القرن الخامس الهجري[3] وإلى جانب هؤلاء عبد الملك بن علي بن هذيل الغزاري وأخوه عبد الله.[4]

وأكثر الوزراء الذين عاشروا حبوس بن ماكسن وأكثرهم شهرة إسماعيل بن يوسف بن نغرالة اليهودي، وقد اختلف الذين ترجموا لهذه الشخصية حول اسمه وشهرته، سواء المعاصرين له أو الذين كتبوا في العصور اللاحقة ويرجح أن يكون هذا الاختلاف في رسم اسم شهرته إلى تصحيف الناسخ أو المحقق أو المترجم[5] وهذا صحيح لأن الحروف القوية لهذه الكلمة تكاد تكون مشتركة عندهم كحرف ن، غ، ر، ل.

---

[1]– كل المماليك الطائفية كانت عبارة عن إمارات صغيرة، وكان الأمراء يتحاشون اسم الملك ويفضلون مناداتهم بالأمراء لأن كياناتهم كانت أقرب إلى الإمارة منها إلى المملكة.

[2]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 387.

[3]– ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1، ص: 47.

[4]– عبد الملك بن علي بن هذيل الغزاري وأخوه عبد الله توليا خطة الوزراء في الدولة الحبوسية ثمّ توليا القيادة بثغور الأندلس، وقهرا ما جاورهما من العدو وغلباه وسقياه كأس المنايا ولم يزال قائمين على ذلك ظاهرين علمين إلى أن استشهدا رحمهما الله، ابن الخطيب، لسان الدين، نفسه، ج03، ص: 411.

[5]– مريم قاسم الطويل، المرجع السابق، ص: 109-110.

وهذا التباين نجده أيضا في الكتب باللاتينية في الكاتب رون باركاي: ron barkaii صاحب كتاب chretiens musulmans et juifs dans l espagne medieval يورده باسم shemuel ibn negrella ويورده الكاتب اليهودي David j.Wasserstein باسم Samuel ibn naghrilla كما عند المؤرخ اليهودي حييم الزعفراني، الذي تعرض لهذه الشخصية في العديد من فصول كتابه تحت اسم صموئل هاناكيد أو الأمير صموئل النغريلة أو أبي إبراهيم إسماعيل.[1]

ولد إسماعيل إبن النغريلة سنة 383هـ/ 993م في قرطبة وتلقى علومه بها، ودرس التلمود على يد الربان هانوخ الذي كان له الفضل في تلقينه العلوم الدينية، وكان هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية في قرطبة، وأخذ النغريلة يستزيد وينهل من مختلف العلوم التي كانت منتشرة في ذلك العهد[2]، إلى أن سطع نجمه ودخل عالم الكتابة وكانت أولى محاولته هي الكتابة بالعبرية واجتهد فيها بالنهوض بالدراسات التلمودية.[3]

ولم تختلف المصادر حول عبقريته والمعرفية السياسية فابن حيان رغم توكيل اللعنات له إلا أنه ينصفه فيما يستحق من موصوفات: «وكان هذا اللّعين في ذاته على ما روى الله عنه من هدايته من أكمل الرجال علما وحلما، وفهما، وذكاء، ودماثة، وركانة، ودهاء ،ومكرا ،وملكا لنفسه وبسطا من حلقه ومعرفة بزمانه ومداراة لعدوه وإستسلالا لحقودهم بحلمه، وقرأ كتبه ناهيك من رجل كتب بالقلمين وإعتنى بالعلمين وشغف باللّسان العربي ،ونظر فيه وقرأ كتبه وطالع أصوله فإنطلقت يده ولسانه وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي فيما إحتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى والصلاة على رسوله والتزكية لدين الإسلام ،وذكر فضائله ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام فجمع لذلك السجيح في علوم الاوئل الرياضية ، وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق ويفوق في الجدل كل مستول منه على غاية ».[4]

---

[1]- حاييم الزعفراني، المرجع السابق، ج1، ص: 100.

[2]- دوزي رانهارت، المرجع السابق، ص: 25.

[3]- أنخيل جانثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 107.

[4]- إبن الخطيب لسان الدين، الإحاطة، ج1 ص446-447

وكان قليل الكلام دائم التفكير جماعة للكتب وكان من الناحية الأدبية يحسن الكتابة بالعربية والعبرية، مزودا بأنواع من الثقافات كالرياضيات،، والنجوم ،والهندسة ،والمنطق، والجدل، وعلوم الدين، وقد ألف في الرياضيات كتابا أسماه (التشجيع في علوم الأوائل الرياضية).

وقال عنه القاضي صاعد : «وكان منهم في الأندلس أبو إبراهيم إسماعيل بن يوسف الكاتب المعروف بابن النغدلة خادم الأمير باديس بن حبوس الصنهاجي ملك غرناطة وأعمالها ومدير دولته وكان عنده من العلم شريعة اليهود والمعرفة من الانتصار لها والذي عنها ما لم يكن عند أحد من هل الأندلس قبله»[1] وكان يجهد نفسه في نشر تعاليم اليهود، وقد وظف نساخا ينسخون التلموذ ليقدم النسخ إلى من لا يستطيع شراءها من طلبة العلم، ونظرا لمكانته بين اليهود وخدمتهم لهم دعوه بالنغيد اعترافا بفضله.

ولم يكن مساهمة النغيد العلمية حبيسة الموضوعات الدينية، بل تعدتها إلى الموضوعات الأدبية، فقد كان إسماعيل شاعرا نحريرا، أقرض ما يزيد عن ألف وسبعمائة ما بين مقطوعة وقصيدة، انتقل فيها من الموضوعات الدينية إلى الموضوعات الدنيوية، فقد نظم في الغزل والخمريات والطبيعة والمديح والهجاء، تأثرا بالمذاهب الشعرية عند العرب المسلمين.[2]

ترك إسماعيل بن النغريلة بصماته على الحياة العامة في الأندلس، وملء عالمها حضورا وضجيجا، وكان له آثر كبير في حياة اليهود بالأندلس بشكل خاص في عصر ملوك الطوائف.[3]

لقد كان هذا المفكر اليهودي الذي حمل هموم أمته اليهودية، يعمل على انتشالها من الضياع، يتفقد أحوالها حتى خارج الأندلس، ولا يفتأ يحثّ على تقديم الإعانات الغذائية إلى اليهود في بيت المقدس، وبغداد، وكان يبدي حزنه، ويبكي ويقدم تعازيه لأعلام اليهود، مثل ربي نسيم اليهودي

[1]- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم تحقيق حياة بعلوان، دار الطبيعة، بيروت، ط1، 1985م، ص: 207.

[2]- ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق: مقدمة إحسان عباس، ج03، ص: 10.

[3]- محمد الأمين ولد آن، تاريخ اليهود في الأندلس، دار منال للنشر والتوزيع، ص: 51.

الذي فقد ابنه ورثاه بقصيدة شعرية بعثها إليه، وكان لا يتوان في إطلاع هؤلاء عن أحوال اليهود بالأندلس[1].

ومن هنا يمكن القول أن التفكير في بناء الوطن القومي لليهود لم يشرع فيه في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر كما يزعم البعض، وإنما ظهرت الإرهاصات الأولى مع تفكك الخلافة الإسلامية في الأندلس أي بعد وقوع الفتنة القرطبية التي إقتتل فيها المسلمون .من هنا تبيّن للعناصر اليهودية أن هذا الشرخ لا يمكن أن يندمل، وسوف يؤسس لقاعدة ومرجعية، ينهل منها المسلمون خلافاتهم تماما مثلما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، مصدر انبعاث لما بعدها من فتن.

أما عن كيفية وصول ابن النغريلة إلى قصر حبوس بن ماكسن،فإنّ ذلك يعود إلى ما قبل قدوم إسماعيل إلى غرناطة فقد كانت عائلته ضمن الزمرة اليهودية التي أجبرت على الهجرة إلى مالقة بعد أن لاقت مضيقات من قبل البربر في قرطبة، عام 404هـ-1013م وفي هذه المدينة أقام إسماعيل حانوتا للعطارة بالقرب من قصر أبي القاسم بن العريف وزير جيوش حبوس في غرناطة، وكان إلى جانب مهنته يكتب الرسائل و الشكيات التي يقدمها الجند لقيادتهم، ولكونهم جهلاء بالكتابة والتعبير كانوا يترددوا على محلّه لهذه الغاية.

وكانت هذه الرسائل التي أبدع ابن النغريلة في صناعتها كثيرا ما تثير إعجاب الوزير إذا ألقاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي، فأخذ يسأل عند عودته إلى مالقة عن صاحب هذه الرسائل، فلما قيل له انّه يهودي، دعاه إليه وخاطبه بما تنبأ به من مستقبل داخل القصر وقال له: «ليس خليقا بك أن تبقى صاحب حانوت، وما أجدرك أن تكون كوكبا يسطع لألاؤه في بلاط الملك فإذا توفرت على ذلك رغبتك، فإني متخذك لي ناموسا خاصا».[2]

[1]- David j. Wasserstein ,samueil ibn naghrila ha-nagid and Islamic historiography in andalus AL-QANTARArevista de estudios arabes vol xiv Madrid 1993 p : 123

[2]- دوزي راينهارت، المرجع السابق، ص: 25.

وعلى عجل اصطحب ابن العريف عند عودته إلى غرناطة وعيّنه كاتبا ومستشارا له وادخله في خدمة البلاط الغرناطي[1] فاظهر كفاءة عالية في تسيير شؤون القصر وعلاجيته في أرجاء غرناطة وكورها وقاده طموحه على أن يصبح الرجل الذي يمكن الاستغناء عنه إلى درجة أن الوزير ابن العريف لما أحسّ بدنو أجله وفي مرضه الذي توفي فيه عاده حبوس، وقد داخله حزن عميق على وزيره الذي كان ساعده في إدارة شؤون غرناطة، فاهتبل ابن العريف هذه الفرصة ليفاجئ الأمير حبوس بقوله: «لم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبديها لك أيها الملك في العهد الأخير صادرة مني بل كانت وحيا أتلقاه من صمويل ذلك اليهودي الذي آثرت أن يكون ناموسي الخاص، فاقصر نظرك عليه واتخذه لك وزيرا، اخذ الله بيدك، وشدّ به أزرك».[2]

وفي رواية أخرى للأمير عبد الله الزيري، يذكر ان حبوس لم يكن على دراية بعبقرية إسماعيل بن النغريلة، وإن هذا الأخير هو من تحايل على أحد أبناء أبي العباس بن العريف وأزاحه عن منصبه، بحضوره الدائم لخدمة حبوس يقول عبد الله بن بلقين: «ولما توفي أبو العباس المذكور، وترك بنين أقام حبوس – رحمه الله- أكبرهم عوضا من أبيه، واستعمله مكانه، وكان في الابن صبوة لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة، فمكر به أبو إبراهيم اليهودي، ولزم خدمة الرئيس وصار متى غاب ولد أبي عباس يحضر أبو إبراهيم، فيسأل عنه حبوس، فيقول معتذرا في الظاهر ومطالبا في لحن القول: ولد أبي العباس، كما ترى صبي يؤثر الراحة، وأنت جدير بالأعضاء عليه وإقامة عذره، وأنا عبده أنوب منابه فمرني بما شئت يتهيأ ذلك فلم يزل على هذا أبدا حتى تمكن، وظهرت خدمته وسعيه في ضم الأموال».[3]

وهكذا استطاع إسماعيل بن النغريلة أن يصل إلى هذه المكانة السامية كأول وزير يهودي نال هذا المنصب الحساس الذي قلما يسمع فيه رجل أن يصل إليه، ومهما يكن من أمر فلا خلاف في

---

[1]- مريم قاسم الطويل، المرجع السابق، ص: 111.

[2]- دوزي، المرجع السابق، ص: 26.

[3]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 67-68.

كفأة ابن النغريلة الذي اجتمعت فيه مواصفات الوزارة، إلا أن ما يستدعى التساؤل هو كيف إستطاع هذا اليهوديان يبلغ هذا المنصب في أعلى هرم السلطة، إلا ان عبد الله الزيري يجيب على هذا التساؤل حين يذكر الأسباب التي أدت تقريب حبوس لإسماعيل بن النغريلة قوله: «فاستعمله لذلك استيحاش من غيره ولما كان يرى طلب بني عمّه له، لان هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه إلى ولاية، ولا هو أندلسي فيتقي منه إدخال داخلة مع غير جنسه من السلاطين»[1].

يتضح من النص أعلاه أن الإمارة الزيرية في عهد حبوس كانت تتحرج من منح هذه المناصب في بني جنسهم من الأندلسيين والبربر كي لا ينقلبوا عليهم ولعل هذا العامل الوحيد الذي يفسر تقريب اليهود، وغيرهم من الجنسيات الأخرى، بالإضافة إلى عوامل لا يمكن التغاضي عنها وهي جهل البربر بالثقافة العربية وعجزهم عن النطق بالفصيح العربي فضلا عن الكتابة الديوانية بين الأمراء بالإضافة إلى انعدام الثقة بين حبوس والأندلسيين العرب للخصومة القديمة بين البربر والعرب، وكثرة اليهود في غرناطة فقد كانو إبن النغريلة من اتساع المعارف ويسر كتابة الرسائل في الوقت المناسب والتعجيل بها إلى المقاطعات.[2]

واستطاعت هذه الشخصية اليهودية أن تجمع بين ولاء السلطة الزيرية وتفانيها وإخلاصها في القيام بالمهام والمسؤوليات العسكرية التي أحيطت بها من جهة، وبين إخلاصها لأصولها اليهودية ووفاءها لعقيدة أسلافها، إذ كان إسماعيل بن النغريلة يسير على هدى الأنبياء والحكماء من اليهود وقادته عبقريته الإبداعية إلى الجمع بين المعارف اليهودية والعربية وبين الأدب العربي والكتابات التلمودية.[3]

---

[1]- عبد الله بن بلقين، ص: 68.

[2]- ابن حزم، المصدر السابق، ج03.

[3]- حاييم الزعفراني، المرجع السابق، ص: 101.

ونظرا لهذا الإبداع الفكري والمساهمات في مجال الشعر والأدب تزلف إليه الأدباء والشعراء من هذا الباب لينالوا منه الحظوة والمكافأة وكان منهم آخرون ناصبوه العداء وأوكلوه وابلا من الشتائم ضمنوها قصائدهم الشعرية، ومن هؤلاء أبي إسحاق الألبيري[1] القائل في قصيدة طويلة سنعرض لها في المباحث اللاحقة.

وَقَــد قَسَـمُـوهَـا وَأَعْـمَـالُـهَا فَــمِنْهُم بِكُــلِ مَكَــانٍ لَــعِين
وَهُـــم أُمَــنَاءَكُــم عَــلَى سِرِكُمْ وَكَــيْفَ يَكُــونُ أَمِـينًا خَــؤُون[2]

وكان منهم آخرون، تملقوا على بابه، ولبسوا مسوح الذل لينالوا منه مشاريعهم ومن هؤلاء الأخفش[3] الذي امتدحه بقوله:

أَهْـــوَى الـــذِي يَتَـمَنَى مِنْـهُ وَمَــــا دَرَى أَنِــــي أَهْــــوَاهُ
أَكَــادُوا أَفْـنَـى مِـن غَـرَامٍ بِـهِ لَاسِيــــمَـا سَـــاعَة أَلْــقَـاهُ
والله مَـا يُذكَــــرُ فِـي سَـاعَـةٍ وَلَا وَحَــــــقُ الله أَنْــــسَـاهُ

لقد أثار هذا التزلف والهيام بالنغريلة حفيظة المتنفل[4]، وانبرى لتعيير الأخفش فقال:

إذا كُنْــــتُ أَخْــفُـشُ عَــينٌ فَــإن قَـــلْبُــكَ أَعْـــــمَى
فَكَــــيــفَ تَنْـــثُرُ تَنَــــثُـرًا أَم كَيــفَ تُنَـظِــمُ نَظْــمًــا

---

[1] – إسحاق اللبيري: هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري، فقيه فاضل زاهد عارف كثير الشعر في ذم الدنيا مجيد في ذلك، وهو من حصن العقاب واشتهر في غرناطة وذاع هيبته وعرف بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغريلة اليهودي، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له، فسعى في تفنيه على البيرة، وله ديوان ملآن من أشعار زهدية ولأهل الأندلس غرام بحفظها. الضبي، بغية الملتمس، ص: 205، ابن سعيد الغرناطي، المصدر السابق، ج2، ص: 106-107.

[2] – ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الإعلام، ص: 232.

[3] – الاخفش: هو الاخفش بن ميمون القبذاقي يعرف بابن الفراء، أصله من القنذاق وتأدب في قرطبة وله أمداح في النغرلة اليهودي وزير غرناطة، ومن مداحه الأشعار المشار إليها، ابن سعيد، المصدر السابق، ج02، ص: 151.

[4] – المنتفل: هو أحمد بن عبد العزيز بن حيرة القرطبي، المشتهر بالمنتفل، شاعر أديب محسن، قال عنه ابن بسام: (نثر الدّر، المفصل، وطبق في بعض ما نظم المفصل) ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 471م، الحميدي، المصدر السابق، ص: 378، الضبي، المصدر السابق، ص: 408.

ولم يكن هجاء المنتفل للأخفش، نابعا من غيرة دينية يدافع بها عن كرامة الإسلام وحرمته، بقدر ما كانت منافحة قوامها التدافع والتكالب[1] على الفتاة الذي تنثره أنامل ابن التغريلة في فناء قصور بني زيري، وليس هذا فحسب بل دفعته نذالته إلى الإعلاء من شريعة اليهود وإدعائه انه يدين بها سرا، وما تعبيره للاخفش إلا لإزاحته من طريقه لينال القسط الأوفر من هذا الفتاة، ومما جاء في هذه القصيدة قوله:

وَمَن يَك مُوسى مِنْهُم ثُم صَنُوه فَقُل فِيهِم مَا شِئْتَ لَم تَبْلُغ العَشْرَا

فَلِم لَهُم فِي الأَرضِ مِن آيَةٍ تَرَى وَكَم لَهُم فِي النَاسِ مِن نِعمَةٍ تُتْرَى

أَدِينُ بِدِين السَبتِ جَهرًا لَدَيكُم وَإن كُنتَ فِي قَومِي أَدَينُ بِه سِرًا

وَقَد كَان مُوسَى خَائِفًا مُتَرَقِبًا فَقِيرًا وَأَمِنتُ المَخَافَة والفَقرَا.[2]

وقد تجاوز المنتفل حدوده كشاعر مسلم، بدور عن كراهية بني جنسه، إلا أنه تنصل من عقيدته وراح يعلن عن زندقته لليهود غرناطة، حتى أن ابن بسام امتنع عن تسجيل بعض أشعاره التي يتقزز المسلم من سماعها.

يقول ابن بسام: «وهذا القصيد أندرح له من الغلو فيه، مالا أثبّته ولا أرويه وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصل، وقبحه وقبح ما أمل».[3]

ولله در بن بسام الشنتريني أنه لما بلغ البيت:

وَمَن يَك مُوسى مِنْهُم ثُم صَنُوه فَقُل فِيهِم مَا شِئْتَ لَم تَبْلُغ العَشْرَا

قال: «وله في هذه القصيدة من الغلو في القول، ما نبرأ منه إلى ذي القوة والحول»[4] وأضاف ابن بسام: «فقبّح الله هذا مكسبا، وأبعد من مذهبه مذهبا، تعلق به سببا فما أدري من أي شؤون

---

[1]- عبد المجيد كمال، الفكر الأندلسي بين الطعن والانتكاسة، ص: 57.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 477-478.

[3]- نفسه، ج1، ص: 477.

[4]- نفسه، ج1، ص: 477.

هذا المدل بذنبه، المجتري على ربه، أعجب: التفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين، أم خلعه إليه الدنيا والدين؟ حشره الله تحت لوائه ولا ادخله الجنة إلا بفضل اعتنائه». [1]

لقد استطاع هذا اليهودي، بما تحنك به من « دهاء، ودماثة، ومكرا، ومعرفة بزمانه واستيلاء بحقودهم بحلمه» [2]، لم يعط ابن حيان لشخصية أندلسية عربية كانت أم يهودية هذه الأوصاف التي جمعها في مرادفات زادت عن العشرين، وهذا ما يدل على عبقرية عزّ نظيرها في الأندلس.

ومن هنا نستنتج مدى تأثير ابن النغريلة في الأوساط الأندلسية، من الموالين له من اليهود وحتى من أعدائه من المسلمين الذين هاموا بحبه وأعلنوا عن ذلك صراحة في قصائدهم الشعرية كما مرذ بنا مع المنتفل والاخفش.

ولعلّ هذه المواصفات الدالة على قدرة الرجل وكفاءته هي التي أسرعت به إلى قصر حبوس وكان في أشد الحاجة إلى رجل في حجم النغريلة كي يربأ به الفجوة التي تركها وزيره وقائد جيشه، في وقت توترت فيه العلاقات بين ملوك الطوائف، فكان حري بحبوس ن يعضد نفسه بهذه الشخصية اليهودية التي اجتمعت فيه أوصاف رجل الدولة، إلا أنه فات حبوس أن هذه الشخصية كانت مشدودة إلى دينها ويهوديتها، وما كرسته من نجاحات للدولة الزيرية فهو من اجل الذياد عن الجالية اليهودية وتقويتها داخل المجتمع الغرناطي.

وعلى أية حال فإن حبوس بن ماكسن استطاع بفضل شجاعته ودهائه أن يؤسس كيانا للبربر الذين كادت آلة المروانية الأندلسية أن تسحقهم.

ونظّم الجيوش وحشد الجند، ودربهم وخاض بهم دياجر الحروب، وكانت سياسته الخارجية تتسم ببعد النظر، وابعاد العصبية عن الخصومات حتى لا تنشب الحروب تحت مظلتها، وارتبط مع جيرانه بعقد التحالفات، متناسيا النزاعات الطويلة التي كانت بين صنهاجة وزناتة التي حزت فيها رأس جده زيري بن مناد. [3]

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 478.

[2]- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 242.

[3]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 52.

عهد باديس بن حبوس بن ماكسن 429هـ-467هـ/ 1037م-1074م:

ولى الحكم بعد وفاة أبيه حبوس بن ماكسن سنة 429هـ-1037م[1]، إلا أن قصة ولاية العهد أو من يتولى الأمر بعد حبوس أثارت خلافا شديدا، داخل القصر، وأول خيوط هذا الخلاف يوردها الأمير عبد الله الزيري في كتابه التبيان على أنه كان لحبوس ابن أخ يعرف بيدّر بن حباسة قد قرّبه حبوس وآثره على ولده، لما كان يتحلى به من نباهة وفطنة وحسن تدبير، وكان ممثله في المهمات ولقاء السفراء، وطار صيته في أرجاء غرناطة وأحبّه الجميع.

أما باديس بن حبوس فقد كان على خلاف ابن عمه يدير ، فقد كان في نظرهم طاغية متجبرا، قطوب، وتوقعوا أن صار الأمر إليه أن يدير أمورهم على خلاف ما عاهدوه من أبيه، فناصبوه العداء وآثروا عليه يدير[2].

ويواصل الأمير الزيري كلامه عن باديس ويروى على لسانه قصة ذلك الخلاف الذي دار في القصر في حضرة حبوس يقول عبد الله بن بلقين: «كنت واقفا بين يدي حبوس أبي رحمه الله حتى انتدب إليه من شيوخ صنهاجه من قال له: إن من أكد ما تنظر فيه أن تولي على أمرك من يخلفك ممن ترجى بركته للمسلمين ولبني عمك، فإن الموت يغدو ويروح، فقال أبو العباس كاتبه: ليس يصلح لهذا الأمر إلا يدّير، لطهارته قد اصطنعته واستملته، فسمعت رده على أبي العباس وهو يقول له: ما ينبغي لك ان تتكلم بهذا، كيف يقدّم للأمر غير ابنه، وهو متطلع بجميع الأمور، وقولك أنت وقول غيرك باطل».[3]

[1]- ابن الخطيب، لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلطانية، القاهرة 1347، ص: 20.

[2]- عبد الله بن بلقيس، المصدر السابق، ص: 65.

[3]- نفسه، ص: 65.

فتكوّن لتحقيق هذا الأمر فريقان، فريق من البربر وبعض اليهود وهم جماعة كبيرة العدد قوية النفوذ في غرناطة، وفريق آخر مكوّن من نفس العناصر (البربر واليهود) يقودهم إسماعيل بن النغريلة ويميل إلى باديس.[1]

ومع مرور الوقت لم تبق المنافسة قائمة بين باديس ويدّير، بل زيد عليها مرشح آخر هو ولده الأصغر، بلقيس المعروف بطبيعته وسجياه الحميدة، وعدم ميله للحكم، وكان إسماعيل يخشى من تولي يدّير، لأنه كان يعلم أن خلقه ودينه يمليان عليه تخلية الحكومة الزيرية من كل يهودي، وقد سبق أن طرد ابن صديق إسماعيل اليهودي من وظيفته الحكومية، وأما خشيته من تولي بلقيس، لأن صغر سنه وعدم ميله للحكم، يفتح شهية رؤساء صنهاجة من التدخل في شؤون الحكم، وهذا من شأنه أن يمنع اليهود من ممارسة شؤونهم السياسية وتحرير مشروعاتهم داخل هياكل الدولة، وكما أن تولي بلقين يحقق رغبة أغنياء اليهود أمثال جوزيف بن ميجاش ونحمياه أشكافا، الذين يتوقعون أن مصالح زعماء صنهاجة المرتبطة بمصالحهم، ستجعل لهم نصيبا في وظائف الدولة، وعندئذ يسهل عليهم إبعاد ابن النغريلة لما يضمرون له من كره وعداء.[2]

وبطريقة أو بأخرى استطاع من سعوا إلى تولية باديس إلى إقناع حبوس بن ماكسن إلى إزاحة يدّير من معادلة التولية فرضي لهم بذلك، وأوغلوا صدره بالحقد عليه، إلى أن زجره على رؤوس الإشهاد قائلا: «لا تشره إلى ما ليس لك، يا ابن حباسة».وتجرعها يدير وكانت منطلق لعداوته لباديس منذئذ[3].

أما شقيقه بلقين فقد أذعن للأمر الواقع لما رأى من اختلاف حول من يخلف أباه وتنازل لأخيه باديس دون أن ينازعه الأمر.

[1]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 57.

[2]- خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، 92-897/711-1492، مطبعة دار الأرقم، غزة، ص: 208.

[3]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 66.

وعبثا حاول يدبر أن يفوت الفرصة على باديس بإعلان ولائه لبلقين شقيق باديس ولما رأى أصحاب يدير ما يقوم به في إظهاره الموالاة لبلقين قالوا له: «إن كنت لا تسعى لنفسك، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى فباديس أحق بذلك، الذي هو الأكبر والأسعد، وله الرياسة».[1]

فمن هذا الحوار بيّن يدير وأصحابه يستنتج أن المفاضلة كانت بين يدير وباديس، وحتى يثنيهم على العدول عن نصرته قال لهم: «ليس سعيي لبلقين إيثارا مني له على نفسي، غير أنه صحيح النية، غير حاذق بمكان المملكة، وهو شقيق الذي أطلب، ولن أجد لطلبه أقدر على ضرّه من أخيه، فإنما أنا أصيد به، فلو اتسقت لي الأمور، وتهيأ قتل باديس على يدي أخيه، كان أمر بلقين من بعده هينا وخلعه ممكنا».[2]

إلا أن باديس لم يكن من الطراز الذي يسهل على خصمه النيل منه ،فقد أوتي باديس من القدرة على إحباط المؤامرة والردّ عليها ما جعل خصومه يتوجسون منه مخافتا، واتقاء شره، وقد أجمعت المصادر على هذه الصفات، إلا أن البعض منها جنحت إلى وصمه بمعايب لا تليق بمواصفات القائد.

فابن حيان لا يتواب في وصم أفعاله التي استقاها من معاملته لخصومه حين ظفر بهم يقول عنه: «وأما أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأنا وأشدهم سلطانا وأوسعهم أعمالا فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة ومستخدم الكثير من قبائل زناتة ... أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختبارا، فلبسه بغيا واستكبارا وأساء الانتقام ولم يقل العثرة، واخذ الظنة وأسرف في العقوبة وشدّ يداً بالعصبية، وتقلد الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة والجبرية فأسلف في ذلك كله أخبارا مأثورة».[3]

أما ابن بلقين وهو حفيد باديس بن حبوس، لا يفتأ بذكر جده بالصفات النبيلة التي تليق به كحاكم بربري صنهاجي ينتمي إلى السلالة الزيرية التي حكمت غرناطة يقول عبد الله بن بلقين:

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 66.

[2]- نفسه، ص: 66.

[3]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 230.

«وكان باديس بن حبوس جدنا –رحمه الله كبير النفس، عالي الهمة، حاد المزاج، لا يستطيع احد أن يخرق عليه في أمر من الأمور، ولا ينكسر لأحد من بني عمه ثقة منه بسعادته، وإن الإخضاع والتمريض في القول لا يغنيه ذلك ولا يزيد في أيامه وكان ذلك كله منه في حزم وروية، لا يفسد جانبا حتى يصلح آخر، ويضرب بعضهم ببعض».[1]

أما بن سعيد الغرناطي فقد وصفه بالقسوة وسفك الدماء ولم ينف عنه حسن التدبير والسياسة حيث يقول: «وكان من أبطال الحروب وشجعانها، يضرب به المثل في شدة القسوة وكسفك الدماء، وعظم ملكه بهزيمة زهير ملك ....، وقتله واستيلائه على ثنه وكان على ما فيه من القسوة حسن السياسة منصفا حتى من أقاربه، نفت له يوما عجوز فشكت عقوق ابنها، وأنه مد يده إلى ضربها، حضره وأمر بضرب عنقه، فقال له: يا مولاي ما أردت إلا ضربه بالسوط فناداه فقال: لست بمعلم صبيان وضرب عنقه»[2].

وعمد الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقبان إلى تصوير هذه الشخصية على أنها عديمة الصلاح ونظر إليها من الزاوية القاتمة، وساق إليه كل آفة ورذيلة، والناس منه على وجل، يتشنجون منه اتقاء لرمياته، يقول الفتح بن خاقان: «كان باديس بن حبوس بغرناطة عاتيا في فريقه عادلا عن سنن العدل وطريقه يجتري على الله غير مراقب، ويسري إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب قد حجب سنانه لسانه وسبقت إساءته إحسانه، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم، ولم يشرب الماء إلى من قليب دم، أجزم من كاد ومكر وأجزم من راع وابتكر ومازال متقدا في مناصبه، متفقدا لنواحيه، لا يرام بريث ولا عجل ولا يبيت له جار إلا على وجل»[3].

ومما ذكرناه آنفا أن جلّ المصادر اتفقت على هاته ومكره بعدوه، عندما تحدث دوزي رينهارت عن قسوة باديس وقارنها بقسوة المعتضد ذكر ان كلاهما قاس شديد البأس وإن كانت

---

[1]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 65.

[2]– ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج02، ص: 87.

[3]– ابن حاقان الفتح، قلائد العقيان ، ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط1، 1409هـ– 1989م، ج1، ص: 81.

قسوتها ترى بألوان مختلفة، فباديس في ثورة غضبه يقتل بيده ضحاياه ، والمعتضد في أحوال نادرة يتعدى على وظيفة بلاده[1].

ومهما يكن من أمر فإن باديس بن حبوس استطاع أن يصل إلى سدّة الحكم بالرغم من محاولة أعدائه الحيلولة دون بلوغه هذا المنصب.

ومع توليته كان أعداؤه ينسجون خيوط المؤامرة لتصفيته، وأجمعوا أمرهم على قتله عند خروجه من المنية إلى الرملة، وأوكلوا المهمة إلى شيخ من صنهاجة اسمه فرقان وكافؤوه خمس مائة مثقال، فإهتبل الشيخ هذه الفرصة للتقرب من باديس، فهرع إليه وأشار إليه أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فخرج باديس من الباب الخلفي وجدّ السير نحو قصره.

وأما المتآمرون فقد أعلموا أن باديس لن يأتي إليهم، فقد شغله أمر مقلق وجب الانصراف إليه، وأيقنوا أن أمرهم قد كشف، ولاذ ابن عمه يدير بالفرار إلى أعداء أعمامه وصار في حصن أشبيلية، وصار عينا لهم يطلعهم على المخادع ويكشف عورات بلاده، وعندها امتثل أمامه رجال صنهاجة الذين اشتركوا في المؤامرة وكانوا أزيد من مائتي رجل، هم يقتلهم، فأشار إليه أحد وزرائه ألا تعاقب ، وإذا عاقبت فكم عسى أن تعاقب فهم أحفادك وأجنحتك، فقبل النصيحة، واحتال للأمر بغير هذا الوجه، فضرب بعضهم ببعض وأفشى فيهم العطايا ليقرب البعض ويبعد البعض[2].

سياسته الخارجية مع دول الطوائف:

لم يكد حبوس يتخلص من المؤامرات الداخلية حتى داهمته المشكلات الخارجية، وهي مشكلات ورثها عن والده حبوس وهي مشكلات مثلثة الأضلاع ويعني بها علاقات غرناطة مع خليفة مالقة، ومع اشبيلة والرزالي، صاحب قرمونة[3]، وزيد على هذا الثلوث محنة أخرى جعلت باديس بين فكي الكماشة، وهي محنة زهير العامري صاحب المرية الذي كان بالأمس حليفا لوالده حبوس

---

[1]- دوزي رينهارت، المرجع السابق، ص: 57.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 69-70.

[3]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 57.

بن ماكسن، فقلب بالسلطة الجديدة في غرناطة ظهر المجن وتحول إلى حليف لمحمد بن عبد الله البرزالي الذي ارتمى هو الآخر في أحضان اشبيلية أعداء غرناطة التقليديين يقول ابن حيان: «كان سبب فساد باديس بن حبوس وجماعة قومه صنهاجة على جارهم وحليفهم القديم الحلف والولاية زهير الصقلبي فتى المنصور بن أبي عامر موالاته الكاشحة[1] محمد بن عبد الله زعيم زناتة»[2].

العلاقة مع زهير صاحب المرية:

وأملا من رأب الصدع وتجديد الحلف الذي عقده حبوس مع زهير المعامري لمواجهة أطماع ابن عباد التي أخذت تتجه إلى غرناطة نفسها، خاصة وان مملكة المرية التي ورثها زهير العامري عن خيران تحولت إلى مملكة قوية مزدهرة العمران، وقد توسعت أرجاؤها إلى شاطبة وما يليها وإلى بياسة وما وراء الفج[3]، ومن هذا المنطلق حول باديس استدراج زهير إلى الحلف القديم، ووجه إليه كتابا، يعاتبه فيه على ما بدر منه من محاولة التملص من الحلف القديم، ويطلب منه تجديد العهد الذي كان بينه وبين أبيه حبوس[4] ويبدوا أن زهير كان يضمر في نفسه أمرا فقد استصغر من شأن باديس وأعرض عنه، وتناس جميلا قد أفل، ولم يذكر حين سيّر محمد بن عباد جيشا لإرغامه على الدعوة لهشام المزعوم فاضطر زهير للاستنجاد بحبوس بن ماكسن صاحب غرناطة الذي لم يتردد في الخروج إلى نصرته حيث انسحب جيش ابن عباد دون أن ينال من زهير.[5]

إلا أن زهير كان واقعا تحت تأثير محمد بن عبد الله البرزالي الذي تباينت مواقفه وهذا ما أشرنا إليه في الرسالة التي وجهها له حبوس بن ماكسن، وطلب منه أن يفصح عن موقفه من الحلف، إلا أن المتأمل في هذه العلاقات بين هؤلاء.يجد أن منطلقها هي مشكلة الولاء للخليفة، فمحمد بن عبد

[1]- الكاشحة،: أدبر، يقال ولما راني كشيح: أي أدبر وولى بكشحه، وكشحه: أي طعنه في كشحه، الزمخشري ابن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ص: 544.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 408، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 169.

[3]- ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 169.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 408، ابن عذاري، نفسه، ج1، ص: 169، ابن خطيب، أعمال الإعلام، ص: 216، ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 526.

[5]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 408.

الله البرزال لعب على هذا الحبل حيث أراد استغلال الخلاف بين خليفة ابن عباد الذي اسطنعه لنفسه، وخلافة مالقة، ليضمن لنفسه الاستقلال بمملكته في قرمونة.

وقد بين ذلك ابن حيان بشيء من التفصيل: «ومضى على ذلك حبوس من عداوته وخلفها كلمة باقية في عقبه أضرم زهير بعد نارها يتمادى تمسكه بالمذكور وإيفاده إليه الممدد بقرمونة، واستخفافه بحق باديس، وإنزاله إياه منزلة الأكفاء، وهيهات له من ذلك من فتى غير قليل التجربة، فآثر شفاء نفسه عن النظر لعاقبه أمره، وأضمر الغدر، وقدم الغدرة، وأرسل رسوله إلى زهير ملطفا في العقاب، مستدعيا تجديد المحالفة».[1]

هشّ زهير لهذا النداء، وهبّ مسرعا إلى ناحيته، ولكن في استطالة، وخيلاء على رأس جيش عرمرم يتقدم رجال دولته، وجاء مدلا بجمعه وكثرته، أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى العامل من عماله، على حد تعبير ابن بسام[2] وقاده عجبه بقوته أن يتجاوز الحدود التي تفصل بين المملكتين، ثم يقاد رسمي إلى مكان الاجتماع إلا أن زهير ركب رأسه وضرب بمراسيم اللقاء بين ملكين عرض الحائط، وتوغل في أراضي مملكة غرناطة في حلف وكبرياء.[3]

وحول أقدام هذا القائد على هذا التصرف اللاّمسؤول، يقدم لنا عبد الله بن بلقين صاحب التبيان دوافع إقدام زهير على هذا الفعل إذ يقول : «وأدركه الطمع في غرناطة، لما بلغ من موت حبوس بن ماكسن، فأتى حتى نزل على مقربة منها بموضع يعرف بالفونت، محتقرا بمن ولي غرناطة ويزعم أنهم أصاغر وأمرهم مختل بعد حبوس، لما أراد الله من هلاكه وهلاك جنسه الخصيان[4]».[5]

---

[1]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 409.

[2]– ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 409، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 169.

[3]– إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 59.

[4]– الخصيان: هم الصقالية النصاري الذي وقعوا في الأسر أو ابتيعوا في شمال اسبانيا او من وراء جبال البرانس، سعى الصقالية جاهدين لإعادة الخلافة الأموية بعد وقوع الفتنة إذ كانوا يأمرون في استرجاع نفوذهم السابق على عهد الناصر ونجله الحكم، وقد توجه عدد منهم إلى شرق الأندلس، وملكوا عددا من المدن الساحلية، كالمرية، وبلنسية، ودانية وطوطوشة، وكونوا بذلك كيانات عرقية مستقلة، عبد الله ابن بلقين، المصدر السابق، حاشية، رقم 118، ص: 210.

[5]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70.

وبالرغم من هذا العمل الخالي من اللياقة الذي أثر في نفس باديس، ومع هذا فقد قابله بالحفاوة والتكريم، وأولم له ولمن معه وليمة فاخرة، وأوسع عليه وعلى رجاله في القرى والتعظيم[1]، وعلى الرغم من الحفاوة والتعظيم، فإن المفاوضات التي دارت بينهما على عقد تحالف وطيد، لم تسفر عن نتيجة، وكان زهير أثناء هذا اللقاء يتظاهر بالعظمة والتشطط، الأمر الذي ترك في نفس باديس أثرا سيئا، وزاد في حنقه حين زعم في بعض ما يقوله أن الذي حمله على المجيء إليه هو زيارة قبر حليفه وخليله حبوس بن ماكسن، فأسر باديس ما ابتدر منه في نفسه، ولم يبد له أي امتعاض، وبيّت النية على الإيقاع بأمير المرية. وتأديبه أدبا يكون كفاء لجرأته وجفائه وصمم على الإيقاع بوزيره لما بدا منه من عناد وفظاظة.[2]

وفي غمرة هذا الحوار الذي ازدادت فيه حدة الملاسنة، ولم تسفر عنه أي نتيجة أدرك بلقين بن حبوس أن احمد بن عباس هو صاحب الحلّ والربط في هذه المسألة، ففكر في الانفراد بابن عباس علّه يعود بطائل وذهب إليه حين أقبل اللّيل حتى وافى مجلسه، وخاطبه بقوله: «اتق الله –أيها الوزير– واخش عقابه فأنت الذي يحول دون اتفاق أميره وقد رأيناه اطوع لك من بنانك لا يصدر إلا عن رأيك ولا يعمل إلا بمشورتك ولعلك تدرك أكثر مما ندرك مبلغ ما وصلت إليه من السعادة ... فواجبنا جميعا أن نعود إلى ما كنا عليه من الاتفاق والمحالفة».[3]

وحول هذه الحادثة يذكر ابن عذاري ولو بإشارة خفيفة، إلى الوزير احمد بن عباس أنه المتحكم بناصية المفاوضات بين زهير وباديس يقول ابن عذاري: «لأول وهلة وحمل زهير أمره على التشطط ووزيره احمد بن عباس يفري الفري في تصريح ما يعرض به زهير».[4]

فلما فرغ بلقين من خلافه حدق ابن عباس في وجهه، بنظرات تشفّ عن نفوذ وسلطان قاهر من جهة وامتهان لمحدثه وزرا به عليه ولما حاول بلقين أن يستعطفه، قام إليه معانقا باكيا، وهو

---

[1]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 409، دوزي، ص: 31.

[2]– دوزي رينهارت، المصدر السابق، ص: 31.

[3]– نفسه، ص: 31.

[4]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 170.

يسترضيه بكلمات رقيقة، فلم يرض بذلك وقال له: «وفر عليك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة .... وإن ما قلته لك، هو ما أعيده على مسامعك اليوم، فإذا لم تعمل أنت وأصحابك على تنفيذ ما نريد فسأعمل بعد على ما يدعوكم إلى الحسرة والندم».[1]

فرجع بلقين إلى باديس، غضبانا أسفا لما لحقه من الإهانة والازدراء، وحدثه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس من حديث، فامتعض باديس، وفقد كل أمل في استمالة هؤلاء وانتفض قائلا: «إن وقاحة هذا الرجل لا تحتمل فقوموا جميعا، قومة رجل واحد للدفاع عن كرامة المملكة، وإلا فإنكم وما تملكون تصيرون ملكا لغيركم»[2].

وفي رواية ابن بسام التي يرويها عن ابن حيان: أن ابن بلقين بعد أن سمع الردّ من احمد بن عباس[3] قال له: «يا هذا أبهذا أرجع إلى الجماعة، قال: نعم وأشد منه فانصرفت إلى أميرنا باديس ومن معه من المشيخة وإن دموعي لتتحد على وجهي غضبا، فلما رأوا ما بي ابتدروا سؤالي فخبرتهم وقلت: يا صنهاجة هذه إحدى الكبر، قوموا قوموا لدفاعها بقوة وإلا فليست داركم».[4]

وبهذه الكلمات الممزوجة بدموع بلقين، استطاع أن يلهب صدر باديس وقومه صنهاجة، وقاموا على بكرة أبيهم لم يتخلف منهم أحد، فأخذ باديس في غسق الليل يعيّن مراتب جيشه وخططه، ونصب الكتائب في مواقع تسمح لها بالرجوع والانقضاض، بما ينبغي من الكتمان والسرية.

---

[1]- دوزي رينهارت، المرجع السابق، ص: 32.

[2]- نفسه، ص: 32.

[3]- احمد عباس، كان كاتبا حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، غزير الأدب قوي المعرفة، شارعا في الفقه، مشاركا في العلوم، مقتبسا للشعر من غير طبع فيه، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعا للأدوات الملوكية، جميل الوجه، حسن الخلق، كلف بالأدب، مؤثرا له على سائر لذاته، جماعا للدفاتر، مقتنيا للجيد منها، مغاليا فيها نفاعا من خصه بشيء منها لا يستخرج منه شيء للؤمه إلا في سبيلها أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها، يقول صاحب التبيان عنه انه كان من أشد الناس حماقة واستخفافا مثيرا للبشر، عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70، ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 413، ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 172.

[4]- ابن بسام، نفسه، ج1، ص: 411.

وقد كان من التدابير الحربية التي عمد إليها باديس هو تدمير القنطرة التي تعد خط الرجعة الوحيد لجيش زهير.[1]

ومع ما كان من السرية والكتمان فقد تناهى إلى أحد ضباط زهير ما يبيّته باديس وجنوده للغدر بجيش زهير، فقدم إليه يسعى، أن اخرج فإني لك فإني لك من الناصحين، ويسترسل ابن بسام بما لهج له أحد ضباطه الأوفياء وقال له: «أطعني وقلدني عرها، وهون على نفسك هذا الخرق وخل عنها، وتقدم إلى قوادك بالليلة في الارتحال معك سرا، واتخذ الليل جملا فلعلك تجاوز هذه الاوعار فتخرج من هذه الأوعار، فإن القوم متى تبعوك فيها دخلوا من التغرير فيما خرجت عنه وتهيأ لك العطف عليهم في مجال فسيح يمكنك القتال فيه والتعلق ببعض حصونك»[2] ومازال الضابط يسدي النصائح وزهير يصغي إليه، وقبل أن يبدي زهير الموافقة من عدمها ،تدخل ابن عباس يبطل مفعول النصائح ورد عليه بقوله: «هذا وسواس أدخلك فيه الذعر، فردّ عليه الضابط نافيا عن نفسه بما وجهه به ابن عباس، ألمثلي تقول هذا يا أبا جعفر وأنا فارس بن فارس نيّفت على عشرين وقعة وأنت ما قرعتك قط وقعة ستعلم عاقبة أمرك».[3]

وإن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، وهو كيف أن أحمد بن عباس مع يتحلى به من ذكاء وحسن تدبير وباع طويل في مدرجات العلوم ، تفوته مغبة هذه الورطة وقد وقعوا في شبه كمين محاطين بالمخاطر من كل مكان....؟ وللإجابة على السؤال بدلنا إسماعيل العربي عن أمر في غاية الأهمية كان ابن عباس يروم تحقيقه إذ يقول: «ويبدوا أن تصلب ابن عباس ومخاطرته كانت عن وعي وحسبان دقيق للعواقب، فقد كان يتمنى الهزيمة لصاحبه حتى يعود إلى المرية لينفرد بالحكم فيها وتكون له الإمارة».[4]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 170، إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 61.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 412.

[3]- نفسه، ج1، ص: 412.

[4]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 61.

وفي اعتقادي أن هذا الطرح صائب للاعتبارات التي أوردها صاحب المقال، أن احمد بن عباس أفصح عن نيته في أسر باديس، حين أبتدر باديس وقال له، رأيت أني كأس أدرتها لك على هؤلاء الكلاب؟ يشير إلى الموالي العامرين.[1]

وعلى أية حال فإن زهير لم يعر كبير اهتمام إلى نصائح الضابط وباتوا ليلتهم لا يدرون ما يفعل بهم.أما باديس بن حبوس الذي كان متخوفا من المواجهة بسبب عدم التكافؤ في الأعداد، وزاد في من خوفه رؤيا رآها، ونحن ونظرا لما كانت لهذه الرؤيا من أهمية في حياة القادة والزعماء نوردها كما ساقها عبد الله بن بلقين في كتابه التبيان حيث يقول: «وكان جدنا باديس –رحمه الله- قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحور بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه، فهاله ذلك، وخشي أن تكون الوقيعة عليه، فأرسل في المعبر وقص عليه، فقال له المعبر أبشر بهذه الرؤيا إن الحور شبيه بالخصيان الذي لا طعم له ولا أصل يتورك عليه وهم بهذه المرتبة، ولاشك في سقوطهم وبوارهم على يدك».[2]

وفي الصباح انصرف زهير يريد المرية، وفي المكان الذي عدّه باديس للملحمة برز جيشه ودوي الطبول يملء تلك الجهات، وتفاجأ جيش زهير، وعلموا انه قد أحيط بهم، ولكنه أحسن تدبير الثبات، فوقف في قلب المعركة، وقدم خليفته هذيلا الصقلبي، من الموالي العامريين الذين لهم بالحروب دراية ومراس واستقبلوا صنهاجة، فلمّا رآهم قادة صنهاجة علموا أنهم حماته وشوكته، ومتى ظفروا بهم كانت الدائرة لهم.[3]

أما باديس فقد قدم أخاه بلقين وكان من أشجع الناس، يتقدم بالجيش إلى معمعة القتال.[4]

فالتحم الفريقان واشتد وطيس المعركة، ومال جيش باديس على خصومه ميلة واحدة رغم قلة عددهم، للخطة المحكمة التي اعتمدها ، وتراجع هذيل قائد جيش المرية مع أصحابه وألتّف حولهم جيش باديس وأحكموا القبض عليهم ،ووقع هذيل في الأسر وسيق إلى باديس الذي عجل بضرب عنقه.

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 415.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 170، ابن الخطيب لسان الدين، المصدر السابق، ص: 217.

[4]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 70.

وذهل زهير لمشهد قائده الأعلى، ورأى أصحابه يفرون من ميدان المعركة ففرّ هو الأخر على وجهه، دون أن يصطحب أحدا من رجاله، وجدّت صنهاجة في ملاحقة أصحابه « باذلين السيف فيهم بصدق العصبية وإيثار الإفناء فلم يبقوا على أحد قدروا عليه فأساءوا الاعتداء وأبادوا أمة».[1]

وإن المتأمل في النص الذي أورده ابن عذاري حول وقائع هذه المعركة يقف على حقيقة مؤلمة وهي أن ملوك الطوائف على مختلف انتماءاتهم الطائفية، لم يكونوا يفصحون عن عصبيتهم في تعاملاتهم وعلاقاتهم فيما بينهم، إلا أنهم حين يقتتلون يندفعون بصدق عصبيتهم، وإيثار الإفناء على حد تعبير ابن عذاري، وإن إعمال مثل هذه الأساليب في الحروب هي في واقع الأمر إساءة لمبادئ الحرب، وتكون أكثر إساءة وأكثر اعتداء عندما تكون بين فريقين ينتميان لدين واحد.

وأما زهير فقد خفي فلم يوجد حيًّا ولا ميّتًا حسب رواية عبد الله بن بلقين [2]، ويضيف ابن الدلائي قائلا "وجهل مصرعه واختلف فيمن قتله"[3] إلا أن ابن الخطيب يعطي تاريخ ومكان الوفاة حيث يقول: «وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال من سنة 429هـ بقرية الفنت من خارج غرناطة».[4]

مقتل أحمد بن عباس:

بعد نهاية المعركة ظفر باديس على وجوه من علية القوم، فيهم الفرسان والقواد الذين ضربت أعناقهم في الحين، وتشمل الأسر جملة الأقلام وفي مقدمتهم وزير زهير الكبير احمد بن عباسالذيأمربحبسه، وأرجأ قتله مع جماعة من الأسرى وعضعن حملة الأقلام وأطلق سراح ابن جزم والباجي[5] وغيرهما.[6]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 171.

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 71.

[3]- ابن الدلائي احمد بن عمر، ترصيح الأخيار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م، ص: 83.

[4]- ابن خطيب لسان العرب، أعمال الأعلام، ص: 217.

[5]- الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد التنجي القوطبي أبو الوليد الباجي، ولد في باجه سنة403 مالكي المذهب، رحل إلى المشرق فأقام بمكة ثلاث أعوام، ثم رحل إلى بغداد فأقام فيها ثلاثا يدرس الفقه ويكتب الحديث، توفي القاضي أبو الوليد سنة أربع وسبعين وأربعمائة، ودفن بالرباط على ضفة البحر وصلى عليه ابن القاسم، ابن بشكوال، الصلة، ص: 176-177.

[6]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 171.

وكان احمد بن عباس أثمن طريدة غنمها باديس من المعركة، وأراد وهو في طريقه إلى باديس أن يصرف البربر عن الاهتمام به، وان يغالط باديس بان يضمه إلى حملة الأقلام الذين أطلق سراحهم وعفى عنهم، وفي هذا يقول ابن حيان: «وكان من جهة المأثور أن قال يومئذ للذين يحملونه إلى باديس: الله الله في حمولتي، قولوا لأبي مناد باديس يحتاط عليها لا تنخرم، فإن فيها قطعة دفاتر لا كفاء بها، فضحك البربر من جهله».[1]

وفي حديث ابن حيان أنه عندما امتثل أحمد بن عباس أمام باديس، قال له: «أريد أن تتقدم إلى حفظ دفاتري فإنها أهم ما عندي، فتهجم له باديس وقال: أمكرا عند الموت يا إبن الفاعلة؟ إياي تغالط وأمر بتلّه إلى محبسه، فعند ذلك عرف ما يراد به، ويئس من المغالطة في جرمه».[2]

وأمر باديس إيداعه السجن، ينتظر في أمره فيما بعد، وبقي في سجنه شهرين وباديس يتردد في اتخاذ قرار بشأن فديته.

وخلال هذه الفترة كان باديس محل نزاع بين تيارين متناقضين أحدهما يستشفع باديس ويدعوه إلى العفو عنه وزعيم هذا التيار أبو الحزم بن جهور الذي وجه إلى باديس سفارة تشفع لديه في أسرى المرية ويؤكد في شأن ابن عباس بصفة خاصة[3]، وتيّار عبد العزيز بن أبي عامر الذي كان يتمنى الخلاص من زهير وأصحابه[4]، إلا أن باديس كان في غمرة التجاذب بين شهوة عارمة للمال، ورغبة ملحة للانتقام.

وظل على هذه الحال إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه مع أخيه بلقين، فلما مرّا على الدّار التي كان يقبع فيها ابن عباس، أمر بإخراجه وجيء به إليه، فأقبل باديس على سبّه وتبكيته بذنوبه، وأحمد يتلطف ويسأله مما هو فيه فرد عليه باديس «اليوم تستريح من هذا الأمر وتنتقل إلى ما هو أشد منه، وكان كلما تضرع ابن عباس، وزاد في أضعاف عدد المال استشاط باديس غضبا، فهذا مزراقه

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج01، ص: 412.

[2]- نفسه، ج1، ص: 415.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 172.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج01، ص: 415.

مركز فيه وأمر بجر رأسه وعلق ووري جسده التراب خارج القصر[1]، ولن يغن عنه توسل خليفة قرطبة والأعيان من الأندلسيين، إلا ما شمل من بعض الوجوه كابن حزم والباجي الذي سبقت الإشارة إليهم».[2]

ولقد بلغت قسوة باديس على أحمد بن عباس، حدًّا لم يستطع أحدا ان يمتص منها او يخفت نارها،جزاءاً لما اقترفته يداه من تحريضزهير وجره ابن عباس وجرّه إلى الاعتداء .

إلا ان بعض المصادر التي أرخت لهذه الفترة تحمل زهير مسؤولية الإخلال بالحلف الذي كان يحرض باديس على استعادته.[3]

وفي اعتقادي انه لم يتوقف الأمر على زهير ووزير احمد بن عباس، بل هناك شخصية بربرية لا يمكن بأي حال تبرئة ساحتها الا وهي شخصية محمد بن عبد الله البرزالي الذي كان وراء تحريض زهير على خرق الحلف الذي سبب هذا التوتر في العلاقات بين المتحاربين.

علاقة باديس مع إشبيلية ودويلات البربر:

لاشك أن باديس بقضائه على زهير صاحب المرية، ووزيره أحمد بن عباس ، قد قدم خدمات جليلة لأعدائه، وفي مقدمتهم عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، الذي دعي من قبل أهل المرية، وظفر بذلك من تركة مولاه زهير العامري وأصحابه الصقلبيين المصابين معه، أموالا عظيمة وأمتعة رفيعة، شبهه فيها ابن بسام في كتاب الذخيرة «كخرقاء وجدت صوفا».[4]

ليس هذا فحسب، بل قام بتأمين اشبيلية حيث كان ابن عباد قلقا لتهديدات زهير والصقالية حيث كان يرى فيهم قوة مشاكسة صعبة المراس، وبزوال هذه القوة بدأ عباد في تنفيذ مشاريعه التوسعية.

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 172.

[2]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 127.

[3]- فيصل أبو الصوف، العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر الطوائف، القرن 05 11 م، رسالة ماجستير نوقشة في قسم التاريخ بجامعة قسنطينة، 2011م، ص: 90.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 412.

وجاءت ردة الفعل من قبل ابن عباد، ورأى أن الظرف مناسب لتأديب حليفه العنيد محمد بن عبد الله البرزالي الذي تخلى عن محالفته، وانضم إلى حلف حبوس بن ماكس صاحب غرناطة الذي يعتبره ابن عباد عدوا مقدوره أن يحبط مشروعه التوسيعي حيث كانت سياسته تقضي بالتغلب على كل ما كان بحوزة البربر من الحصون والقلاع القريبة من بلاده.[1]

وإمعانا في إنجاح هذا المشروع جهز ابن عباد ابنه إسماعيل وأمره بالسير إلى قرمونة وفي طريقه انضمت إليه بعض القبائل.[2]

وانتشرت قواته بأحواز قرمونة وأحكم عليها الحصار، وجدّ في السير إلى الكور المحاطة بقرمونة فاحتل أشونة[3] وأستجة[4] وانتزعهما من محمد بن عبد الله البرزالي[5] ولما أحس هذا الأخير أن قد أحيط به استغاث بالخليفة إدريس المتأيد، وبقبيلة صنهاجة وهب باديس بن حبوس على رأس قواته، أما إدريس الذي كان طريح الفراش فقد أمده بعسكر يقود ابن بقنة أحمد بن موسى، فلما تقابل الفريقان، ظهرت قوات إسماعيل بن عباد أكثر أعدادا واستعدادا للحرب تهيبته قوات البربر بقيادة باديس، وترددت في ملاقاة جيش إسماعيل وآثروا الانسحاب والنكوص على المواجهة.

فلما بلغ ذلك إسماعيل داخله العجب والغرور فتقفى أثر باديس فأرسل هذا الأخير إلى ابن بقنة الذي كان قد جد في السير نحو المرية، يطلب منه العودة فقفل راجعا نحو باديس والتقى الفريقان، فأصبح جيش إسماعيل بين فكي الكماشة فكان إسماعيل أول مقتول وحمل رأسه إلى إدريس بن علي الحسني[6]، وفعل به ذلك أسوة بما حدث لعمه المعتلى ونكاية بابن عباد[7]، ولم يذق إدريس

---

[1]- شريفة دحماني، المرجع السابق، ص: 192.

[2]- المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص: 54.

[3]- أشونة: إقليم صغير به مدن أشونة ولوره وهي عبارة عن حصن ممدن كثير السكان، الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص: 536-572.

[4]- استجة: متصلة بأعمال قرطبة، وهي مدينة قديمة أزلية منفسحة البطاح كثيرة المرافق وبها ضروب من الفواكه والأزهار ولها أعمال كثيرة تزيد على ألف قرية بين حصون وقرى صغيرة وبروج واشتهرت أنسجة بأسواقها العامرة وفناديق كثيرة كما توجد بها آثار قديمة، الحميدي، المصدر السابق، ص: 53.

[5]- نفسه، ص: 38، المراكش، المصدر السابق، ص: 54.

[6]- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 39.

[7]- نفسه، ص: 39.

المتأيد طعم الانتصار على ابن عباد حيث لم يعمر بعد الحادثة سوى يومين[1]، وكانت وفاته 431هـ/1039م.[2]

وفي سنة 439هـ/1047م اجتمع زعماء البربر، باديس بن حبوس، وإسحاق بن محمد بن عبد الله الرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدمري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، والمظفر محمد بن عبد الله ابن الأفطس صاحب بطليوس. وقدموا بيعتهم لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر واتفق هؤلاء على مناهضة المعتضد عباد بن محمد صاحب اشبيلية[3] تحت إمرة خليفتهم الجديد الذي الذي قاد الجيش المتحالف نحو إشبيلية وتعززت صفوفهم بانضمام محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس، إلا أن حملتهم لم تحقق أي نجاح يذكر، فعادوا إلى قواعدهم بعد أن عاثوا في الأرض المحيطة باشبيلية نهبا وتخريبا كما في قول ابن حيان «ولم يقض الله لهم أربا، فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع ولا اتفاق، وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء الذين حاصروا ابن عباد بسوء فعلهم في هذه الحركة من ظلم المسلمين واخذ أموالهم بغير حق وتفسيرهم لنعمهم وقطعهم أثمارهم ونكثهم لما كانوا تعاقدوا عليه مع ابن عباد فخلصهم الله منه».[4]

لم تكن هذه التحالفات، ولا التهديدات التي لتردع المعتضد، ويكف عن تنفيذ المشروع التوسعي، فقد قام بغزو ابن يحي البحصبي لبلة فاستجد هذا الأخير بباديس، والمظفر محمد بن عبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس، وبني حمود أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء، واستعصى عليهم دخولها وكادت جيوش ابن الأفطس أن تنهزم وتراجع عبر المنخفضات. وفي غمرة هذا التقهقر لحقت جيوش باديس، واجتمع بحلفائه حتى أحواز اشبيلية، واختلطت الجيوش. يصف ابن عذاري هذا التلاحم وما أسفر عنه بقوله «ولحق بعد باديس بجمعه وخاض وادي قرطبة وجاز إلى الشرق وتجمع

---

[1]- المراكشي، المصدر السابق، ص: 58.

[2]- الحميري، المصدر السابق، ص: 155.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 229، ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص: 142.

[4]- ابن عذاري، نفسه، ج03، ص: 280.

حلفاؤه وعاثوا في نظر اشبيلية وانقطعت السبل جملة وكثر القتل والهرج والسلب وأحس الناس مثل عصر الجاهلية».[1]

ومع ما لقيه المعتضد من هؤلاء إلا أنه ظل مصرا على تنفيذ مشروعه التوسعي، والقضاء على دويلات البربر المحيطة به، فهو بعد أن تخلص من أبي نور بن أبي قرة صاحب رندة وضم إمارته إلى مملكته عام 457هـ/1064م، وبن محمد بن نوح الدمري صاحب مورور وضم إمارته إلا بلاده عام 458هـ/1065م، فعرضاه نحو أركش وكان على سدتها يومئذ محمد بن خزروه اليقرني الزناتي، ولكي ينجح في مسعاه بنا حصنا متقدما على مقربة من اركش [2] وجعله قاعدة ارتكاز وانطلاق لمقاتليه وشدد الإحكام والمضايقة، وفرض المراقبة على جميع التحركات داخل المدينة وخارجها وسد المنافذ وأخذ رجاله يغيرون انطلاقا من هذه الحصون.[3]

كل ذلك والقائم ماض في الذود عن حياض أركش يدافع عنها، ويحث على الثبات[4]. ولما تبين له أنّه لا جدوى من مقارعة جيش المعتضد الذي كان يفوق جيش أركش عدة وعددا، آثر أن يلجأ إلى حليف الأمس باديس بن حبوس صاحب غرناطة ومالقة وأعمالها واتفق معه على أن يعطيه قلعة أركش وسائر البلاد التي تحت حكمه، مقابل أن يتنازل لهم على أرض من بلاده ينزلون بها ويأوون إليها تحت كنفه، فاستحسن باديس هذا العرض وبعث بقوة عسكرية ضخمة أقلعت نحو أركش لضمان تغطية الجلاء[5]، وتحت حماية جيش باديس غادر بنو يرنبان أركش بمعية عيالهم ومتاعهم وأموالهم قاصدين أرض غرناطة فكانت جملة دوابهم التي عليها أحمالهم نحو الخمسمائة وكانت تصحبهم في هذه الرحلة ثلة من بربر بني برزال، وما كادت قافلتهم تبتعد عن القلعة حتى خرجت

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 211.

2- نفسه، ج03، ص: 272، عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 154.

3- مريم قاسم الطويل، المرجع السابق، ص: 141.

4- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 194.

5- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 272.

قوات المعتضد من كمائنها بفحص شلب[1]، ونشبت بين الفريقين معركة دامية، غير متكافئة، لم يكن فيها لبني خزرون من ملاذ سوى ربوة كانت بمحاذاتهم فارتموا في شعابها وألقوا برحالهم حتى انبلاج الصبح لتتجدد المعركة وخرجت قوات بني عباد من كمائنها وهم يقرعون طبول الحرب بينهم فلما ترائى الطرفان أيقن بنو خزرون أنهم قد أحيط بهن وأنهم لاشك منهزمون وتقدم نحوهم جيش بني عباد، وقتل في أول المواجهة محمد بن خزرون، وكان قبل مصرعه، قد أوعز إلى غلامه بقتل إمرأته التي كانت بهية الحسن إلى جانب أخته حتى لا يمكن المعتضد من النيل بقتل منهما وانتهاك كرامتهن لعلمه بشخصية المعتضد الذي لا يتورع في ارتكاب مثل هذه الأعمال.[2]

كما أسفرت المعركة عن مقتل قائد الجند الذي أرسله باديس لتغطية الجلاء ودخل المعتضد قلعة أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها وكان ذلك سنة 457هـ/1065م.

وترتب عن سقوط هذه الإمارات البربرية في يد المعتضد بن عباد استياء لدى بقية البربر، وفي مقدمتهم باديس بن حبوس الذي دأب في محاولة جمع البرابرة الذين نزحوا إليه بعد انكسارهم أمام قوات بن عباد، محاولة منه لاسترجاع أراضي البربر وإيقاف الزحف العبادي على ممالك البربر.

واستطاع باديس أن يستنفر عشائر من بني دمر، وبني يفرن، وبني خزرون، ولكن بمعنويات فاترة، وعزائم منكسرة.

ومع ذلك سار بهم باديس نحو مواطنهم الأصلية وهو ما أورد ابن خلدون «وفرج باديس لطلب ثأرهم منه، واجتمعت إليه عشائرهم فنازلوه مدة ثم انصرفوا».[3]

---

[1]- شلب: قاعدة كورة أكشونية وبها جبل عظيم كثير المنابع ينبت فيه شجر النضاح العجيب، ومدينة شلب حسنة الهيئة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها وسكانها من عرب اليمن وهم فصحاء يقرضون الشعر وهم غاية في الكرم لا بدأنهم فيه احد، الحميري، المصدر السابق، ص: 342.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 273.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج04، ص: 202.

نجاح باديس في إبعاد المعتضد عن مالقة:

كان باديس قد ضم مالقة إلى مملكته في عام 447هـ/1055م، غير أن أهلها قابلوا إحسانه إليهم بالإعراض والإساءة، إذ كان قد حسن من أحوالهم ورفع فقهاءهم ومقربيهم إلى منزلة تليق بمقامهم، وبالرغم من هذا الإحسان إلا أنهم كانوا يميلون إلى المعتضد كونه عربيا، فهم لم يرضوا أن يحكمهم بربري، ومما جاء في النص الذي أورده ابن عذاري حول هذه التبعية المفرطة التي لا تنم عن أمر ذي بال يقول ابن عذاري: «كان أهل مالقة إذا جرى ذكر عباد المعتضد ارتجوا إليه، ورفعوا أصواتهم بالثناء عليه، هذا على ما كانت أعينهم تقذى من قبح آثاره ويصل سمعهم من هول أخباره، ويلفح وجوههم من شرور ناره، تشييعا لم يكن له أصل إلا شوم الحمية، ولوم العصبية».[1]

والمتأمل في النص الذي أورده ابن عذاري يقف على حقيقة ناصعة لا يختلف فيها اثنان، في أن العصبية العرقية كانت حاضرة بقوة، حيث تجلت بشكل قوي مع تدهور الأوضاع في الأندلس مع نهاية القرن الرابع الهجري، ونحن نؤكد على إبراز هذه الظاهرة وتجليها لكون العديد من الدراسات الحديثة، تحاول أن تنفي وجودها في العلاقات بين دول الطوائف خلال القرن الخامس الهجري، مستندين إلى بعض الوقائع العابرة في مسرح أحداث هذه الفترة كالصراع الذي كان يحدث بين الطوائف من أصول أثنية مماثلة والعلاقات السليمة بين آخرين من أصول أثنية متناقضة، ومن هؤلاء الأساتذة الذين لهم باع طويل في مختلف الدراسات الاثنية، والثقافية والاجتماعية، لهذا العهد.

أحمد بن عبود الذي ينفي في إحدى الدراسات التي أنجزها في هذا المضمار العلاقات المبنية على العرقية. ومما جاء في هذه الدراسة قوله: «ولعل أقوى دليل ضد المنهج المبني على العرقية في معالجة علاقات ملوك الطوائف يكمن في كون الأمثلة المأخوذة من الواقع التاريخي للأندلس في عهد الطوائف تثبت عكس ذلك، إن حقيقة واحدة تفسر صراع ملوك الطوائف من أصول أثنية مماثلة

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج03، ص: 274.

والعلاقات السلمية بين آخرين من أصول أثنية متناقضة وهي أن قوى أخرى غير العصبية هي التي أنعشت علاقات ملوك الطوائف».[1]

ثم يقدم الأستاذ أحمد بن عبود أمثلة من الواقع الأندلسي خلال عهد ملوك الطوائف، وذلك حين ساند القاضي ابن عباد وهو عربي حاكم قرمونة البربري محمد بن عبد الله البرزالي عندما أطاح بربري آخر من جنسه وهو يحي بن حمود حكمه سنة 427هـ/1085م.[2]

وهذه الوقائع وإن كانت صحيحة، فهي وقائع شاذة تحدث هنا وهناك، ولكنها لا تطغى على الحمية الوجدان العام الذي كان يتعاطاه أهل الطوائف فيما بينهم.

وما كان من خرق لهذه الانتماءات، فقد جنوح أملته ظروف الصراع والمنافسة وعلى أية حال فإن أهل مالقة ارتموا في أحضان ابن عباد، وانتهزوا فرصة وجود باديس في غرناطة، وناجوا المعتضد وأشاروا عليه بالقدوم لاسترجاع مالقة، وعلى جناح السرعة أمر ولديه جابرا ومحمدا اللذين كانا برندة بالزحف إلى مالقة، فتحركا على رأس كتيبة من الجند في خيلاء وعربدة، ولم يعرجا على تفقد المعاقل والحصون بالرغم من تنبيه أهل مالقة لهما بذلك، لكنهما غفلا ولم يعيرا اهتماما لذلك وعكفا على اللهو والخمور.[3]

وفي غفلة ضد المعتضد اتصل السودان المغاربة بباديس فأخبروه بالأمر الواقع وبينوا له أنها فرصتهم التي لا تعوض، وأشار عليهم بالهجوم، وكان قائد جيش باديس يومئذ يحي بن يفران الذي قتل في هذه المعركة واغتبط باديس لقتله وقال: «أتتنا في يوم واحد فرحتان أولهما موت يحي والأخرى فتح مالقة».[4]

وكان هذا الحقد على يحي منذ أن نال هذا الأخير من باديس في عرضه وماله ولم يبدها باديس له، في حين ظل يترقب حتفه بيد غيره.

[1]- أحمد بن عبود، المرجع السابق، ص: 61.
[2]- نفسه، ص: 61.
[3]- ابن عذاري، المرجع السابق، ج03، ص: 274.
[4]- عبد الله ابن بلقين، المصدر السابق، ص: 88.

وبدخول باديس مالقة عفا عن أهلها، فأصلح من أحوال فقهائها ومقرئيها وأنزلهم أحسن المراتب.[1]

التنظيم الإداري والمعماري في عهد باديس:

يعد باديس المؤسس الحقيقي لمملكة غرناطة، فهو الذي وطد أركانها، ونظم مراتبها وعمالاتها، وأنشأ جيشا ودربه على القتال والمرابطة، وخاض به العديد من المعارك التي كلل فيها بالنصر على جيرانه من الطوائف، وصلاحيته وهيبته أقرانه، وتناهي أمره في الجلالة وأذعنت له الأعداء وأضافت إلى إسالته البلاد، إلى أن ملك كوره رية[2] وقتسرين وعظمت جبايته، وضخم أمره، وتعددت جيوشه[3].

ومما أورده ابن حيان عن هذه الشخصية قوله: «وأما أرفع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأنا وأشدهم سلطانا واكثرهم رجالا، وأوسعهم أعمالا فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة».[4]

وأما عن سلوكه في التعامل مع أعدائه حين الظفر بهم، يقول ابن حيان: «أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختيارا فلبسه بغيا واستكبارا وأساء الانتقام، ولم يقل العثرة، وأخذ بالظن، وأسرف في العقوبة شديدا بالعقوبة وشديدا بالعصبية، وتقدر الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة والجبرية فأسلف في ذلك كله أخبارا مأثورة».[5]

لم يتوقف اهتمام باديس على مغالبة أعدائه في الداخل والخارج، بل صرف اهتمامه إلى عمارة غرناطة ومصرها واختلط قصبتها، وشاد العديد من القصور.

ولكون غرناطة كانت مستهدفه من قبل أعداء باديس قام بتحصينها وتشييد الأسوار المنيعة ويذكر ابن خلدون أن أثار تلك المباني ومصانعها لازالت باقية إلى يوم الناس هذا.[6]

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 88.

[2]- رية: كورة من كور الأندلس في قبلي قرطبة نزلها جند الأردن وهي مدينة كثيرة الخيرات ومقصد التجار من جميع الجهات، الحمري، المصدر السابق، ص: 279.

[3]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 230.

[4]- نفسه، ص: 230.

[5]- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام، ص: 230.

[6]- ابن خلدون عبد الحميد، المصدر السابق، ج06، ص: 213.

لقد كان لحكم باديس لفترة طويلة أثر كبير في ازدهار المدينة واتساعها، ففي عهده أقيم القصر الملكي على المرتفع المشرف على حي البيازين، وكان هذا القصر يعرف ببيت الديك، نسبة إلى دوارة هواء على شكل ديك كانت تتوجه من أعلاه.[1]

وكان هذا القصر من عظم ما شادته ملوك الطوائف خلال فترة حكمهم، وقد أوصى باديس بأن يدفن داخله أي في المسجد الذي كان يصلي فيه داخل القصر، يذكر ابن الخطيب أن معالم المسجد قد اندثرت وبقي القبر تحف به حلق له باب كل ذلك على سبيل من الخمول وجدت القبر رخام.[2]

لم يكن اهتمام باديس بإعمار غرناطة فحسب بل جدد تشييد قصبة مالقة ووسع منشآتها حتى عادت من أعظم القصبات الأندلسية[3]، ثم أعاد باديس بناء قصبة مالقا فيما بين 449هـ/1057م وانتهى منها في عام 455هـ/1063م، ومازالت آثارها باقية إلى يوم الناس هذا.[4]
هذا.[4]

وكان هذا القصر محل إعجاب العديد من المؤرخين الذين تناولوه في بعض كتابتهم وقد أشار المقري التلمساني إلى هذه الكتابات التي تعرض أصحابها إلى الجانب العمراني في عهد باديس بن حبوس، ومما جاء في النفح: "ورأيت في بعض كتب التاريخ الأندلسي في ترجمة السلطان باديس الصنهاجي صاحب غرناطة ما نصبه، وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالقة وكان أفرس الناس وأنبلهم ذا مروءة، ونجدة وقصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام والكفر فيما قبل".[5]

ويشير المقري أن هذا القصر هو الذي عناه ابن الخطيب في قصيدته السينية، ومطلعها:

عَسَى خَطرةٌ بِالرَّكْبِ يَا حَادِي العِيسِ   عَلَى الهَضَبَة الشَمَاءِ مِن قَصْرِ بَادِيسِ

---

[1]- السيد عبد العزيز السالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة 1985م، ص: 136.

[2]- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 245.

[3]- محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية، ص: 243.

[4]- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 131.

[5]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج1، ص: 196

لِنَظْفَرَ مِنْ ذَاكَ الزَلَالِ بِعِلَّةٍ وَتَنْعَمَ فِي تِلْكَ الظِلَالِ بِتَعرِيسِ
حَبَسْتُ بِهَا رَكْبِي فَوَاقًا، وَإِنَمَا عَقَدْتُ عَلَى قَلْبِي بِهَا عُقدَ تَحْبِيسِ[1]

الوزارة في عهد باديس:

يعد إسماعيل بن النغريلة من أبرز الشخصيات التي تقلدت منصب الوزير الأول في عهد باديس، فهو قد تقلد إلى جانب هذا المنصب قيادة الجيش وخاض به عشرين غزوة وذكر هو نفسه هذه الغزوات في قصائد[2] وكان يرسل بها إلى أصدقائه اليهود المنتشرين في العالم وخصوصا في الشرق.

ولم تكن مهامه رهينة هاتين الوظيفتين الوزارة والجيش، بل تعدتها إلى مهمة أخرى ألا وهي جباية الأموال، حيث لم يكن ليغيب عنه أهمية المال في حياة اليهود، واختار لهذه المهمة عمالا ومتصرفين من اليهود، نالوا بتكريسهم لهذه الوظيفة الحساسة حظوة، وجاها واستطالوا على المسلمين[3]. وقد أشار ابن بسام إلى هذه الوظيفة التي تقلدها إسماعيل ابن التغريلة ومما جاء في كلامه قوله: "وكان ابن يوسف رجلا من عامة اليهود حسن السيرة فيهم ميمون النقيبة عندهم تولى لباديس ولأبيه حبوس بغرناطة جباية الأموال وتدبير أكثر الأعمال". يلاحظ أن ابن بسام وقع في خلط بين إسماعيل ويوسف فذكر يوسف مكان الأب.

وكان لظهور إسماعيل كما أسلفت في سماء السياسة والتدبير السلطاني جملة من الأسباب يذكرها صاحب التبيان وفي مقدمتها، تلك الخدمات الأمنية، وذلك عندما همّ بنو عمومته بقتله، لكن ابن النغرالة أفشى السِّر، فكانت هذه الحادثة أحد الأسباب القاهرة التي جعلت إسماعيل يحظى بالثقة العمياء لدى باديس، بالإضافة إلى عوامل أخرى زادت من قناعة باديس بأن إسماعيل هو رجل الدولة الذي لا يجب الاستغناء عنه، وهي تلك الصفات التي قد أشرت إليها في هذا الفصل منها الكياسة، ومداراة الناس. وهي صفات قلما يتقنها رجال الدولة، ثم أن باديس كان في حاجة ملحة

[1]– المقري التلمسانى، المصدر السابق، م6، ص: 476
[2]– ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج 3 ص: 12 من مقدمة المحقق.
[3]– ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 412.

إلى رجل يؤمّن له الأموال إلا هذه الشخصية الخذقة، المتمرسة على هذه المهن، فكان إسماعيل يجمع هذه الأموال بواسطة اليهود الذي عينهم في هذه المناخين لجباية الأموال، فكان إسماعيل يقدمها لباديس لملأ بها بيت المال.[1]

استمر إسماعيل يدير شؤون الدولة بعبقرية وذكاء، ونال مكانة عالية من حيث المعاملة الحسنة مداراة الناس، واتقاء شرهم، واضعا نصب عينيه الحدود التي لا ينبغي لرجل ذمي يتجاوزها حيال جميع الطوائف مسلمين ومسيحيين، وظل على هذه الحال إلى وفاته عام 447 هـ / 1056[2] وكان قبل وفاته قد أعد ابنه يوسف لاستخلافه في هذه الوظيفة وأعده إعدادا كليا للقيام بأعباء الوزارة بعده، وكان يتمتع بكل المؤهلات العلمية والتثقيفية[3]، وحتى يدربه على شؤون الوزارة ألحقه بخدمة بلقين بن باديس، وعينه كاتبا عنده، وأوصاه بأن يسعى في طلب الوزراء وعرض الأبواب التي منها يكون حتف كل واحد منهم.[4]

إلا أن يوسف لم يكن في مستوى والده من حيث تواضعه، فقد كان مع علو مركزة متواضعا، وسمحت له هذه الخلال اكتساب ود الناس ورضاهم ولم يكن يوسف على شاكلة والده من هذه الناحية.[5]

فتجافا عنه هذه الصفات التي تضمن بقاءه ومنزلته عند باديس ورغبته وقد أورد ابن عذاري نصا في غاية الأهمية يذكر فيه جنوح يوسف عن الغاية التي أدركها أبوه والخط الذي لا يجب على ذمي مهما بلغت درجته أن يتجاوزها، يقول ابن عذاري: ".. وترك ابنا له اسمه يوسف لم يعرف ذلّة الذي ولا قذر اليهودية، وكان جميل الوجه حاد الذهن فاخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال واستخراج

1- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 68

2- عبد المجيد كمال، المرجع السابق ص: 38

3- دوزي راينهارت، المرجع السابق، ص: 80

4- مريم الطويل، المرجع السابق، ص: 150

Ron Barkai, chretiens, Musulmans et Juifs dans l'Espagne medievale édition cerf paris 1994 p :180.

5- دوزي، المرجع السابق ص: 80

الأموال واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس"[1]. ودفعه فوق سائر كتّابه ووزرائه وفوضه في جميع أموري، ويوما يعد يوم اجتمعت في يده جميع السلطات وحتى صار هو الآمر الناهي.[2]

واتخذ لقب أبيه وهو الناغد، وكان لفرط كبريائه يتسم مظهر الملك على حد قول دوزي "كان يوسف في الحقيقة ملكا فوق الملك" ويذكر ابن بسام قوله "أخبرني من رآه يساير صاحبه بساحة قرطبة في بعض قدماته عليها لبعض تلك الشؤون المضلة والفتن المعمئله، قال المحدث: فرأيته مع بادس فلم أفرق بين الرئيس والمرؤوس، فأنشدت "تشابهت المناكب والرؤوس[3] وفي معرض كلام ابن عذاري أنه كان ليوسف عيون عليه في قصره من نساء وفتيان شغلهم بالإحسان إليهم والإنعام عليهم، فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجري في منزله من شراب ولهو وهزل إلا يعلمه ويعلمه اليهود، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهودي بذلك.[4]

وزاد في استطالته يومئذ وكان باديس كبير السن فاستغل هذه الفرصة وسيطر على مقاليد الأمور[5]، فسولت له نفسه تنحية سيف الدولة ابن باديس، وذلك عندما دعاه هو ورجاله إلى مأدبة كان قد أعدها له، وجعل السم في الكأس لابن باديس، فرام القيء فلم يقدر عليه وحمل إلى القصر، ومات من غده.

يقول صاحب التبيان "فسولت له نفسه سقيه، وكان متمكنا بذلك، لأن أبانا كان كثير الشرب معه والتكرار عليه في منزله، فشرب يوما على عادته فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان في

[1]- ابن عذاري المصدر السابق ج 3 ص: 264-265.

[2]- نفسه، ج 3، ص: 264

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 767.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 265، ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1 ص: 440

[5]- ابن الخطيب، نفسه، ج1، ص: 437.

جوفه، واستلقى على الأرض، فلم يستطع المشي إلى منزله إلا عن مشقة، ولبث يومين يجود بنفسه حتى مات رحمه الله".[1]

وبموت بلقين خلى ليوسف الجو، وصار مطلق التصرف، إذ لم يعد هناك من يقف في وجهه، وألقى بيده جميع الأمور وأظن أن القدرة عادت بيديه، وأخذ يتطاول على المسلمين وعلى أهل جميع الأديان، ومن أولى لسعاته هي تلك الأبيات التي منها:

نُقِشَــتْ فِـي الـخَدِ سَـطْرًا مِـــنْ كِتَـــابِ الله مَـــوزُونْ
لَـــن تَنَالُــوا البِـــرَ حَـتَى تُنْـفِقُـوا مِـمَـــا تُـــحِبُـونْ[2]

وتمادى في هذا السبيل، ممتهنا الازدراء والاستخفاف بالمسلمين، وأصبح حديث الخاصة والعامة وجلب لنفسه الكثير من الانتقادات[3]، ليس لكونه يهوديا متعصبا بل كان مستهترا بجميع الأديان يذكر دوزي أن يوسف ابن إسماعيل لم يكن يهوديا إلا بالاسم فقط، وكان لا يصرح بالطعن حيال الدين اليهودي، بيد أنه يجاهر بالطعن في الدين المحمدي ويعيب أحكامه، ويحرف آياته، ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى الإساءة إلى العرب والبربر وحتى اليهود، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه، وتبجحه بالآراء اللادينية، وحام بذلك حوله الكثير من التشبيه والظنون وتحدثت بهم طبقة الركباك، وأصبحت تذاع مخاز وفضائح واستهدفته الكثير من الألسنة لاهجة بالخزي[4] والانتقام بكلام موزون وغير موزون، ومن هؤلاء أبو إسحاق الأبيبري الذي فضح مكائد هذه الشخصية وشكر باديس استهتاره بالدين والقيم الإسلامية ومما جاء في قصيدته:

وَرَغِـــمَ قِـرِدُهُـــم دَارُهُ وَأَجْرَى إِلَيهَا نَمِيرَ العُيُونْ
وَصَــارَت حَوَائِجُنَا عِنـدَهُ ونَحن عَلـى بَابِهِ قَائِمُـونْ
ضَـحِكَ مِنَـا ومِن دِينِنَـا فَـإنَا إلَـى رَبِنَـا رَاجِــعُونْ[5]

---

[1]- عبد الله بن بلقين المصدر السابق، ص: 74
[2]- ابن سعيد الغرناطي المصدر السابق ج 2 ص: 114
[3]- محمد الأمين ولد آن، المرجع السابق، ص: 64
[4]- دوزي، المرجع السابق، ص: 81
[5]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 232

وقادته أهواؤه، وشموخ أنفه إلى التطاول على القرآن الكريم، فألف كتابا قصد منه بزعمه بيان تناقض كلام الله، وأثارت هذه الحادثة حفيظة الكثير من العلماء الذين وقفوا على هذا التحدي السافر من يهودي استخف بمقدساتهم، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء أبو محمد بن حزم الأندلسي الذي رفع يراعه وهي من دون أن يذكر اسمه، وافتتح كلامه بتأنيب ملوك الطوائف الذين كانوا في نظره سببا في ظهور الزنادقة، والمتقولين، وتشاغلهم بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصورهم عن عمارة شريعتهم، وبجمع الأموال التي بما كانت سببا في انقراض أعمارهم وعونا لأعدائهم عليهم[1].

ومما جاء في الرد على إفك ابن النغريلة قوله: "وبعد فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه للرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التي استمرت لعنة الله على المستسرين بها وأستقر غضبه عز وجل على المنتهين إليها، أطلق الأشر لسانه، وأرخى اليطر عنانه... فألف كتابا قصد فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن اعتزازا بالله تعالى أولا ثم بملك صعفة ثانيا واستخفافا بأهل الدين بدءا".[2]

ثم يواصل ابن حزم في نعت هذا اليهودي بالخسيس، والزنديق المستبطن مذهب الدهرية في باطنه، المتكفن بتابوت اليهودي في ظاهره.

ثم يبين ما يستحقه من عقاب، "حقه الواجب عليه من سلفه الدماء واستيفاء ماله وسبي نسائه وولده"[3]. وظل ابن حزم ينافح في دينه وملته طالبا القصاص من يوسف بن النغريلة، ونظرا للضجة التي أحدثتها ردود ابن حزم قام أحد اليهود بتكذيب ما ذهب إليه، وهو ستروما Strouma

---

[1]- ابن حزم أبو محمد، رسائل ابن حزم، ج 3 ص: 41

[2]- نفسه، ج 3 ص: 42

[3]- نفسه، ج 3 ص: 42

إلى تكذيب الحادثة معتبرا أن ابن حزم اخترعها من أجل تبرير اتهاماته التي رفعها ضد اليهود وضد ملوك الطوائف الذين سمحوا لهؤلاء باتخاذ موقف قوة وجها لوجه مع المسلمين.[1]

لقد تظافرت هذه الأحداث وغيرها على تشويه صورة يوسف عند الخاصة والعامة الذي ملئوا حقدا وكراهية لما علم عنه من كيد للإسلام، واستضعاف لأهله مع ما سعى به كثير من الغيورين على حرمة الإسلام والمسلمين من نشر للوعي وتحريض للناس بين عامة أهل غرناطة، وحمل كثيرا من جمهرة المسلمين على معداته، وعلى رأسهم الشاعر الزاهد أبو إسحاق الألبيري الذي ذاعت قصيدته بين الخاصة والعامة، حيث رحل عن غرناطة وهو يحمل في نفسه من الحقد والكراهية له ولليهود ما حفزه على أن ينظم فيه وفي اليهود قصيدته التي منها.[2]

أَلَا قُـلْ لِصَـنْهَاجَة أَجْـمَـعِينْ　　بُدَورَ الـزَمَـانِ وَأَسَـــدَ الـعَرِيـنْ

لَقَـــدْ زَلَ سَيِّـــدُكُــــم زَلَـــةً　　تُقَـــرِّبُهَا أَعْــيُنُ الشَــامِيِــنْ

تَخَيَّـــرَ كَـــاتِبُـــــهُ كَـــافِـرًا　　وَلَـــو شَــاءَ كَــانَ مِـن المُؤمِنِينْ

فَـعَزَ اليَـــهُــودُ بِــهِ وارْتَـخُـوا　　وَتَـاهُـــوا وَكَـــانُوا مِـنَ الأَرْذَلِيـنْ

وَنَــالُوا مُنَــاهُمْ وَجَازُوا المَدَى　　وقَـــد جَـــازَ ذَاكَ وَمَـــا يَشْـعُرُونْ[3]

لقد اتبع الفقيه الزاهد في هذه القصيدة هذا الأسلوب النثري السهل ليبلغ الأسماع، ومدح باديس ليكسب ثقته، ثم تحدث عما رآه رأي العين في غرناطة.[4]

وَإِنِــي احْـتَلَلْـتُ بِغَــرنَـاطَة　　فَكُـنْتُ أَرَاهُــم بِهَـــا عَــابِثِيـنْ

وَقَــدْ قَسَمُـــوهَا وَأَعْمَـــالَـهَـا　　فَــمِنهُم بِكُـــلِ مَـكَـــانٍ لَعِيـــنْ

وَهُـــمْ يَقْبِضُـــونَ جِبَايَـاتِـهَـا　　وَهُــم يَخْـصِمُونَ وَهُمْ يَقْصِمُونْ[5]

---

[1] - Maribel Fierro : Ibn Hazm et le Zindik Juif in revue de l’occident Musulman n° 63-64-116 Année 1992 p: 81

[2] - دوزي راينهارت، المرجع السابق، ص: 81

[3] - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 231

[4] - إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشروق، 1997، ص: 120

[5] - ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 232-233.

ثم يمضي الألبيري إلى دعوة باديس إلى إقامة الحد على هذا المؤتفل وأن الإقدام على ذلك ليس عذرا، وإنما هو جزاء ما اقترفته يداه، حيث يقول:

فَبَـادِرْ إِلَـى ذَبْـحِـهِ قُرْبَـةً   وَضَـحِ بِـهِ فَـهُوَ كَبْـشٌ سَمِينْ
وَفَـرِقْ عُـرَاهُـمْ وَخُـذْ مَالَهُمْ   فَأَنْتُـم أَحَـقُ بِمَـا يَجْـمَـعُونْ
فَقَدْ نَكَـثُوا عَهْـدَنَا عِنْـدَهُـمْ   فَكَـيفَ كَـلَامُ عَـلَى النَاكِثِينْ

لم يكترث ابن النغريلة لهذه الأصوات، ولم يلتفت للقدر الذي يجره إلى حتفه يوما بعد يوم وأردف ذلك بشر أعظم منه فقد تشوفت نفسه إلى خلق كيان يهودي بالأندلس، ولإطاحة بباديس وعرشه فكاتب سرا صاحب المرية المعتصم ابن صمادح يعرض عليه الدخول الدخول إلى غرناطة[1] وكان قبل ذلك قد اتصل بالمعتصم على الهرب إلى أي بلد خوفا من أن يطلبه باديس من صاحب ذلك البلد، وتزامن ذلك مع وجود ابن أرقم بغرناطة لمبعوث من المعتصم إلى باديس فاستجار يوسف به، ولكن ابن أرقم ألمح إلى باديس بما يخطط يوسف ضده، عندئذ اتصل يوسف بالمعتصم وأشار عليه إلى أن يسحب رسوله من غرناطة وأمره بالعودة إلى المرية فتم ليوسف ما أراد.[2]

ويرى ابن بسام أن اليهودي عمد، حبسه داخل القصر، "سجنه بين الدّن والكأس ملحدا في أمره مبرما لأسباب غدره" ووعد جاره ابن صمادح أن يقعده مكانه، فأغدق هذا الأخير عليه الأموال وجلا عليه وجوه الآمال، وإنما كان أراد أن يصل عرش البادسي بالصمادحي".[3]

وحتى يهيئ الأمر لابن صمادح ويسهل عليه دخول غرناطة، عمد إلى تخليها من المقاومين الأشداء، وأوهم السلطان باديس بإرسالهم إلى المعاقل المهمة، والحصون، وأسر إليهم بقولهم: "أنتم إخوتي، وقد أخملتم معي ورأيتموني وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغي لكم إنكاره بأن يقدم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنكم وتبقى ولايته عارا عليكم وشنارا ما بقي الدهر".[4]

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 266
[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 84
[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1 ص: 768
[4]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 85

فلما استوثق لهم الأمر وتأكد من نسج مؤامراته، كتب إلى ابن صمادح بخبره بخروج القوم والغوغاء، ولم يبق في المدينة إلا من لا يستطيع المقاومة، كل هذا كان يحدث والمظفر باديس لا خبر عنده إلا الإقبال على الشرب والدعة.

وأغار رجال ابن صمادح، وانتشروا حول غرناطة وصاروا فيها حتى لم يبق منها إلا حصن قربيرة[1] على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش.[2]

وظل يوسف اليهودي يلح على ابن صمادح في الإقبال إلى المدينة وأن لا مانع يمنعه، إلا أنه ابن صمادح تهيب في الدخول إلى مستنقع غرناطة وفقد يوسف صوابه، فظل متنقلا من داره إلى القصبة حذرا من العامة حتى يحقق ما أراد.[3]

وظل يوسف يقنع أتباعه أن ابن صمادح على وشك الدخول إلى غرناطة ولكن أحد الحاضرين، وكان من عبيد باديس، خرج مسرعا إلى الشارع ليذيع سر، المؤامرة الخطيرة.

وصاح بالناس وهو يقول: "يا معشر، من سمع بالمظفر قد غدره اليهودي، وهذا ابن صمادح داخل في البلدة".

فتجمع الناس، عازمين على قتل اليهودي، ولكي يدرأ عن نفسه تهمة التآمر، أخرج باديس وصاح في الجموع قائلا:

"هذا سلطانهم".[4]

فازداد هياج الجماهير، ولم تنطل عليهم حيل اليهودي، وكلهم عزم على قتله، ولما رأى أنه لا نجاة له لاذ بالفرار إلى داخل القصر، وتقفت أثاره الجماهير حتى وقع بين أيديهم، وكان مختفيا في خزانة الفحم وقتلوه، ثم أعملوا السيف في بقية اليهود قتلا وإبادة وتم تصفية أعداد كبيرة منهم، زادت

---

[1]- قربيرة: في الأصل قبرة Cabra وحسن قبرة يقع على مرحلة خفيفة من حصن بيانة، وصفه الإدريسي بأنه حصن كبير أشبه بالمدينة حصين البنيان والمكان إسماعيل العربي، دولة بني زيري في غرناطة، هامش رقم 31 ص: 117

[2]- عبد الله بلقين، المصدر السابق، ص: 85

[3]- نفسه، ص: 85

[4]- نفسه، ص: 86.

عن ثلاثة ألاف[1]، وقد وصف ابن بسام هذه الحادثة التي سبقت مصرح يوسف بن النغريلة ومذبحة اليهودي بأسلوب أدبي زاوج فيه بين روعة البيان بالحقيقة التاريخية قائلا:

"فلما كان اليوم الذي أراد الله فيه إزالة نعمته عليه وإراحة عباده وبلاده منه نذربه أولئك المغاربة، فأعلنوا بالصياح، وثاروا إلى السلاح وأتى الصريخ بقية الجند وعامة أهل البلد ونادى مناديهم، غدر اليهودي وخان، وطاح المظهر (يعنون باديس) وحان، فدخلوا القصر من كل باب وهتكوا حرمة اليهودي دون حجاب فقتل – زعموا – في بعض خزائن الفحم وسمع باديس الوجبة فخرج يقول: إسماعيل لا يحفل بسواه، ولا يرتاع لشيء يسمعه من ذلك ولا يراه"[2].

وفي النص الذي أورده ابن الخطيب إشارة إلى يوسف الذي لم يعد له علاقة بالقصر بعد أن اكتشف أمره يقول ابن الخطيب: "وتيقنوا إعراضه عنه وعمله على نكبته، زحفوا على داره، وقد تبعتهم العامة، فاقتحموها وانتهبوها، وأخفى اليهودي نفسه في بيت ملآن فحما، وسود به وجهه وتنكر، فأخرجه، وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، وقتل في هذا اليوم على باب المدينة من اليهود آلاف من اليهود وذلك في سنة 469 وقبل سنة 469".[3]

وكان مقتل يوسف إيذانا، ببداية ملحمة قتالية ضد اليهود لم يروا مثلها منذ زمان طويل.

لقد غاب عن النغيد ما كان يكنه المسلمون من أحقاد، وما كانت تعتلج صدورهم من غيض ضد اليهود الذين مسوا كرامتهم وعبثوا بمقدساتهم، وعن هذا الإلجام، والكتمان يقول الدكتور إحسان عيان: "وقد نقدر أن حرية التعبير في عصر الطوائف كانت ضيقة الحدود، وأن الخوف ألجم الناقمين والمتذمرين عن الإفصاح بما كانوا يحسون".[4]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق ج 3 ص: 275.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق ج1 ص: 769.

[3]- ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص: 232.

[4]- إحسان عباس، المرجع السابق، ص: 120.

يصف ابن بسام هذه الملحمة بتعبيره الأدبي المعهود بما يلي: "وقد استطال الناس على اليهود، وقتل منهم يومئذ نيف على أربعة آلاف، ملحمة من ملامح بني إسرائيل باءوا بذلتها، وطال عهدهم بمثلها".[1]

وعند ابن عذاري: "وقتل في هذا اليوم من اليهود جملة عظيمة ونهبت دورهم وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة".[2]

وما هو جدير بالملاحظة حول ما طرحه المؤرخون حول هذه الحادثة من تاريخ مملكة بني زيري في غرناطة، هو اختلاف هؤلاء، حول تاريخ حدوثها وأعداد اليهود الذين قضوا في هذه الملحمة.

فابن الخطيب كما أسلفنا يتحدث عن سنة 469/ م1077، ويقتصر على ظلم عدد القتلة أنهم بالآلاف.

في حين يذكر ابن بسام أن العدد زاد عن أربعة ألاف ويتغاضى عن سنة وقوعها إلا أن الأرجح حسب ما ورد في كتاب التبيان، أن سنة هذه الأحداث وهو يذكرها باليوم، والشهر، والسنة، "وللذي أراده الله من ملاكهم ي يوم السبت لعشر خلون من صفر ن سنة 459هـ/1067م [3].

وعلى أية حال، فإن هذه الثورة ارتطمت على حصون قصور مملكة بني زير ولم تنل من شخص باديس ولا من سلطانه، في حين تدحرجت رؤوس أعدائه والمتربصين به وبرعيته.

وجففت المنابع التي كانت تنسج فيها خيوط المؤامرات وتحبك فيها الدسائس ونهض منها باديس سالما معافى.

فانبرى أولا إلى تخلية الحصون والثغور التي تأذت، وضمت إلى ابن صمادح.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف، نظم باديس جيشه وفتح باب خزائن المال على مصرعيها، ووزع العطاء بين رجاله، وكانت أولى هذه الحصون قادس التي كان ابن صمادح قد احتلها.[4]

[1]– ابن بسام، المصدر السابق، ج 1 ص: 769.

[2]– ابن عذاري، المصدر السابق ج 3 ص: 265.

[3]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق ص: 86.

[4]– إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 122.

وحتى يضمن نجاح عملياته العسكرية في استرجاع هذه الحصون استعان بالمأمون يحي بن ذي النون صاحب طليطلة، مقابل أن يتنازل له عما يشاء من بلاده، وتحت تأثير أطماعه تحرك بن ذي النون بجيوشه. وبفضل هذا الدعم العسكري استطاع باديس بن جبوس أن يسترجع وادي آش من يد المعتصم بن صمادح.

ويلخص عبد الله بن بلقين هذه الحادثة بقوله: "وكان في أول الفتنة للذي رأى من قيام رعيته وخشي خلاف الجميع، قد وجه لابن ذي النون، صاحب طليطلة، يعلمه بما دهمه من الأمر، ويسأله صلة يده به، وأنه ما انصرف إليه من البلاد أعطاه منها ما أحب واختار، فسارع ابن ذي النون إلى ذلك، ولحق به وهو على وادي آش قد حاصرها وقرب مراميها، واجتمع معه على أجمل هيئة وأتم رتبة، وفي قصبة وادي آش ذلك وزراء صاحب المرية وأكابر رجاله، فاشتد على الحرب وكثر الأنفاق، حتى إنه انتهت النفقة عليها، وعلى ما رأيته مكتوبا بخط يد جدي – رحمه الله – بستة بيوت من المال دراهم ثلثيه، البيت منها ألف ألف دينار ثلثيه وصار ذلك مثلا في الناس لصبره وكثرة إنفاقه.[1]

ولما سقطت وادي آش، وأصبح البربر على مشارفها وعلم بن صمادح أنه قد أحيط به توسل إلى ابن ذي النون أن يتوسط له عند باديس، فاستجاب هذا الأخير وسمح لابن صمادح ورجاله بالخروج من قصبة المدينة، فنزلها ابن ذي النون، للوعد الذي قطعه باديس على نفسه.[2]

وللإشارة فإن المعتصم بن صمادح كان باستطاعته مواجهة جيش بني زيري في وادي آش إلا أنه كان يعلم أنه غرّر به من قبل يوسف بن النغريلة الذي قضى على يد البربر هذا من جهة ومن جهة أخرى، فهو قد تهيب من جيش باديس الذي حققت انتصارات متتالية، على العبادين وعلى الصقالبة بقيادة زهير العامري.

وهناك مسألة في غاية الأهمية لابد من الإشارة إليها، وهي أن السرعة في تغير العلاقات والتي كانت تحكمها المصالح الخاصة لكل منهم. فالمعتصم بن صمادح عندما تبين له المصلحة فقد نقض

[1]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 87

[2]– عبد الله بن بلقين، نفسه، ص:87

العلاقات مع باديس وسعيا وراء تحقيق مآربه الخاصة التي زينها له يوسف بن النغريلة، وهو عندما شعر بالخطر طلب الصلح من باديس بالرغم من أن هذا الأخير كان بربريا متعصبا للطائفة البربرية وكان ابن صمادح يمقت البربر، ودليل مقته للبربر هو ما حدث له مع الشاعر خلف بن فرج السميسر الذي هجاه مرّة فاحتال في طلبه إلى أن مثل بين يديه فاستنشده ما هجاه به فحلف له أنه ما هجاه وإنما قال:

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ أَبَا البَرِيَةِ إن النَاسَ قَدْ حَكَمُوا

إنَ البَرْبَرَ نَسْلٌ مِنْكَ قَالَ إِذَنْ حَوَاءُ طَالِقَةٌ إن كَـان مَـازَعَمُوا[1]

وكانت هذه الأبيات عبارة عن لعنات تلاحق السميسر من البربر، حتى أن باديس بن حبوس أهدر دمه، لذلك هرب السميسر ولحق بالمعتصم بن صمادح، وأنشده قصائد يهجوا فيها باديس، اغتبط لها بن صمادح.[2]

ومن المحتمل أن تعصب بني صمادح للعرب، بالإضافة إلى الرغبة في التوسع وبسط النفوذ كان وراء النزاع بين بينه وبين بني زيري.

وحتى العفو الذي أبداه باديس حيال ابن صمادح لم يكن نابعا عن إنسانية في العلاقات بقدر ما كان تقرير للتوازنات في العلاقات، حيث كان باديس يرى أنه ناوأ ابن صمادح فإنه قد ينظم إلى عدو لدود يعزز مركزه في المنطقة ولذلك غلب باديس المصلحة الآتية، على الأحقاد والعصابية.

بعد استقرار الأوضاع، بقي منصب الوزير الأول شاغرا فقام باديس باستقدام "الناية" وعينه لهذا المنصب إلا أنه لم ينعم براحة البال لتوجسه من ماكس بن باديس الذي هرب إلى مدينة جيان بعد أن نفاه أبوه، وكان الناية يتوقع عودة ماكس إلى غرناطة في كل لحظة، سواء عن طريق مرسوم العفو أو بموت أبيه.

---

[1]- المقري التلمساني، المصدر السابق، م4، ص: 380-381

[2]- نفسه، م4، ص: 380-381

ومنذئذ والناية يعمل على استمالة أهل جيان والنهوض ضد مسكن بن حبوس وكان للناية ما أراد، وخرج مسكن بعد الثورة عليه هائما على وجهه أما ماكس بن باديس فقد فر إلى طليطلة، وعاش فيها مكرما.

وحتى يكتسب الناية، شعبية في غرناطة، وينال الحظوة عند باديس فقد عمد إلى فتح بياسة التي كانت بحوزة مجاهد العامري، وبالفعل نال الناية مكانة مرموقة لدى باديس، مما أثار حسد الوزراء، فتآمروا على قتله ولفقوا له تهم الاستلاء على الحكم بمساعدة بني برزال، فانتهز أعداؤه فرصة تنقله إلى وادي آش بالاطلاع على الأوضاع هناك فأنفقوا مع صديقه "واصل" حاكم المنطقة، وأغروه بقتله، فأقدم على قتله دون روية.[1]

وأما عن تداعيات مقل الناية، فإن صاحب التبيان يورد لنا نصا متكاملا من حيث الأسباب والملابسات التي اكتنفت الحادثة حيث يقول: "فورد الخبر فجأة بغرناطة، وبهت له الناس، ولم يدر أحد من حيث أتى فمنهم من يقول: "السلطان دس إليه، إذ لا يمكن بهذا الصلح أن يتعدى" وبلغ ذلك من السلطان مبلغا عظيما، وعلم أن هذا من اتفاق عليه، ودخل منه في بحر طامس، حتى أسهر ليله وامتنع عن لذته وأظهر للناس تجلدا وهدد الجند".[2]

وبعد هذه الجريمة لم يستبعد باديس أن تكون الدائرة عليه مستقبلا على حد قول عبد الله بن بلقين "فأحس السلطان ذلك في نفسه، وأيقن أن هذه النصبة لم تكن إلا عن اتفاق عليه، وحسب نفسه مخلوعا لا محالة".[3]

واحتاط باديس لهذا الأمر باستدعاء ولده ماكسن، وطلب من المأمون بن ذي النون – 435-1074-1043/467، بتسريحه على عجل ليستخلفه في الحكم واستبشر رجال الدولة والعامة خيرا بمقدم، ماكسن أملا في أن يبقى هذا المنصب ضمن العائلة المالكة.

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 93

[2]- نفسه، ص: 93

[3]- نفسه، ص: 94

إلا أنه حدث ما لم يكن في الحسبان فقد قلب لهم ماكسن ظهر المجن، وخيب آمالهم في شخصيه، بصلفه، وحدة مزاجه ظنا منه أن ذلك سيكسبه مهابة وعزا، فلم يزده ذلك إلا نفورا. وحدث الشرخ بينه وبين الرعية، وخاصة أن باديس غاب عن الساحة وانكفأ على مقارعة الخمر واللهو، وكبر سنه ولم يعد في مقدوره معاركة الحوادث ومعالجة المستجدات وبالرغم من تردي الأوضاع واضطرابها، فقد ظل باديس في الحكم حتى توفي في يوم 20/ شوال/ 465 هـ حوالي 1073[1].

إن المتتبع لمناقب هذه الشخصية، يقف على الكثير من المواصفات الدالة على كفاءته السياسية والعسكرية ولا يسع الباحث النزيه إلا أن يفندها، ويبرز منها ما هو منوط بها، فهناك الكثير من المؤرخين الذين أومأوا إلى هذه الصفات الإيجابية والسلبية) كابن حيان، وابن الخطيب، وهناك من تغاضى عن الصفات الحميدة ولم يبرز إلا عبارات القدح التي لا تليق بالمؤرخ النزيه كابن خاقان صاحب القلائد الذين أو كل باديس بوابل من الشتائم والتعيير.

وقد أشارت إلى بعض ما جاء في كلام هؤلاء المؤرخين، ولا بأس أن أعيد بشيء من التفصيل مما أورده ابن الخطيب حول شخصية باديس بن حبوس: "كان رئيسا يبسا طاغية جبارا شجاعا، داهية، حازما، بلدا شديد الأمر سديد الرأي بعيد الهمة مأثور للإقدام، شره السيف، وأرى زناد الشر، جماعة للمال...به الدولة ونبهت الألقاب وأمنت لحمايته الرعايا، وضم تحت جناح سيفه العمران، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب ببأسه النظر وانفسح الملك وكان ميمون الطائر مطمع الظفر، مصنوعا له في الأعداء يقنع اقتتاله بسلمه ولا يطمع أعداؤه في حرية"[2].

هذا ويستنتج مما عرضناه حول هذه الشخصية، التي احتلت بأبعادها وانعكاساتها مكانة بارزة في عصر ملوك الطوائف، فقد اتصف بإيجابيات عصره كالشجاعة والأقدام، وشدة البأس وصلابة الميراس، لكن لم ينج من سلبيات العصر كالقسوة، وحز رؤوس من وقع بين يديه من أعدائه، وكان إلى جانب هذا مقارعا للخمر، مدمنا لها منذ مقتل ابنه بلقين،فقصّر في واجبه عندما ترك إدارة الحكم

[1] – اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 27-28

[2] – ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، 1435-2014، ج1 ص 240-241

في يدي عصابة اليهود يعبثون ويسيرون شؤون الحكم وفق مصالحهم، وهنا في حكم بلاطه من العلماء والفقهاء والحكماء.

مملكة غرناطة في عهد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس:

لما توفي باديس بن حبوس سنة 465 هـ / 1073، كان منصب ولاية العهد شاغرا، فسارع رجال الدولة إلى تعيين حفيده عبد الله بن بلقين، وهو لا يزال طفلا صغيرا، فأخذوا له البيعة على الناس، ولقبوه بالمظفر بالله، والناصر لدين الله، بدلا من أخيه الأكبر تميم حاكم مالقة، كما عدلوا عن تقديم عمه ماكس بن باديس الذي كان واليا من قبل أبيه على حيان بسبب ما اشتهر به من سوء السجية وانهماكه واجترائه على سفك الدماء[1]، وكان من سفه الرأي وقلة الفطنة[2] كان عبد الله عند ولايته الأمر صبيا لم يبلغ الحلم بعد، وقد كانت غرناطة يومئذ تعج بأعلام العلماء وحملة السيوف والأقلام، ومع ذلك فقد انفرد بتربية عبد الله وبتدبير ملكه الوزير الصنهاجي، سماجة الذي استقل بشؤون الدولة في مملكة غرناطة.

وبعد أن عين سماجة وصيا على الصبي عبد الله، قام بتدبير شؤون الدولة وكان رجلا حازما، يصفه ابن الخطيب بأوصاف شتى دلت على سجايا خلقية عالية قائلا: "وكان سماجة حازما، شديد السطوة، مرهوب العقاب جوادا، شجاعا، فاضلا، ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتد في منع اتخاذ الخمر وجعل بإزاء ذلك القتل غريمة لم يحل عقدها ولا نسخ حكمها. ومما يحكى عن هذه الشخصية أن طائفة من أبناء الأعيان وصدور الطلبة أولي الوجوه الحسان على راحة لهم بجهة المصلى القديم خارج القصبة، إذ أظلهم سماجة فجأة فسقط في أيديهم، وأيقنوا بالهلكة فابتدره قبل الوصول إليهم فتى منهم فأنشده.

بَيْنَــمَا نَحْــنُ بِالمُـصَــلَى نَسـقِي وَجَنَــــاحُ العَشِــــيِ فِيــهِ جُنُــوحُ
إذْ أَتَــانَــا سَــمَــاجَـــةٌ يَتَـــلأَلأُ رَدٌّ فِــي الشَــرْقِ مِن تَجَلِيهِ نُــوحُ
فَطَــفَقْنَــا نُقِــلُ بَعْــضٌ لِـبَعْـضٍ أُغْــبُــوقَ شَـــرَابِــنَــا أَمْ صَــبُــوحٌ

---

[1] – ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص: 234

[2] – عبد الله بن بلقين، المصدر السابق ص: 95

فخجل سماجة، وأنس الصبي، ووعده بالإحسان، وانصرف من طريقه، أعضاء وتغافلا.[1]

وفي هذه الظروف الحرجة التي كانت غرناطة تمر بها، استغل حاكم إشبيلية فرصة صغر سن عبد الله وأخذ يعمل على ختم مملكة غرناطة إلى إشبيلية وقد شرع في تنفيذ مشروعه التوسعي، عقب وفاة باديس بن حبوس بسنة واحدة، حيث زحف بجيشه على جيان واستولى عليها مع حصون أخرى.

وفي المقابل لما شاهد ألفونسو السادس، ما كان يواجه عبد الله الصنهاجي من التهديدات من جاره حاكم إشبيلية، استغل هذه الفرصة ليعرض عليه حمايته، وفي هذا السياق يقول عبد الله بن بلقين "وأما ألفونسو لما تيقن هذه الفتن علم أن ذلك من أكبر سعادته وأعظم فرصة في طلب الأموال فأرسل إلينا رسوله أول مداخلة نشأت بيننا وبينه فأتى باطروشولش يطلب منا ضريبته... واجتمع رأينا على أن لا نفعل".[2]

وكان يمنعه عن فعل ذلك حسب تصريحه هو وجود مملكة طليطلة بينه وبين مملكة الجلالقة، واستبعاده لأن يتعاقد مع الفونسو مسلم آخر ضد.

وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى المبادرات الأولى في متعاقد ملوك الطوائف مع النصارى ضد إخوانهم المسلمين، قد يشرع في سنها من باعوا ضمائرهم، وشنوا الغارات على بعضهم البعض مستعينين بجيوش النصارى الذين لم يكن يهمهم إلا استرجاع ما أخذ منهم مستغلين في ذلك ضعف الوازع الديني لدى ملوك الطوائف.

وعلى أية حال فإنه قد غاب عن عبد الله أن ألفونسو لم يكن يطمع في مملكة غرناطة في تلك الآونة، وإنما كان يساومه في مقابل الحرية التي يتيحها لابن عباد ضد مملكته.[3]

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 234

[2]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 97

[3]- إسماعيل العربي، المرجع السابق ص: 151.

وحسب رواية ابن بلقين فإن هناك من كان ينتظر رفض ابن بلقين لهذه الصفقة، وكان هذا الشخص هو محمد بن عمار[1] الذي كان يراقب الوضع عن كثب "فلما رأى أنه لم يتم له عمل" ألقى يده على المقام وقال له: "إن كنتم منعتم عشرين ألف دينار... فمن نعطيهم خمسين ألفا" على حد تعبير ابن بلقين، مقابل عقد معاهدة أخرى مع إشبيلية يتخلى الملك النصراني، بموجبها عن غرناطة لابن عباد، وزيادة على هذا المبلغ وعد ابن عمار بأن يتنازل ملك قشتالة على جميع الإسلاب والغنائم التي تقع في يد المعتمد بن عباد عندما يستولي على عاصمة بني زيري.

ولما كان العرض مغريا فقد أعلن ألفونسو موافقته عليه، بيد أنه عدل عن رأيه وسار هو بنفسه نحو غرناطة، مفضلا الانفراد بخيراتها ولما حل بها دار بينه وبين عبد الله حوار حول المبلغ الذي طالب به ألفونسو وفي هذا النص الذي نجد أنفسنا مجبرين على سوقه كاملا لما يحتويه من دلالات، وعضات تنم عن الروح الانهزامية، والمواقف المخزية التي تحلى بها بعض من ملوك الطوائف، حين كانوا يستلّون سيوفهم ويقتتلون بينهم لأتفه الأسباب، ويغمدونها أمام أعدائهم من النصارى ويظهرون جبنا، وتهيبا لم يكن في أسلافهم، يقول ابن بلقين: "إني قد تشبثّ في الأمر، ولم نعجل حتى نسمع ما عندكم، فإن جاملتموني ورأيتم لقصدي وجها، انصرفت عنكم على خير، وإلا فها أنا مع من عاقدني، وطلب خمسين ألف مثقال، فشكونا إليه قلة البلاد، وأن ذلك لا يقدر عليه وفيه من القطع لنا ما يفترحنا به ابن عباد، فإنه لو أخذ غرناطة، قوى عنصره "ولم ينطع إليك، فخذ ما نقدر عليه، واترك رمقا لا تستأصل من أجله، وما تركت، تجده عندنا متى ما طلبت" فقبل العذر بعد جهد عظيم، وقاطعناه تقصده بخمسة وعشرين ألفا، نصف العدد، ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية الكثيرة، استدفاعا لشره، وجمعنا ذلك كله في خباء كبير، وعونا إليه ولما رأى الثياب استحقرها، ووقع الاتفاق معه على

[1]- محمد بن عمار: هو محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري أبو بكر، من أهل شلب، صحب المعتمد بن عباد من الصبا حتى كانت له مكانته الخاصة عنده، إلى أن داخله العطب، قسمت به نفسه إلى الملك يقول فيه صاحب القلائد ابن خاقان "مقذف حصا القريض وحماره، ومطلع سموسه، وأقماره، الذي بعث للإحسان عرفا عطرا ونفسا وأثبته في شفاه الأيام تعسا، أتى عليه حين من الدهر لم شيئا مذكورا" وقال عنه صاحب المعجب عبد الواحد المراكشي: "ذو النفس العصامية والآداب الأهتمية، كان أحد الشعراء المجيدين" الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص: 253، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص: 169.

زيادة خمسة آلاف مثقال ليتم بها ثلاثون ألفا، فأكملناها له... فشكر على ذلك كله وطابت عليه نفسه".[1]

وهو مع ذلك أي الفونسو، أيقن أن تهديدات ابن عباد، الغرناطة لن تتوقف، وأن أفضل طريق لاستنزاف قوة المسلمين هو الاستمرار التطاحن فيما بينهم، وعندئذ يتحقق لديه هدفه المنشود وهو سقوط هذه الإمارات الواحد بعد الأخرى دون أن يكلف نفسه وجيشه العناء في الاستحواذ عليها من أول يوم.

ولم يكن ملوك الطوائف غافلين عن نياته وأهدافه، البعيدة المدى، ولكن لم يحرك أحدهم ساكنا، إذ كانوا يعمدون إلى تسوية مشاكلهم مع الطائفة النصرانية، في حياتهم ولا يهمهم ضياع ملكهم بعد اختفائهم وهو ما أكده ابن بلقين الأمير الزيري حين يقول، "يساير الأمور ويدافع الأيام ويقول: من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا بزعمهم يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين".[2]

انتهت المفاوضات بين ابن بلقين والفونسو على هذه الحال، لكن ابن عمار لم يهيأ له بال حتى رجح يسأل ألفونسو السادس ويغريه بالتنازل له عن حصن إيسطبة وكان معقلا عظيما مما يلي نواحي إشبيلية، وكذلك حصن قاشترة ومارتش اللذين يشكلان خط الدفاع الأمامي لجيان.

واستطاع ألفونسو السادس أن يدخل الجميع في حالة من الخوف والذعر باستعداداته في التعاقد مع أي طرف لمناصرته وتحقيق مما يريد، فهب الجميع في شراء سلمه بالتنازل له الحصون والثغور التي بذل فيها أجدادهم من المسلمين الغالي والنفيس، ونال بذلك ما لم يكن يتوقعه وظفر بحسن أسطير بدلا من إسطبة وكذلة على حصن المطمر الواقع على الحدود بين غرناطة وطليطلة.

وحتى يفوّت الفرصة على ابن عباد في الاستيلاء على غرناطة وما يليها عمد إلى عقد اتفاقية بين ابن عباد وعبد الله الزيري تقضي بألا يعتدي أحدهما على الآخر، وأن تبقى إشبيلية وغرناطة في أمن وسلام، ولم يكتف بذلك فحسب، بل ألجمهما بدفع جزية سنوية مقدارها بالنسبة لعبد الله الزيري عشرة آلاف مثقال في السنة وهدد عبد الله الزيري بعواقب التأخير، وألزمه بدفع تكاليف الرسول الذي يبعثه إليه.

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق ص: 101-102.

[2]- نفسه، ص: 100.

وقد يتعجب الباحث الذي ينظر بإمعان إلى ما صار إليه ملوك الطوائف من الجبن والإهانة، وقد يزول عجبه عندما يدرك أن ما أصابهم فهو جزاء ما اقترفت أيديهم من الاعتداء على بعضهم البعض، وخضوعهم لأعدائهم، وفيهم يقول ابن حزم الأندلسي: "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها فنحن نراهم يستمدون النصاري فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه"[1].

والجدير بالذكر أن هؤلاء ملوك الطوائف كانوا على علم بما كان يدبر لهم من قبل ملوك النصارى ولكنهم لم يحركوا ساكنا حتى أن مستشار ألفونسو السادس وهو ششلاند2 لم يجد في التصريح أمام صاحب غرناطة، بأبعاد سياسية بلاده الحالية والمستقبلية وانبرى يقول: "... إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر، حتى غلبهم العرب، وألحقهم بأحسن البقع جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلماتهم ولا يصبح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف"[3]

وكان أول ضحايا مشروع الاسترداد الذي عناه ششلاند هو سقوط مملكة طليطلة بأقل التكاليف، بعد إنهاكها بالجزي والحصار والحملات التخريبية سنة 478 هـ / 41085 وكان سقوط طليطلة بداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس، وحينها أدرك ملوك الطوائف أن ممالكهم التهمت يوم التهام طليطلة، لذلك لم يجدوا بدا من استصراخ المرابطين، وكانوا يعلمون حق العلم أنهم بذلك يوقعون في نفس الوقت قرار سقوطهم.[5]

---

[1]– ابن حزم أبو محمد، رسائل بن حزم، ص: 176.

[2]– ششلاند Sismonde sabidizi مستعرب أصله من Tentugal غربي قلمرية بغرب الأندلس كان أسره المعتضد بن عباد وألحقه بخدمته يقول ابن سيام أنه كان في خدمة المعتمد بن عباد الذي كان يوفده رسولا عنه في مهمات خاصة إلى فرديناند الأول إلا أن ششلاند خشي بطش المعتضد ففر من إشبيلية والتحق بخدمة فرديناند الذي ولاه قلمرية التي كان قد استولى عليها من صاحب بطليوس سنة 1074/456، عبد الله بن بلقين،المصدر السابق، ص: 227، حاشية رقم 215.

[3]– عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 100.

[4]– فضيل بو الصوف، المرجع السابق، ص: 100.

[5]– ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح حلمي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص: 172.

الفصل الرابع

إمارتي بني الأفطس في بطليوس وبني ذي النون في طليطلة

إمارة بني الأفطس في بطليوس 413–487هـ/ 1022-1094م

يرجع أصل بني الأفطس إلى قبيلة مكناسة البربرية[1] الذين استقروا بفحص البلوط[2] جوف قرطبة[3]، وكان جدهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس أصله من قبائل مكناسة.

وبالرغم من ثبوت أصلهم البربري، إلا أن بني الأفطس، كانوا يرفعون نسبهم إلى بني تجيب[4]، وعدّ ابن حيان هذا الانتماء في غرائب الأمور – يقول ابن حيان: "ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب وبهذه النسبة مدحته الشعراء آخر وقته إذ يقول ابن شرف القيرواني:

يَا مَالِكٌ أَمْسَتْ تُجِيبُ بِـهِ　　　تَحْسُـدُ قَحْـطَانُ عَلَيهِ نِزَارُ

لَـولَاكَ لَمَ تَشْرُفْ مَعْدٌ بِهـا　　　جَـلَّ أَبُـو ذَرٍ فَجَـلَتْ غِفَارٌ[5]

ولعلهم أرادوا بذلك أن ينالوا مزيدا من الشرف بانتسابهم إلى العرب بعد أن ازدانت مملكتهم وذاع صيتهم بين ملوك الطوائف.[6]

وكان سبب انتزاع جدّهم أبو محمد عبد الله بن حمد بن مسلمة إلى هذه الجهات، هو أنه لما دبّت الفتنة في أرجاء الأندلس، وانتزع كل على ما بيده، فكان سابور العامري أحد هؤلاء الذين

---

[1]– ابن الآبار، الحلة السيراء، ج2، ص: 96

[2]– فحص البلوط: بينه وبين قرطبة مرحلتان أو ثلاث ومن هذا الفحص جبل البرانس وفيه معدن الزئبق، وبهذا الجبل الزيتون المتناهي في الجودة وبهذا الفحص بلاد وأسواق، وجباية هذا الفحص في عهد الأمير محمد ألفان وإثنان ويتصل بأجواز فحص البلوط أحواز قريس وتنظم بقراها والي فحص ببلوط ينسب القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي، الحميري ص: 436.

[3]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2 ص: 235.

[4]– بني تجيب، وتجيب هي بنت ثوبان بن سليم بن رهاء ن مذمج وهي أم بني عدي وبني سعد من السكون بن أشرس من كندة من لخم وإليها نسب القوجبيون. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص: 429–431.

[5]– ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 183.

[6]– سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ج1، ص: 358.

استقلوا بمناطق ولاياتهم ببطليوس، وشنترين وجميع الثغر الجوفي، يقول عنه ابن حيان "أنه كان غافلا من المعرفة عطلا، إلا من خلة الشجاعة".[1]

وكان هذا الرجل عبد الله بن محمد بن مسلمة يدير له أمره، ويخدم دولته خدمة سياسية ويقوم مقامه في جميع الخدمات المتعلقة بشؤون الدولة. ظل بن مسلمة على هذه الحال إلى مهلك سابور، وكان لهذا الأخير ولدان لم يبلغا الحلم فاشتمل هذا الوزير ابن مسلمة على أمر سابور كله واستأثر به على ولديه مستغلا ضعفهما واستطاع بحكمته أن يظفر بملك بلاد غرب الأندلس.[2]

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هو كيف استطاع عبد الله بن مسلمة أن يظفر بهذا المنصب، ويقصي أبناء سابور ويفوت عليها فرصة الاستخلاف.

لاشك أن الوتر الذي حركه ابن مسلمة، هو جهل سابور بأمور السياسة التي تمكنه من تأسيس ملك قوي له ولأولاده من بعده[3]. ولكنه كان جلفا عنيفا خاليا من المواصفات التي تؤهله لإدارة الدولة وسياسة الرعية، لذلك لم يكن له بد من الاستعانة بشخص ابن مسلمة، الذي كانت تتوفر فيه جميع خصال القيادة.[4]

ومهما يكن من أمر فإن ابن مسلمة، قد ورث بعبقريته ملكا لم يكن لأجداده فقد ورث إمارة مترامية الأطراف، حيث أن هذه الإمارة عرفت اتساعا كبيرا في عهد مؤسسها سابور حيث شملت المثلث الممتد ما بين بطليوس، والأشبونة، وشنترين، ويدخل فيه يابرة وبعض الحصون الواقعة على ضفافه ووديانه وتاجه، قرب المصب، ثم اتسعت المملكة في عهد المنصور بن الأفطس بعد ذلك بحيث شملت إقليم استراما دورة بالإضافة إلى قسم كبير من البرتغال حتى وادي دويرة، وفي نواحي ليون حتى نواحي سلمنقة، ومن الشرق عند الحدود الحالية لإقليم استراما دورة، وهي تمتد من سلسلة

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 183

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 236

- Anwar G chejne, Historia de Espana Musulmana catedra historia, Sa 1980 Madrid, p: 65

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3 ، ص: 35.

[4]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 183.

جبال وادي الرمل حتى سيرامورينا، ومن تلك السلسلة الجنوبية جنوبا إلى إقليم الغرب العالي بالبرتغال.[1]

وآلت هذه الأطراف جميعها إلى بني الأفطس الذين حكموها نيفا وسبعين عاما، وكان استلاؤهم على حكمها من المصادفات المحضة على حد قول السيد عبد الله عنان.[2]

فلما أصبحت زمام الأمور بيده، أبدى في ضبط بلاده وإدارتها مقدرة وبراعة، ولم يكن ابن مسلمة على ثقة من جاره أبي القاسم بن عباد، الذي بدأت طلائع قواته تهدد الحدود الجنوبية لمملكة بطليوس[3].

وظلت قوات إشبلية شوكة في حلق عبد الله بن الأفطس، حيث لم ينعم بالراحة منذ توليه الحكم بسبب التهديدات والاستفزازات التي كانت تبعث من قوات ابن عباد.

حتى كان أول تحرك لقوات إشبيلية سنة 421هـ/1030، حين انتهز ابن عباد قيام ثورة محلية في مدينة باجة، وقعت بين أهلها بسبب الرياسة، وعاجلها بحملة عسكرية بقيادة ابنه إسماعيل، ورافقته في هذه الحملة قوات عبد الله البرزاني صاحب قرمونة المجاورة لمدينة باجة، التابعة لبني الأفطس.

وما كادت أنباء تحرك قوات ابن عباد، تبلغ عبد الله بن مسلمة، حتى قام على عجل يستنفر قواته، إذ لم يكن يغيب عليه نوايا ابن عباد الرامية إلى اتخاذ هذه المدينة نقطة ارتكاز وانطلاق إلى المجالات الحيوية الواقعة في أراضي بطليوس، وهي عبارة عن دويلات صغيرة لا تشكل لدى ابن عباد كبير عناء في ضمها والاستيلاء عليها، وكان ابن مسلمة يعلم أن التهام هذه الدويلات، لن يملأ جوف إشبيلية إلا بالتهام بقية الأراضي ببطليوس، ومن هذه الدويلات المستهدفة بني مزين في شلب

---

[1]- سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 318

[2]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 82.

[3]- نفسه ص: 82

ودولة بني هارون في شنتمرية الغرب ودولة البكريين في أولية وشلطيش ودولة بني خزرون في أركش Arcos [1].

لقد صاحب محمد بن عبد الله البرزالي، أبا القاسم في حملته، على الرغم من كونه بربريا. يوعز محمد عبد الله عنان هذا التقارب إلى سببين اثنين أولهما: كون قرمونة حصن إشبيلية من الشرق، ولأن البرزالي كان يخشى سطوة بني حمود وأطماعهم في قرمونة، إلا أن أبا القاسم بن عباد كان يسعى إلى تكريس سياسة التكامل السياسي للإمارات البربرية أملا في ضمها إلى مملكته حين يكون ذلك ممكنا، لذلك آثر الاستعانة بها والتحالف مع رؤسائها ضد الإمارات الأخرى.

وقد يكون بسبب التقارب مع بني برزال كونهم مقاتلين أشاوس أثبتوا شجعتهم في الكثير من المواقع.

وربما تكون النية نفسها قد راودت محمد بن عبد الله البرزالي لإضعاف مركز إشبيلية المتناهي، إذ أن إدخاله إلى معمعة القتال، حتما سيضعف من قدراته القتالية وينقص من رجالات جيشه، وبالتالي يدفع شره إلى حين، كما لم تكن صفة التحريض التي وصف بها سوى وسيلة كان يروم من ورائها توريط أعدائه، وممن وصفه بالتحريض، وامتهان هذا الخلق المشين ابن حيان حين يقول: "... وكان ابن عبد الله بقرمونة قطب رحى الفتنة كثيرا ما يحرض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قرمونة فيعم الجهات كلها تدويخا كلما آب من جهة صار إلى سواها حتى أثّر آثارا قبيحة" [2] [3].

وعلى أية حال فقد تبارى كل من القاضي محمد بن عباد والمنصور عبد الله بن الأفطس، كل يريد باجة وعمارتها فبعث محمد بن عباد ابنه إسماعيل وانظم إليه كما أسلفنا خليفة محمد بن عبد الله

[1] - سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ج1، ص: 371.

[2] - Hady Roger Idris les Birzalides de carmona Alaudalus Revista de los escurelos de estudus Arabes de Madrid y grerade volune xxx p : 54

[3] - ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 35

البرزالي، وأما المنصور فقد استعان بابن طيفور صاحب مرتيلة[1] قاعدة شلب[2] ،وأوكل بالمهمة إلى ابنه محمد الذي استطاع أن يصل إلى المدينة قبل غريمه إسماعيل ومحمد البرزالي اللذان تمكنا من جرّ ابن الأفطس إلى أتون المواجهة خارج أسوار المدينة ودارت رحى الحرب وكانت الدائرة على ابن الأفطس وانسحاق فلول جيشه تحت ضربات جيش إشبيلية.[3]

وعادت باجة لابن عباد وهو ما يؤكده ابن حيان: "واتصل الحصار بابن الأفطس بباجة، وانصدع الجمع عن أسره وقتل كبار رجاله وبعث بالأسرى إلى أبيه وكان في جملتهم أخ لابن طيفور صلب بإشبيلية، وحبس ولد ابن الأفطس عند صاحب قرمونة ابن عبد الله".[4]

وتألم ابن الأفطس لهذه النهاية المخزية التي آل إليها ابنه محمد الذي وقع في أسر عبد الله البرزالي،[5] وكذا الحال بابن طيفور الذي صلب أخوه في إشبيلية[6] ومن هذه الحادثة لا يمكن استبعاد أن يكون محمد بن عبد الله البرزالي هو الذي طالب بأن يؤسر محمد بن الأفطس عنده، لكونه بربريا مثله ويبعده عن بطش ابنه عباد، الذي يمكن أن يتخذه رهينة يهدد بها بني الأفطس.

وفي ربيع الأول سنة 421 هـ/ مارس/ 1030م، أطلق محمد بن عبد الله البرزالي سراح المظفر بن مسلمة بن الأفطس، وعرض عليه أن يعرج على إشبيلية لتقديم الشكر لمحمد بن إسماعيل بن عباد على منه وعفوه وإطلاق سراحه، فرد المظفر قائلا "مقامي في أسرك أشرف عندي من تحمل منّه فإما انفردت باليد عندك وأبقيتني على حالي" فأعجب البرزالي بمقالة وسر أيّما سرور فأطلق سراحه بعد إكرامه.[7]

---

[1]- مرتيلة: مدينة بالأندلس شرقي مدينة باجة بينهما أربعون ميلا وهي على وادي آنه وبمقربة من شاطئ البحر مرس، وهو حصن أولي فيه آثار قديمة وبه كنيسة الملوك الحمري، المصدر السابق، ص: 569.

[2]- شلب: تجاور مملكة إشبيلية وهي من غربها وشمالها ويخرج في سواحلها العنبر من البحر والمحيط، ابن سعيد علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب تحقيق شوقي ضيف دار المعارف، مصر، 1953، ص: 38.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 202.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 2، ص: 8.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص: 188.

[6]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 2، ص: 8.

[7]- نفسه، ج 2، ص: 9.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى ظاهرة مهمة، أسالت حبر الكثير من المؤرخين المعاصرين ألا وهي ظاهرة العصبية أو قرابة العصب، ففي الأحداث التي دارت رحاها بين بني عباد وبني الأفطس، يمكن إدراك هذه الظاهرة بجلاء، كإصرار المظفر على البقاء في أسر محمد بن عبد الله البرزالي على أن يعرج على ابن عباد، فهذا في اعتقادي موقف عدائي نابع مما جرّه ابن عباد على بني الأفطس، بل موقف نابع من النعرة العصبية، وإلا كيف تفضيل ابن برزال وهو ممن شارك في هذه الحرب.

وحول الدور الذي قام به عبد الله البرزالي في إثارة الفتن، ودفع ابن عباد إلى محاربة أعدائه يقول ابن بسام: "وكان ابن عبد الله بقرمونة قطب رحى الفتنة كثيرا ما يحرض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قرطبة".[1]

ولا يفتأ ابن حيان يشير بأصابع الاتهام إلى ابن محمد بن عبد الله البرزالي الذي كان وراء إثارة القلائل وأنه من أشد المعارضين لعودة الخلافة في قرطبة.[2]

وللإشارة فإن ابن حيان يوجه اتهامه للعناصر البربرية، وبدورهم في إثارة الفتن وحبك المؤامرات في هذه الجهات يقول ابن حيان: "فكان في كل بلد جملة منها سالت عن أهل البلاد سيول بها وخلقوا الشر بين الرؤساء، واستخرجوا بذلك ما أمطروه من دنانيرهم وخلعهم... حلّوا محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد وقاموا مقام الفولاذ في الحديد فلا يقتل الأعداء إلا بهم ولا تعمر الأرض إلا في جوارهم...".[3]

ظل عبد الله بن الأفطس منذ توليه حكم إمارة بطليوس في شغل من تهديدات ابن عباد، وهجماته وتوسيع ملكهم على حساب الإمارات المجاورة[4]، وكانت إمارة بطليوس باعتبارها إمارة شاسعة أراد ابن عباد أن يتوسع على حساب أراضي ابن الأفطس وكان لا يألوا جهدا في استغلال الأحداث.

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 2، ص: 8.
[2]- محمد عبد الله ابن عنان، المرجع السابق، ص: 36.
[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 2، ص: 8-9.
[4] - Encyclopédie de l'islam, op.cit, Tome 2, p :249.

لقد كانت سياسة الإخضاع والابتلاع التي كرستها إمارة إشبيلية في طليعة الأهداف الرئيسية لسياسة إشبيلية الخارجية، فقد كانت الجهود منصبة لتحقيق هذه الغاية[1]. ويضيف الأستاذ محمد بن عبود قائلا: "وباشرت سياستها التهجمية على الطوائف الأخرى التي كانت تعتبرها فريسة مشروعة".[2]

وهذا صحيح، وإلا كيف تعلن قيادة إشبيلية الحرب على جميع الإمارات المحيطة بها لو لم تر في ذلك أنها صاحبة الحق الشرعي في وراثة الخلافة الأموية.

ثم أن القاضي ابن عباد ربط موقفه كحاكم فعلي بموقف هشام الثاني الذي كان معترفا به من طرف الجميع في سنة 426 هـ/ 1034 عن اكتشافه لهشام الثاني.[3]

وفي سنة 425 هـ / 1033، تجدد اللقاء بين محمد بن عباد والمنصور عبد الله بن الأفطس وكان سبب هذا التصادم بينهما أن محمد بن عباد عزم على غزو مملكة ليون، وكان ذلك يقتضي مرور قواته في الأراضي التابعة لعبد الله بن الأفطس فتعاقد بينه وبين ابن الأفطس على ألا يتعرض هذا الأخير لقوات إشبيلية، وبموجب هذا الاتفاق تحرك إسماعيل بن عباد بجيشه جنوب أراضي غليسية.

ومرّ بأرض ابن الأفطس دون أن يتعرض له هذا الأخير ولكن عند عودته من أرض العدو خرجت عليه قوات ابن الأفطس فجأة في قوة كثيفة، فوجئ بها إسماعيل ولاذ بالفرار تاركا وراءه قواته تتلقى ضربات ابن الأفطس بمعية قوات النصارى من ناحية أخرى، وقضت على جانب كبير من قوات إشبيلية.

---

[1]- امحمد بن عبود، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد الطوائف، ص: 225.

[2]- نفسه ص: 225.

[3]- يقول ابن الخطيب برواية ابن القطان: "فذكر أن هشاما فرّ من الفتنة ورفض الملك وكتم أمره، واستقر في قرية من قرى إشبيلية ويؤذن في مسجدها ويغمره، ويتقوت من العمل في الحلفاء، فخرج إليه القاضي محمد بن إسماعيل هذا وولده وجميع خاصته وعبيده ومعه أثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم ومراكبهم، ولم يشعر الرجل، وهو خارج المسجد من القرية، يعمل بيده في خلفاء، إذا بالقوم قد غشوه وأحاطوا به، وترجل القاضي وابنه ومن معهما، وقبّلوا الأرض بين يديه، فبهت الرجل لما عاين، وجعل يقول "ليست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون" وهم لا يردون عليه شيئا سوى التضرع والرغبة، إلا أن أقاموه من مكانه، وألبسوه الكسوة الخلافية... وأركبوه ومشى القاضي وجميع من معه... ودخلوا به المدينة وصائح ينادي: "يا أهل إشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم فهذا مولاكم قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلادكم، واستقر بالقضية وحجبه ابن عباد بابنه إسماعيل شأن المنصور مع هشام بقرطبة، ابن الخطب، إعمال الإعلام، ص: 154

وحول هذه الوقيعة يقول ابن بسام: "فلما كان في سنة خمسة وعشرين وجه ابن عباد بابنه إسماعيل مع عسكر أرض العدو تحت معاقدة بينه وبين ابن الأفطس فلما أوغل إسماعيل ببلده يريد أرض غليسية، وابن الأفطس مظهر للغدر به، بادر بجميع رجال ثغره ورصده في شعب ضيق في طريق قفوله ولم يعلم ابن عباد بشيء من تدبيره حتى حصل في الأشوطة فبادر إسماعيل بالنجاة لنفسه وأسلم جميع عسكره له. وجرت عليه في مهربه مع جملة من أصحابه شدة لجأ فيها إلى ذبح خيله والاغتذاء بلحومها، ونجا بذمائه إلى مدينة أشبونة[1] آخر عمله من ساحل البحر المحيط، فاصطدم بابن الأفطس عسكره اصطلاحا لم يسمع بمثله، ووقع فرسان العدو من النصارى على كثير منهم فاقتنصوه اقتناصا وقتلوا منهم أمة، وكانت حادثة شنيعة بقيت بها عداوتها إلى آخر وقتهما"[2].

لا جرم أن هذا العمل الذي قام به ابن الأفطس، هو نقض للعهد الذي قطعه على نفسه، وهو يعلم بلا جدال أي العباديين سيعاودون عليه الكرة، إلا أن ابن الأفطس أشفى غليله بالانتقام لنفسه ولابنه المسجون لدى قرمونة. ولكن النظرة الآنية، وردود الأفعال الظرفية هي التي ميزت ملوك الطوائف إذ كانوا يفتقرون إلى المرونة وإعمال الفكر في العواقب سواء في علاقتهم مع بعضهم البعض أو في علاقاتهم مع النصارى.

إذ لو فرضنا جدلا أن ابن الأفطس وفى لابن عباد ولم يتعرض لقواته أثناء رجوعها لكان هذا الالتزام الأخلاقي يحسب له عند ابن عباد ومن ثم يؤسس لعلاقات ودية بين الطرفين ويجنبهما مساوئ الحرب.

ومع ذلك لم يكن رد فعل ابن عباد سريعا وانشغل عن محاربة ابن الأفطس بمحاربة أشياعه من البربر، وكأن بن عباد أراد أن يفلت من هذا الحلف البربري، بضرب القطب الذي تدور حوله الأعصاب البربرية أو على الأقل خلخلته حتى لا يصبح قادرا على لم شمل الأجزاء المبعثرة من البربر،

[1]- أشبونة: من كورباجة المختلطة بها وهي مدينة قديمة، لها عدة أبواب منها بابها الغربي عقدت عليه محمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام وهو أكبر أبوابها، ولها باب غربي يعرف بباب الخوفة، وباب شرقي يعرف ببات الحمة، والمدينة في ذاتها حسنة ممتدة مع النهر، لها صور وقصبة منيعة والأشبونة على ضفة البحر في جنوبها حسن المعدن، وسمي بذلك لأن عند هيجان البحر من جنوبه يقذف بالذهب والتبر هناك.

[2]- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، فنخبة من كتاب الروض المعطار في خير الأقطار، دار الجيل نشر ليفي بروفنسال، ص: 16.

فهذا عندما انتزعت قرمونة من صاحبها محمد بن عبد الله البرزالي هب مسرعا لإنقاذها من المعتلي صاحب مالقة وذلك في سنة 427 هـ / 1030 م والتقى الجمعان في قتال عنيف، ورجحت كفة النصر لصالح المعتلي لولا بروز قوات ابن عباد من كمائنها، وإجهازها عليه، وأصيب جيش المعتلي بالإرجاف والهلع فانهزم أصحابه وسقط هو صريعا واحتزت رأسه وحملت إلى محمد بن إسماعيل بن عباد في إشبيلية، فخر ساجدا وعجب من حضر سجوده وعمت الفرحة سائر البلد.[1]

وظل إعمال السيف في بربر قرمونة متواصلا، حتى رق محمد بن عبد الله البرزالي أشفق على بني جلدته، وبدت عصبيته لقومه فطلب من إسماعيل رفع السيف عنهم، فأجابه إلى ذلك وأقنعه إسماعيل بأنها ضرورة الحرب التي لا بد منها.[2]

تشجع البرزالي في قتال قوات المعتلي بعد مصرعه ودخل قرمونة عبر ثغرة قد عاينها في سورها الشمالي، واستولى على دار المعتلى، فحاز على جميع ما فيها من مال ومتاع، وسبى نساءه وأباح حرمه لبنيه واستحل خدامهن واستولى على مجلسه ونصر نصرا لا كفاء له وصدق الخبر على أهل قرطبة فما صدقوه من الفرح"[3].

إن سقوط أمراء الطوائف في ساحة المعارك لم يزد الوضع إلا سوءا بين العصبيات فبالنسبة للطائفة البربرية كان فقدان يحي المعتلي خسارة جسيمة، حيث فقدوا بموته شخصية محورية[4] ومرشحة للاستقطاب بقية البربر في جبهة واحدة، خصوصا أن يحي المعتلي من السلالة الحاكمة التي كان لها شرف الخلافة في الأندلس.

ومما هو جدير بالإشارة فإن استعادة قرمونة إلى محمد بن عبد الله البرزالي من بل ابن عباد، لا يعني انتفاء العامل العصبي في هذه العلاقات.

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 189 ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 137.

2- ابن عذاري، نفسه، ج 3، ص: 189.

3- نفسه، ج 3، ص: 188

4- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص: 388

فابن عبد الله البرزالي كان بالنسبة للفئة الأندلسية وعلى رأسها ابن عباد عنصرا متمردا على فئته البربرية لا يهمه سوى مصالحه الخاصة، وفي رد حبوس من ماكسن، على الرسالة التي بعث بها محمد بن عبد الله البرزالي إليه يقول فيها: ".. فقد أزريت على كل خلافة وبينت أنك خارج عن كل فرقة وأن غرضك المحاماة عن عزك والمراماة دون حرزك، وليس هنا نظر مشفق ولا قول محقق إذ لا تتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها وتجري السنن عليها، إلا في مذهب نافع بين الأزرق وعبد ربه وأشباههما".[1]

لم تدم العلاقة الودية بين الإمارتين إشبيلية وقرمونة سوى بضع سنين ثم عادت إلى أجواء التوتر، حيث فسد ما بينهما فبعث ابن عباد ابنه إسماعيل وأمره السير إلى قرمونة وسارت معه بعض القبائل[2] سنة 431 هـ 1039 م لينتزعها من صاحبها محمد بن عبد الله البرزالي، فلما أحس هذا الأخير بالخطر المحدق به استنجد بالخليفة إدريس المتأيد، وبقبيلة صنهاجة وانضم إليهم باديس بن حبوس، أما إدريس وبالرغم من مرضه الذي أطرحه الفراش فقد أمده بعسكر يقوده ابن بقنة أحمد بن موسى، فلما التقى الفريقان انقض جيش الحلف البربري على جيش بن عباد، فكان إسماعيل أول مقتول وحمل رأسه إلى إدريس بن علي الحسن[3]. وفعل ذلك أسوة بما حدث لعمه المعتلي ونكاية بابن عباد[4]، ولم يكد يذق إدريس المتأيد طعم الانتصار على ابن عباد حتى وافته المنية بعد يومين[5] سنة 431 هـ / 1039 م[6].

وبعد سنتين من هذا التاريخ توفي صاحب إشبيلية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد أي في سنة 433 هـ / 1041 وبموته بدأ فصل جديد في تاريخ الصراع بين إشبيلية وبطليوس، وسيتجدد هذا الصراع في عهد المظفر بن الأفطس مع ابن عمر عباد الملقب بالمعتضد بالله الذي اتبع سياسة والده في محاربة البربر.

1- المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص: 54

2- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق ص: 39

3- نفسه، ص: 39

4- المراكشي، المصدر السابق، ص: 58

5- الحميدي، المصدر السابق، ص: 155

6- سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 378

بطليوس في عهد المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة بن الأفطس:[1]

يجمع المؤرخون المعاصرون الذين أرخوا لهذه الفترة على أن المظفر كان ذا علم غزير مولع بالأدب، جماعة للكتب، مولعا بالشعر لا يتذوق إلا جيده وإلى جانب ثقافته الواسعة، فقد كان رجل حرب وسياسة، شديد المراس في خطوبها، وقد حنكته تجارب الحرب والأسر الذي عناه على يد القاضي بن عباد، وإن كان في مدة الأسر عند محمد بن عبد الله البرزالي كما أسلفت.[2]

وعانى هو الآخر من اعتداءات بني عباد مثلما عناه والده وكان أول احتكاك بين المظفر والمعتضد بن عباد، هو عند هجوم هذا الأخير على مدينة لبلة في إطار توسعاته على حساب الإمارات البربرية الصغيرة، فاستصرخ ابن يحيي حاكم لبلة، المظفر محمد بن عبد الله، الذي لبى النداء، بحماسة منقطعة النظير وهو من تشرب مشاعر أبيه نحو خصومه العباديين، ولذلك فقد التزم نفس سياسة أبيه حيالهم، لا سيما بعد أن تكشفت أطماع عميدهم المعتضد في إمارات غرب الأندلس وفي مقدمتها إمارة لبلة[3] وفي ذلك يقول ابن عذاري نقلا عن ابن حيان "أول ما كان من تفاسد عباد والمظفر أن ابن يحي صاحب لبلة عند هجوم عباد عليه استجار بالمظفر بن الأفطس، فأجاره وانزعج له، ووصل يده وعطل ثغره، وجمع جيشه وأقبل إلى لبلة ناجما لابن يحي مضيعا لمن خلفه، يوقد نار فتنة، كان في غنى عنها متى نزل بنفسه على ابن يحيى، ودافع ابن عباد عنه، وحرك في ذلك من خلفائه البرابرة جماعة، فسارعوا إليه غير ناضرين إلى عاقبة أمرهم وتقدم بهم إلى إشبيلية، ورحالهم تدور على قريعهم باديس بن حبوس مدرهم في الحلبي ومفزعهم في النائية، يسلمون لرأيه ويزحمون بركنه وجهده في طرفهم، وأرسل ثقات رسله إلى عامتهم، إلا ما كان من الدائلين منهم عباد داعية المروانية،

---

[1]- المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة بن الأفطس، ولي بعد أخيه، وكان شاعرا أديبا وعالما لبيبا وبطلا شجاعا وله التأليف الأكبر، المسمى بالمظفري ألفه بخاصة بنفسه ولم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكتابته أبي عثمان سعيد بن حبرة واحتوى هذا الكتاب على الإخبار والسير والآداب المتخيرة والطرف المستملحة والنكت البديعة والغرائب الملوكية واللغات الغريبة قبل أنه اختصر فيه خزائنه الفائقة لا يعاد يوجد له نظير يكون في نحو خمسين مجلد فتصرف فيه تصرفا بديعا ولكبره لا يتمكن كل الناس من اكتساب فإنه لا يصلح إلا لخزائن الملوك، ابن عذاري المصدر السابق، ج3 ص 236

[2]- محمد عبده حتامله، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة عمان الأردن 1420-2000 ص: 520

[3]- سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 394

ومحمد بن إدريس صاحب مالقة دائل الحمودية فإنه تنكبها بعادا من الظنة، إذ كان هو وجماعة قرطبة متوقفين عن كل دعوة، فلما وصلت رسله إليهم ما زادهم إلا لجاجا ولم يزل ابن جهور يضرب لهم الأمثال ويخوفهم من سوء العاقبة والمثال، حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظا وتذكرة يجد منهم الأطوار الراسية ويرقى الحيات المتصادمة، واستن القوم في ميدان ألغى فلما صح عند ابن عباد خروجه للبلة بجيشه دفعا عن ابن يحيى منتظرا بخلفائه، جرد خيلا، ضربت على بلد بن الأفطس وغارت وأنجدت وفعلت فعلات نكأت القلوب، وقرفت الندوب ثم نهض ابن عباد بنفسه إلى لبلة للقائه، فجرت بينهما على بابها وقعة عظيمة، صعبة، استهما فيها النصر في مقام واحد، شق الأبلهة وكانت الدائرة أولا على ابن الأفطس فولا الدبر وخاص واديها، فقتل من رجاله خلق كثر".[1]

وإمعانا في هذا النص، فإننا نقف على العديد من الاستنتاجات، منها حضور العصبية البربرية بشكل جلي. حين تندفع هذه الفصائل من عرق واحد بتعزيز فصل بربري آخر دون النظر إلى ما سيمسهم من أذى في هذه المشادات، وهذا شأن العصبيات فهي عندما تستصرخ من نظيراتها فلا مجال للتلكؤ والتبين، وقد زاد في عدم الاكتراث معاداتهم لابن عباد، وكان البربر في هذه الأثناء يرومون القضاء على ابن عباد وإشغاله عن ابن الأفطس بالهجوم على اشبيلية، وأمام تفاقم الوضع بين الإمارتين حاول ابن جهور حاكم قرطبة التوسط بينهما لحقن الدماء، ودعوتهم إلى أعمال عقولهم في حل النزاعات بدل اللجوء إلى القوة، مبينا لهم أن ذلك سيسحق المنتصر والمنهزم، إلا أن محاولاته باءت بالفشل.

لما علم المعتضد بن عباد بخروج قوات محمد بن عبد الله بن الأفطس إلى لبلة، عجل بإرسال قواته إلى أراضي ابن الأفطس، فعاثت فيها فسادا، وخربت عمرانها، واتجه المعتضد بنفسه، إلى لبلة ودارت بين الفريقين معركة ضارية تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة[2] وكان من المنتظر أن تستقر الأوضاع بين بني الأفطس وبني عباد، بعد أن تصالح ابن يحيى حاكم لبلة الذي أحس بتقريع الضمير

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 210 -211.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، قسم 2 ج 1، ص: 33-34.

إذ أنه باستجارته المظفر، تسبب في هذه الحروب التي تسلمت أجزاء كبيرة من الأندلس، قد عزمه على إنهاء الصراع، وذلك بمسالمة المعتضد والتصالح معه، الأمر الذي انزعج له ابن الأفطس، الذي كان قد ضحى بالكثير من رجاله واعتبر ذلك خيانة، وعارض هذا الصلح، وانقلب الود الذي كان بين المظفر وصاحب لبلة وامتنع هذا الأخير في ما ائتمنه عليه ابن الأفطس من أموال وذخائر أيام الحرب[1]. فانحاز عليه، فاستجار ابن يحيى بالمعتضد فاستجاب لدعوته فاشتبكت قواته مع قوات ابن الأفطس، فمزقتهم شر ممزق، واختزت من رؤوسهم نحو مائة وخمسين رأسا.[2]

ولم يكتف ابن عباد بانتصاره على ابن الأفطس، بل أعد جيشا وعين على رأسه ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام واستعان بحلفائه وخرج يروم بلد ابن الأفطس يابرة[3]

فلما علم هذا الأخير بتحركات قوات ابن عباد استنجد بحليفه إسحاق بن محمد بن عبد الله والبرزالي فأمده بقوة بربرية بقيادة ولده العز واستنفر ابن الأفطس من قومه كل من قوى على حمل السلاح، واستطاع أن يحشد خلقا كثيرا، وكان البربر البرزاليون قد نصحوا ابن الأفطس بألا يدخل الحرب مع العباديين لما يعلمون عنهم من حسن البلاء في الحروب وقالوا لهم "لا تلقهم فلست تعرف قدر من زحف نحوك، ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بإشبيلية".[4]

لم يأخذ ابن الأفطس بنصائح البرازلة، واتجه صوب يابرة لملاقاة المعتضد، وفي هذا السياق نشير إلى أن المظفر كان متيقنا أن ساعة الحسم مع ابن عباد قد حلت، وأن الحلف البربري أصبح متكاملا، واغتر بهذا الحلف.

التقى الجمعان على مقربة من يابرة، واشتد القتال بين الطرفين فمال ابن عباد على قوات ابن الأفطس ميلة واحدة، فتمزقت قوات ابن الأقطس، وفرت فلول البرابرة من بني برزال من ساحة المعركة

---

[1]- صلاح خالص، المرجع السابق، ص: 127

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1 ص: 238، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق ص: 83

[3]- بابرة: مدينة من كور باجة الأندلس ينسب إليها العديد من العلماء، محاطة بالأسوار تمتاز بالخصب الكثير الذي لا يوجد بغيرها وهي أحسن البلاد بقعة وأكثرها فائدة. ياقوت الحموي، معجم الأندلس والمغرب، جمع وتحقيق محمد حقي، مطبعة عين السرون 2011، ص: 143، الحميري، المصدر السابق، ص: 615، الإدريسي، المصدر السابق، ص: 545– 544.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص: 235.

وذلك بعد مقتل العز بن إسحاق البرزالي قائد فصيل بني برزال في هذه المعركة، مما أدى إلى زعزعت صفوفهم ومن ثم فتور قوتهم.

ومما هو جدير بالملاحظة أن جيش ابن عباد كان في غاية التنظيم بينما جيش ابن الأفطس اعتمد على المتطوعين وجميع من قدر على حمل السلاح دون تنظيم مسبق، وأسفرت المعركة عن مقتل أكثر من ثلاثة آلاف رجل من الجانبين وحز رأس العز وبعث إلى إشبيلية مع رأس ابن عم لابن الأفطس صاحب يابرة ويدعى عبد الله الخراز، أما ابن الأفطس فقد اعتصم في قطعة من خيله بمدينة يابرة.

قال ابن حيان في وصف نتائج المعركة: "وأقل ما سمعت في إحصاء قتلى هذه الوقيعة من ثلاثة ألاف رجل فأزيد وأخبرني من أثق به أن بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في رقعة ابن عباد هذه بفتيان أغمار إلا الشيوخ والكهول الذين أصيبوا يومئذ، فأسدلت بذلك على فشو المصيبة"[1] تألم إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي لمقتل ابنه، وزاد في نكبته حز رأسه وإلحاقه برأس جده محمد بن عبد الله الذي تعرض لنفس المصير.

ولم تزل هذه الرؤوس، حبيسة جوالق قصر ابن عباد إلى أن دخلها اللّمتنيون وفي هذا يقول ابن بسام: "ولم يزل الرأسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها إليهم الفتنة المبيدة، حتى فتحت إشبيلية على الأمير الأجل سير أبي بكر فجيء بجوالق مقفل مطبوع عليه، فأمر بفتحه لا يشك أنه مال أو ذخيرة، فإذا هو مملوء من رؤوس فأعظم ذلك وهاله وأمر بدفع كل رأس منها إلى بقي من عقبه بالحضرة"[2].

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص: 388.

[2]- نفسه، ج 1، ص: 388.

وعقب هذه المعركة، التي بلغ صيتها الآفاق وتحدثت بها الركبان انبرى الشاعر ابن زيدون يهنئ عبادا بهزيمة ابنه إسماعيل لابن الأفطس وقتل ولد إسحاق بن عبد الله في تلك الوقعة.[1]

لِيَهْنْ الهُدَى إنْجَاحُ سَعْيِكَ في العِدَا	وإن رَاحَ صُـنعَ الله نَـحْوَكَ أَو غَدَا
وبُشـرَاكَ دُنْيَا غَضَـةُ العَـهْدِ طَـلقـةٌ	كَـمَا ابتَسَمَ النَوَار عَن أَدْمُعِ النَدَى
دَعَـوْتَ فَـقَالَ النَـصرُ لَبَيـكَ مَـاثِـلًا	وَلَـــم تَكُ كَالدَاعِي يُجَاوِبُهُ الصَدَى
وَأَحْمَدْتُ عُقْبِى الصَبرَ فِي دَرك المُنَى	كَـمَا بَلَـغَ السَّارِي الصَبَاحَ فَأَحْمَدَا
ولَـمَا اعتَمَـــدْتَ الله كُـــنْتَ مُؤَهَـلًا	لَـدَيهِ بِأَن تَحْـمِى وَتَـكفِى وتَعْضُدَا
وَجَدْنَــاكَ إن أَلْـحَقْتَ سَـعْيًا نَتَـجْتَهُ	وَغَيْـرَكَ شَــاوٍ حِـينَ أَنْضَـجَ رَمَـدَا
تَمِيلُ الخَـائِنِ المُغْتَرَ كَيْفَ اِحتَقَا بِـهِ	مَـعَ الـدَهْرِ عَـارًا بِالـفِرَارِ مُخَلَدَا
رَأَى أَنَــهُ أَضْــحَى هَـزِيرًا مُصَـمِمًا	فلَـــم يَعُد أَن أَمْسَى ظَلِيمًا مُشَرَدَا
يَــوَدُ إذا مَـــا جَـنَـهُ اللَيْـــلُ أَنَـــهُ	أَقَـامَ عَلَيــهِ آخِـرَ الـدَهْرِ سَمَــرَدَا
لَبِئْـسَ الـوَفَاءِ اسْـتَنَ فِي ابْنِ عَقِيدِهِ	عَشِيَة لَــم يُصْـدِرُهُ مِن حَيثُ أَوْرَدَا
وَأَصبَـــحَ يُبكِـيهِ المُـــصَابُ بِشَـكلِهِ	بُكَـــاءُ لَبِيـــد حِينَ فَــارَقَ أَرْبَـدَا[2]

لم يكن هذا فحسب من تدحرج رؤوس بني الأفطس، وبني برزال بل كان لهذه الهزيمة التي مني بها ابن الأفطس تأثيرا مباشرا على عمران بطليوس نفسها، بذكر المؤرخون ومنهم أبو مروان ابن حيان حين يذكر قائلا: "وأخبرني من أثق به أن بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها في وقعة ابن عباد وهذه بفتيان أغمار إلا الشيوخ والكهول الذين أصبحوا يومئذ"[3] وبالرغم من هذا البلاء الذي أصيبت به المظفر بن الأفطس، وهو في حقيقة الأمر نازلة عظيمة عز نظيرها في الأندلس، حيث يذكر كما أشرت سابقا إلى أن هذه الوقيعة حصدت أكثر من

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص: 385-386.

[2]- لبيد: هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك الصحابي الجليل، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في قومه فأسلم وحسن إسلامه وهو من المؤلفة قلوبهم وهو معدود من فحول الشعراء البغدادي عبد القادر خزانة الأدب – تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون – مكتبة الذخائر القاهرة 1406-1986 ج 2 ص: 247.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص: 388.

ثلاثة آلاف قتيل[1]، ومع ذلك لم يجنح صاحبا الإمارتين إلى الصلح، بل استمرت الحرب سجالا، طوال مدة حكمهما، واستطاع المعتضد خلالها أن يوقع بابن الأفطس، في العديد من المرات، وقبل نهاية سنة اثنين وأربعين وأربعمائة، لم تنسحب خيل ابن عباد من أراضي ابن الأفطس، وظلت تجول في أرجائها.

وضم ابن عباد عدة حصون، وشدها برجاله ودمر العمارات الواسعة، وأفسد غلاتها، وأوقع رعيته في المجاعة الطويلة[2]، وابن الأفطس في ذهول لا يدري ما يفعله، أمام جحافل ابن عباد، وأخلد إلى الاستكانة لهول الحادثة التي حلت بداره، وهدت أركان دولته، وقضت على الجهاز الدفاعي، ولم يجد بدا من الاعتصام بعاصمة بلده بطليوس ولم يخرج منها فارسا للاستطلاع، ولما ضاقت به السبل استنجد بخلفائه فلم يجد ظهيرا ولا نصيرا.

وما يمكن استنتاجه مما سلف، هو قوة الجيش الإشبيلي المنتظم في المقام الأول، والحنكة والدهاء التي تحلى بها المعتضد في وقعة يابرة بحيث استطاع أن يفسد رباط حلف محمد بن عبد الله بن الأفطس وبين ابن يحي صاحب لبلة، حيث جنح هذا الأخير إلى الصلح مع المعتضد بن عباد وهو ما جعل ابن الأفطس ينقلب على ابن يحي، ولعل هذه الحادثة هي التي فجرت الحلف البربري، ولم يستجب لصرخاته حين داهمته قوات ابن عباد.

كما يمكن استنتاج أن هذه الأحلاف القائمة على العصبية في عمومها، لم تكن ذات رباط متين يصعب فكه، لكونها قائمة على المصالح الآنية بالدرجة الأولى وما كان يقع بينها من معاضدة واتحاد إلا من أجل تبادل المنافع في الدفاع عن نفسها تماما مثلما حصل مع الإمارات البربرية الصغيرة في جنوب الأندلس حينما كانت تتعرض للإبادة والاستئصال، لم تتلق الدعم الكافي من العناصر البربرية الأخرى مثل بني زيري وبني ذي النون وبني الأفطس، اللهم إلا بعض النجدات التي كانت تقدمها ولكنها ليست ذات فعالية.

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج 1، ص: 388.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 211.

وللتذكير فإن عدم وقوف العناصر من جنس واحد في مثل هذه الحوادث لا ينفي قرابة العصب بين دول الطوائف، بل كانت هي العامل الأساسي في تحديد العلاقات بين ملوك الطوائف.

فلما قضى المعتضد وطره من تأديب المظفر، وجفف كامل منابع القوة عنده، قفل راجعا نحو بلاده، في شوال من نفس العام، وأمام هذه النتائج الفضيعة التي تكبدها ابن الأفطس، لم يجد بدا من الجنوح إلى عقد معاهدة الصلح مع ابن عباد، وذلك بواسطة ابن جهور[1] الذي ظل يلح على إبرام هذه المعاهدة حيث كان لحكمته وسداد رأي يعلم أن الحرب بينهما ستؤدي حتما إلى انتصار المعتضد، وبالتالي ضم بلاد ابن الأفطس، وهذا ما سيمكن للمعتضد الانطلاق إلى قرطبة التي كانت هدف أمراء إشبيلية.

ومن الأحداث التي استغربها المؤرخون هو السلوك الذي جنح إليه محمد بن عبد الله المظفر – حين بارح المعتضد أراضيها فقد أراد أن يتظاهر أمام رعيته بمظهر القوي الذي لم يكترث بهذه الهزائم التي تلقاها هي خصمه دفاعا عن مكانته بين ملوك عصره، فأبدى رابطة جأش، وربما أراد من ذلك أن يطمس معالم هذه الهزيمة، ويمحو شعارات يتداولا الناس، وتستقر في أذهانهم ويصغر شأن بني الأفطس في المخيال الشعبي العام.[2]

فعمد إلى إرسال أحد كتبته إلى قرطبة يقول ابن عذاري: "لشراء وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ولم تكن له عادة بمثله، فنقب له رسوله عن ذلك وكن قد عدمنا قرطبة يومئذ فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيها فاشتراهما له وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع لقطع خيل المعتضد جميع الطرق فأقام مدة بقرطبة إلى أن أرسل بخيل كثيفة ومضى بهما وأولوا النهي يعجبون مما شهر به نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لإظهار النساء على فحول الرجال العاقدة الآزرة على ما كان يدعيه لنفسه ن الأدب والمعرفة".[3]

---

[1]– امحمد بن عبود، المرجع السابق، ص: 244.

[2]– سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 404.

[3]– ابن عذاري، المصدر الاسبق ج 3 ص: 212.

وتعليقا على هذه الرواية يقول ابن حيان أنه ظل بصدد البحث عن سبب هذه الأعجوبة إذ لم يستسغ أن رجلا في مستوى المظفر من سعة العلم والاطلاع، وباعه في العلوم وذوقه للأشعار أن ينزل إلى هذا الصنيع الذي لا يليق بمقامه، فاهتدى إلى أن ذلك لا يعدو أن يكون تقليدا للمعتضد بن عباد المنتصر عليه، حين أراد أن يريح نفسه من عناء الحرب باجتلاب الملهيات، فقام باجتلاب قينة بنت الرميمي الوزير من قرطبة بعد وفاته، وكان هيامه بها بسبب ما وصفت له، بالحذق وحسن صنعتها، فوجهت نحوه، وراح المظفر بن الأفطس ينسج على منواله، والغرابة في ذلك أنه لم تكن عادته، ولا كانت حالته النفسية تسمح بذلك.[1]

استمرت العلاقات العدائية بين الإمارتين طوال سنة 442هـ-1050 حين استطاع ابن جهور أن يوفق بين الطرفين وقد ذكرت ذلك سابقا وعاد ابن الأفطس إلى تضميد جراحات بلاده من جديد، فعكف على إصلاح ما خربته الحرب من عمران، وأسوار وإعادة تنظيم قواته وتجديد آلياته الحربية.

أما المعتضد فما كاد يغمد سيفه، حتى استله في وجه الأمراء الأصاغر بالغرب كابن يحيى، وابن هارون، وابن مزين، والبكري، فأسلمهم جميعا لإرادته وضم إملاكهم إلى مملكته.

ثم مد يده بعد إلى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء، وذلك لما عاينه فيه من ضعف بالرغم من جلالة قدره، ورجاحة سلطانه فلم يشفع له ذلك عنده، فحاصره، فاستغاث ابن حمود بشيعته من بربر برغواطة فأبطؤ في التحرك نحوه وما كدوا يصلون إليه حتى كان المعتضد قد إلتهم بلاده، أما هو فقد يمم نحو قرطبة ليعيش بقية حياته في كنف ابن جهور.[2]

وبهذه العملية التوسعية استطاع ابن عباد أن يضيف إلى مملكته رقعة جغرافية واسعة ضمت كل من مدن لبلة وشلب وسنتمرية الغرب وولبة، وشلطيش، وباجة في ظرف وجيز.

---

[1]- ابن عذارى، المصدر السابق، ج 3، ص: 212.

[2]- نفسه، ج 3، ص: 213.

تلك هي السياسة الخارجية التي قامت عليها مملكة إشبيلية، وهي الأهداف الرئيسة لسياسة إشبيلية الخارجية، تعزيز ربط سيادتها لتقوية سلطانها ولتظهر بمظهر القوى والقطب الأحادي الذي تنعقد ضده أي مجموعة أو حلف، وإشبيلية نفسها كانت تبحث على هذا الاعتراف.

وقد واجهت إشبيلية في بداية تأسيسها صعوبات كبير في محاولة إقناع خصومها من الطوائف للحصول على هذا الاعتراف الخارجي العام، وتمكنت أن تخطوة خطوات جبارة لاجتياز هذا المضمار في عهد القاضي ابن عباد، 414 هـ و431/ 1028م 1039.

وباستقرار جبهتها الداخلية، والتسليم بسيادتها من طرف الأندلسيين، بعد فشل محاولاتهم في الإطاحة بنظام الحكم في إشبيلية، تواصل عظم عدوانها على الطوائف الأخرى حتى أصبح ذلك العداء هدفا في حد ذاته.

وظل التعسف العسكري أداة حيوية وجوهرية لتنفيذ السياسة الخارجية لدى إشبيلية.[1].

لم تكن سياسة ابن عباد عندما جنح هو الآخر إلى الصلح مع ابن الأفطس يرمي إلى المهادنة واللجوء إلى سلم بدل الحرب في حل النزاعات، أو تقريع ضمير أملاه الوازع الديني ليس هذا أو ذاك.

بل أراد ابن عباد بعد أن استعصى عليه ابن الأفطس، لجأ إلى إخضاع الإمارات الصغيرة إلى حين يقوى على مواجهة ابن الأفطس ويحسم الأمر بشكل نهائي لصالحه. إلى أن كانت فريسته الموالية بعد أن إلتهم القوى الصغيرة في منطقة الغرب ففغر فاه نحو الإمارات البربرية الصغرى في منطقة الجنوب، بعد أن سد مسالكهم لخص ابن بسام سياسة المعتضد الخارجية حيال أجراء الطوائف الصغار بقوله: "ثم غمس المعتضد يده بعد في من كان يليه من أمراء البربر فصدم شرهم بشرهم وضرب زيدهم بعمرهم، وكان عندما سعرت نار الحرب بينه وبين رؤساء الغرب، هادنهم على دخن ومنح لهم حتى ضربوا حوله"[2] وعندما استقر أمره بشلب جعل منها قاعدة انطلاقا إلى باقي الإمارات البربرية الصغرى وهي إمارة بني يفرن برندة، وإمارة بني برزال بقرمونة وإمارة بني دمر بمورور، وإمارة بني

[1]- احمد بن عبود، المرجع السابق، ص: 231- 233

[2]- ابن عذاري ، المصدر السابق، ج 3، ص: 214

خزرون بأركش، بحيث لم تكلفه إلا جولات سريعة انتهت بإزالتهم من كل هذه الربوع الواقعة في شرق الوادي الكبير جنوبي الأندلسي.

وهكذا استطاع المعتضد بهذه السياسة القائمة على إخضاع خصومه باستعمال آلة القوة وبعد أن دخل في حروب طويلة بغية التوسيع من الرقعة الجغرافية لإشبيلية.

واقترف في هذا السبيل جنايات أخلاقية فضيعة عز نظيرها، حيث ضرب لمعاصريه أسوء الأمثلة في الإطاحة بأعدائه من الأمراء، وإعدامهم من حياتهم، لقد وقف المؤرخون أمام هذا الجنوح الأخلاقي الشاذ مذهولين ولم يقف عند هذا الحد بل جعل يتغنى بمقتل اعدائه الذين أسقطهم في ساحة الحرب أو قتلهم غيلة[1] واحتز رؤوسهم، وعلقهم على قضبان في حديقته، وجعل يتغنى بذلك في بعض أشعاره قائلا:

سَـــأَفْــنِي جَــدَة الأَعْــدَا	**إن طَالَـــتْ بِـــي المُــدَةِ**
وَأَبْـــلَى بِـــي صَـلَاتِـهِــمْ	**يــَزْدَادُ الصَـــدَى جَــدَةِ**
فَكَـــمْ مِــنْ عِــدَة قَتَـلْـت	**مِنْــهُــم بَعْـــدَهَا عِـــدَةِ**
نَظَـــمْتَ رُؤُوسَـهُمْ عِـقْـدًا	**فَعَلْـــتَ لَبَـــةَ السُـــدَةِ**[2]

ولا يفوتني وأنا أستعرض أحداث هذه الشخصية أن أشير إلى واحدة من هذه الشخصيات التي ابتليت بها الأندلس في عهد الطوائف وكانت سببا في التعجيل بسقوطها بنهايتها.

شخصيات معقدة تتصرف بمزاجية نكدة، فهذا ابن حيان يقدم لنا نصا في غاية الأهمية يجلي فيه مزاجية هذه الشخصية قائلا: "أسد الملوك وشهاب الفتنة، ذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة والهمم العلية، السطوة الأدبية، فرماه الله بسهم من مراميه، أجد ما كان في اعتلائه وأرقى ما كان إلى سمائه وأطمع ما كان في الاحتواء على الجزيرة الأندلسية.[3]

[1]– محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 54.

[2]– ابن الأبار، الحلة الشراء، ج 2 ص: 50.

[3]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3 ص: 204.

حروب المظفر مع بني ذي النون بطليطلة:

لم تكن إمارة بني ذي النون بطليطلة بمعزل عن الصراع بين ملوك الطوائف، فقد كان عهد يحيى المأمون أمير طليطلة حافلا بالحروب والمعارك بينه وبين الممالك الأخرى، فقد خاض الحرب الطويلة مع مملكة بني هود[1] بسرقسطة، والثغر الأعلى، وبني عباد بإشبيلية، وكان قبل ذلك حليفا لهم حين اضطرته الظروف إلى الدخول في دعوته الهشامية التي أنكرها والده، ودعى رعيته للدخول فيها، إلا أن أشنع هذه المواجهات وأشدها كانت مع بني هود كما أشرت ويقرر هذا ابن عذاري حيث يقول: "ودامت الفتنة ما بين هذين الأميرين ابن هود وابن ذي النون على هذه الحال من سنة خمس وثلاثين إلى آخر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وانقطعت بموت سليمان بن هود في السنة المذكورة.[2]

ولما قضى سليمان وقبل أن يتنفس الصعداء بموته جعل يطلب جاره ابن الأفطس صاحب بطليوس فجرت بينهما حروب طويلة.[3]

ولقد عرفت المواجهات بين الإمارتين مرحلتين مرحلة المواجهات الأولى وتنحصر بين سنتي 437 هـ 1046 وهي السنة توفي فيها المستعين بالله بن هود إلى سنة 443 هـ / 1051) الذي تم فيه الصلح المبدئي بين المعتضد والمظفر وهي المرحلة التي اشترك فيها في المعارك التي خاضها المعتضد مع المظفر بن الأفطس. أما المواجهات في المرحلة الثانية فتبدأ من سنة 443 هـ 1055 م وهي السنة التي توقف فيها القتال بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأقطس إلى غاية سنة 447هـ 1055م[4].

---

[1]- بني هود: يقول ابن عذاري أن ابتداء هذه الدولة كان عام إحدى وثلاثين وأربعمائة في غرة المحرم منها، وكان هذا البيت من ذوي النباهة ويعد سليمان بن هود الجذامي الملقب بالمستعين، وكان في مدة الجماعة الملقب بالمستعين، وكان في مدة الجماعة من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين الفتنة الشاملة، فتغلب على مدينة لاردة، وقتل قائدها أبا المطرف النجيبي في خير طويل، واستولى على مدينة لاردة عام 431 هـ 1053م – ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 282.

[2]- ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص: 170.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 282.

[4]- نفسه، ج 3، ص: 283.

وقد أشارت صاحبة كتاب "تاريخ بطليوس الإسلامية" على أن الرجوع إلى المطالبة يعني وجود حالة من الخلاف أو المناوشات انقطعت فترة من الزمن ثم عادت من جديد وهذا أمر طبيعي إذ لا يمكن أن تنشب حرب بين فريقين دون أن يسبقها مرحلة تمهيدية من النزاع المسلح، ولا يعقل أن تنشب الحرب دون أية مقدمات سابقة.[1]

قد أشرت سلفا أن المأمون بن ذي النون لم يفتح واجهة القتال مع ابن الأفطس، إلا بعد أن عقد الصلح مع المعتضد بن عباد الذي كان متوقعا أن يؤذيه، إن هو دخل الحرب مع ابن الأفطس، ليس هذا فحسب بل عمد المأمون بن ذي النون إلى المصالحة مع ابن هود المتحالف مع النصارى، وقد لحقت ببني ذي النون إذايات كثيرة على يد فردناند المتحالف مع بني هود ضد إخوانهم بني ذي النون يسوق ابن عذاري نصا حول التوسلات التي سعى بها ابن ذي النون عساه أن يحصل على الموافقة لعقد صلح بينهما وتجنيب بلاد المسلمين من دخول النصارى إليها.

يقول ابن عذاري: "واضطر أهل طليطلة أن يبعثوا إلى سليمان بن هود يطلبون منه المصالحة والمهادنة، وحملوه إلى سرقسطة فدخلوا عليه ووعظوه وذكروه الله سبحانه وعرفوه بما تهيأ للعدو من النصر والظفر على المسلمين وما أفسد من بلادهم وما ظفرت به أيديهم من أموال المسلمين وعزموا عليه في الصلح الذي يزيل طمع العدو فيهم فأظهر لهم قبولها دعوة إليه ورجعوا إلى أميرهم يحيى بن ذي النون وهو متردد في الميل إلى وفاق النصارى فنهوه عن ذلك فلاقوا منه انقيادا، ورد العدو الذي كان معه إلى بلاده"[2].

إلا أنه حصل ما كان متوقعا من يحيى بن ذي النون، فقد مكر ابن هود ونقض العهد الذي قطعه لوفد طليطلة، واستخرج طائفة من النصارى المظاهرين والذين كان يستطيل بهم على غيرهم من ملوك الطوائف، ومشى بجيشه في هؤلاء النصارى فأتى باب مدينة سالم التي كانت ضمن أراضي بني ذي النون، وقتل من دفعوا عن المدينة، وتقدموا في أعمال ابن ذي النون وعاثوا فيها فسادا.

---

[1]- سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 41.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 280.

كل ذلك كان يحصل وسليمان بن هود غافلا عما كان يرومه فرديناند ابن شانجة أمير جليقية، فقد كان هذا الأخير بهدف إلى الوصول إلى طليطلة التي كانت هدف النصارى الأساسي لتكون لهم أرض ارتكاز وانطلاق إلى باقي الأراضي الإسلامية، ومع ذلك فقد سار به نحو ثغر طليطلة في جيش كثيف، وامتثل أمامه ابن عم بن ذي النون ليطلعه على عورات البلاد، وتهارب الناس نحو طليطلة حتى غصت بهم.

وكان الأمير يحيى بن ذي النون غائب عنهم بجيشه في مدينة سالم ينود عن حياض المدينة كي لا يدخلها ابن هود.[1]

وبالرغم من معاناة الحرب مع بني هود وما لقيته إمارة طليطلة من هوان على يد النصارى، إلا أنهم فتحوا النار على إخوانهم من بني الأفطس، وكان الأولى بهم أن يفتحوا جسرا للمصالحة حتى يتفوق على عدوهم الذي كان يسعى إلى اقتلاعهم من أرض الأندلس.

إلا أن الأنانية والمصلحة الآنية غشيت أعينهم فلم ينظروا بصيرتهم إلى جواهر الأمور، ويجعلوا من تربص عدوهم بهم سببا في توحدهم، والتفاف أجزائهم المبعثرة حول رأي واحد.

لم تسلم إمارة بن الأفطس من مضايقات المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وعدوانه، وتتابعت الغارات بن ذي النون على أراضي ابن الأفطس. ووقعت بين الجانبين معارك ضارية.

المظفر بن الأفطس في مواجهة ملك قشتالة وليون

لم يكد بنو الأفطس يتعافوا من تلك الحروب المدمرة مع جيرانهم من ملوك الطوائف حتى باغتتهم طلائع النصارى وهم جيرانهم من الشمال، بالقيام بمناوشات واستفزازات متكررة في المناطق الشمالية، وهي عبارة عن مجال جغرافي فسيح خال من وسائل الدفاع المتقدمة[2]، التي من شأنها تعطيل آليات العدو، أثناء اكتساحه للمناطق الآهلة.

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 282.

[2]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص : 85

ومما هو جدير بالإشارة فإن الغزو القشتالي لمملكة بطليوس في عهد المظفر جاء في أعقاب اتحاد مملكتي ليون وقشتالة، وذلك بعد انتصار فردلند الأول على برموده الثالث Vermudo III في موقعة تامرون سنة 429هـ/1037. وانتصاره أيضا على غرسية ملك نبرة في أتابوكا Atapuerca عام 446هـ/1054. وأمكنه هذا الانتصار المتلاحق من بناء امبراطورية مترامية الأطراف، وامتلاك جيش قوي قادر على المنازلات الحربية، في وقت تضعضت فيه قوة مملكة بطليوت من جراء الحروب الدامية التي خاضتها مع جيرانها من ممالیك الطوائف.[1]

لقد كانت أولى الخطوات لفردلند، بعد أن امتنع المظفر عن دفع الإتاوات هو الاستيلاء على الحصون والقضاء على جيوب المقاومة، والتوجه إلى مدينة شنترين "إذ كانت هذه المدينة أفضل المدن بأرض الجوف، وجرد لها سرية أمرها باحتلالها، وبلغ المظفر خبر قدوم جيش فردلند إليها تحرك بقوتها وأدركها قبل أن يصل إليها فردلند. وأهلها يومئذ في جزع وخوف من جحافل النصارى، وقالوا لأميرهم: "لقد همنا أن نستسلم للعدو ولو لم تأتنا لضعفنا عن دفاعه"[2] ثم أرسل المظفر إلى ذلك القائد يدعوه للتفاوض، فالتقيا في نهر التاجه المار بالمدينة" وابن الأفطس في زورق، والعلج راكب فرسه في الماء إلى صدر فرسه وتكلما طويلا فيما عرضه من السلم والإتاوة، فامتنع المظفر من ذلك إلى أن وافقه بعد جهد ومشقة على خمسة آلاف دينار يؤديها إليه في كل عام من أول هذه الهدنة".[3]

وكان هذا المبلغ المتفق عليه كفيلا بإضعاف خزينة مملكة بطليوس، واختلال آليات الدفاع فيها، فاستغل فردلند هذا الضعف، وشرع في الإغارة على الأطراف الغربية للمملكة وكان ذلك سنة 449 هـ /1057.

وضرب بمعاهدة وادي تاجرة عرض الحائط، في الوقت الذي ظن فيه المظفر بن الأفطس أن هذا الاتفاق يؤدي إلى حماية بلاده من غارات مملكة قشتالة، إلا أنها لم تحقق شيئا من هذا، بل فتح

---

[1]- سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ج1، ص: 416

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 238.

[3]- نفسه، ج 3، ص: 238.

شهية التوسع على حساب أراضي مملكة بطليوس[1] بعد أن لمس فرديناند الضعف عند مفاوضة المظفر بن الأفطس.

استغل فرناندو الأول هذا الضعف فأغار على بعض المواقع الحصينة مثل بازو (Viseo) ومليقة(Lamego) الواقعتين على نهر دويرة Duera[2] وبعد أن استولى على هذه الحصون القوية، وهي الخطة الحربية التي اعتادها فرناندو قبل أن يوجه ضرباته القوية إلى المدن، وبذلك يقضي على محاولة الدعم والإمداد.

إلا أن أعظم بلاء نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس، هو يوم نزلت قوات فرديناندو بمدينة قلمرية[3]. وكان سبب ذلك أن عبدا من عبيد ابن الأفطس يسمى رانده، قائده على قلمرية، تقابل مع فرناندو ليلا، وطلب منه الأمان، مقابل أن يخرج إليه من البلد، ويطلق يده فيها، وفي الصباح فوجئ أهل المدينة بأعدائهم، فلما إنبروا للقتال قال لهم النصارى كيف تقاتلون وأميركم عندنا" ولم يكن لأهل المدينة علم بذلك فلما لم يجدوه أيقنوا أن الأمر دبر بليل، وأنهم لا محالة منهزمون، فطلبوا من العلج الأمان، فلم يجبهم إليها، وشدد عليهم الحصار، حتى فتك الضيق ونفاذ الأقوات بالحامية وأهل المدينة، وأخيرا اقتحم النصارى المدينة عنوة، وجدوا في القتل، وسبي الحريم والذرية[4]. وغادر المدينة من استطاع تاركين متاعهم وأموالهم، وأفرغت المدينة من آخر ساكن فيها، وعين فرناندو مستشاره ششندو حاكما لقلمرية وأعمالها، ومنحه لقب الكونت، وكان هذا التعيين إيذانا بإلحاق باق المدن الإسلامية إلى حضرة النصارى، وخاصة السهولة المتناهية التي وجدها فرناندو في الدخول إلى مدينة قلمرية، وخيانة حاكمها، أدرك فرناندو عندئذ مدى الضعف النفسي، والروحي لدى المسلمين، وقد

---

[1]- فراد محمد أرزقي، المرجع السابق، ص: 87.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 238.

[3]- قلمرية: بالميم مدينة بالأندلس، من بلاد البرتغال، مدينة بينها وبين قورية أربعة أيام، وهي على جبل مستدير وعليها سور حصين ولها ثلاثة أبواب، وهي في نهاية من الحصانة وهي صغيرة متحضرة عامرة كثيرة الكروم والتفاح والقراجيا، ومكانها في رأس جبل تراب لا يمكن قتالها، وهي على نهر عليه أرجاء وبين قلمرية وشنترين ثلاث مراحل وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلا، الحميري، المصدر السابق، ص: 471.

[4]- ابن عذاري، نفسه ج 3 ص: 238، ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 184.

أشار ابن عذاري إلى هذا الضعف في قوله: "ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس قبحهم الله تشعر إلى أن قلب العدو على جميعهم ومل من أخذ الجزية ولم يقنع إلا بأخذ البلاد وانتزاعها من أيدي المسلمين".[1]

ولما أسقطت مدينة قلمرية في يد النصارى عاد والي بطليوس ليمتثل أمام ابن الأفطس، فقابله هذا الأخير بجفاء وأنبه على قبح صنيعه ثم أمر بضرب عنقه[2].

ظلت تهديدات النصارى متواصلة على أراضي ابن الأفطس إلى غاية وفاة فرناندو ملك قشتالة، ودخول أبنائه الثلاث في حرب حول العرش دامت بضعة أعوام، انشغلوا فيها عن أعدائهم المسلمين، ولما صارت مقاليد الحكم إلى الفونسو، وجه اهتمامه بمملكتي طليطلة وإشبيلية.[3] وما يمكن استخلاصه من عضات من هذه الملاحم، هي الروح الانهزامية اللامتناهية لدى الطوائف من المسلمين، والخلافات الحادة بينهم، إذ أنه كان يمكن رأب الصدوع وتناسي الخلافات في هذه الحلقة من الوقت التي دخل فيها النصارى في حرب بينهم، واندفاعهم نحوهم كرجل واحد.

لقد مر على نكبة قلمرية حوالي خمس سنوات أي سنة 461 هـ /1068م وهي السنة التي فارق فيها المظفر بن الأفطس الحياة، وانتقلت مقاليد الحكم إلى ابنه يحيى المأمون.

وقبل أن انتقل بالحديث عن ولاية أبنائه من بعده، تجدر الإشارة إلى مناقب هذا الرجل اللامعة من حياته الفكرية، إذ أن شهرته بالعلم والثقافة قد غطت جوانب حياته السياسية، فقد كان شغوفا بالشعر والأدب وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه ويقول "من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت" ولا يرضى بدون ذلك، وقد اشتهر في عالم الأدب بكتابه الضخم الموسوم "بالمظفري" ألفه بخاصة نفسه ولم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة، وقد جمع في هذا الكتاب الضخم الذي بلغ خمسين مجلدا[4] الأخبار والسير، والآداب المنتقاة، والطرف

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 239.

[2]- ابن عذاري، نفسه، ج3، ص: 239. عبد الله عنان، ص: 87.

[3]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 87.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 183.

المستملحة، والنكت البديعة، والغرائب الملوكية واللغات الغريبة، وقد أنفق فيه، المظفر عشر سنوات، وقد لبث هذا المصنف عصورا معروضا.

ولم تخمد هذه الحرب إلا بوفاة يحيى المأمون المفاجئة سنة 464هـ /1072م وبذلك فسح المجال لعمر المتوكل ودخل بطليوس دون منافس، وتلقب بالمتوكل على الله وعين ابنه حاكما ليابرة وبخصوص هذا النزاع تم الانفراج بينهما يقول ابن الخطيب: "ومازالت السعايات تقدح بينهما حتى اضمحلت البلاد واجتاحت الرغبة، وأزاح الله زمنهما بموت أحد الأخوين يحيى واستوسق الأمر لأخيه عمر فاستحق الانفراد بالذكر.[1]

عهد عمر المتوكل 464-487 هـ / 1072-1094م

وقف العديد من المؤرخين الذين تعرضوا إلى مناقب عمر المتوكل بن الأفطس مليا على الجانب العلمي والأدبي من حياته، فقد طغى على نشاطه كحاكم اهتمامه بالعلم فقد تحول بلاطه الزاهر، إلى جامعة أدبية تعج بالأدباء والشعراء، ولم يكن ميله لهذا النوع من النشاط نابع من هواية أو ميل فحسب، بل كان يملك ناصية الأدب والبلاغة والشعر، وعلى دراية واسعة بقواعد اللغة، قصد أحد العلماء البارزين الذين لا يشق لهم غبار في هذا الميدان، وقد وصفه أحد معاصريه وهو من فطاحل اللغة وأدابها، الفتح بن خاقان: "ملك جند الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فأتمرت وطافت بكعبة واعتمرت إلى لسن وفصاحة ورحب جناب للوافد ومساحة، ونظم يزري بالدر النظيم ونثر تسري وقته سرى النسيم، وأيام كأنها من حسنها جمع، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع راقت إشراقا وتبلجا، وسالت مكارمه أنهارا وخلجا إلى أن عدت الأيام عليه المعهود العدوان".[2]

وظلت تذكره التواريخ الأندلسية، ولم تبق منه إلا شذرات منبثة، وومضات، في ثنايا المصادر الباقية.

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 184.

[2]- الفتح بن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، ط1، 1409هـ/1989م ص: 120.

لما أفل نجم المظفر، انتقلت كما أشرت مقاليد الحكم إلى ابنه يحيى المأمون ولم يكد هذا الأخير يشرع في إدارة البلاد حتى ثار عليه أخوه عمر والي يابرة Erora واستمر النزاع بين الأخوين، واتسعت مجالات الحرب بينهما، واشتد أوارها، وحينئذ لجأ عمر إلى إشبيلية لطلب الدعم، ومال يحيى المأمون إلى طليطلة، وتفاقمت الفتنة.

وفي غمرة هذا الصراع، أطل ألفونسو السادس، ليجدد أطماع والده، ويحول الصراع القائم من أراضي النصارى مع إخوته إلى أراضي المسلمين، واستطاع ملك قشتالة الجديد أن يستولي على مقاطعات عديدة من أراضي بطليوس.

وفي هذه الظروف المدلهمة بخطوب الحرب، حاول الأخوان أن يتوقفا عن التنازع لتفويت الفرصة على أعدائهما النصارى، وتوصلا بالفعل إلى عقد هدنة ولكنها على حد قول ابن بسام: "كانت هدنة على دخن لم يتم معها أنس ولا تمكنت لها طمأنينة، ومازالت السعاية تقدح بينهما نار العداوة حتى أورت نار الفتنة ضرمت البلاد أجاحت الرعية وثلمت ثغرهما وضاعفت البلية".[1]

والمتأمل في هذا النص يدرك تمام الإدراك أن أطرافا خارجية كانت تسعى إلى توسع هوة الخلاف بين الطرفين، ولا يستبعد في ظني محاولة ألفونسو السادس إذكاء هذا الصراع بين الأخوين وإضعافهما، وهذا يمكنه من مواجهتها حين اجتياحه لأراضي بطليوس، كما لا يمكن تبرئة ساحة المعتصد بن عباد، الذي كانت سياسته الخارجية تقضي بإضعاف خصومه من الطوائف وإظهار قوته عليهم.[2]

كما لا يمكن إخراج المأمون يحيى بن ذي النون من هذه المعادلة، حيث أن النزاع بين طليطلة وبطليوس كان قائما قبل عهد المظفر بن الأفطس وقد أشار كما أسلفت إلى ذلك ابن عذاري حيث يقول: "... جعل يطلب جاره ابن الأفطس صاحب بطليوس فجرت معه حروب كثيرة".[3]

---

[1]– ابن بسام، المصدر السابق، ق. ج، مج 2، ص: 650

[2] – Jean- Claude Garcin et autre. Etats, Societés et Cultures du Monde Musulman Medieval X- XV siecle, presse universitaires de France, page 73

[3]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 283.

وفي غمرة الصراع الذي دار بين الأخوين، أطل ألفونسو السادس بقواته يجدد أطماع والده الذي كان قد شرع في حرب الاسترداد، والتي أعلن عنها بنفسه، وكان ألفونسو يسعى إلى تحويل الصراع القائم حول عرش والده، ولفت أنضارهم إلى أراضي المسلمين واستطاع ملك قشتالة الجديد أن يستولي على مقاطعات عديدة من أراضي بطليوس الإسلامية.

وقال فيه صاحب المعجب: "... وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنشر، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة، وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء".[1]

وقال عنه ابن الخطيب: "وكان المتوكل ملكا عالي القدر، مشهور الفضل مثلا في الجلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم".[2]

ومن غرر نظمه البارع الذي نقله إلينا: الفتح بن خاقان، ما بلغه أنه ذكر بسوء في مجلس أخيه، المنصور يحيى بن الأفطس، فكتب إليه يعاتبه:

فَمَا مَا لَهُم لاَ أَنْعَمَ اللهُ بالِهِم — يَنُوطُون بِي ذَاماً وَقَد عَلِمُوا فَضْلِي
يُسئُونَ فِي القَولِ جَهْلًا وَضِلَةً — وَإِنِي لَأَرْجُو أَن يَسُوءَهُم فِعْلِي
لَئِن كَان حَقاً ما أَذَاعُوا فَلا مَشَتْ — إِلَى غَايَةِ العَلْيَاءِ مِن بَعْدِهَا رِجْلِي
وَلَم أَلْقَ أَضْيَاف بِوَجْهِ طَلَاقَةٌ — وَلَم أَمْنَح العَاضِينَ فِي الزَمَنِ المَحَلِ
ولِي خَلْقٌ فِي الخُطَ كَالشَرَى طَعْمُهُ — وعِنْدَ الرِضَى أُخْلِي جَنَى مِن جَنَى النَحْلِ
فَيَا أَيُهَا السَاقِي أَخَاهُ عَلَى النَوَى — كُؤُوسُ القُلَى مَهْلًا رُوَيْدَكَ بِالعِلِ[3]

كان المتوكل نتاج أبيه المظفر شعرا ونثرا، وكان أبوه يقول من لم يأت بشعر كشعر المتنبي والمعري فلا حق له في قول الشعر. ومن براعة الألفاظ وسمو معانيها ما تضمنته النصوص المختارة من مصنفات روائع الأدب، ومنها كتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام، الذي نورد منه هذا

[1]- المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص: 128.
[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 185.
[3]- ابن خاقان الفتح، المصدر السابق، ص: 132-133.

الخطاب الذي بعث به المتوكل إلى ابنه العباس والي يابرة عندما أصرف أحد رجاله عنه إلى المعتمد بن عباد.

"واتفق أن خرج طلحة ابن عبيد الله مستوحشا عنه لأمر بلغه عنه ولحق ببلاد المعتمد، فكتب العباس إلى أبيه معتذرا عن فراره، ويقسم أنه ما خرج إلا باختياره فأخبري الوزير الكاتب أبو المطرف بن الدباغ قال: إني لمساير المتوكل خارج حضرته، بطليوس، حين ردود تلك الرقعة من ابنه العباس عليه فبلغ منه الصبر منتهاه، وتجاور مداه واستدعى وهو على ظهر دابته دواة، ووقع في ظهر الرقعة يومئذ فصلا قال فيه، دون عنوان ولا دعاء، ولا سلام، وأنا أتعجب في كتبه تلك الفقار، مع فرط الضجر: "قبولي لتنصلك من ذنوبك موجب لجراءتك عليها، وعودتك إليها، واتصل بي ما كان من قبلك في خروج طلحة بن عبيد الله عنك، ولم تتبث في أمره، ولا تحققت صحيح خبره، حتى فر بنفسه عن أهله ووطنه، والعجلة من الشيطان ولا يحمد قبل النضج بحران: وهو الذي أوجبه إعجابك بأمره، وانفرادك برأيك، ومتى لم ترجع إلى ما وعدت به من نفسك، وصدرت به كتبك فأنا المريح والله نفسي من شغبك وإن تكن الأخرى فهو لك الحظ الأوفى فاختر لنفسك أي الأمرين ترى".[1]

واستمرت إمارة بطليوس في عهد المتوكل تنعم بالسلام والأمن والرخاء ، وسطع بلاطها في ظل أميرها، وبالرغم مما نزل بإمارة بطليوس من الأحداث والخطوب، فإنها تمتعت بجو من الرخاء وتفوقت على مثيلتها من دول الطوائف، ذكر ذلك صاحب المعجب بقوله: "وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعيادا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهم حميد ذكرهم"[2].

ومن الأحداث الخارجية التي وقعت في عهد عمر المتوكل في تلك الأحداث التي حدثت في طليطلة كان لها أكبر الأثر على بطليوس، وذلك حين ثار بعض الأعيان على الأمير يحيى القادر الذي لم يتمتع بمواصفات الحاكم المقتدر على إدارة الأمور بنفسه، وكان ضعيفا كثير الحيلة، خبيث الفكرة،

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ق2، ج2، ص: 651.

[2]- المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص: 128.

وكان قد أوصاه جده بأن يضع يده في يد الفقيه أبي بكر بن الحديدي[1]، وألا يقطع أمرا ذي بال إلا بمشورته، وكان المأمون قد أخذ المواثيق الغليظة على ابن الحديدي أن يشد أزر حفيده، ويعمل على تثبيت أمره[2]. غير أن المقتدر الحفيد ضرب الذكر صفحا بوصايا جده، ووضع يده في يد عصابة من طائفة السوء وأغلوا صدره على ابن الحديدي فجعل في نكبته، يقول ابن الخطيب عن هذه الفئة: "وكان جده قد سكن ملكة وقرر أسبابه بسجن الطائفة من أهل طليطلة حثات الشرور، وأسباب الفتن بإشارة ابن الحديد، فتنسوا بالمطبق، واطرد الخبر بفقدهم".[3]

وبإيعاز من القادر بالله بعد إطلاق سراء هذه العصابة، التي دخلت القصر فقتلته في حضرة القادر، ضمن هذا الأخير بهذه الفعلة أنه قد حقق هدفين تمكن من خلالها إدارة شؤون البلاد في ظروف عادية وخالية من الفتنة، أما الهدف الأول فقد ضحى بأحد المقربين إلى جده وهو في نظره خصم عنيد للمعارضة وبالتالي، كسبهم بقتله على أيديهم، أما الهدف الثاني وهو تحرير هؤلاء الأشرار وبالتالي تكبيلهم بهذا الإحسان.

إلا أنه لم يدر أن النكبة الحقيقية هي وقوعه فريسة سهلة في يد هذه الجماعة الآثمة خصوم جده القدامى، والذين كانوا لا يزالون يتجرعون مرارة الأحقاد على جده، ومثلوا صورة المأمون في صورة حفيده القادر، ولم يقدروا الإحسان إليهم حين أطلق سراحهم، فبدأوا يعيثون فسادا في كافة أنحاء مملكة طليطلة، يأبوا الناس على حكم بني ذي النون[4] وفي سنة 472هـ/1079م قامت الثورة في طليطلة أضرمها أولئك الخصوم الناقمون، وحاولوا الاعتداء عليه، فلاذ بالفرار نحو بعض حصونه الخارجية، وأقام أهل طليطلة بعده أياما كالسائمة المهملة لا يدرون ما يفعلون إلى أن دلهم أحد

---

[1]- ابن الحديدي، الفقيه أبو بكر الحديد رجل كان له قدم وأقدام وعنده نقض وإبرام، كان الفقيه من وزراء المأمون بن ذي النون، مقدما عليهم لحسن تدبيره، وقيامه بشؤون دولة المأمون، كان لا يقطع أمرا إلا بمشورته وأحس المأمون بدنوا أجله أوصى حفيده القادر بالاعتماد على الحديدي وألا يقطع أمرا إلا بمشورته فعصى ذلك القادر وغدر بالحديدي، وكان هو من أشار بقتله، ابن بسام، المصدر السابق، ق 4 ج1 ص: 181.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ق4 ج1 ص: 151.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق ص: 179.

[4]- سمر عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص: 20.

الأعيان إلى التوجه إلى المتوكل بن الأفطس لإنقاذ الموقف فأجابهم على مضض، وغادر بطليوس إلى طليطلة، وأقام بها عشرة أشهر يدير شئونها، وخلال هذه المدة لم يجد القادر بدا من الاستعانة بألفونسو الذي استغل هذه الفرضية، فاشترط على القادر التنازل عن بعض الحصون، فتم له ذلك فلما تهيأت السبل للقادر، غادر المتوكل طليطلة، بعد أن قضى منها وطرا ونال من أسلاب ابن ذي النون وذخائره قسطا وافرا.[1] ويمم نحو بطليوس تاركا خلفه مواكب ألفونسو تتهاوى على طليطلة وتقضم أطرافها، وتراقب مداخلها ومخارجها، حتى كان يوم عيد الأضحى عام 474هـ/ 1081م حين اشتعلت الثورة ضد القادر إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول إليه، فاندفعوا نحو ألفونسو، يناشدونه تخليصهم من القادر، فلم يجبهم إلى ذلك، وأظهر لهم أنه يؤيده، ويناصره، فعادوا أدرجهم خائبين لم ينالوا شيئا، وأعاد ألفونسو القادر إلى عرشه.

وتعليقا على ما سبق ذكره، يلاحظ أن المبهبات التي ظلت تميز أهداف ألفونسو بدأت معالمها تتضح دون أن يبذل ألفونسو جهدا في الوصول إليها، وهذا لعمري سذاجة الحاكم والمعارضة على حد سواء حين جعلوا من ألفونسو الخصم والحكم في أن واحد، وغاب عن أذهانهم أنه إذا قرب أحدهم فلكي يسهل على نفسه التهام الآخر، إلى حين يقضي على الجميع. وفي منتصف المحرم سنة 478 هـ/1085 دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة وتحقق ما كان متوقعا، حيث استطاع أن يصل إلى أحد أهدافه الأساسية التي بواسطتها، يستطيع بلوغ أهدافه الأخرى حين يجعل من هذه المدينة موطن ارتكاز وانطلاق إلى باقي المدن الأخرى كما أشرت إلى ذلك من قبل.

لقد انتشى أتباعه بهذا الانتصار، وأيقنوا أنها فتح الفتوح بالنسبة لهم واقترحوا على قائدهم ألفونسو أن يلبس التاج، ويعيد عادة أسلافه القوط فأرجأ ذلك إلى حين الاستيلاء على قرطبة عاصمة المسلمين في الأندلس.[2]

---

[1]- ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص: 180.

[2]- نفسه، 244.

وكان بالنسبة إليه تخمين صائب، لأن ذلك سوف يعطي لأتباعه شجاعة وقوة في قتال المسلمين: "ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه، فشن غاراته على جميع أعمالها حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها، وذلك ثمانون منبرا سوى البنايات والقرى المعمورات وجاز من وادي الحجارة[1] إلى طلبييرة[2] وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها فلم يكن بالجزيرة من يلقى أقل كلب من كلابه... وانتمى الفنش انتماء الجبابرة، وأنزل نفسه منازل القياصرة وداخله من الإعجاب ما احتقر به كل ماشى على التراب وتسمى بالإمبراطور وهو بلغتهم أمير المؤمنين وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه، من الإمبراطور ذي الملتين وأقسم لإرسال الرؤساء "أنه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحدا ولا يبقى لهم ملتحدا سوى من اكتنفته رعايتي وشملت عنايتي[3].

ولم يبق لألفونسو السادس أدنى شك بأن بلاد المسلمين أصبحت تحت سيطرته، وأن أهلها ماتت فيهم لأنفة والشجاعة التي كانت لأجدادهم، وأن الاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم لم تعد مسألة إعداد كبيرة بل هي مسألة وقت وتدرج مع التداعيات.

وتماشيا مع هذه السياسة أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع وأن يؤدي له الجزية، ويهدده من حين لآخر إن هو أبدى بعض العصيان، ومع ما كان قد حصل لطليطلة من تنكيل، إلا أن المتوكل رفض أن يستجيب لتهديد ألفونسو ووعيده، ورد عليه برسالة شديدة

---

[1]- وادي الحجارة: هي مدينة تعرف بمدينة الفرج بالأندلس وهي بين الجوف والشرق من قرطبة وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا وتسمى المدن التي حولها بني سالم وهي مدينة حسنة الأرزاق جامعة لأشتات المنافع والغلات ولها أسوار حصينة ومياه معينة وبغربيها نهر صغير، لها عليه بساتين وجنات وكروم وزراعات وبها من غلة الزعفران الشيء الكثير يتجهز به منه ويحمل إلى سائر البلاد.

الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 193. الأصطخري المسالك والممالك، تحقيق، حماة الله ولد السالم، دار الكتب العلمية 2014 ص: 38.

[2]- طليرة: في أقصى الثغور الإسلامية بالأندلس، وتعبر باب من الأبواب التي يطل على أرض المشركين وهي قديمة أزلية على نهر تاجة، وهي في الجزء الثالث من قسمة قسطنطين، وهي مدينة كبيرة، وقلعتها أرفع القلاع حصنا ومدينتها أشرف البلاد حسنا وهو بلد واسع الساحة، كثير المنافع به أسواق وديار حسنة ولها على نهر تاجة، أرجاء كثيرة، ولها عمل واسع، ومزارعها زاكية وبينهل وبين طليطلة سبعون ميلا الحميري، نفسه، ص: 128.

[3]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 89.

اللهجة تفيض شجاعة وإباء يقول فيها: "وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويلدد بجنوده الوافرة، وأحواله الظافرة، ولو علم أن لله جنودا أعز بها الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين ويجاهدون في سبيل الله ولا يهابون، بالتقوى يعرفون وفي التوبة يتضرعون، ولئن لمت من خلف الروم بارقة فإذن الله وليعلم المؤمنين ولميز الله الخبيث من الطيب ويعلم المنافقين أما تعبيرك للمسلمين فيها وهي من أموالهم، فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك كما كانت آباؤنا تتجرعه فلم تزل تذيقها من الحمام ضروب الآلام شؤما تراه وتسمعه وإذا المال تتورعه وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهي ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه، وأما نحن إن قلت أعدادنا وعدم هي المخلوقين استمدادنا فيما بيننا وبينك يجر نخوضه ولا صعب روضه، إلا السيوف تشهد يحدها وقابا قومك، وجلاد تبصره في ليلك، ويومك وبالله تعالى وملائكته المسومين فتقوى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب... وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسين، فيا لها من نعمة ومنة أو شهادة في سبيل الله، فيا لها من جنة وفي الله العوض مما به هددت، وفرج يفتقر بما مددت، ويقطع بك فيما أعددت".[1]

فمن خلال هذه الرسالة التي بعث بها المتوكل، والمفعمة بنبرات الإخلاص، والتوكل على الله ناصرا، يمكن استخلاص جملة من النقاط الهامة، وفي مقدمتها أن المتوكل قبل أن يبعث بالخطاب إلى ألفونسو السادس، كان قد كاتب يوسف ابن تاشفين الذي وعده بأن يجعل حدا لتهديدات النصارى[2]، فكان هذا تشجيعا للمتوكل أن يقابل التهديد بلهجة شديدة، وأوضح له أن ما يمكن أن يحسم به هذه التهديدات هي ساحة الحرب، والمواجهة وقد أراد المتوكل أن يبلغ ألفونسو أن جند

[1]- ابن السماك العاملي، الحلل الموشية في ذر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، 2010، ص: 87

[2]- نفسه، ص: 87

المسلمين متحمسين للقاء جيشه ألفونسو السادس، حينما أكبر تلك الأمنية يقول "يا لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله"[1]

وفور هذا التهديد شرع عمر المتوكل في إعداد العدة، ووضع يده على أول ما ينبغي للمسلمين فعله وهو جمع شتات المسلمين على كلمة واحدة، وشحذ هممهم بضرورة التصدي لعدوهم الذي شرع في ابتلاع أراضهم، وندب لهذه المهمة العلامة والفقيه أبا الوليد الباجي[2] ليطوف لحواجز الأندلس وكلفه بالاتصال بالرؤساء ودعوتهم إلى لمّ الشمل، وتوحيد الكلمة وتناسي الخلاف ومدافعة العدو.[3]

وفي هذه الأثناء كانت تهديدات ألفونسو متواصلة فقد تلقى منه المعتمد بن عباد ما تلقى منه صاحب بطليوس من نذير ووعيد ورد عليه بمثل ما رد عليه وأشد[4]، وما جاء في رسالة ألفونسو السادس الموجهة لابن عباد ما نصه: "من الكنبطور ذي الملتين، الملك المفضل، الأذفنش بن شانجة إلى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد، سلام عليك، من مشيد ملك شرفته القنا، ونبتت في ربعه المنى، فاعتز اعتزاز، الرمح بحامله، والسيف يساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها وما صار بأهلها حين حصارها، فاسلمتم إخوانكم وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه، وسعى بنور الوفاء أمامه

[1]- ابن السماك العاملي، المصدر السابق، ص: 87.

[2]- أبو الوليد الباجي: سليمان بن خلف المشهور بأبي الوليد الباجي، فقيه متكلم أديب وشاعر، سمع بالعراق، ودرس الكلام وصنفه إلى أن مات، له مصنفات منها "التسديد إلى معرفة التوحيد" وكتاب "سنن المنهاج وترتيب الحجاج"، وكتاب "أحكام الفصول في أحكام الأصول" وكتاب "التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الصحيح" وكتاب "شرح الموطأ" قال عنه الفتح بن خاقان "كان إمام الأندلس الذي تقتبس أنواره وتنتجع نجاده وأغواره رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهرا، وقطف من العلم ازدهارا. وهو القائل:

إذا كنت أعلم علم يقين	**بأن جميع حياتي كساعة**
فلم لا أكون ضنينا بها	**وأجعلها في صلاح وطاعة**

المقري، نفح الطيب، ج2، ص: 69. ابن خقان، المصدر السابق، ص: 600.

[3]- ابن الأبار، الحلة السراء، ج2، ص: 98.

[4]- عبد الله عنان، المصدر السابق، ص: 91.

لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكي الإنذار يقطع الأعذار، ولا يجعل إلا من يخاف الفوات فيما يرومه أو يخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليكم القومط البرهانس وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك".[1]

وتسارعت الأحداث وتشنجت الأطراف المختلفة من دول الطوائف حين اغتصبت مدينة طليطلة، وانتهى بهم الأمر إلى تأييد ما سعى إليه عمر المتوكل من ضرورة جمع الكلمة والتصدي للخط الداهم، وكان المتوكل إلى جانب زميله المعتمد بن عباد هدفا مباشرا لأخطار ألفونسو السادس.[2]

ونظرا لما كانا يعلمان، من ضعف قوتهما، واختلال جبهتهما الداخلية، فقد قررا اللجوء إلى العدوة الجنوبية والتماس العون والإغاثة من يوسف بن تاشفين، والظاهر أنهما كتبا إليه لترسيم هذا العون الذي أصبح ضرورة ملحة والمؤكد أن عمر المتوكل هو أول من دق نقوس الخطر، بعدما شاهد آلة ألفونسو قد شرعت في حصد أراضي المسلمين.

فكتب إليه رسالة بليغة ومؤثرة يبين فيها الأمير، محنة الأندلس وما ألم بها أحزان ونكبات بسبب الفرقة والانحلال، ويطلب منه النصرة، والجهاد في أسرع وقت ممكن ومما جاء في فقراتها: "لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك وصح العلم بأنك لدولة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما أعضل الداء وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من بلاء.

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة ظلمها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالأموال ويخرج لها من كل ذخيرة وتسترضي بكل خطيرة ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفذ الطارق والتلال، وأتى على الظاهر والباطن والنفاذ وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، وأضرمت في جهة نارهم، ورويت

[1]- ابن السماك العاملي، المصدر السابق، ص: 90-91.

[2]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 92.

من دماء المسلمين أسنتهم وشغارهم، وهي أخطأ القتل منهم فإنما هم أيدهم أسارى وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا...

ألا ناصرا لهذا الدين المهتضم، ألا حاميا لما أتسبيح من حمى الحرم؟...

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية[1] أعادها الله للإسلام... وما هو إلا نفس خافت، ورمق زاهق إن لم تبادروا لجماعتكم عجالا، وتتداركوها ركبانا ورجالا، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا، وما أحصنكم على الجهاد بما في كتاب الله تعالى فإنكم له أتلى، ولا أحرضكم على التسرع إليه بما في حديث رسله عليه السلام، فإنكم إلى معرفته أهدى.[2]

ولما وصل الكتاب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، كتب إليه يعده بالجواز بالمؤازرة والنصر.

وفيما يخص بقية ملوك الطوائف، فإن عددا قليلا من ملوك الفتنة استجاب لدعوة التوحيد التي دعا إليها أبو الوليد الباجي، وفي حقيقة الأمر فإنه لم يستجب لهذه الدعوى سوى المعتمد بن عباد الذي كان واعيا بعواقب الارتماء في أحضان النصارى، أما الآخرين من ملوك الفتنة فقد آثروا الارتماء في أحضان النصارى، ودفعوا لهم الأموال، وتخلوا لهم عن القلاع والحصون وألفونسو دائب في الالتهام والابتلاع لا يقنع بالجزية التي امتلأت منها خزائنه، إلى أن أصبحت الأندلس كلها بيده[3].
وكان أن تطورت الحوادث بسرعة وشعر ملوك الطوائف بالخطر الداهم، وأدركوا أنهم كانوا خاطئين.

وانتهى بهم الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذي شاء القدر أي تنحو عجلة التاريخ منحا آخر، حين أجمعوا على استقدام المرابطين[4]. وفي خضم هذه الأحداث توالت على ابن تاشفين وفود الثغور مستعطفين، مجهشين بالبكاء ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته. ووزراء دولته فيستمع إليهم ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم.[5]

---

[1]- قورية: بالضم ثم السكون والراء المكسورة وياء خفيفة، مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الأفرج ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 117.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ق 2، ج 1، ص: 53-54-55.

[3]- محمد عبده حتاملة، المرجع السابق، ص: 527.

[4]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 91.

[5]- المقرى، نفح الطيب، ج7 ص: 360

ثم اهتدى هؤلاء إلى ضرورة عقد اجتماع عاجل لضبط الأمور، وإرسال وفد إلى المغرب لدعوة المرابطين إلى الجهاد في بلادهم، ثم توجه الوفد على عجل إلى المغرب أين كان ابن تاشفين يتأهب إلى العبور إلى الأندلس بناء على دعوة سابقة، واعتقد أنها دعوة المتوكل التي أشار إليها صاحب "الحلل الموشية" كما أشرت إلى ذلك سلفا، وكان ملوك الطوائف عندما لمسوا عزمته على العبور كتبوا إليه عن مخاوفهم من أن يستولي على بلادهم فأجابهم مطمئنا: "فلما وصل كتابه أحبوه وعظموه وفرحوا به وبولايته ملك المغرب، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج".[1]

وكانوا قبل ذلك قد أبدوا مخاوفهم لابن عباد، ففي النص الذي أورده المقري التلمساني يؤكد مخاوف ملوك الطوائف على عروشهم من يوسف بن تاشفين، وغاب عنهم أنهم أمام أمرين اثنين، إما الانضواء تحت هذا القائد المسلم والتخلي عن مصالحهم وأنانيتهم، أو الارتماء في أحضان النصارى وبالتالي إذلالهم وإهانتهم، يقول المقري التلمساني حاكيا عن مخاوفهم: "وأما ملوك الطوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك اهتموا منه، ومنهم من كاتبه، ومنهم من كلمه مواجهة وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجمعان في غمد واحد، فأجابهم ابن عباد عبارته الساخرة مثلا: رعي الجمال خير من رعي الخنازير"[2].... وهو يريد بذلك رعي الجمال في الصحراء لدى ابن تاشفين، خير له من رعي الخنازير لدى ألفونسو.

وكان الوفد الذي أرسله مجمع الطوائف مؤلفا من قاضي بطليوس أو إسحاق بن مقانا، وقاضي غرناطة، القليعي وقاضي إشبيلية أبو بكر بن أدهم، والوزير أبوبكر محمد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون[3].

فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد، ولما انتهوا إلى ابن تاشفين، أقبل عليهم وأكرم نزلهم، وأعقب ابن عباد الرسل بأسطول بحري نحو سبتة لمعاضدة ابن تاشفين في نقل الجيوش[4].

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص: 114.

[2]- المقري التلمساني، المصدر السابق، ج4. ص 359.

[3]- ابن الآبار، المصدر السابق، ج2، ص: 9.

[4]- المقري، المصدر السابق، ج4، ص: 360.

واتفق الطرفان على خطة العبور وسير الجيوش المرابطية، وعلى المساعدات التي يقدمها ملوك الطوائف تعزيزا ودعما.[1]

واندفعت هذه الجيوش تباعا نحو الجزيرة الخضراء وكان في مقدمتها قوة من الفرسان يقودهم داوود بن عائشة، وفي المؤخرة موكب أمير المؤمنين الذي عبر المضيق في منتصف ربيع الأول سنة 479 هـ/ 30/ جوان 1086، واصطحب المرابطون معهم عدد كبير من الجمال "فعبر منها ما أغضى الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء"[2]واحتشدت إليه الجيوش من دول الطوائف، وسارت نحو أراضي بطليوس، فتلقهم المتوكل عمر بن الأفطس واحتفل بهم[3]، وبذلك التأمت أجزاؤهم المبعثرة وتناسوا خلافاتهم، وزاد حماسهم للجهاد، وتعجب الأمير الزيري لهذا الصفاء الذي ميز هؤلاء الرؤساء وعبر عن ذلك بقوله "والعجب في تلك السفرة من حسن النيات وإخلاص الضمائر كأن القلوب إنما جمعت على ذلك[4] وعندما دخلت الجيوش أراضي بطليوس، وجدوا عمر المتوكل وسط قواته، في استقبالهم، واحتشدت جيوش الطوائف تحت إمرة يوسف بن تاشفين كل يرغب في الجهاد قد أعمل جهده ووطئ على الموت نفسه.[5]

وعلى أراضي بطليوس دارت موقعة الزلاقة في يوم الجمعة الثاني عشر من رجب 479 هـ/ 1086، وكانت الخطة التي وضعها المسلمون ، هي توحيد القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد بن عباد الذي احتل المقدمة، يليه القائد المرابطي دواد بن عائشة على رأس حوالي عشرة آلاف فارس، وتحركوا جميعا نحو طليطلة، وفي هذا الوقت علم المسلمون بسير ألفونسو السادس باتجاههم خوفا من أن يسترجع المسلمون طليطلة، وفي هذا الوقت كانت الإمدادات من الممالك النصرية تتهاطل عليه من كل مكان، فقد تلقى الدعم من سانشو راميراز أمير أراجون ونافار Aragon Navare،

---

[1]- ابن الآبار، المصدر السابق، ج2، 98-99. الناصري، المصدر السابق، ج2، ص: 39.

[2]- المراكشي، المعجب، ص: 70. ابن عذاري، المصدر السابق، ج 4، ص: 115.

[3]- مجهول، تاريخ الأندلس، ص: 53.

[4]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 123.

[5]- نفسه، ص: 124.

والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة، ودعما لهذا التحالف فقد هب رجال الدين المسيحيين، وشرعوا في استنفار مسيحي إيطاليا وفرنسا فضلا عن شبه جزيرة إيبيريا، واستطاع ألفونسو السادس بهذا الاستنفار إن يحشد ما يقارب الخمسين ألف حسب تقديرات المؤرخين في حين لم يتجاوز عدد المسلمين سوى عشرون ألف.[1]

ولصاحب المعجب وصف رائع لما أقدم عليه ألفونسو في حشد قواته حيث يقول "وكان الأدفنش لعنه الله – قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، وجاء يجر الشوك والشجر، وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليها".[2]

وقبل أن يلتحم الطرفان، جرت مراسلات بينهما، فأرسل يوسف بن تاشفين كتابه إلى ملك قشتاله وليون يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب[3]. وفي صباح يوم الخميس بعث ألفونسو السادس إلى ابن عباد يقول له: "غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت" فلما أبلغ ابن عباد يوسف ابن تاشفين بهذا الأمر، علم هذا الأخير بأنها حيلة منه وخديعة، وكان قصده الحقيقي هو الفتك بنا يوم الجمعة، قال "فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلّ النهار.[4]

وبالفعل حدث ما توقعه ابن تاشفين، فشن ألفونسو هجومه على المسلمين في فجر يوم الجمعة 12/ رجب/ 479 هـ 23 أكتوبر 1086، وكان الجناح المستهدف في هذه الوقيعة هي كتائب الأندلسيين بقيادة ابن عباد، بأمر من ألفونسو، حيث استرق بعض الجواسيس ما قاله هو لقادة جيشه قوله: "ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل ضمان وذوي

---

[1]- يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1359هـ/1940م، ص: 80.

[2]- المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص: 193

[3]- الناصري، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف جعفر الناصري محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954، ج2، ص: 40.

[4]- نفسه، ج 3، ص: 41.

بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد فهجموا عليه وأصرّوا له فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أراه يصبر لكم أن صدقتموه الحملة".[1]

يقول ابن أبي زرع واصفا هذا الهجوم على قوات ابن عباد: "فبينما ابن عباد في آخر ركعة هي صلاة الصبح وكان قد غلس بالصلاة إذا أقبلت الخيل التي كانت طليعة على العدو مسرعة إليه فأخبروه أن العدو قد زحف نحو المسلمين في أمم كالجراد المنتشر، فأرسل في الحين بالخبر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فوجدوه على أهبة للحرب قد عبأ كتائبه طول ليلته"[2]. وكانت الفرقة التي توجهت من جيش النصارى بقيادة البرهانس وابن ردمير نحو كتائب الأندلسيين بقيادة ابن عباد، فأرغموهم على التراجع نحو بطليوس ولم يثبت من الأندلسيين سوى ابن عباد وجيشه وحسب رواية صاحب روض الفرطاس "فإنهم ثبتوا في ناحية يقاتلون لم ينهزموا وقاتلوا قتالا شديدا، وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام"[3] وحرب ابن عباد على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يقاسي حياض الموت يضرب يمينا وشمالا[4].

فظن ابن عباد أن قد أحيط به وبجيشه، واستيأس من النصر، وبينما هو في الخطب يصارع عدوه، إذ بفرقه من ابن تاشفين بقيادة داود بن عائشة تتكون من عشرة آلاف مقاتل، تعزز قوات ابن عباد، ثم أقبل يوسف على رأس جيشه يباغث ألفونسو السادس من الخلف، ويعمل سيفه، فوجد نفسه بين فكي الكماشة، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرا عظيما، وتراجع المنهزمون من رؤساء الجيش الأندلسي، بعد أن بلغتهم أخبار الانتصار وعادوا إلى الساحة لتعزيز قوات ابن عباد، والمرابطين، واستمر القتال يوما كاملا، اظلمت فيه ساحة المعركة من شدة العجاج والغبار، فانكشف جيش ألفونسو، ومر هاربا منهزما، وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية حياته.

[1]- الناصري، المصدر السابق، ج 2، ص: 41.

[2]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض الفرطاس، طبعة الرباط 1972، ص: 147.

[3]- نفسه، ص: 147.

[4]- الحميري، المصدر السابق، ص: 291.

ولم ينجه سوى فراره إلى تلة في ثلة من قواته كلهم مكلومين، وكان القتل والأسر مصير غيرهم من جيشه.[1]

وبالنسبة للمسلمين، فقد شرعوا عند انبلاج الصبح، في جمع الغنائم وإحصاء قتلاهم وقد سقط من جانبهم في هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف قتيل، ورغم ذلك فإن المسلمين قد فرحوا بهذا النصر ومن سلبيات هذا النصر أن المسلمين لم يستغلوا هذا الانتصار لتحرير طليطلة، لاضطرار يوسف بن تاشفين للعدوة إلى المغرب بسبب وفاة أحد أبنائه الذي خلفه مريضا بسبتة[2]، وكذلك امتناع يوسف بن تاشفين ملاحقة ألفونسو السادس الذي كان مكلوما، وذلك عندما ألح عليه ابن عباد في ملاحقته والقضاء عليه، وكان رأيا سديدا لابن عباد لو استجاب إليه ابن تاشفين على حد قول الحميري[3].

ولم تمض سنة على انتصار المسلمين حتى بدأ ألفونسو يشن غاراته على المسلمين انطلاقا من حصن لييط خاصة ضد مرسية، والمارية، ولورقة، وعندما عجزوا عن صد الهجومات راسلوا ابن تاشفين ثانية وانتقل ابن عباد إلى المغرب وقابل ابن تاشفين في مراكش، ليطلعه على الوضع في الأندلس، وما يقوم به ألفونسو بمعية الفرسان والجنود القادمين من فرنسا، وجبال الألب، ووعده بالعبور ثانية إلى الأندلس.[4]

وفي ربيع الأول سنة 481 هـ / يوليو 1088 عبر يوسف بن تاشفين عبوره الثاني وفي أرض الأندلس مرّ على مالقة، ومرسية وقدم لهم يد المساعدة حيث كانوا هدفا لغارات القشتاليين وكانت وجهته حصن لييط، وقبل أن يصل إلى مشارفه طلب من رؤساء الأندلس أن يوافوه عند الحصن، فلبى جميعهم الدعوة، ودام الحصار حوالي أربعة أشهر تخللها القتال والتراشق بالأسلحة بين الطرفين، ولكن مناعة الحصون حالة دون إحداث ثلم أو ثغرة تمكن المسلمين من التسلل عبرها، وزاد في يأس ابن تاشفين حلول فصل الشتاء، وشعوره بخيبة الأمل لاختلاف أمراء الأندلس فيما بينهم كل يشتكي

---

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 125. الحميري، المصدر السابق، ص: 291.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 152.

[3]- الحميري، المصدر السابق، ص 291.

[4]- يوسف الشباخ، المرجع السابق، ص:91. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:152. عبد الله عنان المرجع السابق ص:331.

بصاحبه إلى ابن تاشفين[1] بالرغم ما قدمه لهم من نصح، ومن عاقبة الاختلاف فيما بينهم وبالرغم من فشل المسلمين في الدخول إلى حصن لييط، فقد فضل ألفونسو الانسحاب منه لعدة اعتبارات منها أن الحصن يقع داخل أراضي المسلمين، وما لقيه قواته من ضربات موجعة أودت بأعداد كبيرة منهم.

وفي مطلع سنة 483 هـ / 1090 عبر ابن تاشفين عبوره الثالث إلى الأندلس، ليس لمواجهة أعداء المسلمين بل لتصفية رؤساء الطوائف الذين كانوا وبالا ونقمة على رعيتهم، وذلك بانصرافهم نحو الترف والمجون بأموال الرعية التي أثقلوا كاهلهم بالضرائب، ومما يدفع إلى العجب هو أن هؤلاء الأمراء عوض أن يعودوا إلى رشدهم، ويربؤوا تلك الصدوع التي كان منها الإخفاق والضعف، راحوا يتحالفون في السر مع عدوهم ومن هؤلاء المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، والمتوكل أمير بطليوس، وبالرغم من فضاعة ما أقدموا عليه، إلا أنه توجه قبل أن يصفي حساباته معهم نحو طليطلة لتخليصها من قبضة القشتاليين إلا أن لمناعتها وإحكام خطة الدفاع مكنت ألفونسو من إفشال الحصار، وعاد ابن تاشفين أدرجه نحو الجنوب لتنفيذ مهمته التي عبر من أجلها، فأخذ الحصار، وعاد ابن تاشفين أدرجه نحو الجنوب لتنفيذ مهمته التي عبر من أجلها، فأخذ في عزل ملوك الطوائف[2] فقصد مدينة إشبيلية "فحاصر المعتمد وضيقوا عليه فقاتل قتالا شديدا وظهر من شجاعته وشدة بأسه وحسن دفاعه، عن بلده ما لم يشاهد من غيره".[3] ونظرا لعدم تكافؤ القوى فقد استطاع المرابطون من السيطرة على كامل المدن الواقعة في المملكة ولم يبق للمعتمد سوى إشبيلية، ومما عجل بسقوط إشبيلية وجود معارضة داخل المدينة استغلت الظرف وثارت عليه، وفي رجب سنة 1091/484، أستسلم المعتمد بن عباد بعد أن أمن على نفسه وأمواله، وبعد ذلك سيق مع جميع أفراد عائلته إلى مدينة أغمات جنوب مراكش، ووجد سلواه في قرض الشعر حين اعتصره الأسى، وجاد بغر قصائد، بث فيها همومه وأحزانه، يقول الأستاذ عبد الله عنان، وهو من أفرد، لملوك الطوائف جانبا مهما في موسوعته الأندلسية: "إن هذه المرحلة الأخيرة هي حياة المعتمد، وهي مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة، تنتمي إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ بما تحفل به من

---

[1]- المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص: 132. يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 91.

[2]- عبد الله عنان، ص: 339.

[3]- النويري أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد دار النشر المغربية ص: 162

الآثار الشعرية الرائعة التي ينظمها المعتمد عن محنته وآلامه في المنفى، وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها، من صحف التاريخ والأدب، فراغا كبيرا لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية لها".[1]

وبالنسبة لإمارة بطليوس، فقد نحى منحى زملائه من ملوك الطوائف وراح هو الآخر، يضرب على وترين، فقد كان يخاطب المرابطين بالطاعة والولاء، ويظهر استعداد لمواجهة القشتلين، وفي الوقت نفسه يتفاوض مع ألفونسو السادس سرا يطلب منه المساعدة في حال تعرضه بهجمات المرابطين، إلا أن ابنه أشار عليه (المنصور) بالأخذ بأحد الأمرين وإما الاستسلام أو اللجوء إلى ألفونسو السادس إلا أن المتوكل لم يأخذ برأي ابنه وارتمى بأحضان القشتليين.[2]

ولما أيقن عمر المتوكل بخطر المرابطين راسل ألفونسو، فاتفق معا على أن يتنازل له عن مدينة شنترين، وعندئذ ضاق الناس ذرعا، بتصرفات عمر المتوكل الحمقاء، وراسلوا قوات المرابطين، فتقدمت نحو بطليوس، وألفونسو لم يوف للتمكول بوعده، ودخل المرابطون المدينة دون مقاومة وقبض على المتوكل وعلى بنيه وعبيده، وألزم على استخراج ما عنده من أموال وذخيرة، وعند ذلك تقرر قتله على ما ارتكب من فضيع الجنيات في حق الإسلام والمسلمين، مع ولديه الفضل والعباس، وتقرر تنفيذ الإعدام خارج المدينة حتى لا يترك ذلك أثرا سيئا عند أهلها، وفي الطريق أخبر أنه سيتقبل مع ابنيه سأل أن يقدم إبناه قبله ليحتسبهما، فكان له ذلك وعندما رأى المتوكل رأسي أن يقدم إبناه قبله ليحتسبها، فكان له ذلك، وعندما رأى المتوكل رأسي ابنيه منفصلين عن جسميهما شرع في الصلاة فقتل على هذه الحالة وذلك أخريات 488 هـ / 1095 م[3].

وبموت عمر المتوكل، أفل نجم بطليوس التي كانت في يوم من الأيام منارة للعلم والعلماء، وانهد فيها كل عماد.

[1]- عبد الله عنان، المصدر السابق، ص: 355.

[2]- عبد الله بن يلقين المرجع السابق، ص: 172-177. ابن الأثير، ج8، ص: 471.

[3]- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق يوسف الدقاق، ج 8، ص: 471.

وقد أيقظت محنة بطليوس مكامن القروح عند العديد من الشعراء، ومنهم وزيرهم الكاتب والشاعر المبدع، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[1] الذي اعتصر هو الآخر لفاجعة بني الأفطس، وخلد ذكرهم في مرثية وهي من أجل المراثي الأندلسية وأروعها، ويقول فيها عبد الواحد المراكشي:

"عقيلته العذراء التي أزرت على الشعر، وزادت على السحر وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلت أن تسمى، وأنفت أن تضاهى، فقل لها النظير وكثر إليها المشير وتساوي في تفضيلها وتقديمها بأقل وجرير، فلله هي من عقيلة حذر قربت بسهولتها حتى أطمعت وبعدت حتى عزت فامتنعت"[2].

ومطلعها:

الـدَهْـرُ يَفْـجَعُ بَعْدَ الـعَينِ بِالأَثَـرِ	**فَـمَا البُـكَاءُ عَلَـى الأَشْبَاحِ وَالصُورِ**
أَنْهَـاكَ أَنْـهَـاكَ لَا أَلُـوكَ مَـوعِظَـةً	**عَـن نَوْمَـةٍ بَيـنَ نَابِ اللَيْثِ والظَفَرِ**
فَالـدَهْرُ حَـرْبٌ وإن أَبْـدَى مُسَالَمَةً	**والبِـيضِ وَالسُودِ مِثْلَ البِيضِ والسُمْرِ**
وَلَا هَـوَادَةَ بَيْـنَ الـرَأْسِ تَـأْخُـذُهُ	**يَـدُ الضَـرَابِ وَبَيْنَ الصَارِمِ الذَكَرِ**
فَلَا تَغُـرَنَكَ مِـن دُنْيَـاكَ نَـومَتِهَا	**فَمَـا صِـنَاعَةُ عَيْنَـيهَا سِوَى السَهَرِ**
مَـا لِلَـيَالِي أَقَـالَ الله عَثْـرَتَهَـا	**مِـنَ اللَيَـالِي وَخَـانَتْهَـا يَـدُ الغَيْـرِ** [3]

---

[1]- أبو محمد عبد المجيد بن عبدون: عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري من يابرة يكن أبا محمد أخذ عن أبي الحجاج الأعلم، وأبي بكر عاصم بن أيوب الأديب وغيرهما وكان عارفا بالآداب واللغات، مقدما في معرفتها، وإتقانها ثقة في نقلها من أهل الكتابة والبلاغة، أخذ الناس عنه، توفي في عشر الثلاثين وخمسمائة ابن بشكوال، المصدر السابق، ترجمة رقم 1559 ص: 1001

[2]- المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق ص: 128

[3]- نفسه، ص: 129. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص:186-187-188. ينظر: والقصيدة كاملة في ملحقات هذا البحث وتثبيتها بغرض التأريخ.

بنو ذي النون بطليطلة، 427-478/1035-1085

ينتمي بني ذي النون إلى قبيلة هوارة البربرية[1] وأن اسم جدهم الذي ينسبون إليه هو زنون فتحول إلى الدال لطول المدة[2]، إلا أن مؤرخي ملوك الطوائف كابن حيان، وابن بسام، وابن عذاري يسمونهم "ببني ذي النون، وهو تعريب اسم جدهم زنون البربري.[3]

ويعود تواجد بني ذي النون في الأندلس إلى عهد قديم، حيث كان أسلافهم في طلائع الفتح الإسلامي، ثم ما لبثوا أن استقروا كغيرهم من القبائل والجماعات المشاركة في الفتح واندمجوا في الجماعات والسلالات المختلفة حتى لم يبق ما يميزهم سوى نسبهم القديم.[4]

وحول استقرارهم في الأندلس، فإنهم نالوا نصيبهم حين توزعت أراضي الأندلس، وكما هو معلوم فإن البربر عموما حلوا في المرتفعات الجبلية كما في سائر مناطق الشمال، وانزاح البربر بصورة خاصة إلى تلك المرتفعات الواقعة شرقي طليطلة اين تخرج مياه نهر التاجا الغزيرة، وهي مناطق تشبه إلى حد ما المناطق التي جاءوا منها من بلاد العدوة، وفي هذه المناطق بالذات وفي بلدة شنتمرية الصغيرة استقرت عدة عائلات بربرية معروفة منها بنو ذي النون.[5]

ويبدو أن الزعامة في هذه العائلة بقيت وراثية، فكان أول زعماء هذه العائلة حسبما تنقله الأخبار هو "السمح" عند نزولهم شنمرية ثم خلفه ابنه إسماعيل، وجاء بعده الهيثم الذي أورث الرئاسة لابنه "طوريل ثم إلى حفيده سليمان، إلا أن المصادر التاريخية لا تقدم ما يكفي لمعرفة دور كل واحد منهم.[6]

ظل بنو ذي النون في سيادة المنطقة الشمالية الواقعة شرق مملكة بطليوس وكانت هذه المنطقة تشمل رقعة جغرافية واسعة في قلب الأندلس، من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي حتى قلعة

---

[1]- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص: 499.

[2]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 176.

[3]- نفسه، هامش رقم 1، ص: 176.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 276.

[5]- عبد المجيد نعنعي، الإسلام في طليطلة، دار النهضة الغربية، ص: 65.

[6]- نفسه، ص: 66-67.

أيوب، وشتمرية الشرق جنوب غربي مملكة بني هود في الثغر الأعلى، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجة متاخمة لقشتالة القديمة، وجنوبا حتى حدود مملكة قرطبة، عند مدينتي المعدن والمدور، وتتوسطها عاصمتها طليطلة ومن أعمالها مدينة سالم ووادي الحجارة وقونقة، ووبذة وإقليش ومورة وطلبيرة وترجالة وغيرها.[1]

أما قصة استقلالها بهذا الإقليم الشاسع، فيمتد إلى عهد الإمارة، وذلك حين كان الأمير محمد بن عبد الرحمان عائدا من إحدى غزواته، إذ مرض له خصي من أكابر غلمانة، لم يستطع مواصلة السير، وأثناء مرورهم بالحصن إقليش عرض جد بني ذي النون بن سليمان خدماته للأمير، واقترح عليه إبقاء الغلام عنده حتى يبرأ من علته أو يموت فاعتنى به ذو النون عناية كبيرة حتى برئ، ثم أخذه بنفسه إلى قرطبة، فسر الأمير بصنيعه فكافأه على صنيعه بإقراره على ناحيته. وظل بنو ذي النون معروفين بهذه الناحية منذ هذا التاريخ، يدينون بالطاعة للإمارة الأموية. وبعد وفاة سليمان خلفه ابنه موسى[2] إلا أن هذا الأخير لم يسلك نهج أبيه في إدارة هذه النواحي، فتحولت إلى مصدر قلق للأمويين، وعكرت صفو دولتهم، وخاصة في عهد موسى، وابنه الفتح بن موسى الذي ثار في وجه حكم عبد الرحمان الناصر في بداية أيامه في الحكم بقلعة رباح، وانبرى له الناصر بجملة طاردته وانتهت بإخضاعه.[3]

وفي عهد المنصور محمد بن أبي عامر 366-976/392-1001م سطع نجم العائلة الذنونية ووجدت تحولا في كيانهم الاجتماعي، فلم يعودوا يتصرفون كسادة إقطاعيين، وأقلعوا عن الأعمال اللصوصية التي كانوا يمتهنوها، وانضموا إلى جيش المنصور وصاروا جزءا أساسيا فيه، وتسلموا مناصب إدارية هامة في المقاطعات كما في الحكومة المركزية[4]. ويبدوا أن المنصور بن أبي عامر قد فتح

[1]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 95.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ف1، ج 4، ص: 142.

[3]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 96، أرزقي فراد، المرجع السابق، ص: 90.

[4]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 77

لهم الأبواب في هذه المناصب وخاصة العسكرية لأن سياسته كما أسلفنا في الفصل الأول من هذا البحث، كانت تقضي بإبعاد الاستقراطية العربية، وإقحام العناصر الأخرى من بربر وصقالبة.

وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر خفت نشاط هذه العائلة، وانكمشوا في الفترة التي أعقبت وفاة عبد الرحمان شنجول، واتخذوا لوقت طويل موقف المراقب والمحايد من الأحداث العاصفة، خاصة النزاعات العربية البربرية، إذ لا يرد في المصادر قائمة العائلات والقبائل البربرية التي شاركت في هذه الأحداث.[1]

لم يضرب بنو ذي النون الذكرى صفحا عن الأحداث التي عرفتها الأندلس أيام الفتنة بل كانوا مراقبين عما ستسفر أو يتمخض عنها، فقد أسرع عبد الرحمان بن ذي النون إلى التماس التعيين من سليمان المستعين على أقليش وقد استغل فرصة وفاة الفتى واضح العامري حاكم قلعة قونية المجاورة ليضمها إلى حكمه، ثم ما لبث أن مد يده إلى المناطق المجاورة الأخرى فبسط نفوذه على شنتمرية كلها، وقد رافق ذلك سمو منزلته لدى سليمان المستعين فقام بتعيينه على الوزارة ولقبه بناصر الدولة[2] أما أوضاع طليطلة التي غادرها بني ذي النون بعد وفاة المنصور ابن أبي عامر، أو بعد وفاة ابنه عبد الرحمان شنجول[3] فقد قام بالأمر فيها عند اندلاع الفتنة قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى والظاهر أنه لم يكن يدير الحكم لوحده بل كان يحكم معه جماعة هي الرؤساء، وكان من هؤلاء ابن مسرة، وعبد الرحمان بن متيوه. ثم ما لبث أن دب الخلاف بين الجماعة الحاكمة وعزل القاضي ابن يعيش وسار إلى قلعة أيوب وتوفي بها سنة 418 هـ/1027م ولما توفي هذا الأخير تولى من بعد ابنه عبد الملك الذي أساء السيرة وساد البلاد جو من التوتر والقلق، فلما ضاق أهل طليطلة ذرعا بالأوضاع بعثوا رسلهم إلى عبد الرحمان ابن ذي النون في شنتمرية لتولي الرياسة، فوجه إليهم ولده إسماعيل، وكان ذلك سنة 1037/427[4] وفي حقيقة الأمر أن أهل طليطلة، كانوا أهل فتنة،

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 78

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 276

[3]- عبد المجيد نعنعي، المرجع نفسه، ص: 78

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 177. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 97

وكانوا يثورون ضد حكامهم لأتفه الأسباب، وهذا ما يؤكده نص ابن عذاري: "وكان أهل طليطلة على قديم الدهر أهل فتنة وقيام على الملوك فلم يرضوا سيرة هذا الفتى – يقصد عبد الملك – فخلعوه وولوا على أنفسهم من ينظر في أمرهم ثم أنهم نقموا عليه شيئا فعزلوه وولوا غيره ثم رأوا أن يرسلوا إلى ابن ذي النون بسنت برية فوجه إليهم ابنه إسماعيل بن عبد الرحمان بن ذي النون فاستولى هذا على طليطلة".[1]

كان مجيئ اسماعيل بن ذي النون إلى طليطلة، هو بداية حكم الأسرة الذنونية بطليطلة ونواحيها، وهنا تجدر الإشارة إلى ما نبه إليه أحد الباحثين في أطروحته قائلا: "وإن دل هذا الحادث على شيء فإنما يدل على علو منزلة بني ذي النون، من ناحية وعلى عدم وضع الأهالي الأندلسيين أي اهتمام للناحية العرقية لدى الحكام، وأن المهم لديهم أن يكونوا حكاما مسلمين يمتازون بالعدل والقوة".[2]

وبعد استقرار إسماعيل بن عبد الرحمان في طليطلة، تلقب بناصر الدولة المظفر[3] وكان هذا اللقب قد منحه إياه سليمان المستعين وأعطاه رتبة الوزارة، وراح يمارس سلطته على هذه النواحي، ضابطا وجابيا للأموال[4].

وفي النصوص التي أوردها ابن حيان حول شخصية إسماعيل بن عبد الرحمان تكشف عن المساوئ التي تحلى بها ملوك الطوائف، وأوردت هذه الدول وشعوبها المهالك التي انتهت بزوالها، ومما جاء في نص ابن حيان برواية ابن بسام قوله: "وكان من البخل بالمال، والكلف بالإمساك والتقتير في الإنفاق، بمنزلة لم يكن عليها أحد من ملوك عصره، لم يرغب في صنيعة، ولا سارع إلى حسنة، ولا

[1]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 276-277

[2]– أرزقي فراد، المرجع السابق، ص: 91.

[3]– يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص: 44.

[4]– ابن بسام، المصدر السابق، ج4. ص: 143. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 96.

–Rubartayr Reverter Gaceta. Numismatics Gacete, Barcelona, 1992. p : 108

جاد بمعروف، فما أعملت إليه مطية، ولا حملت أحدا نحوه ناقة ولا عرج إليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر. ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل ولا حظي أحد منه بطائل".[1]

لم يكن هذا دأبه في البخل فحسب، بل تعدت شروره ومساوؤه إلى ما هو أفضع من ذلك، من إثارة الفتن، وبث الفرقة بين ملوك الطوائف ومما أضافه ابن حيان في ذكر مساوئه قول: "كان فرط الملوك في إيثار الفرقة، فاقتدى به من بعده، وأموا في الخلاف نهجه فصار جرثومة النفاق وأول من استن سنة العصيان."[2]

إلا أن بعض المؤرخين المعاصرين ينفون هذه الصفات عن إسماعيل، انطلاقا، من أن هؤلاء الذين سجلوا عليه هذه الخصال السيئة إنما انطلقوا من الكره والعداء لمملكة طليطلة، لما ألفوه من إسراف أمراء بني أمنية وبذخ بعض ملوك الطوائف الآخرين، واعتبر ذلك مظهرا من مظاهر البخل[3] وحسب رأينا المتواضع، فإن ما ذهب إليه الأستاذ عبد المجيد نعنعي هو في حقيقة الأمر تسفيه لما طرحه هؤلاء المؤرخين، وفي مقدمتهم ابن حيان الذي رغم ما يبدوا به من قسوة قلمه على البربر، إلا أنه يعد من كبار المؤرخين الذي عرفت كتاباتهم بالموضوعية، والدقة، والرشح الأدبي الممتاز.

وفي الواقع فإن ابن حيان كمؤرخ لم يتقيد بصورة نمطية في السرد الشمولي للحادثة، بل كان يقف مليا عند أجزائها ويعطي التفاصيل المختلفة. والأستاذ نعنعي نفسه يعترف بهذا النهج عند ابن حيان حيث يقول: "وابن حيان نفسه، المعروف بوافر كرهه لبني ذي النون عموما اعترف لإسماعيل هذا بعظمته وتواضعه وتفانيه في الدفاع عن حدود وأراضي دولة الإسلام في الأندلس".[4]

وعلى أية حال فإن إسماعيل بن عبد الرحمان، مع ما كان يتصف به من خصال سيئة، كان مع ذلك يمتلك ثقافة واسعة، متحكم في ناحية البلاغة فيها رغم أصله البربري، وكان شديد الإلمام

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج،4 ص: 143.
[2]- نفسه، ج 4 ص: 143
[3]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 91.
[4]- نفسه، ص: 91.

بتاريخ العرب، وافر العلم بأيام قبائلهم وأخبار أوائلهم، ويحفظ من أشعارهم، وكان هو نفسه يقرض الشعر وينظم الجيد منه.[1]

ومهما يكن من أمر فإن إسماعيل قد ساس بلاده سياسة ناجحة واعتمد في تدبير أمور مملكته على شيخ البلد أبي بكر ابن الحديدي، وكان من أهل العلم والدهاء، ملازما له، فكان إسماعيل لا يقطع أمرا إلا بالعودة إليه[2] وكان يحظى بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة[3].

العلاقات مع ملوك الطوائف في عهد إسماعيل الظافر

قبل الحديث عن طبيعة العلاقات بين إسماعيل الظافر وباقي ملوك الطوائف، لابد من إظهار الخارطة أو التركيبة السياسية التي كانت تطبع الأندلس وقتذاك، وقد فصلت في ذلك في الفصل الأول من هذا البحث، ولا بأس من إعادة الطرح للضرورة التي اقتضتها المعالجة في هذا السياق، فقد تكونت التركيبة إلى ثلاث مجموعات عنصرية.

- دول الطوائف البربرية المنشرة في جنوب الأندلس، مملكة غرناطة والإمارات البربرية الصغرى في قرمونة، ورندة ومورور، وأركش ويضاف إليها بطليوس ومالقة.
- دول الطوائف الأندلسية التي تنتسب إلى العنصر العربي في إشبيلية البونت وسرقسطة وقرطبة.
- دول الطوائف الصقلبية وتتركز في مناطق شرق الأندلس في المرية دانية، وطرطوشة، بلسية، وجزر البليار.

فبالرغم من قيام الكيانات الطائفية في بلاد الأندلس بعد انهيار الخلافة، إلا أن هؤلاء الملوك ظلوا يتوقون إلى تلك الأيام الخوالي أين كانت بلادهم موحدة تحت حكم واحد ومن هذا المنطلق سعى كل منهم وخصوص أصحاب الممالك القوية لإعادة بناء الوحدة المفقودة، لكن كل يدعى لها

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 91.
[2]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 177.
[3]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 97.

وصلا وأن تقوم تحت عرشه وكانت المعضلة الأخرى التي كانت تحول دون تحقيق هذا المشروع هي العلاقات العربية البربرية.[1]

فعلى سبيل المثال فقد قامت سياسة بني جهور على محاولة فرض هيمنتها على سائر دول الطوائف، إلا أن إسماعيل كان يقابل ذلك بالسخرية عندما كان جهور يدعوه إلى الطاعة تحت ظل الحكومة المركزية.[2]

ولما تحقق جهور من أنه لا يستطيع فرض هيمنته على دول الطوائف القوية عمد إلى الدويلات الضعيفة لإخضاعها بالقوة، فكانت المحاولة الأولى مع صاحب السهلة الذي أبى هو الآخر الاعتراف قرطبة فوجهت إلى بلاده مجموعة من الفرسان أخضعت إمارته الضعيفة بسرعة، فاستغاث الأمير المعزول هذيل بن رزين[3] بصاحب طليطلة إسماعيل عبد الرحمان، وكان هذا الأخير ممتعضا من سياسة الجهاورة في قرطبة، فهبت قواته لإغاثة ابن رزين وأجبرت قوات قرطبة على مبارحة مدينة السهلة وردت لأميرها الذي أشهر سلاحه في وجه قرطبة من جديد في عهد الوليد محمد بن جهور[4]. والظاهر هنا أن إسماعيل بن عبد الرحمان لم يكتف بتأييد هذيل بن رزين في رد العدوان بل لاحق قواته جيش قرطبة حتى وصل في ملاحقتهم مشارق قرطبة.[5]

ومن هنا يتبين مدى ما كان يكنه إسماعيل للعصبة العاكمة من الأمويين بمختلف دول الطوائف، فقد أورد ابن حيان في هذا السياق، أن إسماعيل حاكم طليطلة، كان متخوفا من عودة

---

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 107.

[2]- يوسف أشباخ، المرجع السابق ص: 45.

[3]- هذيل بن رزين: كان هذيل هذا بارع الجمال حسن الخلق جميل العشرة ظاهر المروءة لم ير في الأمراء أبهى منه منظرا مع طلاقه لسانه وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة وكان مع ذلك أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات وهو أول من بلغ الثمن بالأندلس في شراء القينات اشترى جارية ابن عبد الله المتطيب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار فملكها وكانت واحدة القيان في زمانها، وكانت بلدته السهلة أخصب بقعة في الأندلس واتصال عمارتها، وكان يسعى في جمع المال فقد نافس جاره إسماعيل بن عبد الرحمان وتشبيه به ونافسه في خلال البخل وفرط القسوة ابن عذاري المصدر السابق، ج3 ص: 182.

[4]- يوسف أشباخ، المرجع السابق ص: 45.

[5]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 107.

كرسي الخلافة لبني أمية ومما جاء في قول ابن حيان " فقد كان أصحابه حفظوا عنه كلمات في سبيل ذكر السلف الصالح زيادة على مساوئه وذلك أنه نظر شأن التأمير لبني أمية فقال والله لونازعني سلطاني هذا الصديق لقاتلته ولما سلمت له، فكيف أسلم سلطاني لمن يدعى إليه من بني أمية ممن لا يوجب الله طاعتهم عترة مروان خيط باطل، الذين لم يسبق لهم صحبة ولا أدخلهم السلف في شورى الأمامة "[1]. ووصل كلامه فقال: "توارثوا هذه الإمارة مخرقة وضعها قريش للاستكمال[2] الناس والناس لأب وأم والفخار باطل أحقهم بالملك من استقل به، والله ما أولي غير نفسي، ولا أقوم إلا بسلطاني ولو نازعنيه فلان وفلان وذكر السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم – لضربتهم بسيفي ما استمسك بيدي"[3].

وحتى عندما طرحت قضية الخليفة المزعوم "هشام الثاني" المؤيد بالله التي رفع لواءها المعتمد بن عباد وكرسها فعليا في بلاطه وذلك عندما استقدم الشخصية المزعومة "خلف الأنصاري" الذي كان شديد الشبه بالخليفة هشام المؤيد، وإحاطته بهالة التكريم والاحترام، وبادر ابن عباد وكبار وظفي دولته، وسائر الوجهاء والأعيان في إشبيلية لتقديم فروض الخضوع والولاء جاعلين منه خليفة لسائر مسلمي الأندلس، وكانت الخطوة الموالية التي اتبعها ابن عباد هو جمع العرب والصقالبة، فوجه الدعوة إليهم، لتقديم فروض الخضوع والولاء، للخليفة فاستجاب ملوك الطوائف لهذه الدعوة، لاعتبارات مختلفة فمنهم من اعتبرها مناسبة لمواجهة الحلف البربري، الذي أخذت معالم قوته وتكتله تظهر مع الوقت، ومنهم من استحسن ذلك لمسايرة مشاعر الأندلسيين الذين ما زال الحنين يشدهم إلى الخلافة الأموية.

وحيال هذه المستجدات الطارئة على الساحة الأندلسية، لم يشك إسماعيل بن ذي النون أن ما أقدم عليه ابن عباد وأضرا به من ملوك الطوائف لا تعدوا أن تكون حيل ودعوات باطلة، الغرض منها تكريس سلطة الأمويين على المجتمع الأندلسي، الأمر الذي كان إسماعيل يتوجس منه وهو في

---

[1]– عبد الله محمد جمال الدين، من نصوص كتاب المتين للمؤرخ الكبير أبي مروان ابن حيان، مدريد 1977 ص: 192.
[2]– استظهرت ط والصواب لاستعمال أو لاستبعاد هامش رقم 4، نفسه، ص: 192.
[3]– عبد الله محمد جمال الدين، نفسه، ص: 192.

حقيقة الأمر كان يشك في كل عمل يقدم عليه ابن عباد، وظل إسماعيل على موقفه من قضية الخلافة المزعومة إلى آخر وفاته.[1]

وفيما يتعلق بعلاقته مع النصارى، لا تتحدث المصادر إلا عن مصادمات قليلة انتهت بهزيمة جيشه وتوجيه إلى سرقسطة بعد مقتل ابن أخته المنذر في عشرة ذي الحجة سنة 430 هـ /1039 ليخلصها عن الثائر عبد الله بن الحكم.[2]

فتكون مدينة طليطلة محاطة بالمماليك النصرية، فقد عانت مملكة طليطلة من مضايقات النصارى في تلك الربوع[3]. وقد جاء في كتاب المغرب لابن سعيد إشارة إلى هذه المشدات التي انتهت باستحواذ النصارى على الحصن. "وقد قرع أسماعنا أن شر ذمة من بني الأصفر، حضر بهم، ونكس عقابهم عزموا أن يغزوا حوزتكم، فكانوا على أهبة لصدمتهم وأعدو لهم مائة من أذمار الوغا الزبون واتبع ذلك بألفاظ مستغلفة لم يفهمها جند الحصن، وكتبوا إلى المظفر يستفسرونه عنها، وفي أثناء ذلك ضرب النصارى على الحصن وصادفوا الفترة".[4]

وعدا ذلك فإن إسماعيل بن عبد الرحمان بن ذي النون، انتهج سياسة البعد وعدم الاحتكاك مع الأمراء المجاورين، حتى لا يورط نفسه وإمارته في حروب قد تكلفه ضياع ملكه، خاصة وأنه من المعارضين لدعاوي الخلافة التي أعلن عنها ابن عباد، وحلفائه من ملوك الطوائف.

بقي إسماعيل على قناعاته ومواقفه من دعاوى ابن عباد الخلافية، وبات على وصل من أعدائه من دول الطوائف والنصارى في شمال بلاده إلى أن وافته المنية عام 435 هـ / 1043 وولي بعده ابنه يحيى المأمون.[5]

---

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 98-99.

[2]- إبراهيم بن عطية الله بن هلال السلمي، تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي دراسة تاريخية حضارية 29 هـ - 478 ص: 99.

[3] - Encyclopédie Musulmane, Tome II p : 250.

[4]- ابن سعيد الغرناطي، المصدر السابق، ج 2، ص: 15.

[5]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 177.

عهد يحيى المأمون بن ذي النون (435-467هـ/ 1043-1074م)

ولد المأمون في حصن أقليش حين كان والده إسماعيل سيدا على هذا الحصن.[1] وحين صارت مملكة طليطلة إلى والده إسماعيل، انتقل مع عائلته إلى عاصمة مملكتهم، وفيما أمضى طفولته وشبابه، وجريا على عادة الملوك والأمراء فإنه تربى وتعلم على أيدي شيوخ وأدباء خاصين اللغة العربية والفقه والشريعة، ونظم الشعر، كما تلقى الفنون العسكرية، والخطط الحربية والفروسية، وكانت ملامح العبقرية والنبوغ، والتفوق في شؤون الإدارة بادية عليه منذ شبابه، لذلك قدمه والده على سائر إخوته وأعمامه، واختاره لولاية العرش.[2]

ولما صار إليه الملك، تلقب بالمأمون وتكني بأبي الحسن[3]، وحذى حذو أبيه في إدارة شؤون المملكة معتمدا في ذلك على وزيره القدير ابن الحديدي[4]. ورث المأمون عن أبيه إمارة مترامية الأطراف تظم رقعة جغرافية واسعة، تمتد حدودها من قورية غربا إلى قلعة أيوب شرقا وهي حدود قشتالة شمالا إلى أطراف مملكة قرطبة جنوبا، مما جعل هذه المملكة، محل أطماع، وبؤرة للمناوشات والقلاقل.[5]

وقبل التفصيل في هذا الجانب المهم في حياة مملكة طليطلة نشير إلى أن المأمون أدار شؤون بلاده بطاقم وزاري قدير، كان على رأسهم وزير أبيه ابن الحديدي الذي كان يعتمد على رأيه في مهام شؤون الدولة وكان إلى جانب ابن الحديدي ثلاثة وزراء آخرين، أوصى أبو إسماعيل بأن يشركهم في رأيه ويقوي عضده بهم[6]. وكان إلى جانب هؤلاء كوكبة أخرى من الوزراء والكتاب أشار إليه ابن سعيد في هذا النص الذي يقول فيه: "اجتمع في مجلسه – أي المأمون - أبو عبد الله محمد بن

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 126.

[2]- نفسه، ص: 126.

[3]- Rubertair/ Reverter. Op- cit. P : 109.

[4]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 276. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 177.

[5]- أرزقي محمد فراد، المرجع السابق، ص: 92.

[6]- عبد عنان، المرجع السابق، ص: 98.

شرف[1] حسنة القيروان وعبد اله ابن خليفة المصري الحكيم.[2] وأبو الفضل البغدادي[3] الأديب ولم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الجلة منهم أبو عيسى بن لبون وابن سفيان وأبو عامر بن الفرج وأبو المطرف ابن مثنى.[4]

[1]- أبو عبد الله محمد بن شرف: محمد بن سعيد بن أحمد شرف القيرواني أبو عبد الله الجذامي أحد فحول الشعراء الغرب كان أعور، وله تصانيف منها "أبكار الأفكار" وهو كتاب حسن في الأدب يشمل على نظم ونثر كلامه، وكانت بينه وبين ابن رشيف مهاجاة وعداوة جرى الزمان بعاداتها بين المتعاصرين لابن رشيف عدة رسائل يهجوه فيها، وبذكر أغلاطه وقبالجه منها رسالة ساجور الكلب ورسالة" قطع الأنفاس" – قال فيه ابن بسام: "كان أبو عبد الله بن شرف بالقيروان، من فرسان هذا الشأن وأحد من نظر قلائد الأداب وجمع أشتات الصواب وتلاعم بالمنظوم والمرزون تلاعب الرياح بأعطاف الغصون، وبينه وبين ابن رشيق ماج بحر البراعة ودام، ورجع نجم هذه الصناعة واستقام وذهبا من المناقضة مذهبا تنازعاه شرا وطويلا، وخلاه ذكرا محمولا واحتمالاه، إن لم يسمع الله وزرا ثقيلا ابن بسام، المصدر السابق ج 4 ص: 170، الصفدي صلاح الدين، كتاب الوافي بالوفيات، دار النشر فرائز شتيلر 1411/199 ج 3 ص: 97 ج 4 ص: 170

[2]- عبد الله بن خليفة المصري الحكيم، عرف بالمصري لطول إقامته بمصر ذكره ابن بسام "شيخ الفتيان وآبدة الزمان، وخاتمة أصحاب السلطان، وكان رحل إلى مصر واسمه كامل وسماؤه عاطل، فلم يلبث أن طرأ على الأندلس، وقد نشأ خلقا جديدا وجرى إلى النباهة طلقا بعيدا، فتهادته الدول، وانتهت إليه التفاصيل والجمل، وكلما طرأ على ملك فإنما معه ولد، وإليه قصد" توفي 496 هـ 1104م، ابن سعيد المصدر السابق ج1 ص: 81

[3]- أبو الفضل البغدادي: هو محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث ابن سليمان بن الأسود بن سفيان أبو الفضل التميمي بغدادي مولده سنة 388 هـ وهو من أصل بيت علم وأدب، خرج إلى القيروان في أيام المعز بن باديس فدعاه إلى الدولة بني العباس فاستجاب له ثم وقعت الفتن واستولت العرب على البلاد فخرج منها إلى الأندلس، ولقي ملوكها وخطي عندهم بمكانة مرموقة بأدبه وعلمه، واستقر بطليطلة فكانت وفاته بها سنة 454 هـ، ومن شعره هي قصيدة طويلة.

فـلا تعدليني في تسـرع مهجتي	**إلـى حتفها بـين القـنا والفـيالق**
فلست مريحا من قنا الخط راحتي	**ولا معتقا عن محمل السيف عائق**

استجلبه المأمون ابن ذي النون أحسن بطليطلة مثواه وأجرى له ستين مثقالا في الشهر، وكانت وفاته يوم الجمعة سنة 455 هـ ابن بسام المصدر لسان ج 4، ص: 89 الضبي بن عميرة، المصدر السابق، ص: 103

[4]- أبو المطرف ابن مثنى: هو عبد الرحمان بن أحمد بن صبغون استوزه المأمون يحي ابن ذي النون عدة سنين، ورمي إليه بيده، في في تدبير بلده فاستقل بأعباء ما قلد وغار ذكره وأنجد ذكره ابن حيان على أنه كان عفيفا دمثا طاهر الأثواب حلو الشمائل مطلق البش، متحققا بصناعة الكتابة، أتفق وقته في صياغة البيان والبلاغة، وكانت له دراية بأنواع الفنون توفي توفي سنة 458 ابن بسام المصدر السابق ق 3 ج 1 ص: 410.

ولا ريب أن المأمون كان ينتقي من رجالات الأدب والسياسة، من لهم باع في مختلف الفنون وممن ثبتت جدارتهم في إدارة شؤون الدولة، وكان ينفق عليهم مما جعل طليطلة مركز جذب للعديد من الكتاب والعلماء.

لقد واجه المأمون في بداية حكمه العديد من المعضلات السياسية التي طالت مدة حكمه الطويلة، ففضلا عن الحروب والاضطرابات التي واجهها ضد أعدائه، فقد كان المأمون يعاني من خصومة عمه أرقم بن عبد الرحمان[1]، وتفاقم العداوة بينهما، وكان المأمون يخشى منه تأليب عدوه عليه. فلم يدعه عندما فر إلى النصارى وبعث إليهم من يخبرهم بأن أرقم بن عبد الرحمان جاسوس ابتعث به المأمون ليكشف به عن خبايا بلاد النصارى فأمسكو به وقتلوه.

فلما قضى المأمون على عمه الأرقم صفا له الجو، وتخلص بذلك من منافس عنيد، وما لبث بعد ذلك أن تفرغ لمواجهة أعدائه المتربصين بمملكته، وحتى يدرأ عن نفسه هذه الأخطار، اتخذ زمام المبادرة بغزو أراضي أعدائه المجاورين فهو عندما أراد أن يضم بعض الحصون، فكر في أن يحمي ظهره بالإفراج، فتوجه إليهم لطلب مساعدتهم، وراسل أحد ملوكهم ويدعي شنشكند، فبلغه أنه يريد أن يعقد معه لقاء للحديث في أمريهم الطرفين. ولقد لخص لنا كل من صاحب سير إعلام النبلاء، وأحمد بن الوهاب النويري، حادثة اللقاء وما أسفر عنها. "وكان المأمون أراد أن يستنجد بالفرنج على تملك مدائن الأندلس، فكاتب طاغيتهم، أن تعالى في مائة فارس، والملتقى في مكان كذا فسار في مائتين، وأقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كمينا له، وقال: إذا رأيتمونا قد جمعنا، فأحيطوا بنا فلما اجتمع الملكان، أحاط بهم الجيش، فندم المأمون، وصار فقال الفرجي، يا يحي وحق الإنجيل كنت

---

[1]– ارقم بن عبد الرحمان: الأمير أرقم بن عبد الرحمان بن إسماعيل ابن عبد الرحمان بن اسماعيل بن عامر بن مطرف ابن موسى بن ذي النون يعرف بابن المضراس، وأخوه إسماعيل هو أول من ملك طليطلة من بني ذي النون كان المأمون ابن أخيه ينفيه ويبغضه ويحسده على أدبه، ففر عنه إلى الثغر الأعلى للملكته ومن شعره قوله:

إذا لم يكن لي جانب في ذراكم فما العذر لي ألا يكون التجنب

وكان قد قرأ قرطبة على الرمادي الشاعر وآل أمره إن حصل عند النصارى فدس إليهم ابن أخيه المأمون من نصحهم في شأنه بأنه جاسوس من قبل ابن أخيه ليكتشف على بلادهم فقتلوه فقال المأمون: أحمد الله هذه نعم من جهتين، فقد عدم ووجوب ثأر نطلب به، ابن سعيد الغرناطي، المصدر السابق، ج 2، ص: 14

أظنك عاقلا، وأنت أحمق جئت إلي وسلمت مهجتك بلا عهد ولا عقد، فلا نجوت مني حتى تعطيني ما أطلب قال: فاقتصد، فسمى له حصونا، وقرر عليه مالا في كل سنة، ورجع ذليلا مخذولا، وذلك بما قدمت يداه".[1]

ويضيف النويري على أن المأمون اتفق مع ششكند على أن يدفع له مبلغا ماليا سنويا.[2] ويستخلص من النص أعلاه، درجة الاستخفاف، والاستهجان التي قوبل بها ملوك الطوائف من قبل ملوك النصارى، فقد كان هؤلاء النصارى يعرفون أن تقرب أمراء الطوائف منهم لا يخرج عن طلب المساعدة، لمواجهة بعضهم البعض، وكان هذا يحط من شأنهم عند أعدائهم، ويسهل عليهم افتكاك الأراضي منهم، وكان يحيى المأمون صورة حية، لهذا النوع من التعامل مع ملوك النصارى، وأمراء الطوائف.

ويظهر هذا الأمر في الصراع المحتدم بين المأمون والأمير سليمان بن محمد بن هود حاكم سرقسطة حيث كان كل واحد منهم يطمع في أراضي الآخر.[3] وكانت هذه الأحداث هي أبرز ما ميز عهد المأمون، فقد امتدت حربه ضد ابن هود من سنة 435هـ 1043م إلى سنة 438 هـ/ 1043-1046[4] وكانت الأسباب التي دفعتها إلى الحرب هي تنازعهما على الحدود، متناسيان أن عدوا كاسرا قد فغر فاه لالتهامهما معا، بل لالتهام كل الجزيرة، وكانت النقطة التي أثارت النزاع بينهما هي مدينة وادي الحجارة حيث كان أهلها منقسمين إلى قسمين، قسم منهم يوالي ابن هود وآخر يوالي المأمون... وكان هذا الانقسام كثيرا ما يؤدي إلى القلاقل والاضطرابات، وحسما لهذه الخلافات واجه سليمان بن هود حملة عسكرية بقيادة ابنه أحمد، الذي استطاع أن يبسط سيطرته على مدينة وادي الحجارة Guadala Gara التي كان يظن المأمون أنها تابعة له[5]. فلما بلغ ذلك يحيى بن ذي

---

[1]- الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط محمد، نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، 1417-1996 ج18، ص: 221، النويري المصدر السابق، ص: 147.

[2]- النويري، المصدر السابق ص: 147.

[3]- إبراهيم بن عطية بن هلال السلمي، المرجع السابق، ص: 101.

[4]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 178

[5]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 277-278 . RUBARTAYR- REVERTES OP- CIT/ 110

النون، قامت قيامته، وهب نحو المدينة فجرت بين الفريقين حروب ووقائع، كانت الغلبة فيها لجيش أحمد بن هود، فاضطر المأمون للاعتصام بمدينة طلبيرة[1]، ولاحقه أحمد وشدد عليه الحصار، وكتب إلى أبيه يعلمه بما تهيأ له، وما زال على حصاره إلى أن أمره أبوه بالإقلاع وفك الحصار.

انزعج المأمون لهذه الهزيمة، إلى أن دفعته الرغبة في الانتقام، وإثارة الفتنة بمطالبته بمدينة وادي الحجارة، ودفعه ذلك بالاستعانة بالقشتاليين[2] فعرض على ملكهم فرديناند الأول دفع الضرائب وإقرار سيادته على أرضه مقابل مساعدة عسكرية يقدمها له.

لقد كان هذا عرضا مغريا من قبل يحيى المأمون، لأن فردیناد سيحقق هدفين اثنين من هذه الصفقة منهما حصوله على مبالغ مالية سنويا، والثانية هي إضعاف الطرفين عسكريا مما يجعل الإمارتين في متناوله حالة الهجوم عليها وهو ما حصل بالفعل مع مملكة طليطلة كما سيأتي.

لم ينتظر فرديناند طويلا، فقد جهز كتيبة من جيشه زحفت على أراضي إمارة سرقسطة وعاثت فيها فسادا، وسلبا ونهبا دون أن يجرئ ابن هود على مجابهتهم، وقد مكثوا بأرض سرقسطة مدة شهرين يقول ابن عذاري: "... وتركهم يجولون في الأرض فلا أحد يصدهم عن ذلك وكان أوان الحصاد فنزل المشركون بساحتها نزول إقامة وحشروا لها علوجهم للحصاد والنقلان مدة من شهرين كاملين حتى استوعبوا جميع ما فيها حصادا ودرسا ونقلانا إلى بلادهم والمسلمون ينظرون إليهم لا يملكون دفاعا ثم انصرف العدو عنهم إلى أرضه بعدما قتل وأسر ودمر فقوي طمعه فيهم".[3]

لقد درى يحيى المأمون فضيع جنايته حيال سليمان بن هود، بعد أن نكل ببلاده بالاستعانة بالنصارى، وحتى يحمي نفسه من تحالف محتمل سارع إلى كسب المعتضد إلى صفه، وذلك في الدخول في دعوته الهشامية التي كان والده قد أنكرها وظل طوال حياته متبرما من ابن عباد نفسه،

[1]- طليرة: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر تاجه، بضم الجيم وكانت حاجزا بين المسلمين ولافرنج إلى أن استولى عليها فهي في أيديهم إلى الآن وكانت قد استولى إليها الخراب ولطبيرة حصون ونواحي عدة، يقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 98.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 278.

[3]- نفسه، ج3، ص: 278.

حيث كان لا يثق في جميع تعاملاته، لقد دعى يحيى المأمون رعيته إلى الدخول فيها، كل ذلك طمعا في نصرته على سليمان بن هود الذي كان يشكل خطرا على حدوده الشمالية، فوعده ابن عباد بالوقوف إلى جانبه، وحتى يقنع ابن عباد بهذا الاعتراف بالدعوة الهشامية، فقد قام بعقد البيعة على نفسه وأجناده، وأهل عمله، وأعلن عن ذلك بالدعاء على المنابر للخليفة هشام المزعوم، بقول ابن عذاري معلقا على هذا الموقف الذي انتحله المأمون بقوله: "فذهب به الطمع الخائب كل مذهب وغره الأمل واتبع الباطل واشتغل ابن عباد عنه بحرب ابن الأفطس ولطلب لبلاده وزلت قدم يحيى بن ذي النون في ذلك ولم يبلغ أمله".[1]

ونظرا لما خلفته هذه الحرب من أضرار على مملكة سرقسطة قام سليمان بن هود بإشهار نفس السلاح الذي استله عليه يحيى المأمون وراح هو الآخر يعرض أمواله وتنازلته على القشتاليين للوقوف إلى جانبه في محاربة المأمون، وكان له ما أراد، فخرج النصارى بجيوش ضخمة نحو ثغر طليطلة وشنوا هجمات متتابعة، كلفت طليطلة خسائر في الأرواح والأموال، مما اضطر أهالي الضواحي والبوادي إلى الانتقال إلى مدينة طليطلة، ثم رد يحيى المأمون عن ذلك بتحريض غريمه ملك نافار ضد إمارة بني هود فهاجم أراضيها الواقعة بين طليطلة ووشقة واحتل خلال هذه الحملة قلعة قلهرة سنة 437 هـ 1045م.[2]

لقد أدت هذه السياسة من الطرفين- والتي تنم عن ضعف شخصية وسفاهة عقلية – إلى تمكين وتهيئة الأجواء إلى أعدائهم كي يعبثوا بأراضيهم ورعيتهم ومهدت الأجواء لاحتلال أراضيهم وطردهم منها إلى الأبد.

وأمام هذه الحرب المدمرة، سئم أهل طليطلة من ويلاتها، وأدركوا ما ستؤول إليه بلادهم بعد أن انهارت الخطوط الدفاعية لكلا الإمارتين، فشكلوا وفدا يضم أعيانهم وفقهاءهم توجه إلى سرقسطة وقابل الأمير سليمان بن هود، فناشدوه السلم، وحذروه من العواقب، وما سيتهيأ للنصارى من جراء

[1]- ابن عذاري المصدر السابق، ج3، ص: 279

[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 178. عبد الله عنان المصدر السابق، ص: 99

هذا الصراع[1] فوعدهم الأمير بالسعي لوقف القتال، ولما عاد وفد طليطلة إلى بلادهم قابلوا يحيى المأمون، وأطلعوه برغبة ابن هود في الصلح وأقنعوه بضرورة العمل من جانبه على حقن دماء المسلمين، ونبذ التعاون مع النصارى، وعلى عجل قام يحيى بن ذي النون بإعادة الجنود القشتاليين إلى بلادهم، لكن سليمان بن هود لم يلبث أن نكث العهد وعاد إلى خطته القديمة، وذلك حين استغل خروج عبد الرحمان، بن اسماعيل بن ذي النون ضد أخيه يحيى المأمون، فخرج بقواته مع سرية من حلفائه النصارى وهاجم مدينة سالم، ودخل مع جنودها في حرب طاحنه قتل فيها معظم المدافعين عنها، ثم استولى على سائر الحصون التي كان قد انتزعها منه المأمون وكان إلى جانبه في هذه الحرب أخو المأمون الثائر عليه يدله على عوراته وثغراته. واستشاط المأمون غضبا لخيانة العهد من ابن هود، وأسرع بقواته إلى مدينة سالم للدفاع عنها، فانتهز النصارى هذه الفرصة، فعاثوا في أراضي طليطلة مرة أخرى.

فلما رأى أهل طليطلة ذلك أرسلوا إلى فرديناند المظاهر لابن هود ليعقدوا مع صلحا مقابل مال يؤدونه إليه، فقال لهم لا أجيبكم إلى سلم ولا أعفيكم من حرب حتى تفعلوا كذا وكذا وأشترط عليهم شروطا لم يقدروا على تلبيتها، وقالوا له لو كانت لنا هذه الأموال لأنفقناها على البرابرة، واستقدمناهم للدفاع عنا، وكشفنا بهم ما بنا من ضر، فرد عليهم فرديناند بما يلي: وهي أقوال تتجلى فيها، مشروع السياسة الإسبانية النصرانية أصدق تمثيل على حد قول الأستاذ عبد الله عنان.[2] "أما قولكم لا تقدروا على هذه الأموال فذلك محال فلو كشف سقوف بيوتكم لبرق ذهبا لكثرته، وأما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكترون به علينا وتهددونا به ولا تقدرون عليه مع عدواتهم لكم ونحن قد مهدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم فإنما تطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضى.

[1]- ابن عذاري، المصر السابق، ج 3، ص: 28.

[2]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 100.

وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خيركم في سكناكم معنا، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم".[1] وبالرغم مما علمه هذين الأميرين من نوايا أعدائهم المبيتة ضدهم، إلا أنهما استمر في حربهما العدائية ضاربين عرض الحائط إرشادات ونداءات كبرائهم وعقلائهم، فضلوا بذلك أنموذجا صارخا لتلك الحروب والمنافسات الانتحارية المدمرة التي انحدر إليها ملوك الطوائف.[2]

ظلت الحروب والنزاعات متواصلة بين الإمارتين – حتى وفاة سليمان بن هود سنة 438 هـ/ 1046م[3].

وبدل أن يشتغل يحيى المأمون بشؤونه الداخلية وتأمين حدوده مع النصارى سعى إلى فتح باب آخر مع جيرانه في الجنوب، وذلك حين اشتد النزاع بين بني برزال أصحاب قرمونة والمعتضد بن عباد، فلما أحس العز بن إسحاق بعدم جدوى مجابهة العباديين، خاطب صاحب طليطلة مهيبا به أن يقبل بأن يتنازل له المستظهر عن قرمونة وضواحيها مقابل أن يتنازل له من بلاده عوضا عنها، وذلك نكاية في عدوه المعتضد الذي ظل فاغرا فاه للاستيلاء على بلاده حيث يقول ابن الخطيب: "ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور والمعتضد بن عباد، إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة، فكتب رئيسهم العز بن إسحاق بعد هلاك إسحاق في خبر طويل إلى ابن ذي النون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد على أن يعطيه المأمون بن ذي النون عوضا في بلاده الجوفية، فاتفقا على ذلك وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور وقبض رجال ابن ذي النون ما في المدينة".[4] استجاب ابن ذي النون لهذا العرض المغري، فبارح إسحاق قرمونة متوجها إلى حصن المدور وهو حصن يقع شمال شرق قرطبة، ونزل رجال بن ذي النون

---

[1]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 282.
[2]– عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 100.
[3]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج3 ص: 283.
[4]– ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 237.

قرمونة التي تم إخلاؤها لهم[1]. فلما علم المعتضد بن عباد بهذه الصفقة المبرمة بين بني برزال وبني ذي النون، كتب سرا إلى المأمون، وكان يعلم أن يحيى يطمع في قرطبة[2] يقول له: "إن قرمونة قريبة من بلادي وبعيدة من نظرك وبلادك فأصرفها إلي واجعل يدي مع يدك على تملك قرطبة حتى أصير هنالك، فاستجاب ابن ذي النون لمقترح ابن عباد، وأخلى له قرمونة وحل محل ابن عباد وأمر رجاله بالتمركز فيها ولم يف ابن عباد لابن ذي النون بشيء مما ارتبط به".[3]

وكان هذا الفعل الذي أقدم عليه المأمون مستغرب للغاية، حيث كان يعلم مدى طموح ابن عباد في الاستحواذ على قرطبة، فهي من حيث الأهمية الاستراتيجية وحتى التاريخية أولى وأجدر من غيرها، فقد كانت مركز الإدارة والحكم في العهود الثلاث التي عرفتها الأندلس 'الولاية-الإمارة – الخلافة)، بالإضافة إلى القوة العسكرية التي كان لا يزال بني جهور يتمتعون بها.

ورغم هذا وذاك إلا المأمون ركب رأسه، وتغاضى عن كل هذه الاعتبارات وربما كان طموحه للظفر بقرطبة قبل هذا التاريخ.[4]

وقبل أن يوجه المأمون اهتمامه بقرطبة، توجه نحو بلنسية، التي كانت بيد صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وهو حفيد المنصور بن أبي عامر، وكان قد ولي حكمها على إثر وفاة أبيه عبد العزيز في آخر سنة 452 هـ/ 1060م وكان صهرا للمأمون بن ذي النون، تزوج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول، فأساء عشرتها لما كان عليه من ذميم الصفات، والانهماك في الخلاعة والملاذات.

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 269. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 238.

HADY ROGER IDRISS, les Birzalides de carmona- ALANDALUS, REVISTA de LAS ESCUEAS de ESTUDIOS ARABES de Madrid y Granada. Madrid Grenada 1965 p: 58

[2]- محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقية 64/897هـ- 683/ 1492م مؤسسة الرسالة 1406هـ/1986م، ص: 232.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 237.

[4] - Encyclopedie de l’ISLAM, Op- cit, page 250.

وكان ذلك يثير أحقاد المأمون عليه، وظل يتربص به إلى أن طلب منه ذات مرة مساعدة عسكرية فاعتذر له عن تقديمها لخوفه من الفتيان العامريين حكام قسطلونة وشاطبة، ومربيطر الذين كانوا يتربصون به الدوائر، فلما اجتمعت لديه أسباب الاعتداء عليه، استعان بفرديناند الأول.

وكان هذا دأب المأمون، عندما يعزم على الفتك بجيرانه من المسلمين يضع يده في يد النصارى ويجرهم إلى أراضي المسلمين، وبهذه الكيفية استطاع أن يدخل بلسية ويلقي القبض على صهره عبد المالك واقتياده أسيرا إلى قلعة إقليش[1] سنة 457 هـ/ 1065 م[2].

وفي هذه السنة نفسها توفي فرناندو ملك قشتالة، واندلعت الحرب بين أولاده الثلاث سانشو ملك قشتالة، وألفونسو ملك ليون وغرسية ملك جليقية[3]. وانتهت المرحلة الأولى من هذه الحرب سنة 462 هـ / 1071م بانتصار سانشو، ولجأ غرسية إلى الاجتماع بابن عباد ملك إشبيلية، واحتمى ألفونسو بالمأمون بن ذي النون، ومكث بطليطلة كلاجئ سياسي زهاء تسعة أشهر محاطا بكامل الرعاية والتكريم، وظل في بلاط طليطلة حتى وفاة أخوه سانشو، لم يضع ألفونسو هذه المدة التي قضاها عند المأمون وإنما استغلها في التعرف على نقاط الضعف لدى القائمين على شؤون الدول، كما تعرف على مداخل المدينة ومخارجها واكتشاف ما أمكنه من عوراتها.[4]

لقد كانت تلك المدة كافية بأن يأخذ ألفونسو جميع أسرار هذه الإمارة وجعل نصب عينه مشروع احتلال هذه المدينة بعدما تبين له أنها عديمة الخطوط الدفاعية، وأن حكماهما منغمسون حتى أذقانهم في حمأة اللهو والملذات.

---

[1]- أقليش: من أعمال شنت برية، وهي من أعمال طليطلة، ينسب إليها أبو العباس أحمد بن القاسم المقرئ الإقليشي، وأبو العباس أحمد بن معروف بن عيسى بن وكيل التجيبي الأقليشي الأندلسي، وكان من أهل اللغة والاحاد والعلوم الشرعية. ياقوت الحموي، معجم الأندلس والمغرب، ص: 39.

[2]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 252-253.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق ج3، ص: 232 ابن عذاري، نفسه، ج3، ص: 232.

[4]- ابن عذاري، نفسه، ج3، ص: 232. محمد عبده حتاملة، المرجع السابق، ص: 483.

وتجلى له بصيص الأمل في تحقيق مآربه بمقتل أخيه سانشو على يد أحد فرسانه ولاذ بالفرار نحو قشتالة واستولى على العرش وذلك سنة 465 هـ / 1072م[1] ويواصل ابن الكردبوس قوله في أحلام وآمال سانشو: "واستفحل أمره واستحكم في المسلمين طمعه، وصح في قياسة الفاسد أن نستخلص جزيرة الأندلس لنفسه".[2]

لقد كانت هذه الخلافات بين أعدائهم من ملوك النصارى فرصة أمراء الطوائف من المسلمين، وهي فرصة أعطاهم الله إياها.

ومن الأهمية بمكان أن نشير في هذا البحث إلى الأطماع التي راودت المأمون وسعى إلى تحقيقها، فهو لا يكاد يغمد سيفه من جبهة إلا ليستله إلى أخرى.

فكانت وجهته الحربية هذه المرة مدينة قرطبة التي كان المعتضد بن عباد قد فتح شهيته إليها، ووعده بمعاضدته في الاستيلاء عليها ولكن سرعان ما تخلى عن وعده.

وعلى أية حال فإن المأمون قد توجه بجيشه نحو قرطبة، ولما علم عبد الملك بن جهور بمقدمة استغاث بالمعتمد بن عباد، فبعث إليه بالمدد وهي عبارة عن فرقة من الفرسان قوامها ألف وثلاثمائة فارس تحت إمرة بقائديه خلف بن نجاح، ومحمد بن مرتين، واستطاع أن يدرد قوات المأمون على أعقابها، إلا أن قوات المعتمد استولت على المدينة بطريقة غادرة، وفقا لخطة أعدها المعتمد وانتهى ذلك بالقضاء على دولة عباد بن محمد عبد بإدارة شؤون قرطبة.[3]

وقد علق ابن بسام بأسلوبه المعهود على النهاية المؤلمة لبني جهور حين استعانوا ببني عباد، وهم لا يرون ما خبأه لهم هؤلاء من غدر وخيانة: "... وعبد الملك متأهب لتشييعهم، عازم على البكور إلى دوريهم، وشرهم على حسن صنيعهم فلم يرعه إلا إحداقهم بقصره وارتفاع أصواتهم بالبراء من أمره وإصمات الأفواه عن ذكره، وقد تمخضت له ليلته بيوم عقيم، واختزله ناجد صبحها عن ليل يهيم، ومشى من أنصاره هنالك بين أسد شتيم، وأسود مسمون:

---

[1]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 77.

[2]- نفسه، ص: 76-77.

[3]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 260.

وَمَنْ يَجْعَلْ الضُرْغَام لِلصَيدِ بَازَهُ تَصِيدُهُ الضُرْغَامُ فِي مَن تَصَيدَا[1]

وأمام انتصار ابن عباد ودخوله قرطبة، ظل المأمون يقارع قرطبة ولم يفقد الأمل في احتلالها، بمعية ألفونسو السادس ملك ليون: إلى أن اتصل به أحد قادة الحصون وهو حكم بن عكاشة، وأبلغه أنه باستطاعته إزالة بني عباد عن قرطبة إن هو رغب في ذلك.

أظهر المأمون الحاقد على بني عباد لغدرهم واستيلائهم على مدينة قرمونة، ونجاحهم في السيطرة على مدينة قرطبة، رغبته الجامحة في الإطاحة ببني عباد والاستيلاء على قرطبة نكاية بهم وانتقاما.[2]

وكان المأمون واثقا بخصال المغامرة لدى ابن عكاشة، حيث كان ميالا لسفك الدماء، وعلى استعداد دائم لتجاوز كل مبادئ الأخلاق والقواعد الإنسانية للوصول إلى مبتغاه، لقد كانت هذه الخصال كافية لأن يجعل المأمون منه مطية للوصول إلى أهدافه.[3]

وبعد الاتفاق بين المأمون وابن عكاشة، شرع هذا الأخير في تدبير المؤامرة فحشد إلى فرقته من استطاع من المغامرين الأشاوس، والليلة التي اتفق فيها دخل المدينة على حين غفلة من جنود ابن عباد، وكان قد أعانه جمع من شيعته فتحوا له الأبواب، ثم توجهوا خلسة إلى دار ابن جهور أين يقيم سراج الدولة ابن عباد، فالتحم الفريقان في باحة القصر، ودافع ابن عباد عن نفسه إلى أن قتل ثم توجه حكم بن عكاشة إلى بيت ابن مرتين، وهو عاكف على شرابه ولهوه، ولما سمع جلبتهم فر واختفى، وعثر عليه بعد ثلاثة أيام، ثم اقتيد إلى الحصون وقتل هناك وبعد أن تمت السيطرة على المدينة، أعلن حكم بن عكاشة، ولاءه للمأمون بن ذي النون، ودعى الناس إلى بيعته وطاعته، وانظم إليه، الأغفال والدهماء من الناس.[4]

---

[1]- ابن بسام، الذخيرة، ق1، ج1، ص: 610.

[2]- إبراهيم بن عطية الله بن هلال السلمي، ص: 107.

[3]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 203.

[4]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 158. القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص: 250.

وحتى يعجل بنقل السيادة إلى بني ذي النون، بعث ابن عكاشة برأس سراج الدولة ابن عباد إلى المأمون وكان يومها في بلسنية وقدم مسرعا، ودخل قرطبة في موكب عظيم، وكان وصوله يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأخرى سنة 467 هـ / 1075، ولم تمض ستة أشهر على إقامته بقرطبة حتى توفي في السنة نفسها، واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن بها وتولي الحكم في قرطبة حكم بن عكاشة، كنائب عن القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون بن ذي النون، وهو حفيد المأمون.[1]

لقد كان لموت المأمون انعكاسات خطيرة على مسرح أحداث قرطبة، انبعثت شرارتها من إشبيلية أي كان المعتمد يتابع ما كان يجري فيها عن كثب ولاشتك أن صدره ظل يعتلج ألما لما حل ولده سراج الدولة، والانتقام له في الوقت المناسب، وكان أن ساعده على ذلك عندما دعاه إلى القدوم إلى قرطبة جماعة من الساخطين على حكم بن عكاشة، فزحف المعتمد على قرطبة، وأدرك ابن عكاشة أن لا طاقة له، أمام جحافل ابن عباد، فلاذ بالفرار، ودخل جند بن عباد المدينة دون مقاومة، فبعث المعتمد من تقفى أثره من الفرسان فطاردته إلى أن أمسكت به وقتلته، وجيء بجثته وصلب مع كلب[2]، إمعانا في النكاية به وبأنصاره، وفر ولده حريز بن عكاشة إلى طليطلة، فولاه يحيى بن ذي النون حاكما لقلعة رباح.[3]

وبوفاة المأمون بن ذي النون أسدل الستار عن حقبة هامة من تاريخ ملوك الطوائف حقبة امتلأت سماؤها ضجيجا وحركة كان المأمون أحد صانعيها، وكان بذلك أعظم ملوك الطوائف وأطوالهم عهدا إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاما، دأب في توسيع مملكته إلى أن صارت مترامية الأطراف تمتد شرقا إلى أقاصي بلنسية، وازدهرت وعمها الرخاء، وجمع المأمون ثروات طائلة، وشيد بعاصمة قصورا باذخة إشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها.[4]

---

[1]- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص: 177.

[2]- نفسه، ص: 177.

[3]- ابن الآبار، نفسه ج2، ص: 177. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 104.

[4]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 104.

وبالرغم ما ذكرناه من استبساله في الحروب والدخول في أتونها، إلا أنه كان مع ذلك رجل سمت همته إلى العناية برعيته حيث أقام العدل[1]، واهتم بالإدارة ونظمها وقسم المهام والوظائف وجلب كبار الرجال والعلماء واستخدمهم لديه، ونظرا لما كان يتمتع بلاط المأمون من سمعة طيبة، وبحسب رعاية واحتفاء للعلماء فقد قصد طليطلة في عهده العديد من الأعلام كأبي عيسى بن ليون، وابن سفيان، وأبو عامر بن الفرج، والحاج ابن محقور، وأبو المطرف بن مثنى وابن الحديدي، وقد أشرنا إلى ذلك في غضون هذا البحث وكانت هذه الرعاية ولاشك نابعة من التقاليد التي سنها حكام طليطلة قبله من أبائه وأجداده.

إمارة طليطلة في عهد يحيى القادر بالله 467- 478هـ/ 1074-1085م

توفي المأمون بن ذي النون – 467 هـ /1074 وخلفه حفيده يحي بن ذي النون الملقب بالقادر لكون المأمون لم يكن له ولد، فقد توفي أولاده قبل وفاته ومن هؤلاء هشام[2] الذي قضى قبل وفاة والده[3]، إلا أن الحاكم الجديد لم يكن على شاكلة جده في الحزم، والروية، ولم يذكر إلا بصفات الضعف والهوان وقلة المعرفة، وسوء التدبير، وضعف الشخصية[4]، وصفه ابن الكردبوس بقوله: "وكان ضعيف المنة قليل المعرفة، ربي في أحجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات، فملك أمره العبيد، وحكم عليه كل خصي ومولود، كل يدبر ملكه على إرادته، وينفر بوزارته، فطمع في بلاده الرؤساء واحتقره القرباء والغرباء".[5]

---

[1]- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص: 277.

[2]- تجمع الكتب العربية من أن الذي خلف المأمون هو حفيده يحي الملقب بالقادر، أما الرواية الإسبانية فتقول بأن الذي خلفه هو ولده هشام القادر وهذا غير صحيح إذ يفهم من كلام ابن خلدون وابن الخطيب أن هشاما ولد المأمون توفي قبل أبيه، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد 1965-1966 هامش رقم 4 ص: 78. عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 283.

[3]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 179.

[4]- ابن بسام، المصدر السابق، ق 4، ج1، ص: 151.

[5]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 79.

وكان من سذاجة عقله، وسوء تدبيره، وقوعه في شباك خاصته الذين كانوا يسعون إليه في حق ابن الحديدي، ويحرضونه عليه، ويقنعون بأنه لا يمكن أن يدير حكم البلاد بصورة حقيقية إلا بالتخلص من ابن الحديدي، وعضد هؤلاء تلك الزمرة التي كان ابن الحديدي قد أوعز إلى المأمون بسجنهم، فرأى القادر عندما استقر لديه ضرورة التخلص من ابن الحديدي، أن أطلق سراحهم واتفق معهم على اغتياله داخل قصره.[1]

لقد احتلت هذه الجريمة بأبعادها وانعكاساتها على الوضع الداخلي مرحلة خطيرة من تاريخ هذه الإمارة، فعلى الصعيد الداخلي فقد انقسم السكان إلى حزبين متعاديين، كانا مرشحين أن يدخلا البلاد في حرب أهلية مدمرة، وكان ابن الحديدي بما أوتي من حسن التدبير في نظر العلماء مغلاقا للأزمات والاضطرابات ومفتاحا لكل بادرة للهدوء والسلام في البلاد..

وبالفعل فقد انفتحت بعد مقتله أبواب للدسائس والمؤامرات التي كان يسعى إلى تحقيقها مجموعة من الأرستقراطين، لتمرير مشارعهم، وصيانة مصالحهم الشخصية.[2]

وفي حقيقة الأمر فإن الدولة الذنونية، فقدت بمقتل ابن الحديدي رجلا من أفضل رجالات السياسة في طليطلة، ورأسا من رؤوسها المدبرة في الذياد عن حياضها وقد أشرت إلى أن المأمون جد القادر، كان قد وضع تدبير شؤون البلاد في يد ابن الحديدي لما كان يلمسه فيه من عبقرية ومهارة في حل المعضلات، فأوكل إليه العديد من المهام: "... وبقية الإصدار والإيراد، والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد، والرأي المشورة، والصغيرة والكبيرة، إلى الفقيه أبي بكر بن الحديدي".[3] ليس هذا فحسب بل أقدم المأمون قبل وفاته بتوثيق هذه الصلة، والإلحاح على حفيده بضرورة الاعتماد على ابن الحديدي وأن يشد عليه بكلتا يديه، ولا يقطع أمرا صغيرا أو كبيرا إلا بمشورته، كما أخذ موثقا على ابن الحديدي على شد أزر حفيده، وألا يتوان في معاضدته والوقوف إلى جانبه[4] وعليه فإن

---

[1]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 107.

Encyclopedie de l’Islam op. cit Tome II page 250

[2]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 277 عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 107.

[3]- ابن بسام، الذخيرة، ق4، ج1، ص: 151.

[4]- نفسه، ق4، ج1، ص: 151.

غياب هذا الوزير المفاجئ وقد حير الأمور العامة للإمارة في يد ملك ضعيف، سفيه الرأي، لا يحسن إدارة البلاد، يخصي قدر رجالاته من عظماء الدولة الذين كان لهم قصب السبق في بناء صرح هذه الإمارة.

وفي الوقت نفسه فسح المجال لتلك الطبقة من الأرستقراطيين تعبث لمصالح الإمارة، وفسح المجال بعد ذلك لظهور الخلافات الداخلية التي احتدمت مباشرة بعد مقتل ابن الحديدي الأمر الذي حرك أطماع الدويلات المجاورة، التي كانت في انتظار الفرص للانقضاء على حدود طليطلة واقتطاع أجزاء رفعتها.[1]

وكانت أولى نتائج هذه السياسية الخرقاء، التي انتهجها القادر بن ذي النون، هي انفصال بلنسية عن المملكة، وذلك حين أعلن أبو بكر بن عبد العزيز[2] استقلاله بنفسه وحتى يعزز ابن هود الانفصال، خطب ابن هود ابنة أبي بكر، ولم يكن يرمي أمير سرقسطة في حقيقة الأمر، إلا ضمها حين يكون ذلك ممكنا، إلا أنه لم يتسر له ذلك فقد ظل أبو بكر عبد العزيز حاكما عليها إلى حين وفاته 478هـ/1085م.[3]

---

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع نفسه، ص: 277.

[2]- أبو بكر بن عبد العزيز: هو أبو بكر بن محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبي، كان أبوه أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز المشهور بابن درويش وزيرا للأمير عبد العزيز العامري صاحب بلنسية وزيرا لابنه من بعده عبد الملك المظفر بن عبد العزيز، وبعد وفاة هذا الوزير سنة 456 هـ/ خلفه في الوزارة ابنه أبو بكر عبد العزيز المذكور هنا في المتن، فلم يمكث في منصبه طويلا حتى سقطت بلنسية في يد المأمون بن ذي النون الذي أقره في منصبه ثم عينه نائبا عنه في حكم المدينة بعد أن عزل أميرها عبد الملك المظفر ونفاه إلى إحدى قلاعه في كوكنة، ويفهم من هذا النص أن هذا الوزير استمر في حكم بلنسية باسم بني ذي النون إلى أن مات المأمون سنة 467 هـ /1075م فانتهز فرصة ضعف القادر واضطراب الأوضاع في طليطلة، وأعلن عن انفصاله ببلسنية، وفي نفس الوقت تحالف مع ابن هود أمير سرقسطة، وزوج ابنته على سبيل المعاضدة والتأييد، وطمعا في ضم بلنسية إلى مملكته حين يكون ذلك ممكنا، وظل هذا الوزير على رأس مملكة بلنسية إلى حين وفاته سنة 478 هـ / 1085، ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص: 266.

[3] - Ballestoros Antonia, Historia de Espana y Su influencia en la Historia Universal Becelone 1934-1950 Tome II p : 324

نجح ابن هود في عزل بلنسية عن مملكة طليطلة، وضمن ذلك بتوقيع عقد تحالف معه، إضافة إلى ما سعى إليه من مصاهرته في توثيق هذه الرابطة.[1]

وفي هذه الأثناء كان القادر يمر بفترة عصيبة، واضطرابات في جميع أجهزة الدولة إلى جانب الاضطرابات الداخلية التي اقتلعها أعداء بن الحديد وإثارة القلاقل في وجه يحي القادر بغرض الإطاحة بحكمه، ومما زاد في تفاقم الأوضاع استعانة ابن هود بالقوات الإسبانية لينتزع منه مدينة شنترية، أما مصير مدينة قونقة[2]، فقد اشتد عليها الحصار حتى كاد أهلها أن يهلكوا عطشا وكادت أن تسقط في يد سانشو راميرز ملك أراجون لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال.[3]

وعبثا راح القادر بن ذي النون يطلب الفريقين لمناجزة وذلك حين بعث إليهم بشير الفتى على رأس كتيبة وأمره بطرد الغزاة عسى أن يحافظ بذلك على ماء الوجه، إلا أن ذلك لم يفد في طائل إذ ما لبث أن انسحب الفريقان، بنو هود من الآرغونيين، يحملون وافر الغنائم واستغنوا عن المواجهة، التي لا تهدروا منهم إلا الوقت.[4]

أدرك سكان طليطلة أن مصيرهم ماض إلى المجهول، وأن أوضاعهم تزداد سوء يوما بعد يوم، فانتابت أعيانهم من الوطنين، ومن آلمهم اغتيال الحديدي. وزاد في الأمر سوء حين قامت في طليطلة في إحدى الليالي، ضجة وصيحة، على حد قول ابن الكرديوس، حيث قام العامة بقتل الفقيه أبي بكر بن الحديدي، ونهبت ديار الأعيان، فكتب القادر إلى ألفونسو السادس. ولما كان هذا الأخير يدرك أن طليطلة تصعد أنفسها، وأنها في النزع الأخير من حياتها، أراد أن يأتي على ما تبقى في خزينة القادر من أموال، لذلك وافق على تقديم المساعدة مقابل أموال ضخمة يؤديها إليه، وكان ألفونسو قد أبلغه إن هو امتنع عن دفع المبلغ فسوف يتركه عرضة لأعدائه، وكان ألفونسو أكثر ما يتمناه هو

---

[1]- ابن الكرديوس، المصدر السابق، ص: 81، عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 279.

[2]- قونية: وصحتها كوتكه Cuenca وكانت من أمنع الحصون في منطقة الثغر الأوسط، وهي من أعمال سنتبرية ينسب إليها إبراهيم بن محمد بن خيرة. ابن الكردبوس، المصدر السابق، هامش، رقم 1، ص: 81، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 117.

[3]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 108.

[4]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 80. عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق ص: 280.

أن تقع الفتنة بين المسلمين يقول ابن الكردبوس: "وكان أسر شيء عنه الفنش – الفونسو – فتنة تقع بين الولاة من المسلمين فيعين هذا على هذا، وهذا على هذا، فيستجلب بذلك أموالهم، طمعا منه أن يعجزوا، فيظفر هو بملك الجزيرة كلها".[1] فلما عجز القادر عن دفع الأموال، توجه إلى أعيان المدينة لكنهم رفضوا تقديم هذه الأموال فهددهم بتسليم أبنائهم لألفونسوا، وما جاء في تهديده لهم: "أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين، لأجعلن عنده رهنا جميع من عندكم من العيال والبنين"[2] استهجن الحاضرون من الأعيان تهديد القادر عدا القائد أبي شجاع ابن لبون[3] الذي انبرى أمامه قائلا لقد خلعت نفسك بما قلت، وبما أزمعت عليه وعولت[4] فعلم القادر أن الأمر قد دبر بليل، وأن لا سبيل للمماطلة، وكان الوضع في طليطلة قد آل إلى الفوضى، فاضطربت شوارع المدينة وقامت الثورة فلم يجد القادر بدا، من الفرار إلى حصن من حصونه، وهو حصن وبذة[5] وألفى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير، ولا حكومة تقي المدينة شر الفوضى، وظل أهل طليطلة بعده أياما يقول ابن بسام: "كالسائمة المهملة نام راعيها، وأكبثت مراعيها... ليس عليهم أمير ولا فيهم إلى الصواب مشير".[6] وعندئذ انتبه بعضهم إلى بعض، وأخذوا يتشاورون لأي من ملوك الطوائف يصرفون إليه هذا الأمر، ويلقون إليه أيديهم، وكان من بينهم رجل يدعى أبو محمد يوسف بن القلاس

---

[1]- ابن الكردبوس، المصدر السابق ص: 82.

[2]- نفسه، ص: 82.

[3]- ابن ليون: هو شجاع أرقم بن ليون، بذكر ابن الآبار أنه كان وليا على وبذة في مقاطعة كوكنة إحدى حصون الثغر الأذني في طليطلة، ولقد اتصل تاريخ بني ليون بأسرة بني ذي النون حكام الثغر الأدني طليطلة أيام ملوك الطوائف وفي هذا القول ابن حيان: "بلغني أنه لما مات الظاهر إسماعيل بن ذي النون كان حملة دولته ورؤوس جلته، الحاج ابن محقور وابن ليون، وابن سعيد بن الفرج وكان أكد ما عهده إلى ابنه يحيى الملقب بعده بالمأمون الاقتداء بهديهم والانتهاء إلى رأيهم وقد ذكر ابن الآبار أسماء عدة وهم إخوة إلى شجاع أيام يحيى القادر وهم أبو وهب عامر بن ليون وكان ضابطا لقصر بلنسية وأبو شجاع أرقم حاكم وبذة، وأبو عبد الله بن ليون حاكم لورقا وأبو عيسى من ليون، ابن الآبار، الحلة السراء ج2 ص: 169 ابن بسام، المصدر السابق، ف4، ج1، ص: 113.

[4]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 83.

[5]- وبذة: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، مدينة من أعمال شنت برية بالأندلس.ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 141.

[6]- ابن بسام، المصدر السابق، ق4، ج1، ص: 158.

البطليوسي[1] أشار عليهم نتقدم عمر بن الأفطس أمير بطليوس، فانحازوا إلى رأيه، بعد أن أقنعهم بصفاته التي تليق بإدارة بلادهم لتجاوز محنتهم.[2]

وعلى عجل بعثوا للمتوكل رسلا يدعونه للقدوم إلى طليطلة، ليسلم مقاليم الحكم بها، ومع هذا الحاكم الجديد لم يتحقق ما كان يصبوا إليه أهل طليطلة من الاستقرار والأمن، وتنمية بلادهم، والسبب في ذلك أن القائمين على شؤون البلاد يومئذ مع المتوكل لم يهتموا بجدية في مصالحهم واستقامة أمورهم.[3]

والجدير بالذكر أن المتوكل لم يكن يهمه إعادة الاستقرار إلى طليطلة ولا إعادة هيبتها كإمارة قوية في هذه الثغور، فاستجابته لإدارتها كان بدافع تفويت الفرصة على المعتمد بن عباد الذي كان همه وقتذاك السيطرة على الممالك المجاورة له ومنها مملكة طليطلة، التي تسبب حكمها ومنهم المأمون في قتل ابنه سراج الدولة، لم يكن هذا فحسب فقد يضاف إلى هذه الاعتبارات عامل التعاطف مع أهل طليطلة الذين كانوا يشاركونه المعاناة من سطوة ألفونسو السادس الغالب على أمر حاكمهم القادر بالله، بالإضافة إلى عامل التحدي لألفونسو الذي كان قد استولى على قورية[4] التي تعد من الخطوط الدفاعية المتقدمة لمملكة بطليوس ومفتاح الغرب كله إلى طليطلة.[5]

وأمام هذه المخاطر التي أحاطت بالقادر بن ذي النون، فكر كعادته بالاستعانة بألفونسو السادس، وكانت هذه عادة ملوك الطوائف حين يشتد بهم الأمر يلجؤون إلى أعدائهم من النصارى

---

[1]- أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوس: يقول عنه ابن بسام: "أحد عفاريت الظلال، وأكله الأموال، من رجل أجرأ الله على دم وهو أبين من صافر وأجسرهم على ركوب ** محرم وهو أضعف من لحظ فاتر، نبهت تلك الفتنة على قدره دفع عدم الرجال صوته بذكره، فهبت ريحه شمالا وصبا واتخذ سبيله في البر والبحر عجبا، فعرض عليهم بصاحبه المتوكل عمر بن المظفر ابن الأفطس وأعرب لهم عن لين مكسرة وضيق المسافة نظره واشتغاله باللذات عن أكثره". ابن بسام، المصدر السابق، ف4 ج1، ص: 159.

[2]- نفسه، ف4، ج1، ص: 159.

[3]- إبراهيم بن عطية، المرجع السابق، ص: 113.

[4]- قورية بالضم ثم السكون، والراء مكسورة وياء خفيفة، مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الإفرنج يقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 117.

[5]- شريفة رحماني، المرجع السابق، ص: 123-124.

ويقدمون أموالهم لاستقدامهم ويكشفون بذلك عوراتهم وعورات إخوانهم ويتنازلون أحيانا عن جزء من أراضيهم مقابل إذلال إخوانهم من ملوك الطوائف.

وعلى أية حال فقد كتب القادر بن ذي النون بعد خروجه من مدينة قونقة إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود، إذ كان قد اضطر إلى اللحاق بجده المأمون، ولجأ إليه لما غلبه أخواه على الملك فأجاره إلى أن عاد إلى الملك[1] فاستجاب ألفونسو لدعوته ويزمع في قراره نفسه أن ينتهز كل فرصة سانحة[2]، وهذا أمر طبيعي لأن جميع من تداولوا على الحكم في بلاد النصارى كان همهم الوحيد هو طرد العرب المسلمين، إلا أنهم كانوا يتدرجون في تحقيق ذلك بإضعاف هذه الإمارات واقتطاع الثغور كلما كان ذلك ممكنا.

وسار ألفونسو السادس مع القادر نحو طليطلة في كتيبة من قواته، وكان المتوكل بن الأفطس لا يتوانى اقتناص كل من يستطيع اقتناصه من أسلاب، وأثاث وفراش وآنية، وأسلحة وكتب، ويبعث بها إلى بطليوس،[3] ولم يقم فيها كما أسلفنا شيئا ذي بال، ولم ينجز شيئا خلال الفترة التي أقامها بطليطلة للتصدي لمطامع ألفونسو السادس، وهذه لمحة من ابن بسام حول انشغالات ودأب عمر المتوكل في طليطلة وهي أوصاف يقف الباحث أمامها محتارا، إذ كيف يعقل أن هذه الأجزاء من بلاد المسلمين كانت وقتذاك تمر بحالة من الاضطراب والفوضى التي لا حد لها، وعدو هناك فاغر فاه ليلتهم القض منها والقضيض، ومع هذا وذلك فإن عمر المتوكل عوض أن يعمل على توحيد بلاده مع هذه البلاد التي أصبح فيها مطلق التصرف، جنح إلى العبث والقبح من الأعمال يقول ابن بسام: "والمتوكل بها طريح جنان، طريح أكواب ودنان، مكبا على قمش ما نحته المحنة، وتجافت عن انتهابه الفتنة، من فرش فخم، وسرادق ضخم، وآنية وكتب، وصعد من آلة الملك وحبب حتى اجتمع عنده من خبث

---

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 181.

[2]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 108.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ق4، ج1، ص: 160. عبد الله عنان، نفسه، ص: 108.

زيرتها، وغثاء غمرتها، مع ما أذابوا له صدر مقدمه من شحم سنامها، وأفاضوا من بردها وسلامها، جملة علمته الجلوس في الصدر وأرته الفرق بين الخل والخمر".[1]

قد بادر الملك ألفونسو السادس إلى التوجه نحو القادر بن ذي النون، واتفق معه على تقديم كافة العون والمساعدة، وطرد الأمير الأفطس، من طليطلة وإعادته إلى عرشه على أن يتخلى له عن السيادة على هذه المدينة متى استعاد له مدينة بلنسية[2] ونظرا لحاجة القادر للحصول على موافقة ألفونسو السادس فقد تعهد له فوق ذلك بأن يدفع جميع تكاليف الحملة العسكرية وأن يسلمه كل ما كان قد بقي من موجودات وكنوز العائلة، وحتى يبين صدق نيته وعزمه، أقدم له رهين ذلك حصنين لهم أهمية عسكرية واستراتيجية عظيمة وحسب ابن الكرديوس فإن ألفونسو هو من طلب ذلك حين قال للقادر: "أعطني حصن سرية وحصن قورية رهنا".[3]

ويستنتج من هذا الاتفاق إلى "المدى الذي وصل إليه ضعف يحيى القادر واستهتاره وإلى أي حد تسلطت عليه أنانيته وشهواته وأحقاده، مدفوعا بحقده الأعمى على معارضيه المتشددين من أهل طليطلة وبرعيته في استبعاده سلطانه ما تردد في الذهاب إلى حد التآمر على مواطنيه، ورعاياه والتعهد بتسليم عاصمتهم، الحاضرة الأندلسية الكبيرة، على الملك الإسباني".[4]

وبعد أن تم العقد بينهما وقد حقق فيه ألفونسو ما كان يصبوا إليه وكان شعاره أذاك الاستزادة من الثغور والأموال، وعلى أي حال فقد باشر ألفونسو مهامه العسكرية، وانطلق نحو طليطلة وآله موته تتقدم لا تلوى على شيء، تنشر الخراب والرعب، وتحطم وتدمر، وأهل طليطلة في هلع شديد يجوبوا شوارعها التماسا للأمان، وفي غمرة المحنة، أحس عمر المتوكل بالخطر، ولم يكن في نيته المقاومة والتصدي للخطر[5] فإن الطليطليين الذين علقوا عليه الأمل في الذود عن بلادهم فقد فرّ بنفسه تاركا

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ف4، ج1، ص: 160.

[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق ص: 181.

[3]- نفسه، ص: 181.

[4]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 83.

[5]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 290.

أهلها لمصيرهم المجهول" بين ناب الطاغية أذفونش وظفره يقدم لهم نار الفتنة عن جمرة ويريهم الموت في أهول صورة[1] كان ذلك سنة 473 هـ أبريل 1080.

كانت خطة ألفونسو هذه المرة، أن يوجه إلى آهالي طليطلة ضربة موجعة فشدد عليهم الحصار، وفرضت عليهم الرقابة حتى لا يدخل عليهم أو يخرج منهم أحد، حتى نفذت الأغذية والمؤن وبكت عوائلهم وصغارهم فاضطروا إلى فتح أبواب المدينة.[2]

ودخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة، يتبجج بين يدي القادر، أملا في الوصول إلى ذخائره وأسلابه[3] وقبل أن يسترجع القادر أنفاسه أمره بإحضار ما اتفقا عليه من أموال فراح القادر ينزل كل ما وجده في القصر الملكي من تحق وثروات وجميع ما خلف آل ذي النون، فلم يقبلها ألفونسو وزاد على ذلك في إحضار المزيد من النفائس الموروثة عن أبيه وجده، فلم يف بما قاطعه عليه، فسأله أن ينظر فيه ويجعله بين يديه فقال أعطني حصن قنالس Canales[4] رهنا، فأعطاه إياه، ولما أصبح هذا الحصن في حوزته، بعث إليه من يثق فيهم من جنوده، أما هو فقد يمم نحو قشتالة وبحوزته الغنائم، والنفائس[5] التي قدمها القادر، ثمنا لإعادته إلى بلاده طليطلة.

والجدير بالملاحظة، والاعتبار في سير علاقة ألفونسو السادس مع ملوك الطوائف بوجه عام، ومع القادر بن ذي النون بوجه خاص، هو أن استقدام ألفونسو لمؤازرة القادر يحتاج في معاضدته كان يطلب منه مقابلا من المال، ولما كانت نية ألفونسو إبقاء هذا الأمير البائس على حالة من الزراية بين رعيته، كان لا يكلف نفسه في إعادة شؤون البلاد إلى وضع يسمح للقادر بالحكم في ظروف يسودها

---

[1]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 83.

[2]- ابن بسام المصدر، السابق، ق4، ح1، ص: 162.

[3]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 181

[4]- قنالش Canales: تطلق على عدة أماكن في مختلف أنحاء إسبانيا وهو جمع قناة أو قنال والمقصود هنا هو قرية قنالش التي هي في شمال طليطلة، على الحدود القشتالية.

Pascual Madoz, Diccionario George Filo, Historica de Espana y Sus pose Siones de Ultramar p : 389

- أبو الكردبوس، المصدر السابق، هامش رقم 6، ص 83.

[5]- نفسه، ص: 83-84.

الأمن الاستقرار، لقد كان ألفونسو متعمدا في ذلك لإبقاء الوضع على حاله حتى يكون قابلا للاشتعال مرة أخرى، ويكون حضوره بينهم أمرا محتوما، إلى أن تستفرغ خزائنهم وبالتالي تسهل السيطرة عليهم.

ألم يحدثنا عبد الله الزيري عن إمارته غرناطة حين هم ألفونسو السادس لمهجمتها تحت تأثير ابن عمار وعندما قابله عبد الله وبين له استعداده لدفع المقابل دون اللجوء إلى القوة، أدرك ألفونسو حينها بأنها حيلة دبرت له وقال: "هذه نصبة لست أخلو فيها من قائدة، وإن لم تحصل البلدة، وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحدة لآخر إلا تقويته على نفسي؟ وكلما وقع الثوار وقع بينهم التنافس، كان لي أفأد" فأتى على نية أخذ مال الفريقين، يكسر رؤوس بعضهم ببعض، ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه.

فإنه عمل في ذلك حسابا أن قال: "أنا من غير الملة وكل الناس يشأنني فبأي وجه أطمع في أخذها؟ إن كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن وإن كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه إن صارت إليّ ولو صارت، لم تمسك إلا بأهلها، ثم لا يؤمنون! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمراها بأهل ملتي ولكن الرأي كل الرأي، تهديد بعضهم ببعض وأخذ أموالهم أبدا، حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت وتأتي عفوا كالذي جرى بطليطلة إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم مع اندبر سلطانها، وصارت إلي بلا مشقة".[1]

وبالفعل فقد ظل الملك القشتالي بهذه السياسة التي كان يرى فيها أهون السبل وأجدرها للوصول إلى هدفه الأسمى ألا وهو الاستلاء على المدن الاستراتيجية الواحدة بعد، الأخرى.

وتجسدت هذه السياسية في علاقته مع القادر بن ذي النون فهو كلما أعطي الأموال طلب المزيد، وإذا عجز القادر بادر ألفونسو إلى غزو أحواز طليطلة وتخريب أراضيها وزروعها، لقد كانت هذه سياسته مع القشتاليين، فأما تصرفاته مع رعاياه فقد كانت على درجة من الإساءة فلقد عمد إلى نشر الفرقة بينهم، ظنا منه أنه في وحدتهم خطرا على سلامة عرشه، وحتى يقمع الأحرار

[1]- عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص: 100.

والمحافظين الذين كان يؤلمهم خضوع بلادهم إلى النصارى، كان يعطي المناصب العليا في حكومته وإدارته إلى المغامرين والانتهازيين ممن عرفوا بعدائهم للفات المحافظة[1]، وكثيرا ما كان يثير سفلة القوم، وعوامهم ضد الأعيان والفقهاء وقد تحدث ابن بسام عن هذا السلوك الذي سلكه القادر بن ذي النون "وأخذ بن ذي النون أهل طليطلة لحين استقراره فيها بفك تلك المعاقل وأداء ما كان ضمن لأدفوش من الأموال الجلائل، فضرب مدبرهم بمقبلهم وولى آخرهم كبر أولهم حتى طمع فقيرهم في غنيهم، واجترأ ضعيفهم على قويهم، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله، ويلتفت وإنما هو بين أهله".[2]

ظل ألفونسو السادس حريصا على إبقاء القادر على عرش طليطلة، لأنه كان في نظره الأداة الطيعة التي يستطيع بواسطتها ضمان إبقاء طليطلة مهيأة لالتهامها. فهو قد عقد العزم بصفة نهائية على ضمها إلى أملاكه، ويظهر ذلك منذ مخاصبتة قداسة الباب لإعادة كرسي رئيس أساقفة إسبانيا إلى طليطلة، ذلك المنصب الذي فقدته الأسقفيات الإسبانية منذ مدة طويلة.[3]

لقد شجعه على ذلك كما أسلفنا، انقسام أهل المدينة على أنفسهم بتشجيع من القادر نفسه، فضلا عن المواقف المتخاذلة التي ظهرت بها الإمارات الإسلامية حيال أطماع ألفونسو السادس وجناياته على مملكة طليطلة، رغم صرخات وأنين أهالي طليطلة، وعوض أن يقدم هؤلاء يد العون إلى الإمارة المحتضرة، قام ابن عباد بإرسال وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس ليعقد معه معاهدة يتعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون ابن عباد بالجند ضد سائر أعدائه من أمراء المسلمين، كما يتعهد ابن عباد مقابل ذلك بأن يقدم له جزية معتبرة، ويتعهد له بأن يتركه مطلق التصرف في طليطلة، وألا يتعرض له بأي أذى[4]. ولم يقف إلى جانب القادر بن ذي النون في محنته سوى عمر المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس المتشبث بنزعته البربرية والإسلامية الذي سارع إلى إنجاد إخوانه في طليطلة،

[1]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 295.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ق4، ص: 164.

[3]- إبراهيم بن عطية، المرجع السابق، ص: 116.

[4]- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 109.

فأرسل قواته تحت قيادة ابنه الفضل حاكم ماردة، ونظرا لعدم تكافؤ القوى لم تنجح القوات الإسلامية في ترجيح كفة النصر لصالحها.[1]

وفي هذه المرحلة كان ألفونسو السادس قد شرع في تنفيذ الحصار النهائي لضم مدينة طليطلة إلى المملكة النصرانية وذلك في خريف سنة 477 هـ / 1085 وظل أهالي طليطلة داخل الأسوار يإنون تحت وطأة الجوع، ومما زاد الوضع سوء هطول الأمطار الغزيرة التي تسببت في سقوط المباني وانهيار بعض التحصينات مما قضى على قدرة المقاومة والصمود وعلى كل أمل في النصر[2]. ومع ذلك فقد استمات السكان في الدفاع عن مدينتهم، حتى ما بقي معهم من وسائل المقاومة إلا ما تلهج به ألسنتهم من طلب المساعدة والتوسط عند إخوانهم من أمراء الطوائف، فشكلوا وفدا بقيادة القادر بن ذي النون، وتوجهوا نحو قصر المأمون أين كان يقيم ألفونسو السادس، استقبل الوفد من قبل حاشية الملك ببرودة وجفاء، وحاولوا منعهم من مقابلته، بدعوى أنه نائم ولم يفلحوا في مقابلته إلا بعد أن توسط لهم وزيره المستعرب ششكند Sisnando Davided الذي كان يشغل وظيفة أمين السر الخاص لألفونسو وأدخلهم غرفة سيده[3]. وقد سجل ابن بسام تفاصيل هذا اللقاء ونحن نورده في هذا البحث لما فيه من أهمية وعضة يقول ابن بسام: "فأدخل على أدفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه ثائر الرأس، خبيث النفس، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضغث ثغامة رأسه فما نسو دفر أطماره، ودرن أظفاره ثم أقبل عليهم بوجه كريه، ولحظ لا يشكون أن الشر فيه وقال لهم: إلى متى تتخادعون وبأي شيء تطمعون؟ قالوا: بنا بغية، ولنا في فلان وفلان أمنية وسموا له بعض ملوك الطوائف فصفق بيديه، وتهاتف حتى فحص برجليه ثم قال: اين رسل ابن عباد؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة، وينبسون بألسنة السمع والطاعة، فقال لهم: منذ كم تحومون علي، وترومون الوصول إلي؟ ومتى عهدكم بفلان وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان؟ فجاءوا بجملة ميرة، وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة، ثم ما زاد أن ركل ذلك برجليه، أمر بانتهابه ولم يبق ملك من ملوك

---

[1]- ارزقي فراد، المرجع السابق، ص: 98.

[2]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 301

[3]- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 302

الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله، وكانت حاله حال من كان قبله، وجعل أعلاجه يدفعون في ظهورهم، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم وقد طمع كل شيء فيهم".[1]

وقد خرج الوفد من عنده لم ينل من مطالبه شيئا، بل أشبعهم ألفونسو ذلا ومهانة، وبعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء خلوا بينه وبين البلد[2] ولم تبق أمام القادر بن ذي النون أي محاولة للمناورة، أو الإرجاء، ولم يلبث أن سلم طليطلة لألفونسو السادس ملك قشتالة، سنة 478 هـ 1085 م، بشروط كان قد تعهد بها وهي تسليمه مدينة بلنسية ليستقر بها وتأمين أهل طليطلة في الأرواح والأملاك، وأن يخير المسلمون من سكانها بين البقاء والرحيل، فمن أحب الخروج لم يمنعه ومن أحب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد ما عنده الأشخاص وإن رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه لا في كثيره ولا في قليله فعاهدهم على ذلك وأعطاهم صفقة يمين، وأقسم لهم أنه لا يغدر في ذلك ولا يهين.[3]

وكان أن وفي للقادر بأن أرسل معه حاميه توصله إلى بلنسية، واستقر بها إلى سنة 485 هـ / 1092م وعندما تملك ابن عائشة مرسية[4] استدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم، فأقبل إليها نائبه في جيش من اللمتونيين. ولاذ القادر بن ذي النون بالفرار ولم يتمكن من الخروج من المدينة، فاختفى ببعض الدور الخالية، فقبض عليه وسيق إلى القاضي ابن جحاف فأمر بقتله يقول ابن الخطيب: "تولى ذلك فتى من بني الحديدي القتيل بطليطلة، وطيف برأسه واحتوى ابن جحاف على

---

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ف 4، ح1، ص: 167.

[2]- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 182.

[3]- ابن الكردبوس، المصدر السابق ص: 85.

[4]- مرسية، بالأندلس وهي قاعدة تدمير بناها الأمير عبد الرحمان بن الحكم، واتخذت دار دار العمال وقرار القواد وكان الذي تولى بنيانها وخرج العهد إليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد، وكان تاريخ الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول سنة عشر ومائتين الحميري، الروض المعطار، ص: 539.

ما كان له وطرحت جثته في سبخة فواراه رجل احتسابا وصدقة، ودفن دون كفن فانقطعت مدته على هذا السبيل".[1]

أما أهل طليطلة فقد أصبح مصيرهم بيد ألفونسو السادس لا حول لهم وقوة وقد استسلموا وانحطت معنواتهم، وانكسرت مشاعرهم، وقد بذل الوزير ششكند جهده ليخفف عنهم هذا الوقع الذي أنزلهم من عزهم إلى حضيض من الذل والهوان، فاستمال بهذه السياسة قلوب الكثيرين منهم، وأقبل بعض العامة إلى التنصر ونصح هذا الوزير قائده أن يلتزم الاعتدال، والحلم في معاملة هؤلاء المستسلمين، وما جاء في النص الذي أورده ابن بسام حول كلام ششكند لسيده ألفونسو السادس: "أخفض جناحك لأهلها، واستجلب جاليتها بما تمد من ظلها، ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم، ولا تجد عمالا أطوع منهم، فإنك إن أبيت إلا الإلحاح عليهم، والتسرع بالمكروه إليهم نفرتهم عن ذكاك وأحوجهم إلى مداخلة سواك.[2]

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية، وأفل نجمها إلى الأبد وهي المدينة التي زحف إليها طارق بن زياد في كتيبة من الفاتحين، وأخضعها لسنة تسعين للهجرة ، وظلت مدة ثلاثمائة سنة وثمانية وثمانين من الأعوام.[3]

وكان ممن تحسر من الشعراء على سقوط طليطلة، وهو في حقيقة الأمر قد وقف متخاذلا وكان الأجدر به أن يدعوا بقية ملوك الطوائف إلى التلاحم ونبذ الأنانية والفرقة، والاصطفاف تحت قيادة موحدة وتحرير بلادهم من العدو ومما قاله الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال في سقوط طليطلة.

حُثُوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ فَمَا المُقَامُ بِهَا إلَا مِنَ الغَلَطِ

الثَوْبُ يَنْسُلُ مِن أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثَوبُ الجَزِيرَةِ مَنْسُولًا مِن الوَسَطِ

وَنَحْنُ بَيْنَ عَدُوٍ لَا يُفَارِقُنَا كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ فِي سَفَطِ[4]

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 182

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ق4، ج1، ص: 168.

[3]- ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 85.

[4]- ابن سعيد، المصدر السابق، ح2، ص: 21.

وكان لوقع سقوط طليطلة أثر كبير لدى ملوك الطوائف، وقد شعروا بجدية الموقف وقد علموا أن الدائرة عليهم وتشبثوا جميعهم بداعي الجهاد، فاجتمعوا جميعا ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة، ونبذ الشقاق، وإشرأبت أعناقهم نحو إخوانهم المسلمين المرابطين يطلبون المدد، والإغاثة وبدخول المرابطين شهدت الأندلس نقطة تحول في سير الأحداث.

خاتمة

من خلال دراستي لموضوع البربر في الأندلس في عهد الطوائف خلال القرنين الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، تمكنت من الوصول إلى جملة من الاستنتاجات، أحاول أن أجزئها حسب مباحث الفصول.

وقبل الشروع في الحديث عن النتائج المستخلصة من الموضوع، لا يفوتني أن أشير إلى أن أولى النتائج المستخلصة من موضوع الدراسة، هي تلك الأسباب التي أدت إلى حدوث الفتنة في أواخر عهد الخلافة في الأندلس، والتي كان وراءها، ذلك الشغور الرهيب الذي تركه الحكم المستنصر حين أوصى بولاية العهد لابنه هشام، الذي كان لا يزال صبيا لم يبلغ الحلم، مما فسح المجال للتنافس على كرسي الخلافة، وفي غمرة هذا التباري برزت شخصية المنصور بن ابي عامر التي استنجدت بها سيدة القصر (صبح) لتجعل حدا لهذا التنافس، حيث اضطر المنصور إلى مواجهة هؤلاء وتصفيتهم الواحد بعد الآخر.

لقد كانت هذه التصرفات بداية لعهد الشك والحذر الذي ميز دولة الخلافة في عهد المنصور . ومما زاد في الأمر سوءا هي محاولة المنصور إقصاء العنصر العربي من الساحة السياسية والعسكرية ،واستقدام العناصر البربرية من العدوة الجنوبية وإظهارهم على حساب العناصر الاخرى، وأعطى للعديد منهم مناصب حساسة في الدولة، وقضى بذلك على الأرستقراطية العربية، بالإضافة إلى عنصر الصقالبة وكان قد هم بتصفيتهم كذلك، ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى أصحاب الحل والربط في عهده. وبهذه السياسية، انفرط العقد الاجتماعي الذي كان يربط المجتمع الأندلسي، وأصبح بذلك مؤهلا لأي شرخ وانقسام.

وفي اعتقادي أن هذه السياسة التي انتهجها المنصور هي التي أسست للفوضى والحرب الأهلية.

ثم جاءت الفرصة التي استغلها الطامعون في كرسي الخلافة عندما تولى الحجابة ابن المنصور عبد الرحمن شنجول الذي لم يكن في مستوى إدارة البلاد ،ومما شجع المناوئين على تنحيته وقتله، هو ادعاؤه ولاية العهد.وقد أدّى ذلك إلى نشوب فتنة إنقسم فيها بنو أمية إلى فريقين متحاربين ، ولما اشتد الصراع بين أفراد الأسرة الأموية حول الحكم اضطر البربر إلى اتخاذ موقف سياسي، فكان وقوفهم إلى جانب سليمان المستعين بعد أن غدرهم المهدي.

ودخل البربر في معادلة الصراع فكان لهم حضور قوي في هذه الحرب، وعانى منهم سكان قرطبة الأمرين ،وكان ذاك في نظري ردة فعل قوية من البربر وانتقما لما فعل بهم أهل قرطبة مع المهدي، ولما تم لهم تنصيب سليمان المستعين، استغلوا ضعفه ليؤسسوا إمارات بربرية في مختلف الأقاليم، وبذلك دخلت الأندلس في عصر التجزئة والانقسام وهو ما سمي بعهد الطوائف.

لقد كانت أبرز هذه الإمارات البربرية هي إمارة بني زيري في غرناطة،التي قطع زعماؤها شوطا مضنيا في تأسيس هذه المملكة، بعد مواجهات عنيفة مع الامويين في قرطبة.ولمواجة الحلف الاندلسي بقيادة بني عباد، سعى أمراؤها إلى جمع كلمة رؤساء الإمارات البربرية الأخرى وتكوين حلف بربري لمواجهة الإمارات الأندلسية، والوقوف في وجه التهديدات القشتالية، إلا أن ذلك لم يفض إلى التفاهم والاتحاد ،وكثيرا ما انضمت بعض الإمارات البربرية إلى الحلف الأندلسي بقيادة بني عبّاد مثلما فعل محمد بن عبد الله البرزالي حين حارب بني الأفطس بمعية ابن عباد.

وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بان اقوى هذه الامارات البربرية لم يكن بمقدورها التصدي للامارات الاندلسية الأخرى كإمارة إشبيلية التي كانت دائبة في إستإصال الامارات البربرية الصغرى ولم تستطع هي الأخرى كامارات ذات إنتماء واحد أن تتصدى إلى هذا العدوان المميت .

ومما يستنتج من خلافات الإمارات البربرية مع باقي الإمارات العربية والصقلية أنها كانت عدائية ميزتها الحروب والصراعات طوال عهد الطوائف.

وكانت أسباب هذه الحروب غالبا ما تدفع إليها عدم احترام المعاهدات، والرغبة في التوسع وكان ذلك يدفعهم إلى الاستعانة بالجيوش الإسبانية ضد بعضهم البعض، مما كان يمكِّن الإسبان من الاستيلاء على مزيد من الأراضي وفق الاتفاقيات والشروط التي كان يقدم بموجبها أمراء الطوائف تنازلات عن الثغور، وما كانوا يقدمونه من أموال طائلة كل ذلك من أجل إلحاق الهزيمة بإخوانهم تماما مثلما فعل القادر أمير طليطلة حين استقدم الفونسو السادس لاسترجاع ملكه وطرد الأمير الأفطس من طليطلة، وكانت الصفقة هي أن يتخلى له عن مدينة طليطلة على أن يوليه ألفونسو على بلنسية، وكانت هذه الصفقة في اعتقادي هي صفقة العار التي كانت بداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس.

وقبل ذلك كان الصراع محتدما بين بين دول الطوائف فقد كانت الحرب والخلافات هي السمات الغالبة في العلاقات بينهم ولم تكن فترات السلم إلا في الفلتات. فقد اندلعت الحرب بين يحيى المأمون أمير طليطلة، وسليمان بن محمد بن هود أمير سرقسطة، ولم تضع الحرب أوزارها إلا بعد ثلاث سنوات، وكان السبب في ذلك هو أن كل منهما كان يطمح في أراضي الآخر، وكان السبب الذي أشعل الحرب هو مدينة وادي الحجارة، التي اختلف أهلها بين موال ليحيى المأمون وموال لسلمان بن هود، وحسما لهذا الخلاف قامت الحرب بينهما كانت مدة الحرب طويلة 435 – 438هـ/1043–1046م، فما كان من يحيى المأمون الذي سجلت عليه الهزيمة إلا الاستعانة بالنصارى الذين اشترطوا عليه شروطا منها دفع الضرائب وإقرار السيادة مع أرضه مقابل سيادة عسكرية يقدمها له.

وقد استنتجت من هذه العلاقات أن تقدم النصارى القشتاليين نحو أراضي المسلمين إنما كان من جراء خلافاتهم، وارتطام جيوشهم على أسوار بعضهم بعضا.

كما أن هناك نقطة في غاية الأهمية مكنتني من الوقوف عندها مليا، وهي أن هؤلاء الأمراء سواء البربر أو غيرهم من ملوك الطوائف، حين تفطنوا إلى ما يراد بهم من استئصال على يد النصارى، حاولوا جمع كلمتهم ونبذ خلافاتهم والاستعانة بإخوانهم المرابطين في العدوة الجنوبية، فلم يكن ذلك إلا نزوة للمحافظة على سلطانهم وكياناتهم، ولم تكن نيتهم في الحفاظ على ما تبقى للمسلمين من مآثر.

وغاب عنهم أن نقطة ضعفهم هو إعتزازهم بهذه الرقع الجغرافية الصغيرة وتقوقعهم فيها، وهي إحدى الأسباب التي كانت تثير أطماع عدوهم، فلم تحاديهم حتى فكرة بناء كيان على أساس إثني تجتمع فيه تلك الامارات المبعثرة تحت سلطة واحدة تحقق لنفسها توازنا في القوى مع بقية إخوانهم من الطوائف وتدفع عنها أطماع النصارى في الشمال.

ومن هنا يلاحظ أن هذه العلاقات سواء بين الطوائف البربرية نفسها أو مع طوائف من جنس مغاير هو غياب روح التسامح في المصادمات بينهم فقد كانوا يشمتون ببعضهم البعض إلى درجة التمثيل بجثث إخوانهم والعبث بأعراضهم وسبي نسائهم وأولادهم، وكان هذا دافعا لزيادة الأحقاد بينهم والتكتل ضد بعضهم البعض والعودة إلى الحروب كلما قوي عضد المنهزم منهم إلى أن ذهبت ريحهم.

هذا ويعتبر عبور المرابطين إلى الأندلس نقطة إيجابية في تاريخ شبه الجزيرة في أواخر القرن الخامس الهجري، وهي العقود الأخيرة من هذا القرن التي أشهر الصلبيون سيوفهم ضد المسلمين في المشرق العربي وكان يمكن أن يتزامن ذلك مع سقوط الرها، وأنطاكيا وغيرها من المدن في المشرق لولا وثبة من ابن تاشفين.

لقد استجاب ابن تاشفين لنداء الإغاثة، ورأى ذلك من أوجب واجباته وتقدم بخطى ثابتة من أجل تحرير البلاء التي استولى عليها النصارى الصلبيون، إلا أنه فوجئ بخلافاتهم وأحقادهم ضد بعضهم وشكاياتهم المتكررة، فاسحين المجال لعدوهم ليلتهم ممتلكاتهم.

وما توصلت إليه من استنتاجات محزنة، هو استعانة هؤلاء بالنصارى ضد إخوانهم المرابطين مثلما فعل أمير بطليوس المتوكل حين استغاث بالملك ألفونسو السادس – فكلفه ذلك حياته على يد المرابطين حين وضع ابن تاشفين يده على مكمن الداء حين استأصل شأفة هؤلاء بالقتل والأسر والنفي، لتشهد الأندلس عهدا جديدا أعقب عهد الطوائف ألا وهو عهد المرابطين.

هذا ويبقى موضوع الدراسة مفتوحا على البحث من أجل تحريك باطن الأحداث في عهد الطوائف إذ يبدوا لي كباحث مبتدئ أن هناك إشكاليات عديدة هي في حاجة إلى إجلاء منها ظاهرة العصب التي كان لها دور قوي في إثارة الفتنة ثم في عهد الطوائف كما أثبت ذلك في مضامين هذه الدراسة إلى أن هناك من الباحثين من ينفي هذه العلاقات المبنية على أساس إثني، وهذا في نظري يحتاج إلى إجلاء لتبيين ما للعصبية من سلبيات ومهالك أتت على العديد من الدول والدويلات حين تعاطت هذا النوع من الأفكار التي استندت عليها عند تأسيسها، إلا أنها كانت بمثابة بذور حملتها بين جنباتها وتحطمت بواسطتها.

ملاحق

ملحق رقم (1)

رسالة ديوانية من الأمير حبوس أمير غرناطة إلى ابن عبد الله البرزلي أمير قرمونة

" من النصح تقريع، ومن الحفاظ تضييع، ولكل مقام مقال، إذا عدي به عنه استحال ووصل (إلي) منك طمست منحاه، وعميت معناه، أومأت فيه إلى النصح، ودللت على سبيل النّجح؛ فوقعت على فصوله ومعانيه، وأحطت علما بجميع (جميع) ما فيه، ولم يكن لمن أوحشت جبهته، وتغيرت مودته، أن يدخل مدخل الناصحين، وقد خرج من جملة المشفقين؛ وكان بالجملة أوله سباب، وآخره إعجاب، والسباب لا ينطق به كريم، والإعجاب لا يرضى به حليم، وقد نزهني الله عن المقارضة بهذا ومثله، وما أحسن قول القائل:

وَتَجْـهَـل أَيدِينَـا وَيَحلِـمُ رَأْيُنَـا وَنَشْتِـمُ بالأَفْعَـالِ لَا بِالتَكَـلُمِ

فإن كنت أردت أن تستصلح مني بسبك فاسدا، وتستقرب من ودي باستطالتك مباعدا فما هذه شيم يقضي بها الفضل، ولا سياسة يحكم بها العقل، وإن كنت أردت التخويف والإيعاد والإبراق والارعاد، فقد كفاني بيت الكميت:

أَبْــرِقْ وَأَرْعِـــدْ يَـــا يَــزِيـ ـدُ فَـمَـا وَعِيدُكَ لِـي بِضَـائِرِ

وأنا أحد البرابرة، لا أخرج عن جماعتهم، ولا أبعد عن موافقتهم، ولا أرغب بنفسي عن نفوسهم.

وَمَا أَنَا إِلَا مِنْ غَزِيَةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِن تَرْشُدُ غَزَيْتُ أَرْشُدُ

وفي لزوم الجماعة السداد والرشاد، والغي في الانفراد والاستبداد.

وأما قولك: " فمن كان متبوعا قلما يستقيم أن يكون تابعا، ومن عرف في النادي مطاعا لم ينقلب مطيعا، إلا أن يصادف هدي العمرين، وأجدِرْ بذلك أن يبعُد !" فقد أزريت على كل خلافة، وبيّنت أنك خارج عن كل فرقة، وأن غرضك المحاماة عن عزك، والمراماة دون حِرزك، وليس هذا نظرَ مشفق، ولا قول محقق، إذ لا تتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها، وتجري السّننُ عليها، إلا في مذهب نافع بن الأزرق وعبد ربه وأشباههما....

...وما ذكرته من الذي بين الطائفتين من بني عمنا بالعدوة فكل أمر بقدر، ولكل نبأ مستقر، والدنيا أحوال، والحرب سجال، وخيرهم وشرهم عنا بعيد، وكل من نصرك وأيدك فهو القريب الودود، وإن تفرقت الآباء والجدود، ومن شد عن الجماعة وفارقهم، ونابذها وشاقها، فهو الجاني على نفسه وعليها، والجار سوء العاقبة إليه وإليها، وأكثر الوبال واقع على الظالم، ونازل بالجارم؛ والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق..."[1].

[1]- ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 388.

ملحق رقم (2)

معركة يابرة ومصرع العز بن إسحاق البرزالي

قال أبو مروان: وفي سنة إثنتين وأربعين وأربعمائة أوقعَ ابنُ عبادٍ بابن الأفطسِ إلى جنب يا بُرَةَ؛ وكان سببُ هذه الحرب أنَّ فَتْحَ بن يحيى صاحب لَبْلَةَ يومئذ حليف ابن الأفطس والى عبّاداً لضرورة، فكاشفه ابن الأفطس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصَّامت، عندما حمله إليه وديعة وقت تورطه في حرب عبادٍ قبلُ؛ وانتبتت بينهما العصمة، وأرسل ابن الأفطس في ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستغاث عباداً، فأرسل إليه خيلا منتقاة، فلحقت الخيل الأفطسية وهي قد شنت الغارة على لَبْلَة، فكرت عليهم إذ كانوا ضعفهم، واسترسلوا في اتباع العباديين ولا يشعرون، فإذا بعباد بجملته في كمين قد خرج اثرهم فاندهشوا وولوا الأدبار فركبهم السيف، وبذل عباد المال في رؤوسهم وكانت نقاوة خيل ابن الأفطس وأبطالَ رجاله، فجز بعباد من رؤوسهم مائة وخمسون رأسا ومن خيلهم مثلها، فقص جناح قرنه، وأفنى حماة رجاله. ثم إن عبادا إثر ذلك جمع خيل حلفائه وخيله وقود عليه ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام، وخرج نحو بلد ابن الأفطس يابُرة. وقد استدعى ابن الأفطس حليفه إسحاق بن عبد الله فلحقت به خيله مع ابنه العزِّ بعد أن جمع ابن الأفطس بقايا جيشه من هزيمتهم المتقدمة الذكر، وأخرج كل من قدر على ركوب دابة من البياض ببلده، وحشر من رجال البوادي بعمله خلقا كثير، وأقبل بجمعه هذا المنخوب ليدفع خيل ابن عباد عن بلده يابُرة. وقد كان برابرة حليفه إسحاق في عسكره قالوا له: لا تلقهم فلست تعرف قدر من زحف نحوك، ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بإشبيلية؛ فلم يسمع منهم ومضىَ، فالتقى الفريقان من غير نزولٍ ولا تعبئةٍ، فاختلطوا واجتلدُوا مليّاً، فحقق العباديون الضّراب وتابعوا الشدات، فحاد البرابرُ عنه أصحابُ إسحاق، وانهزم ابن الأفطس وحُملَ السيفُ على جميع من معه، فاستأصلهم القتل، وقتل ولدُ إسحاق، العز، وحُزَّ رأسه وبعث به إلى إشبيلية مع رأس ابن عم لابن الأفطس صاحب يابرة يدعى عبيد الله الخراز، ونجا ابنُ الأفطس في قطعة من خيله إلى يابرة.[1]

---

[1] – ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المجلد 1، ص 238.

ملحق رقم (3)

الأسباب الخفية وراء مقاتلة المعتضد للإمارات البربرية في جنوب الأندلس

والسبب الذي كان يغريه بطلبهم، ويبعثه على التمرس بهم، أن بعض من نظر بمولده كان أخبره أن انقضاء دولته يكون على أيدي قوم يطرؤون على الجزيرة من غير سكانها، فكان لا يشك أنهم تلك البرازلة الطارئون عليها في عهد ابن أبي عامر، فأعمل في نكالهم وجوه سياسته، وشغل بقتالهم أيام رئاسته؛ فإذا كتاب سقوت المنتزي يومئذ بسبتة، يذكر أن قوم الملثمين المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراكش، فقال له ذلك الوزير المذكور كلاما معناه: وأين رحبة مراكش؟ دخلوها فكان ماذا؟ ومات الحجاج فَمَهْ؟! ودونهم اللجج الخضر، والمهامه الغبر، والليالي والأيام، والجماهير العظام، فقال له المعتضد: هو والله الذي أتوقعه وأخشاه، وإن طالت بك حياة فستراه، اكتب إلى فلان– يعني عامله على الجزيرة– باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمري، وأخذ يريش في تحصينه، ووضع أرصاده هنالك وعيونه، ويبري، ولله عزائم لا تقيها الحصون، ولا يهتدي إليها الأرصاد والعيون، ولكل شيء أمد مكتوب، وميقات مضروب، ويبلغ الكتاب أجله[1].

---

[1]– ابن بسام: الذخيرة، المجلد رقم 2، ص21.

ملحق رقم (4)

العقيلة العذراء لأبي محمد عبدالمجيد بن عبدون رثا بها بني الأفطس عند أفول نجمهم بعد مقتل المتوكل على يد المرابطين

الدَّهْـر يفـجَـع بعـد العيـن بالأثـرِ *** فـمـا البـكـاءُ عـلى الأشبـاح والـصّورِ

أنهـاكَ أنهـكَ لا آلُـوك مـوعـظةً *** عـن نـومـةٍ بيـن نـابِ اللّيث والـظُّفُرِ

فالـدّهـر حـربٌ وإن أبـدي مسالـمّةً *** والبيـضُ والسـودُ مثـلُ البِيض والسُّمُرِ

ولا هـوادةَ بيـن الـرّأس تأخُـذُه *** أيْـدي الضِّـرابِ وبيـن الـصّارِمِ الـذَّكرِ

فـلا يغـرنّـك مـن دنيـاك نومتُهـا *** فـمـا صـناعـةُ عينـيها سِوَى الـسَّهرِ

مَـا للّـيالـي أقـالَ الله عْثَرتَنـا *** مـن اللَّيـالي وخَـانَتْـها يَـدُ الغَـيرِ

فـي كـلّ حينٍ لـها فـي كلّ جارحة *** مـنّا جـراُح وإن زَاغَـت عـن النّظرِ

تّسُـرُّ بالـشّيء لـكـن كـي تَـغُرَّ بـه *** كـالأيْـمِ ثَـار إلـى الـجانِي من الزَّهرِ

كـم دولـه وليَـت بالنّـصر خـدمتَها *** لـم تُبـق مـنـها وسَـلْ دنيـاك عن خَبرِ

هـوت بَدارا وفـلَّـت غـرب قَـاتِلِـه *** وكـان عَضْبـاً عـلى الأمـلاك ذا أثُـرِ

واستَـرجَعت مـن بنـي ساسان ما وهَبَت *** ولـم تـدع لبـنـي يُـونَـان مـن أثَـرِ

وأتْبَـعت أختَـها طـسْماً وعـادَ على *** عـادٍ وجُـرهَم مِنـها نـاقـضُ الـمِرَرِ

ومـا أقَـالـت ذَوي الهيئات مـن يَمن *** ولا أجارَت ذوي الغَـايـات مـن مُضـرِ

ومـزّقت سَبـأً فـي كـلِّ قـاصيـة *** فـمـا الـتقَـى رائُـح مـنهم بمُبتـكرِ

وأنْفَـذَت فـي كُليـب حكمـها ورمَـت *** مُهَـلْهـلاً بيـن سمـعِ الأرض والبَصـرِ

ودوَّخَـت آلَ ذُبيـان وإخـوتَـهـم *** عَبْسا؛ وعَـضَّت بني بـدر عـلى النَّهـرِ

ولـم تَـرُدَّ عـلى الضّـلّيـل صِحـتَّه *** ولا ثَنَـت أسـداً عـن رَبِّهـا حُجُـرِ

وألـحـقَـت بِعَـديٍّ في الـعـراق عـلى *** يَـدِ ابنْـه الأحمـر العينـين والشَّـعَرِ

وأهلـكـت أبـرويـزاً بـابنـه ورمـت *** بيزَدجـردَ إلـى مَـروٍ فلـم يُحِـرِ

وبلَّغت يَزْدَجِردَ الصّينَ واختزلَت عنه سِوىَ الفُرس جمَع التُّرك والخزَ

ولم تَكُفَّ مواضي رُسْتمٍ وقَنا ذِي حَاجِبٍ عنه سَعداً في ابْنَةِ

يومَ القَليب بنُو بدر فَنُوا وسَعى قَليبُ بدرٍ بمن فيه إلى سَقَرِ

ومزَّقت جعفراً بالبيضِ واختلست من غِيله حمزَة الظَّلاَّمَ للجَزَرِ

وأشْرفَت بخُبيب فوق فارعةٍ وألْصَقَت طَلحةَ الفياضَ بالعفرِ

وخَضَّبَتْ شَيبَ عُثْمانٍ دَماً وخَطت إلى الزُّبَير ولم تَستَحْي من عُمرِ

ولا رَعت لأبي اليَقْظان صُحبتَه ولم تُزَوِّده إلاَّ الضَّيْح في الغُمَرِ

وأجْزَرَت سيف أشْقاها أبَا حسنٍ وأمْكَنَتْ من حُسين راحَتَي شَمِرِ

وليتَها إذ فَدَت عمراً بخَارِجَةٍ فدت عَلَيًّا بمن شاءَت من البَشرِ

وفي ابنِ هِند وفي ابن المصطفى حَسَنٍ أتت بمُذْهِلة الألبابِ والفِكَرِ

فبعضُها قائلٌ: ما اغتاله أحدٌ وبعضُها ساكتٌ لم يُؤْت من حَصَرِ

وأرَدْت ابنَ زيادٍ بالحُسين فلم يَبُؤْ بِشِسْعٍ له قد طاحَ أو ظُفرِ

وعَمَّمت بالظُّبا فَوْدَىْ أبِي أنِس ولم تَرُدَّ الّردى عنه قَنا زُفَرِ

وأنْزلَت مُصْعَباً من رأس شاهِقةٍ كانت به مُهجة المختار في وَزَرِ

ولم تُراقب مكان ابن الزُّبير ولا رَعَت عياذَتَه بالرُّكن والحَجرِ

وأعمْلَت في لَطيم الجنّ حيلتَها واستوثَقت لأبي الذِّبَّان ذي البَخرِ

ولم تَدع لأبي الذِّبَّان قائمةً ليس اللّطُيم لها عمرُو بمُنتصرِ

وأحرقَت شلْو زَيدٍ بعد ما احترقت عليه وجداً قلوبُ الآي والسّورِ

وأظْفَرت بالوَليد بنِ اليزيد ولم تُبق الخلافةَ بين الكأسِ والوَترِ

حبَابةٌ حبُّ رمّان أتيحَ لها وأحمرٌ قطَّرته نفحةُ القُطرِ

ولم تَعُدْ قُضُبَ السَّفَّاحِ نابية عن رَأْس مروانَ أو أشياعه الفُجُرِ

وأسْبلت دمعةَ الرُّوح الأمين على دمٍ بفَخٍّ لآل المصطفى هَدَرِ

وأشْــرقـت جعفــراً والفضــلُ ينظـره والشَيـــخ يحيـــى بكـــأس الصّـــابِ

وأخْفَـرت في الأمينِ العــهـدَ وانتـدَبـت والصّـــبر لجعَفرٍ بابنـه والأعبُـدِ الغُـدُرِ

ولا وَفَـــت بعـــهـــود الـمستعيـن ولا بمـــا تأكّـــد للمعتّـــز مـــن مِـــرَرِ

وأوثـقـت فـــي عــراهــا كـلّ مُـعتمد وأشْـــرقت بقـــذاها كـــلَّ مُقْتـــدرِ

وروَّعَـــت كـــلَّ مـــأمُـــون ومـؤتـمـــن وأســـلَمت كـــلَّ منصـــور ومنتصـــرِ

وأعثـــرت آل عبَّـــاسٍ– لـعـــالهـم بِــذَيلِ ريَّــاءَ مــن بــيضٍ ومــن سُــمُرِ

بنــــي الــمظفَّــر والأيّــامُ مـا بـرحت مـــراحلاً والــوَرى منهـــا علـــى سَــفَرِ

سُحـقـاً ليـومكـم يـومـاً ولا حـملـت بمثلـــه ليَلْـــة فـــي غَـــابِر العمـــرِ

مـــن للأسّـــرة أو مـــن للأعـــنّـــة أو مـــن للأســـنّة يهـــديها إلـــى الثُّغَـــرِ

مـــن للـظُّبـا وعـــوالى قـد عُـقـدت أطـــرافُ ألْسُـــنها بـــالعِّي والحَصـــرِ

وطُـــرِّزَتْ بالمنـايَـا الــسُّود بيــضُهم أعجْـب بـذاك ومـا منهـا سوى الـذِّكرِ

مـــن لليَــراعــة أو مـــن للبــراعـة أو مـــن للسّـــماحة أو للنّفـــع والضّـــررِ

أو دفـــع كـــارثـــة أو دع رَادِفَــــــةٍ أو قمــع حَادثــة تُعيــي علــى القَــدرِ

ويحَ السَّمـاحِ وويـح البـأس لـو سلمـاَ واحســرةَ الــدّين والــدّنيا علــى عمــرِ

سَقَــت ثَـرى الفضـل والعبّـاسِ هاميـةٌ تُعــزي إلــيهم ســمَاحاً لاَ إلــى المَطــرِ

ثلاثـــةٌ مـا ارتَـقـى النَّسران حيـثُ رَقُـوا وكـــلُّ مـــا طَـــار مـــن نَسْـــر ولـــم يَطِـــرِ

ثلاثـــة مـــا رأى العـصـران مثـلهُـم فضـــلاً ولـــو عُـــزِّزَا بالشـــمس والقَمـــرِ

ثلاثـــة كـــذوِات الـدَّهـر مُنْـــذُ نـــأوْا عنّـي مضـي الـدَّهر لـم يربـع ولـم يَحُـرِ

ومـــرَّ مـــن كـــلّ شـــيء فيـــه أطيُبـه حتـــى التمُّتـــع بالآصـــالِ والبُكـــرِ

أيـــن الجـــلال الـذي غَضَّـت مهابَتُـه قلوبَنـــا وعيـــونَ الأنْجُـــمِ الزُّهُـــرِ

أيـــن الإبـــاءُ الـــذي أرسَـــوْا قـــواعِـدَه علـــى دَعـــائَم مـــن عـــزّ ومـــن ظَفَـــرِ

أيـــن الـــوفـاءُ الــذي أصْـفَوا شـرائعه فلـــم يَـــرِدِ أحـــدٌ منهـــا علـــى كَـــدَرِ

كــانـــوا رَواســـي أرض الله مُنــذ نَــأوْا … عنهـا اسـتَطارَت بمــن فيــه ولــم تَقِــرِ

كـانُوا مـصـابيـحـهـا فيهـا فـمنـذ خَبـوا … هَـــوَى الخـليقُـــة يــاللهِ فـــي شَـرَرِ

كـانــوا شَجَـى الـدهر فاستهـوتهمُ خُدَعٌ … منــه بــأحلام عــادٍ فـي خُطـا الخطـرِ

ويــلُ أمّــه مـــن طَلــوب الثــأر مُـدرِكـة … مـنهم بأسْـدٍ سـواهم فـي الـوغى صُـبُرِ

مَــن لـي ومـن لـهُـم إن أظـلمت نُـوَبٌ … ولــم يكـــن ليلُهــا يُفضـي إلــى سَــحَرِ

مــن لــي ومـن لـهُـم إن عطلّـت سُنــن … وأخْفَيـــتْ ألســـن الآثـــار والسّـــيرِ

مـن لـي ومـن لـهُم إن أطبـقَت مـحنٌ … ولــم يكــن ورْدهــا يـدعو إلــى صَـدَرِ

عـلى الفـضائـل إلا الـصَّبـر بعــدَهـم … ســـلامُ مُرتقـــب للأِجـــرِ مُنْتَظـــرِ

يرجُــو عَسى، ولــه فــي أختــهـا أمـل … والـــدّهُر ذو عُقَـــب شَـــتَّى وذُو غِيَـــرِ

قَّرطـــت آذانَ مـــن فيـــهـا بـفـاضِـحَـةٍ … علَـى الحسَـانِ حصَـا اليـاقوت والـدُّرَرِ

سيـارةٍ فـــي أقــاصـــي الأرض قــاطـعـةٍ … شَقَاشِـقاً هَـدرَت فـي البَـدْو والحَضَـرِ

مُــطاعِـة الأمــر فـــي الألــباب قـاضيةٍ … مــن المســامع ما لــم يُقْـض من وطَرِ[1]

[1]- قول صاحب المعجب عبدالواحد المراكشي الذي أورد القصيدة كاملة "...لا بل عقيلته العذراء التي أزرت على الشعر وزادت على السحر وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلت عن أ، تسمى، وأنفت من أن تضاهى، فقل لها النظير وكثر إليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجرير، فلله هي من عقيلة خدر قرب بسهولتها حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتنعت، أوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذي رسمته مخل بالتلخيص الذي شردته... لصحة مبانيها ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق إليها، وورد شرعة لم يزاحم عليها، فذلك قل مثلها لا بل عدم وعز نظيرها فما توهم ولا علم . عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ص: 79، 80، 81، 82، 83.

ملحق رقم (5)

قصيدة أبي إسحاق الإلبيري التحريضة ضد اليهود

أَلا قُـلْ لِصَنهـاجَـة أَجْمَعِيـن بُـدَورَ الـزَمَانِ وأَسَـدَ العَرِيـنِ

مَقَـالَـة ذِي مُقـة مَـشـق يُعـد النَصِيحَـة زَلْفَى وَدِيـن

لـقَـد زَلَّ سَيِّـدكُـم زَلَـةً تَقُـر بِهَـا أَعْيـن الشَامِتِيـن

تَخَـيَّـرَ كَـاتِبَـهُ كَـافِـرًا ولَـو سَـاءَ كَان مِنَ المُؤْمِنِيـن

فَعَـزَ اليَـهُودَ بِـهِ وانْتَـخَبُـوا وتَـاهُـوا وَكَـانُوا مِن الأَرْذَلِيـن

وَنَـالُـوا مُنَاهُمْ وَجَازُوا المَـدَى وقَـد جَازَ ذَاك ومَـا يَشْعُـرُون

فَكَمْ مُسْـلِمٌ رَاهِـبٌ رَاغِـب لأَرَذَل قَـردٍ مِـن الـمُشرِكِـين

وَمَـا كَـانَ ذَلِكَ مِـن سَعْيِهِـم ولَكِـن مِنَـا يَقَـوم المُعِيـن

فَهَـلاَّ اقْـتَـدَى فِيـهِم بِالأَوَلِـى مِـن القَـادَة الخَيِرَة المُتَقِيـن

وَأَنْزَلَـهُـم حَيْـث يَسْتَاهِلُـون وَرَدهَـم أَسْفَـل السَـافِلِـين

وطَـافُـوا لـدينا بِأَفْـواجِهـم عَلَيـهُم صِـغَار وَذُلٌ وَهَـون

ولَـم يستَـخفُـوا بـأعْلامِـنا ولَـم يَسْتطِيلُوا عَلَى الصَالِحِين

أبَـاديـس أنت امْـرُءٌ حَـاذقٌ تُصِيب بِظَنـك مَـرمى اليَقِيـن

فَكَيـف تُحـب فِـرَاخ الـزِنَـا وقَـد بَغَضُـوك إلَـى العَالَمِيـن

وكَيْـفَ استَنَـمْتَ إلَـى فَاسِـق وقَـارَنَتْه وَهُـو بِئْـسَ القَرِيـن

وقَـدْ أَنْـزَلَ الله فِـي وَحْيِـهِ يَحـذُر مِـن صُحْبَة الفَاسِقِيـن

فَـلَا تَتَـخِذ مِنـهـم خَادمـاً وَذَرهُـم إلَـى لَعْـنة اللَاعِنِيـن

فَقَدْ ضَجَت الأرض من فُسقِهم وكَـادَت تَمِيد بِنـا أَجْـمَعِيـن

وكَيـف انفَـردت بِتـقرِيـبِهِم وَهُـم فِي البِلاد من المُبْعَدين

عَلَـى أنَـك المَلِك المُرتضى سلِيـل المُـلُوك مِن المَاجِدِيـن

وأَنَّ لَكَ السَبقَ بَيْنَ الوَرَى ... كَمَا أَنْت جلَة السَابِقِين

وإنَايَ احْتَلَلت بِغَرْنَاطَة ... فَكُنْتُ أَرَاهُم بِهَا عَابِثِين

وَقَد قَسَمُوهَا وَأَعْمَالُها ... فمنهُم بكل مَكَان لَعِين

وَهُم يَقْبِضون جِبَايَاتِها ... وهم يخْصِمون وهُم يَقْصِمون

وَهَم يَلْبَسون رَفِيع الكِسَا ... وَأَنْتُم لِأوضَاعها لابِسون

وَهُم أَنَمْنَاكُم عَلَى رَكَمٍ ... وكَيف يَكُون أَمِينًا خَؤُون

وَيَأْكَل غَيرَهُم دِرْهَماً ... فَيقْصى وَيَدنُون إذ يأكُلون

وَقَدْ نَاهَضُوكُم إلَى رَبِكُم ... فَما تَسْمعون ولا تُبْصِرون

وَهُم يَذْبَحُون بِأَسْوَاقِنَا ... وَأَنْتُم لأطرِيفهم آكِلون

وَرَخْم قِردَهُم دَارَه ... وَأَجْرَى إلَيهَا نَمِيرُ العُيُون

وَصَارَت حَوَائِجَنَا عِنْدَه ... وَنَحْن عَلَى بَابِهِ قَائِمُون

وَيَضْحَكُ مِنَا وَمِن دِينِنَا ... فَإنَا إلَى رَبّنا رَاجعُون[1]

[1]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 231-232-233

ملحق رقم (6)

جدول بأسماء أمراء الإمارات البربرية في الأندلس:

الإمارات البربرية	أسماء الأمراء	فترة الحكم الهجري والميلادي	
		بالتاريخ الهجري	بالتاريخ الميلادي
إمارة بني زيري بغرناطة	1- حبوس بن ماكسن	428-410	1038-1020
	2- باديس بن حبوس	465-438	1073-1038
	3- عبد الله بن بلكين	483-465	1090- 1073
إمارة بني الأفطس ببطليوس	1- عبد الله بن الأفطس	437-413	1045-1022
	2- محمد المظفر	461-437	1068-1045
	3- يحيى المنصور	464-461	1072-1061
	4- عمر المتوكل	487-464	1094-1072
إمارة بني ذي النون بطليطلة	1- إسماعيل بن عبد الرحمن	435-427	1043-1035
	2- يحيى المأمون	467-435	1074-1043
	3- يحيى القادر بالله	478-467	1085-1074
إمارة بني حمود	1- عي الناصر بن حمود	407	1016
	2- القاسم المأمون	408	1018
	3- يحيى المعتلي	412	1021
	4- القاسم (للمرة الثانية)	413	1022
	5- يحيى (للمرة الثانية)	416	1025
	6- إدريس المتأيد	427	1035
	7- حسن المستنصر	431	1039
	8- إدريس الثاني العالي	434	1042
	9- محمد الأول المهدي	438	1046

	10- إدريس الثالث الموفق 11- إدريس2 (للمرة الثانية) 12- محمد الثاني المستعلي	444 445 446	1052 1053 1045
إمارة بني برزال	1- محمد بن عبد الله بن برزال 2- عزيز بن محمد المستنظر	434-404 459-434	1042-1013 1067-1042
إمارة بني دمر	1- نوح بن أبي تزيري الدمر 2- محمد بن نوح عز الدولة 3- مناد بن محمد عماد الدولة	433-403 445-433 458-445	1041-1013 1053-1041 1066-1053
إمارة بني خرزون	1- محمد بن خرزون عماد الدولة 2- عبدون بن محمد بن خرزون 3- محمد بن محمد بن خرزون القائم	420-402 445-420 461-445	1029-1011 1053-1029 1068-1053
إمارة بني يفرن	1- هلال بن أبي قرة اليفرني 2- باديس بن هلال 3- أبو نصر فتوح بن هلال	445-406 449-445 457-449	1053-1015 1057-1053 1065-1057

ملحق رقم (7)

تاريخ سقوط الإمارات البربرية بالأندلس

أسماء الإمارات	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
1. إمارة بني حمود	449 هـ	1057 م
2. إمارة بني برزال	459 هـ	1067 م
3. إماة بن دمر	457 هـ	1066 م
4. إمارة بني يفرن	457 هـ	1065 م
5. إمارة بن خزرون	461 ت	1068 م
6. إمارة بني ذي النون	483 هـ	1085 م
7. إمارة غرناطة	478 هـ	1090 م
8. إمارة بطليوس	487 هـ	1094 م

ملحق رقم (8)

قائمة بأسماء حكام طليطلة: بنو ذنون

إسماعيل بن ذي النون

يحيى، المأمون

(قرطبة، 11 ذو القعدة 467 هـ = 1075م)

إسماعيل

يحيى، القادر

(حكم طليطلة: 467- 478هـ = 1075 – 1085م)

(حكم بلنسية حتى يوم الجمعة 23 رمضان 485هـ = 1092م)[1]

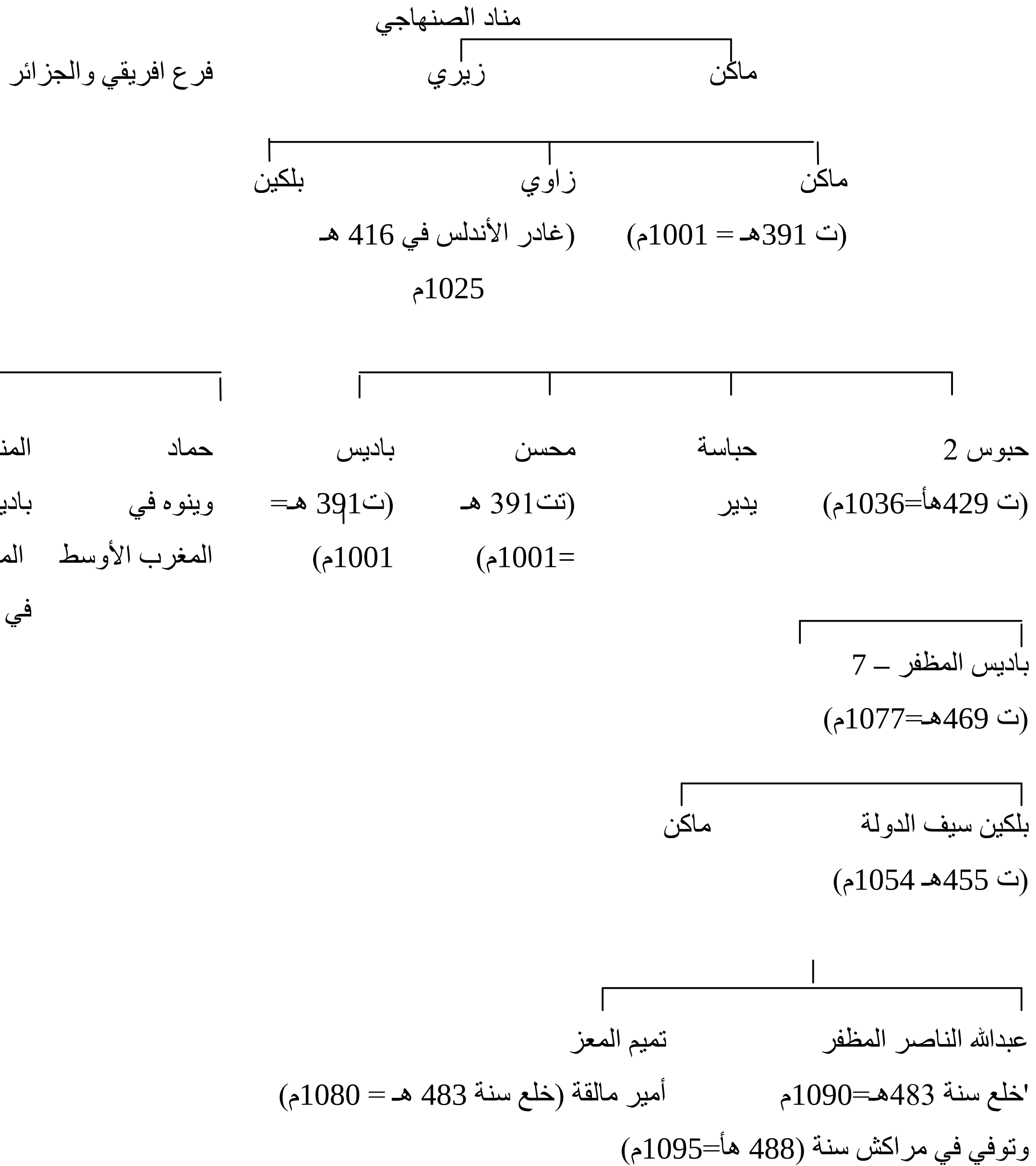
---

[1]- عن محمد علي حجي، المرجع السابق، ص 356

ملحق رقم (9)

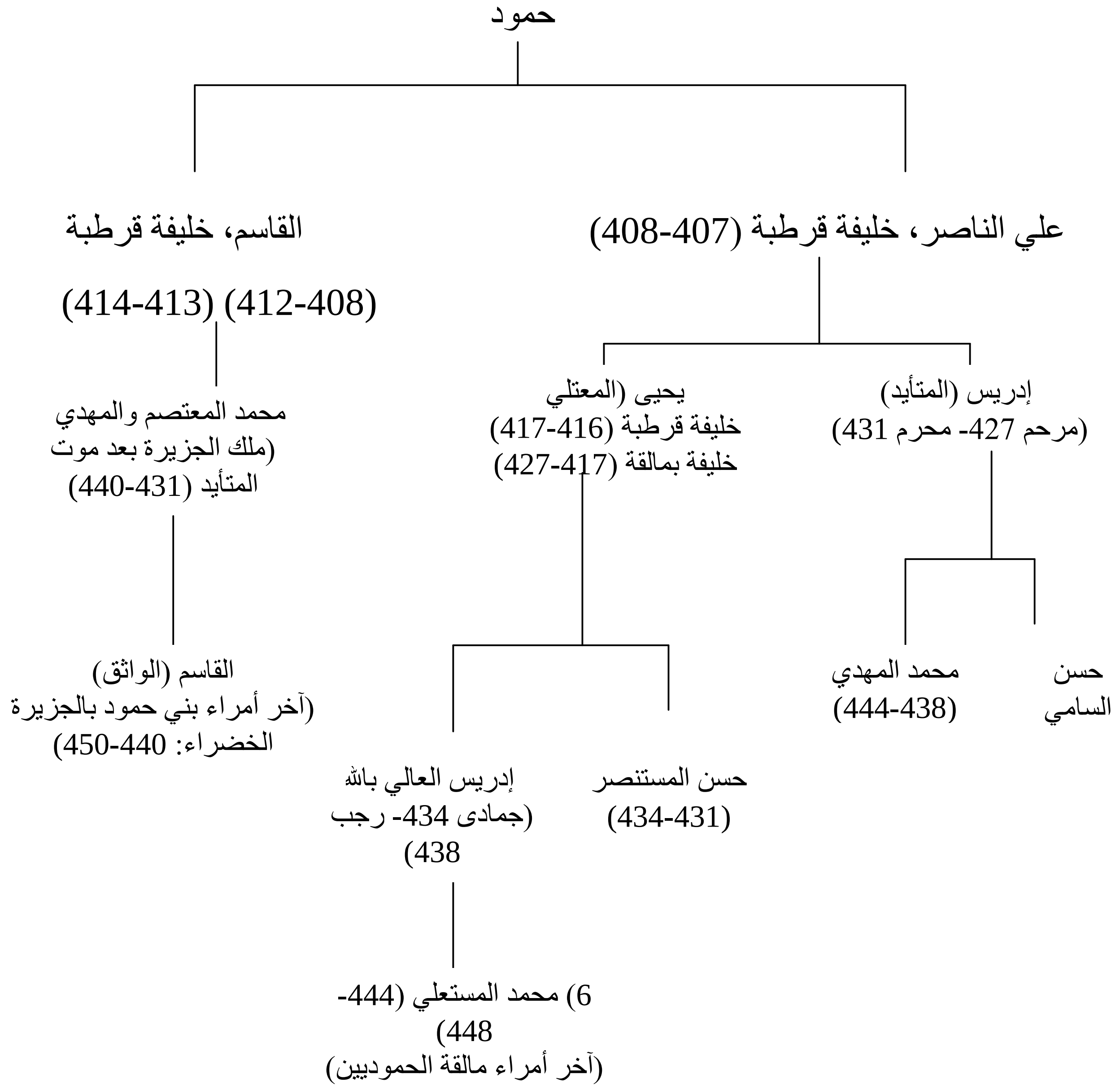
شجرة نسب بني زيري

ملوك غرناطة

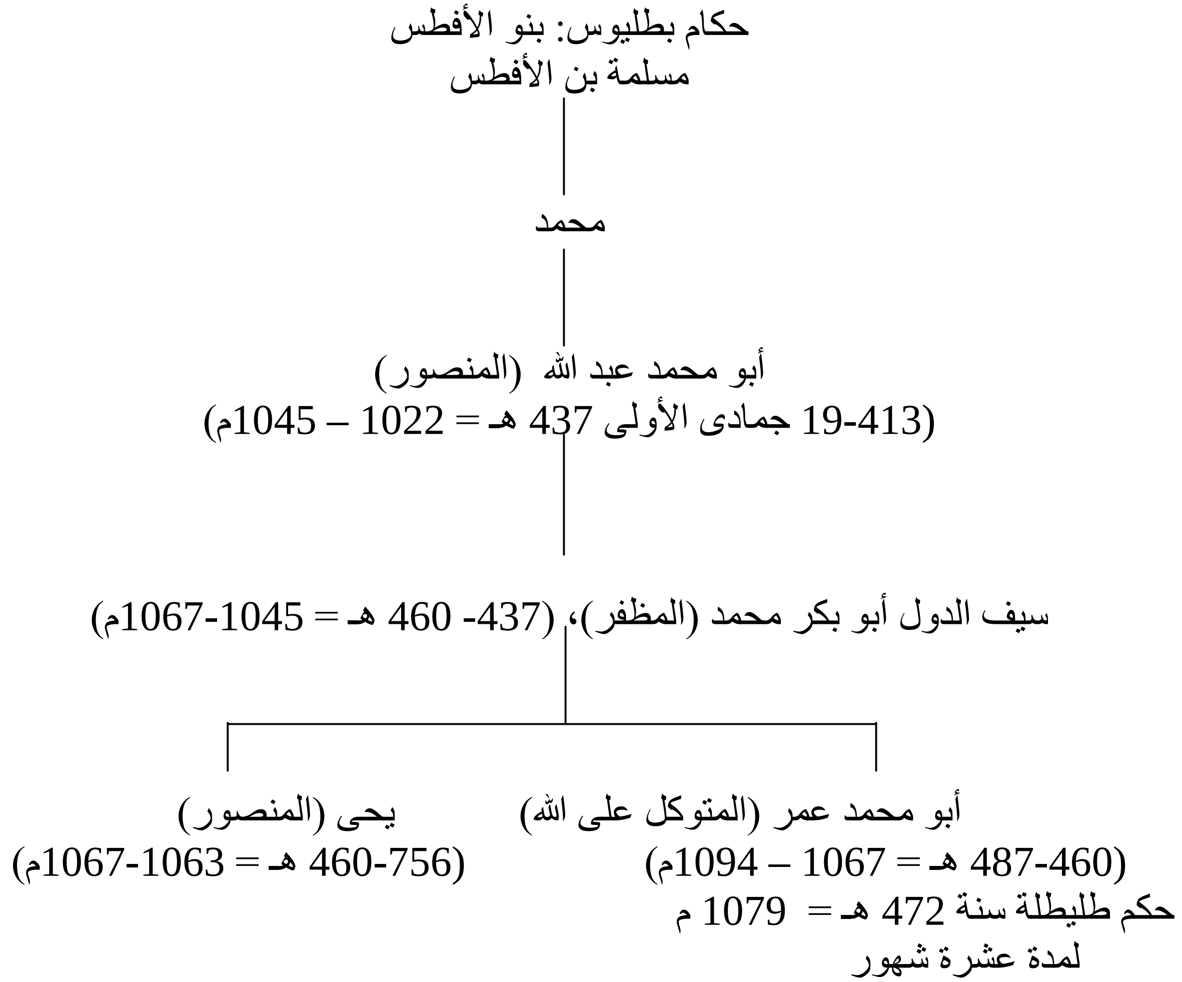


ملحق رقم (10)

بنو حمود ملوك مالقة والجزيرة

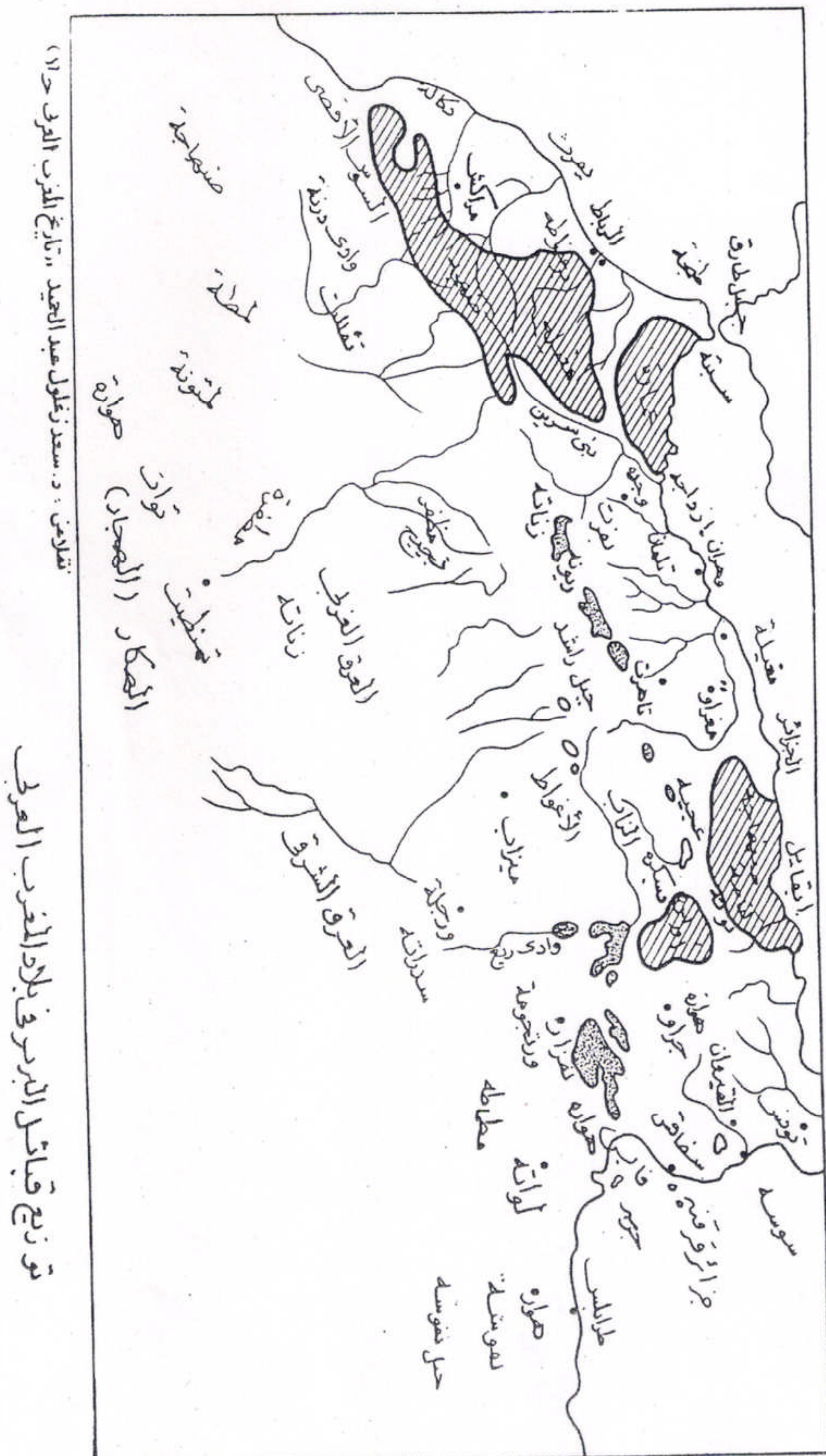


ملحق رقم (11)

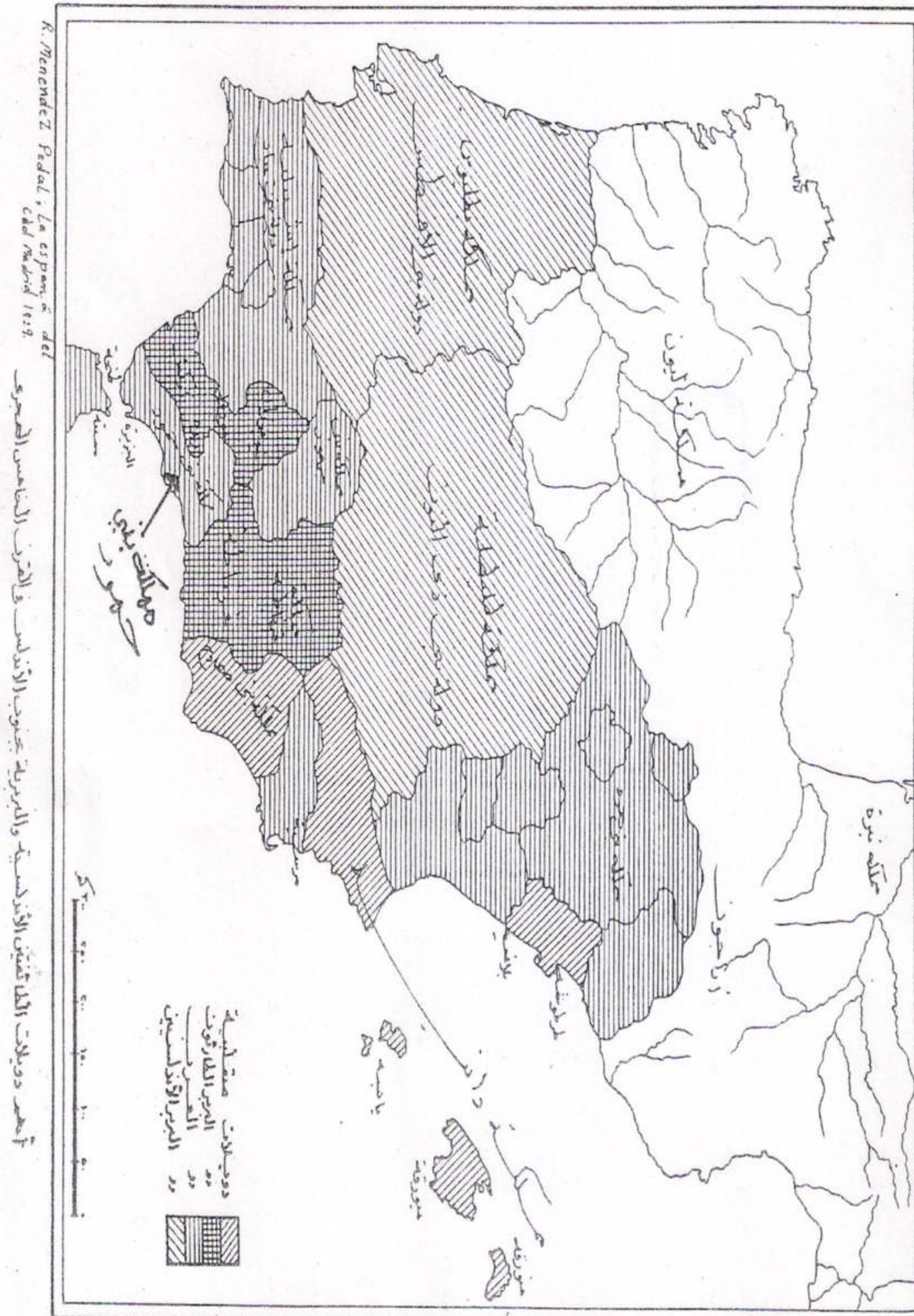


حكام بطليوس: بنو الأفطس
مسلمة بن الأفطس
محمد
أبو محمد عبد الله (المنصور)
(413-19 جمادى الأولى 437 هـ = 1022 – 1045م)
سيف الدول أبو بكر محمد (المظفر)، (437- 460 هـ = 1045-1067م)
أبو محمد عمر (المتوكل على الله)
(460-487 هـ = 1067 – 1094م)
حكم طليطلة سنة 472 هـ = 1079 م
لمدة عشرة شهور
يحى (المنصور)
(756-460 هـ = 1063-1067م)

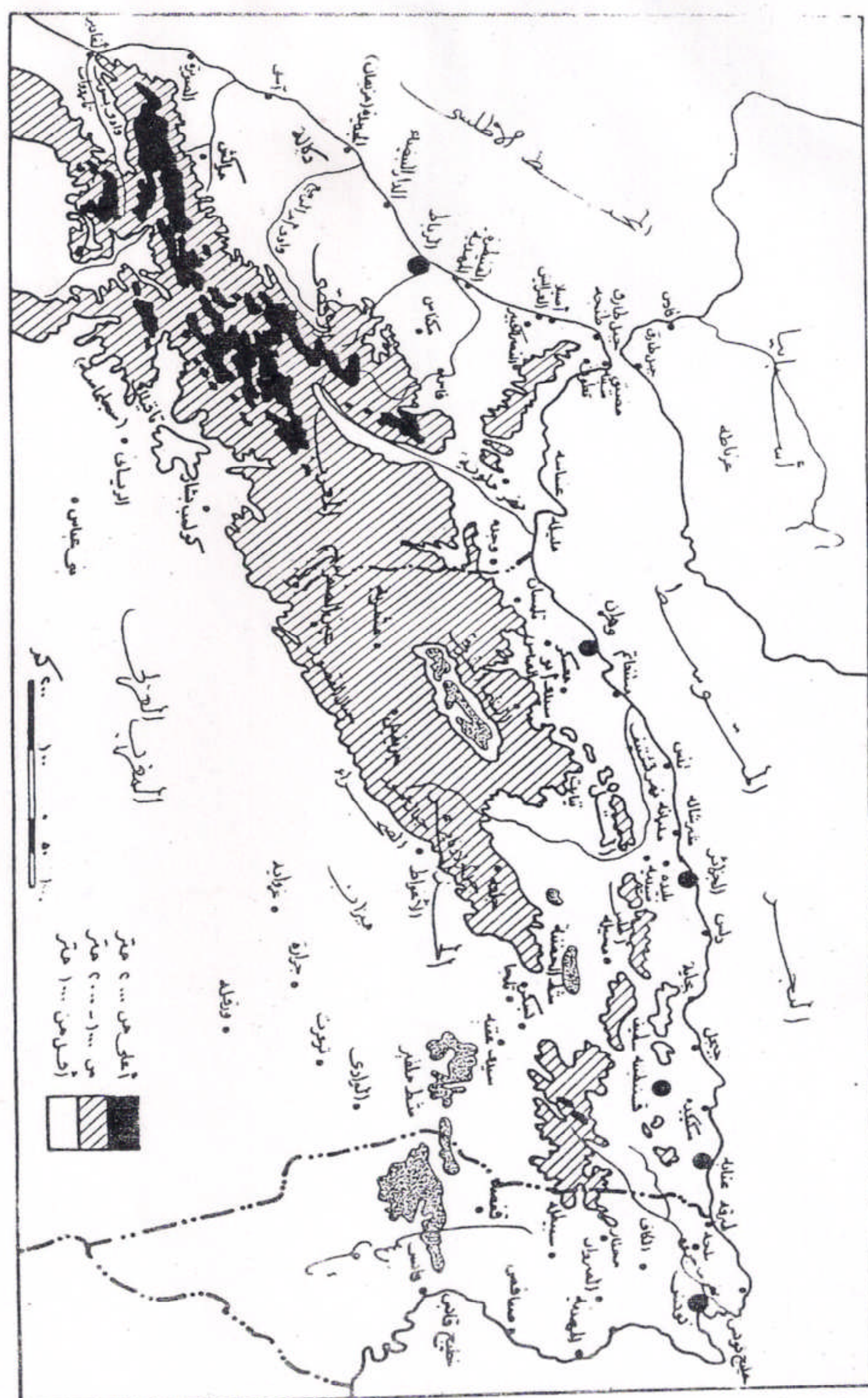
ملحق رقم (12)


توزيع قبائل البربر في بلاد المغرب العربي
نقلا عن: د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ج1
سوسة
طرابلس
تونس
القيروان
الجزائر
سبتة
طنجة
تلمسان
وادي ريغ
ورجلة
العرق الشرقي
العرق الغربي

ملحق رقم (13)

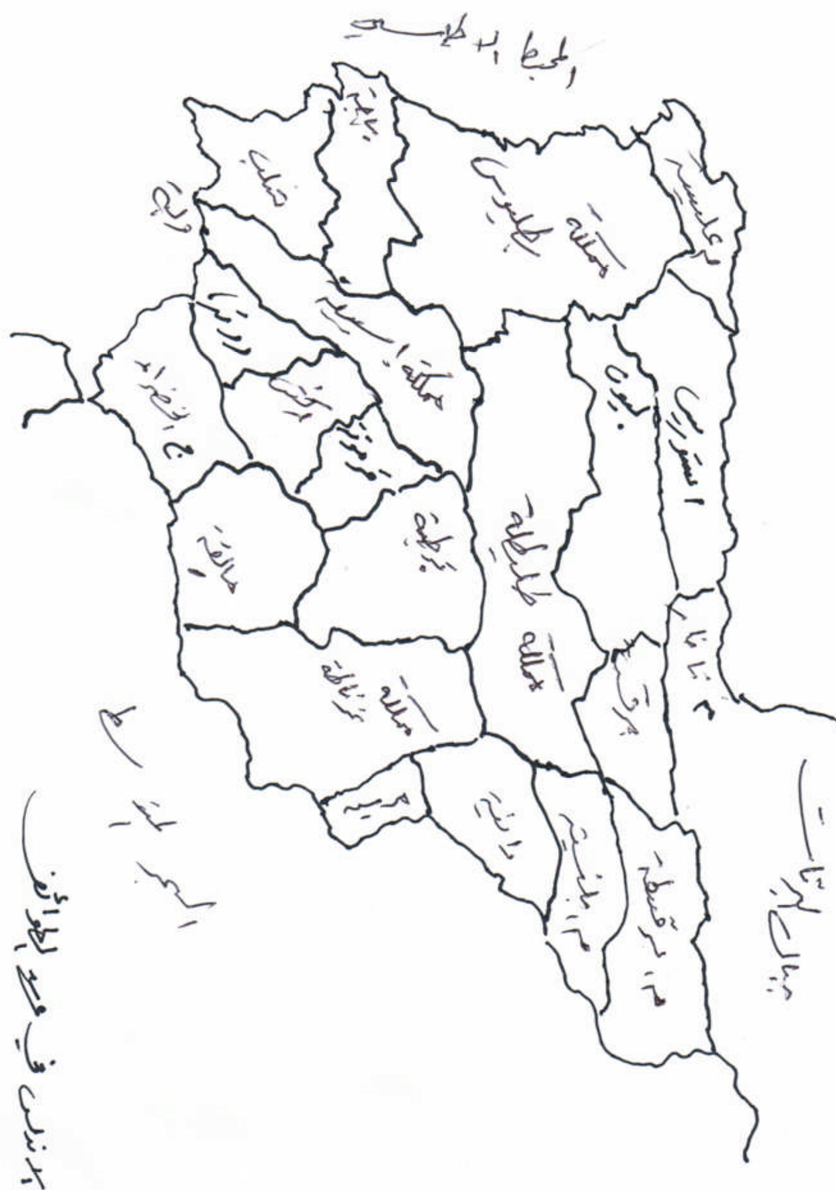


ملحق رقم (14)



نقلاً عن : د. أحمد مختار العبادي - في التاريخ العباسي والأندلسي

ملحق رقم (15)



قائمة المصادر والمراجع

المصادر

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1) ابن الأبّار أبو عبد الله، الحلة السيراء، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 2008

2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي بيروت.

3) ابن الأحمر إسماعيل، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ط 1411-1991.

4) ـــــــ بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972

5) الإدريسي أبو عبد الله، نزهة لمشتاق في اختراق الآفاق عالم الكتب، بيروت لبنان، 1409هـ 1989.

6) الأمير عبد الله الزيري، كتاب التبيان تحقيق أمين توفيق الطيبي منشورات عكاظ الرباط 2011.

7) ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق سالم مصطفة البدري، دار الكتب العلمية بيروت 1419-1998.

8) ابن بشكوال أبو القاسم، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت 1423.

9) البغدادي عبد القادر، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيي الدين بيروت 1403-1983.

10) ـــــــ خزانة الأدب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي القاهرة 1406-1986.

11) أبو بكر بن العربي، كتاب شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان تحقيق محمد يعلن، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية.

12) التيجاني أبو محمد عبد الله، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب الدار العربية للكتاب 1981.
13) ابن حزم أبو محمد، جمهرة أنساب العرب تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية.
14) ــــــ طوق الحمامة بين الألفة والألاف، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار الهلال، الرياض 1914.
15) الحميدي أبو عبد الله، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس بيروت 1425، 2004.
16) الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت 1975.
17) ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية ط، صيدا بيروت 1426، 2006م.
18) ــــــ المقتبس، الجزء الخامس، ب شدلمتيا، المعهد الإسباني العرب للثقافة مدريد 1979.
19) ابن خاقان الفتح، قلائد العقبان في مجالس الأعيان – تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الأردن 1409-1989.
20) ــــــ كتاب تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس، المعروف مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق مديحة الشرقاوي مكتبة الثقافة الدينية ط 2، 2001.
21) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان بيروت.
22) ــــــ اللمحة البدرية في الدولة النصرية تحقيق محب الدين الخطيب المطبعة السلطانية القاهرة 1347.
23) ــــــ تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

24) ـــــــ كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية 1423-2002.
25) ـــــــ أعمال الأعلام فبمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بوفسنال دار المكشوف بيروت ط1 1956
26) ـــــــ تاريخ المغرب في العصر الوسط، وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق، أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.
27) ابن خلدون عبد الرحمان، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا تحقيق محمد تاويت الطنجي، الجزائر 2007.
28) ـــــــ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية 2002-1424.
29) ابن دراج القصطلي، ديوان بن دراج، تحقيق محمد علي مكي، المكتب الإسلامي دمشق ط2 1389 هـ /1969.
30) الدرجيني أحمد بن سعيد، طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق إبراهيم طلاي مطبعة البعث، قسطنطينة.
31) ابن أبي دينار، المؤسس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد هشام، المكتبة العتيقة تونس ط3، 1387
32) الراشدي، أحمد بن عبد الرحمان، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي الجزائر، 1991.
33) ابن أبي زرع الفاسي، الأندلس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ط2 المطبعة الملكية الرباط 1420-1990.

34) زكريا أبو الحسين، مجمل اللغة، دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة، بيروت 1404-1984.

35) زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984.

36) الزهري محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حتج صادق، مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد دت.

37) سعيد الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل المنصور دار الكتب العلمية بيروت 1413-1998.

38) السماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوابة دار الكتب العلمية.

39) الشماخي أبو العباس، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط1-2009

40) الشهرستاني أبو الفتح ، الملل والنحل، تحقيق أبو محمد فريد المكتبة التوقيفية، القاهرة 2005.

41) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان دار الطليعة بيروت ط1- 1985.

42) صالح بن عبد الحليم الإبلاني، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق ط 3، 2008.

43) ابن الصغير أخبار الأئمة الرسمتيين، تحقيق محمد الناصر وإبراهيم ** دار الغرب الإسلامي بيروت 1406-1986.

44) الصفدي خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، نشر هلموت وبنز دار النشر فراس شتاين فيسبان.

45) الصفدي صلاح الدين، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز ستيليز 1411-1991.

46) الضبي أبو جعفر، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت.

47) عبد الحكم عبد الرحمان، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق عبد الله أنيس، الطباع مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت، 1964.

48) عبد الله محمد جمال، من نصوص كتاب المتبين للمؤرخ الكبير أبي مروان ابن حيان، مدريد 1977.

49) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج من كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية ط1- 2009.

50) العذري أحمد بن عمر، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني مطبعة معهد الدراسات الإسلامية مدريد 1965.

51) ابن العربي، شواهد الجلة، تحقيق محمد يعلن، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996.

52) علي الجزنائي، جنى زهرة آلاس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1429هـ 2008.

53) ابن غالب، قطعة من كتاب فرحة الأنفس، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية 1375-1955.

54) ابن الفرض أبو الوليد، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، 2006.

55) القلقشندي أبو العباس ، صبح الأعشى، تحقيق فوزي محمد أمين الهيئة العامة بقصور الثقافة 2004.

56) ـــــــ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصري ط2، 1402-1982.

57) ابن القوطية أبو بكر، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب المصري القاهرة 1980

58) ـــــــ تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989.

59) ابن كثير عماد الدين، البداية والنهاية، تحقيق ومراجعة محمد تامر، شريف محمد عبد العظم محمد سعيد محمد، دار البيان العربي، مصر.

60) الكردبوس التوزري، تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد 1971.

61) مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.

62) مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية دار الكتب العلمية 1428، 2007

63) مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية مؤسسة البلاغ للنشر والتوزيع.

64) المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار، صادر. 1388، 1968.

65) المقريزي تقي الدين، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية، بيروت 1422 هـ-2001.

66) الناصري السلاوي أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، اعتنى به محمد عثمان، دار الكتب العلمية 1428- 2007.

67) النباهي المالقي، تاريخ قضاة الأندلس وهو كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتياء تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة المصرية، -بيروت 1429 هـ -2006.

المصادر الجغرافية:

68) الإدريسي أبو عبد الله الشريف، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية 1483-1983.

69) ـــــــ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب بيروت 1409 هـ 1989.

70) الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق حماه الله ولد السالم دار الكتب العلمية 2014.

71) أمين واصف بك، معجم الخريطة، تحقيق أحمد ذكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية

72) البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية بيروت 2003-1414

73) الحميري عبد المنعم الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس

74) ابن حوقل أبو القاسم، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1992

75) العذري أحمد بن عمر، ترجيع الأخبار وتنويع الآثار تحقيق عبد العزيز الأهواني مطبعة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، 1965.

76) القزويني زكريا محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت

77) ليون الإفريقي الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حمي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ط2- 1983.

78) المقدسي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم تحقيق مخزوم دار إحياء التراث العربي بيروت 1987.

79) المقدسي شمس الدين، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد أمين الضناوي دار الكتب العلمية 1424-2003.

المعاجم اللغوية:

80) أحمد مختار عمر معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب 2008م، ج1، ص 192.

81) زكريا أبو الحسن، مجمل اللغة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة بيروت 1404/1984.

82) الزمخشري ابن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت ط1 1412 هـ /1992.
83) المعجم الوسيط مجوع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية ح م ع ط 1425-2004.
84) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر محمد علي النجار دار الدعوة استنبول 1989.
85) ابن منظور أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر بيروت.

المراجع:

86) إبراهيم بيضون الدولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة 91-422 هـ /711-1031 دار النهضة العربية بيروت 1406-1986.
87) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة بيروت 1960
88) ــــــ تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين دار الشروق 1997.
89) أحمد العزاوي، عصر الطوائف في الأندلس من خلال رسائل ديوانية، القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، دراسة وتحقيق مطابع الرباط 1432-2013.
90) أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت، 1979.
91) أحمد بن عبود، مباحث في تاريخ الأندلس ومصادره، منشور عكاظ المغرب.
92) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية بيروت 1988.
93) ــــــ في تاريخ المغرب والأندلس مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية.
94) إسماعيل العربي، دولة بني زيري ملوك غرناطة ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982.
95) انخيل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة دار الثقافة الدينية د ت.
96) بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي المدار الإسلامي بيروت 2003.

97) جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الحارجية، دار الفكر العربي، بيروت 1994

98) حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد 2005.

99) ــــــ فجر الأندلس، دار الرشاد، القاهرة ط9.

100) حسين يوسف دويدار المجتمع الأندلسي في العصر الأموي 138 هـ 422 مطبعة الحسين الإسلامية القاهرة ط1، 1999.

101) خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا نهاية الخلافة في الأندلس منشورات الجمل بيروت 2011.

102) خالد يونس عبد العزيز الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس 92-1492-711/897 مطبعة دار الأرقم غزة.

103) دوزي رينهارت، تاريخ مسملي إسبانيا، ترجمة حسين حبشي دار المعارف، القاهرة 1963.

104) ــــــ ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كمال كيلالي ط1 2012.

105) ديوان المثنى المكتبة الثقافية.

106) الذهبي شمس الدين، سيرأسهم النبلاء، تحقيق شعيب الأر محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة.

107) رضوان البارودي، دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 2007.

108) الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان مطبعة النجاح الجديدة 2000.

109) سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود الجزائر 1993

110) سنوسي يوسف إبراهيم

111) السيد عبد العزيز سالم في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة 1985.

112) ـــــــ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس دار النهضة ا العربية 1408 هـ 1988م.

113) ـــــــ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1971.

114) سيف الدين الكاتب، الحاجب المنصور، مؤسسة عز الدين بيروت 1403- 1982

115) شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريف محمد مزالي، والبشير بن سلامة الدار التونسية للنشر، تونس 1983.

116) شريفة محمد عمر دحماني، العلاقات السياسية بين الطائفتين الأندلسية والبربرية في جنوب الأندلس في عصر الطوائف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2005.

117) الصديق بن العربي كتاب المغرب الإسلامي – 1984.

118) صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري دار الثقافة بيروت

119) العبادي أحمد مختار، صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف ط1، 2000.

120) ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها تحقيق عبد الله أنس الدباغ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1964.

121) عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية 1995.

122) عبد العزيز الشهبي، تاريخ المغرب الإسلامي، كنوز الحكمة، الجزائر 2013.

123) عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب دار هومه.

124) عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري 92-422هـ/ 711 هـ 1031 دار الكتب العلمية بيروت ط1.

125) عبد الله محمد جمال الدين، من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي الكبير ابن مروان ابن حيان مدريد 1977.
126) عبد المجيد كمال، الفكر الأندلسي بين الطموح والانتكاسة.
127) عبد المنعم الهاشمي، الخلافة الأندلسية، دار ابن حزم.
128) عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، المدار الإسلامي، ط1 بيروت 2004.
129) عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية 1388-1962.
130) عبد الوهاب خليل الدباغ، الفتنة الأندلسية 399-422 هـ/1009-1035 ط1 2012
131) عثمان الكعاك، البربر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء
132) عمر بوخاري، الإمارات البربرية الصغرى في جنوب الأندلس وعلاقتهم بملوك الطوائف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كنور للنشر والتوزيع الجزائر 2012 صك 23.
133) فراد محمد أرزق، القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي- ديوان المطبوعات الجامعية.
134) فوزي عماد القبوري، فقهاء الأندلس والمشروع العامري 367-399-978-1009 دار كنوز للنشر والتوزيع السعودية 1431-2010.
135) قايد مولود، البربر عبر التاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة إبراهيم سعدي دار النشر ميموني.
136) كرد علي، عابر الأندلس وحاضرها، المطبعة الرحمانية مصر 1341، 1932
137) كمال السيد أبو مصطفى، مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، مؤسسة شباب الجامعة 1993.
138) لويس سيكودير لوتينا، الحموديون، سادة مالقة، والجزائر الخضراء ترجمة عدنان محمد آن طعمه دار سعدان الدين 1996.

139) ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلمي، دار النهضة للطباعة والنشر القاهرة.

140) ــــــ تاريخ إسبانية الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية 711-1031، ترجمة إيميليو جارثيا غومث وإلى العربية، علي عبد الرؤوف البمبي، علي إبراهيم منوفي، السيد عبد الظاهر عبد الله، مراجعة صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة 2000.

141) محمد الأمين ولد آن، تاريخ اليهود في الأندلس دار منال للنشر والتوزيع

142) محمد الطمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية.

143) محمد حقي، البربر في الأندلس، شركة النشر والتوزيع، المدارس الدار البيضاء ط1.

144) محمد دياب، تاريخ العرب في إسبانيا، مكتبة الثقافة الدينية 1421-2001.

145) محمد عبد الفتاح شرف الدين، تاريخ السيادة الإسلامية على الأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، مكتبة الأذان د ت .

146) محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر ميلادي الخامس هجري الدار التونسية للنشر.

147) محمد عبده حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية عمان 2000.

148) محمود إسماعيل، الأدارسة 172 هـ 375م مكتبة مدبولي القاهرة 1991/1411.

149) محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة الدار البيضاء 1406-1985.

150) مريم قاسم الطويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، دار الكتب العلمية بيروت 1994.

151) مصطفى أبو ضيف أحمد، القبائل العربية في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية 91-422 هـ 710-1031.

152) موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة، الجزائر 2002.
153) الميلي مبارك، تاريخ الجائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائر 2004.
154) نجاح الطائي، سقوط الدول والحكومات دراسة في النموذج الأندلسي دار الحجة البيضاء، دار الرسول الأكرم، 2004/1425.
155) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي ط1 1992.
156) هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4 هـ 10 م مكتبة فضالة المحمدية 1415-1991.
157) هنري بريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر مكي دار المعارف القاهرة ط1 1408 هـ 1988.
158) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1359-1940.
159) يوليوس فلهوزن، الخوارج والشيعة ترجمة عبد الرحمان بدوي وكالة المطبوعات الكويت 1976.

الدوريات والمجلات:

160) David Wasserstein, Samuel Ib naghrila Ha hagid and Islamic Historiography in andalus, Al Qantara Revista de Estudios arabes, Vol XIV Madrid ,1993.

161) HADY Roger Idriss – les Birzadides de carmona Al – Andalus Kevista de las Escuclas de Estudios Arabes de Madrid y Granada 1965 volume XXX.

162) Rachel Arie Apercu sur les royaumes berbers d’Al Andalus au V/ XI siècle revista d’el instituto Egipeir de Estidios Islamicos en Madrid – vol X X III Madrid 1985.

163) ——— Apercu sur les royaumes Berberes d'al- Andalus Au V/ XI siècles Revista del Instito egipicio de Estudios Islamique en Madrid volumen XXIII Madrid

الرسائل الجامعية:

164) عبد الإله بن مليح، إفريقية الزيرية وعلاقتها السياسية والاقتصادية بدول جنوب حوض البحر المتوسط والأندلس 361-543 هـ/ 972-1148م رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت بكلية الأداب والعلوم الإنسانية جامعة مولاي بن عبد الله بفاس 1986-1987.

165) فيصل أبو الصوف العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانية النصرانية في عصر الطوائف القرن 5هـ 11 م رسالة ماجستر نوقشت بجامعة قسنطينة 2011.

166) بوشريط أمحمد، ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي 300-460هـ، أطروحة دكتوراه، معهد التاريخ، جامعة وهران، 1995.

167) خميسي بولعراس، الحياة الإجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، 400-479هـ/1009-1086م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007.

المراجع الأجنبية:

168) André clot- l'espagne musulmane VIII X X Siecle librerie Accademique perrain 1999.

169) Antonio pierto y vives, los reyes de taifos estudio historico.

170) Anwar cherjene – historia de Espana Musulmana SA Madrid 1980.

171) Ballestoros antonio historia de Espana y su influencia en la Historia universal berselone 1934-1950.

172) Billal J.J. Sarr Marocca, la Granda ZIRI (1013-1090 Anadisis de una taifa andalusi Editional de la universidad de Granada.

173) E.F. Gautier, le passé de l’Afrique du hord les payot paris 1937.

174) Encyclo pedie de l’Islam HARGIBB. J H. Kramers Levi provensal JSCHAcht Leiden Ejbrill. Paris.

175) Enrique sirdo, al – andalus puerta del paraíso cordoba- Sevilla- granada- librería editorial argos a Barcelona.

176) Gaid Mouloud, les berberes dans l’histoire en Espagne musulmane edimimouni alger 1988- Tome 14.

177) Georges Marcais, la Berberies Musulmanes et l’orient au moyen Age aubier Edition Montain pari.

178) Jacinto Bosch vila – los bereberes en al- andalus Imazhen delmagreb entre acciente y oriente. Introduction de los Berberes edi Rachid kaha Ahmed Grenada 1994.

179) Jean Claude Garcin et autre Etats societés et cultures du monde Musulman Medieval XXV siècle presse universitaires de France.

180) Jisiane LAHLOU, les Zirides fondateurs d’alger et de Grenada éditions dalmen.

181) Jorge lirola delgado – el poder Haral de Al- andalus en la espac del Califato omeya universidad de Grenda.

182) Kanza Hamam Loudlyl et Abdellah el Ghazouani – Al- Andalus – Ombre et Lumiere Afrique Orient 2009 CasaBlanca.

183) Luis G valdea vellano- Histoire de Espana Manules de la revista accidente Berbera de bregehes 12 Madrid.

184) Luis SUAREZ Fernandez – Historia de espana Edad MEDIA Editorial Gredos MADRID.

185) Marbel fierre, Ibn Hazm et le Zindik Juif in revue de l'accident Musulman n° 63-64 / 116 Année 1992.

186) Pascual Madoz hicciohario geografico de Espana y sus pasesiones de Ultramar.

187) Paul- luis Cambuzat. L'evolution des cités du telle en Ifrikya du VII au XI siecle offre des publication universitaires 1986, Tome

188) Pedro AGuvdo Beleye- Manuel de Historia de Espasa Calpe S.A.

189) Pierre Guichard Al- Andalus 711-1492 hachette litterature.

190) Pierre Guichard. Structures sociales et accidentales et orientales dans l'espagne Musulmane Monton Paris lattaye 1977 page 137.

191) Ron, Barkai chrectiens- musulmans et juifs dans l'Espagne medievale editions du cerf Paris 1994.

192) Rubartayr/ Reverter Gaceta nuismatice Bercelona 1992.

193) Xavier BALLESTIN navarro, Al- Mansur y la dawla amiriya una dinàmica de poder y legitimidad en el accidente musulman Medieval éditions universdad de Barcelona.

فهرسة الموضوعات

الفهرسة

ملخص:

تعالج هذه الدراسة الأحداث الواقعة في القرن الخامس الهجري التي بدأت بإنكسار شوكة الخلافة الاموية في الاندلس، مما فسح المجال لظهور دويلات صغيرة، إنزوت في رقع جغرافية ، كانت أبرزها الامارات البربرية ، منها بنو زيري في غرناطة ، وبنو حمود في قرطبة ومالقة ، وبنو ذي النون في طليطلة ، وبنو الافطس في بطليوس ، والامارات البربرية في الجنوب . ليحتدم الصراع بينها وبين الطوائف الاندلسية، الذي إنتهى بزوال معظم الامارات البربرية ليقضي ما بقي منها على يد المرابطين.

الكلمات المفتاحية: الأندلس – البربر – الطوائف – الامارات

Resumer :

La présente recherche a pour contexte les évènements qui ont marque le 5éme siècle de l'hégir par la degradation de la puissance du califat omeyyade Al-Andalus qui donne lieu, à l'émergence des petits États qui vivaient un atmosphere conflictuel tenant compte a la geographie de la zone : Banu Ziri à Granada, et bani Hamoud à Cordoue et Málaga, et les bani dhenoun à Tolède, et Banu aftas à Bagados, et les Emirates des berbères du Sud. le conflit a pris rage entre ces emirates et la communaute andalus qui se finissaient par leur epuration d autres ont fini par le meme sort par les Almoravides.

LES MOTS CLES: Al-andalus - Berbères - taïfa - Emirates

Abstract:

The present research deals with event during the 5th century Hijri when the power of Umayyad Caliphate in Al-Andalus was deteriorated, giving way to the emergence of small States within the sphere, relegated in geographical patches , the Berber principality was the most notably, including the Berber Banu Ziri in Granada, and Banu Hamoud in Córdoba and Málaga, and the Banu danun in Toledo, and Banu Hexanchus griseus in Bagadoz, and Berber Emirates of the South. For conflict rages between Andalusian and berber emirates ended the conflict with the demise of the most barbaric and one Emirates ruled by the Almoravids.

Key Words : Andalus – berbers - Emirates - Taifa

Sumario:

La ditcha investigación trata los acontecimientos vividos Al principio del quinto siglo hejira)- se ha destruido la grandeza del califato omeya- en Al- Ándalus- con la aparición de pequeños reinos que se han encerrado en zonas geográficas muy reducidos, entre ellos los emiratos bereberes mas importantes tal como- BANI ZiRI en Granada – BANU HAMOUD en Córdoba Y malaga,y BANU DANUN en TOLEDO- Y, BANI DE AFTAS en BATLIUS ademas de los pequenios emiratos berebes del sur. El conflicto se ha en cendido entre estos emiratos y la comunidad Andalusi que se acabo por la erradicación casi total de los emiratos bereberes.el resto de los emiratos vivieron el mismo sorteo por lo Almorávides.

Palabras Clave: Andalusi - Berberes - Emiratos - taïfs